الرسالة الأولى

رسالة في الصفات الاختيارية



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، نستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادى له . ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وآله وسلم تسليما] (١) .

ظ ٧٢ / (٢ قال شيخ الإسلام أبو العباس تقى الدين بن تيمية ، قدّس الله روحه ، ونوّر ضريحه ٢) .

فصل

فى الصفات الاختيارية : وهى الأمور التى يتصف بها الرب عز وجل (٣) ، فتقوم بذاته بمشيئته وقدرته : مثل كلامه ، وسمعه ، وبصره ، وإرادته ، ومحبته ، ورضاه ، ورحمته ، وغضبه ، وسخطه . ومثل خلقه وإحسانه ، وعدله . ومثل استوائه ، ومجيئه ، وإتيانه ، ونزوله ، ونحو ذلك من الصفات التى نطق بها الكتاب العزيز (٤) ، والسنّة .

مقالة الجهمية والمعتزلة

فالجهمية (٥) ، ومن وافقهم من المعتزلة وغيرهم ، يقولون : لا يقوم بذاته شىء من هذه الصفات ، ولا غيرها .

---

(١) ما بين المعقوفتين زيادة فى (ز) = مخطوطة ليبزيج .

(٢ - ٢) : ساقطة من (ز) .

(٣) عز وجل : ليست فى (ز) .

(٤) العزيز : ساقطة من (ز) .

(٥) سبق الكلام على جهم بن صفوان وفرقته الجهمية فيما مضى ١٦/١ (ت ١) .

مقالة الكلابية والسالمية

والكُلاَّبية [١] ، ومن وافقهم من السّالمية [٢] وغيرهم ، يقولون : تقوم [به] [٣] صفات بغير مشيئته وقدرته ، فأما ما يكون بمشيئته وقدرته ، فلا يكون إلا مخلوقا منفصلاً عنه [لا يقوم بذات الرب] [٤] .

مقالة السلف وأهل السنة

وأما السلف وأئمة السنّة والحديث فيقولون [٥] : إنه متصف [٦] بذلك ، كما نطق به الكتاب والسنة ، وهو قول كثير من أهل الكلام والفلسفة — أو أكثرهم — كما [قد] [٧] ذكرنا أقوالهم بألفاظها فى غير هذا الموضع .

صفة الكلام

ومثل هذا « الكلام » فإن السلف وأئمة السنّة والحديث يقولون : [إنه] [٨] يتكلم بمشيئته وقدرته ، وكلامه ليس بمخلوق ، بل كلامه صفة له قائمة بذاته .

وممن ذكر أن ذلك قول أئمة السنّة : أبو عبد الله بن منده ، وأبو عبد الله ابن حامد ، وأبو بكر عبد العزيز ، وأبو إسماعيل الأنصارى وغيرهم . وكذلك ذكر أبو عمر بن عبد البر نظير هذا فى الاستواء .

وأئمة السنة : كعبد الله بن المبارك ، وأحمد بن حنبل ، والبخارى ، وعثمان ابن سعيد الدارمى ، ومن لا يُحصى من الأئمة — وذكره حرب بن إسماعيل الكرمانى ، عن سعيد بن منصور ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن إبراهيم ، وسائر

---

(١) سبق الكلام على الكُلاَّبية وابن كُلاَّب فيما مضى ١٥٩/١ (ت ٢) .

(٢) سبق الكلام على السالمية أتباع محمد بن أحمد بن سالم وابنه أحمد بن محمد بن سالم فيما مضى ١٨١/١ (ت ٤) .

(٣) به : ساقطة من (ك) = مخطوطة الكواكب الدرارى .

(٤) ما بين المعقوفتين ساقط من (ك) ، (ض) ، وأثبته من (ز) .

(٥) ك : يقولون . والمثبت من (ز) ، (ض) = طبعة فتاوى الرياض ٢١٧/٦ — ٢٦٧

(٦) ز : يتصف .

(٧) قد : زيادة فى (ز) .

(٨) إنه : زيادة فى (ز) .

أهل السنة والحديث – متفقون على أنه يتكلم بمشيئته ، وأنه لم يزل متكلما إذا شاء وكيف شاء .

وقد سمّى الله القرآن حديثا ، وقال (١) : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ [سورة الزمر : ٢٣] ، وقال : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً ﴾ [سورة النساء : ٨٧] ، وقال : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ [سورة الأنبياء : ٢] .

وقال النبى ﷺ : « إن الله يُحْدِث من أمره ما يشاء » (٢) . وهذا مما احتج به البخارى فى صحيحه ، وفى غير صحيحه (٣) ، واحتج به [أيضا] (٤) غير البخارى كنعيم بن حماد ، وحمّاد بن زيد .

ومن المشهور عن ا لسلف : أن القرآن العزيز (٥) : كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود .

مقالة الجهمية والمعتزلة فى صفة الكلام

وأما الجهمية والمعتزلة فيقولون : ليس له كلام قائم بذاته ، بل كلامه مخلوق منفصل عنه (٦) . والمعتزلة يطلقون القول : بأنه يتكلم بمشيئته . ولكن (٧) مرادهم بذلك أنه يخلق كلاماً منفصلاً عنه .

---

(١) ض (فقط) : فقال .

(٢) ز : من شاء ، وهو تحريف .

(٣) الحديث عن ابن مسعود رضى الله عنه مع اختلاف فى اللفظ فى : البخارى ١٥٢/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : كل يوم هو فى شأن) ؛ سنن النسائى ١٦/٣ – ١٧ (كتاب السهو ، باب الكلام فى الصلاة) ؛ المسند (ط . المعارف) ٢٠٠/٥ (رقم ٣٥٧٥) ، ٣٣٩/٥ – ٣٤٠ (رقم ٣٨٨٥) ، ٢١/٦ (رقم ٣٩٤٤) ، ٩١/٦ (رقم ٤١٤٥) . وتمام الحديث : – وإن مما أحدث أن لا تكلّموا فى الصلاة .

(٤) أيضا : زيادة فى (ز) .

(٥) العزيز : ساقطة من (ز) .

(٦) ك ، ض : كلامه منفصل عنه مخلوق عنه . والمثبت من (ز) .

(٧) ز : لكن .

مقالة الكلابية والسالمية فيها

والكُلاَّبية والسالمية يقولون : إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، بل كلامه قائم بذاته بدون قدرته ومشيئته ، مثل حياته . وهم يقولون : الكلام صفة ذاتٍ ، لا صفة فعلٍ [١] يتعلق بمشيئته وقدرته . وأولئك [٢] يقولون : هو صفة فعلٍ ، لكن الفعل عندهم هو المفعول المخلوق بمشيئته وقدرته .

وأما السلف وأئمة السنة ، وكثير من أهل الكلام : كالهشامية [٣] ، والكرَّامية [٤] ، وأصحاب أبى معاذ التُّوْمَنِى [٥] ، وزهير الأثرى [٦] ، وطوائف غير هؤلاء فيقولون [٧] : إنه صفة ذاتٍ وفعلٍ : هو يتكلم بمشيئته وقدرته كلاما

---

(١) ز : ليس صفة فعل .

(٢) ك (فقط) : أولئك .

(٣) الهشامية هم أتباع هشام بن الحكم الرافضى من الإمامية ، وتنسب إليه وإلى هشام بن سالم الجواليقى أحيانا من الإمامية المشبهة . انظر عن هذه الفرقة : المقالات ١٠٢/١ - ١٠٥ ؛ الملل والنحل ١٦٤/١ - ١٦٦ ؛ التبصير فى الدين ، ص ٢٣ - ٢٤ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ١٩ ، ٣٤ ، ٤١ - ٤٣ ، ٦٧ ، ١٣٩ ؛ تكملة الفهرست لابن النديم ، ص ٧ ؛ الفهرست (ط . فلوجل) ، ص ١٧٥ - ١٧٧ ؛ فهرست الطوسى ، ص ١٧٤ - ١٧٦ ؛ أخبار الرجال للكشى ، ص ١٦٥ - ١٨١ .

(٤) سبق الكلام عليهم وعلى ابن كرام فيما مضى ١٦١/١ (ت ١) .

(٥) أبو معاذ التومنى من أئمة المرجئة ، ورأس فرقة التومنية منها . لم أتمكن من معرفة تاريخ وفاته . انظر فى ترجمته ومذهبه : المقالات للأشعرى ٢٠٤/١ ، ٣٢٦ ، ٢٣٢/٢ ؛ الملل والنحل ١٢٨/١ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ١٢٣ - ١٢٤ ؛ اللباب فى تهذيب الأنساب لابن الأثير (ط . القدسى ، ١٣٥٧) ١٨٧/١ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، مادة : تومن .

(٦) ك ، ض : وزهير اليامى ؛ ز : وزهير البابى . ورجحت أن يكون الصواب ما أثبته ، وابن تيمية يقرن بينه وبين أبى معاذ التومنى . انظر مثلا : درء تعارض العقل والنقل ١٩/٢ ، ١٧٤ ، ٢٥٧ ، ٣٣٣ - ٣٣٤ . ولم أعرف من هو زهير الأثرى ، ولكن الأشعرى يتكلم على آرائه بالتفصيل فى المقالات ٣٢٦/١ . ونقل ابن تيمية فى درء ٣٣٢/٢ ، ٢٣٤ عن المقالات رأى كل من أبى معاذ التومنى وزهير الأثرى فى القرآن : « وذكر عن زهير الأثرى أنه كان يقول : إن الله ليس بجسم ولا محدود ... ويزعم أن القرآن كلام الله محدث غير مخلوق ... وكان أبو معاذ التومنى يوافق زهيرا فى أكثر قوله ويخالفه فى القرآن ، ويزعم أن كلام الله : حدث غير محدث ولا مخلوق ، وهو قائم بالله لا فى مكان » (انظر المقالات ٣٢٦/١ وانظر أيضا ٢٣٢/٢) .

(٧) ض (فقط) : يقولون .

قائما بذاته . وهذا هو المعقول من صفة الكلام لكل متكلم ، فكل حيّ [١] وُصف بالكلام : كالملائكة ، والبشر ، والجن وغيرهم : فكلامهم لابد أن يقوم / بأنفسهم ، وهم يتكلمون بمشيئتهم وقدرتهم . ص ٧٣

والكلام صفة كمال ، لا صفة نقص ، ومن تكلم بمشيئته أكمل ممن لا يتكلم بمشيئته ، فكيف يتصف المخلوق بصفات الكمال دون الخالق ؟!

ولكن الجهمية والمعتزلة بنوا على أصلهم من أن الرب لا يقوم به صفة ، لأن ذلك – بزعمهم – يستلزم التجسيم والتشبيه الممتنع ، إذ الصفة عرض ، والعرض لا يقوم إلا بجسم .

والكُلاَّبية يقولون : هو متصف بالصفات التى ليس له عليها قدره ، ولا تكون بمشيئته . فأما ما يكون بمشيئته فإنه حادث ، والرب تعالى [٢] لا تقوم به الحوادث . ويترجمون [٣] الصفات الاختيارية بمسألة حلول الحوادث ؛ فإنه إذا كَلَّمَ موسى بن عمران بمشيئته وقدرته ، وناداه حين أتاه بقدرته ومشيئته ، كان ذلك النداء والكلام حادثا .

قالوا : فلو اتصف الرب [٤] به لقامت به الحوادث . قالوا : ولو قامت به الحوادث لم يخل منها ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث . قالوا : ولأن كونه قابلا لتلك الصفة إن كان [٥] من لوازم ذاته كان قابلا لها فى الأزل ، فيلزم جواز وجودها فى الأزل ، والحوادث لا تكون فى الأزل ، فإن ذلك يقتضى وجود حوادث لا أول لها ، وذلك محال لوجوه قد ذكرت فى غير هذا الموضع .

---

(١) ز : وكل حيّ ؛ ض : فكل من . والمثبت من (ك) .
(٢) تعالى : ليست فى (ز) .
(٣) ك : ويزحمون ؛ ز : ويترحمون ؛ ض : ويسمون . ولعل الصواب ما أثبته .
(٤) الرب : ساقطة من (ز) .
(٥) إن كان : كذا فى (ك) ، (ز) . وفى (ض) : إن كانت .

قالوا : وبذلك استدللنا على حدوث الأجسام ، وبه عرفنا حدوث العالم ، وبذلك أثبتنا وجود الصانع وصدق رسله ، فلو قدحنا فى ذلك [(١)] لزم القدح فى أصول الإيمان والتوحيد .

وإن لم يكن من لوازم ذاته صار قابلا لها بعد أن لم يكن قابلا ، فيكون قابلا لتلك القابلية [(٢)] ، فيلزم التسلسل الممتنع ، وقد بسطنا القول على عامة ما ذكروه فى هذا الباب وبيّنا فساده وتناقضه على وجهٍ لا تبقى فيه شبهة لمن فهم هذا الباب .

مقالة الرازى

وفضلاؤهم [(٣)] المتأخرون ، كالرازى والآمدى والطوسى [(٤)] والحلّى [(٥)] وغيرهم ، معترفون بأنه ليس لهم حجة عقلية على نفى ذلك ، بل ذكر الرازى وأتباعه أن هذا القول يلزم جميع الطوائف ، ونصره فى آخر كتبه « كالمطالب العالية » – وهو من أكبر كتبه الكلامية [وخالف بذلك قوله فى أجل ما صنّفه فى

---

(١) ك ، ض : تلك . والمثبت من (ز) .

(٢) ك ، ض : لتلك الصفة . والمثبت من (ز) .

(٣) ك : وفضلاهم وهم ؛ ض : وفضلاؤهم وهم . والمثبت من (ز) .

(٤) يقصد ابن تيمية بالطوسى هنا نصير الدين الطوسى . وهو أبو جعفر – أو أبو عبد الله – محمد ابن محمد الحسن نصير الدين الطوسى ، ويعرف بالمحقق و بالخواجة . ولد بطوس سنة ٥٩٧ وتوفى ببغداد سنة ٦٧٢ . انظر ترجمته فى : روضات الجنات ، ص ٥٧٨ – ٥٨٣ ؛ فوات الوفيات ٣٠٧/٢ – ٣١٢ ؛ شذرات الذهب ٣٣٩/٥ – ٣٤٠ ؛ البداية والنهاية ٢٦٧/١٣ – ٢٦٨ ؛ تاريخ ابن الوردى ٢٢٣/٢ ؛ الأعلام للزركلى ٢٥٧/٧ – ٢٥٨ .

(٥) يقصد ابن تيمية بالحلى ابن المطهر الحلى . وهو جمال الدين أبو منصور الحسن بن يوسف بن على بن المطهر الحلى ، المشهور عند الشيعة بالعلاّمة . ولد سنة ٦٤٨ وتوفى سنة ٧٢٦ . انظر ترجمته فى : روضات الجنات ، ص ١٧٢ ؛ تاريخ ابن الوردى ٢٧٩/٢ ؛ مرآة الجنان لليافعى ٢٧٦/٤ ؛ النجوم الزاهرة ٢٦٧/٩ ؛ البداية والنهاية ١٢٥/١٤ ؛ لسان الميزان ٣١٧/٢ – ٣١٨ ؛ الدرر الكامنة ٧١/٢ ؛ الأعلام للزركلى ٢٤٤/٢ . وانظر ما ذكرته عنه وعن نصير الدين الطوسى فى مقدمة الجزء الأول من كتاب « منهاج السنة » .

الكلام وهو كتابه][1] الذى[2] سماه « نهاية العقول فى دراية الأصول » ، ولما[3] عرف فساد قول النفاة لم يعتمد على ذلك فى مسألة القرآن ، فإن عمدتهم فى مسألة القرآن إذا قالوا : لم يتكلم بمشيئته وقدرته ، قالوا : لأن ذلك يستلزم حلول الحوادث ، فلما عرف فساد هذا الأصل لم يعتمد على ذلك فى مسألة القرآن ، فإن عمدتهم عليه ، بل استدل بإجماع مركّب ، وهو دليل ضعيف إلى الغاية[4] ، لكن[5] لم يكن عنده فى نصر قول الكُلاَّبية غيره ، وهذا مما يبين أنه وأمثاله تبين لهم[6] فساد قول الكلابية .

مقالة الآمدى

وكذلك الآمدى ذكر فى « أبكار الأفكار » ما يبطل قولهم ، وذكر أنه لا جواب عنه . وقد بسطت[7] هذه الأمور فى مواضع[8] ، وهذا معروف عند عامة العلماء[9] ، حتى الحلّى بن المطهر ذكر فى كتبه أن القول بنفى حلول الحوادث لا دليل عليه ، فالمنازع جاهل بالعقل والشرع .

مقالة الجوينى

وكذلك من قبل هؤلاء ، كأبى المعالى وذويه ، إنما عمدتهم أن الكرَّامية[10] قالوا ذلك وتناقضوا ، فيبينون تناقض الكرَّامية ، ويظنون أنهم إذا بيَّنوا تناقض

---

(1) ما بين المعقوفتين ليس فى كل النسخ وزدته ليستقيم الكلام ، لأن ابن تيمية تكلم أولا على « المطالب العالية » وهو الذى يذكر دائما أنه آخر ما ألفه الرازى وفيه رجع عن آرائه التى ذكرها فى كتبه السابقة وأهمها « نهاية العقول » . وانظر : « درء تعارض العقل والنقل » ١/٣٢٥ - ٣٢٧ ، ٣٧٩ ، ٢/٣٢٤ - ٣٢٧ .

(2) ك (فقط) : التى ، وهو تحريف .

(3) فى النسخ الثلاث : لما . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(4) ك : غاية .

(5) ك ، ض : لأنه .

(6) ك ، ض : له .

(7) ك : كشفت .

(8) انظر مثلا : درء تعارض العقل والنقل ٣/٣١ - ٦٧ .

(9) ز : الفضلاء .

(10) انظر ما ذكرته عنهم من قبل ١/١٦١ .

الكرامية – وهم منازعوهم [١] – فقد فلجوا [٢] ، ولم يعلموا أن السلف وأئمة السنة

ظ ٧٣ / والحديث ، بل مَنْ قَبْل الكرّامية من الطوائف ، لم يكن يلتفت [٣] إلى الكرّامية وأمثالهم ، بل تكلموا بذلك قبل أن يُخلق [٤] الكرامية ، فإن ابن كرّام كان متأخراً بعد أحمد بن حنبل ، فى زمن مسلم بن الحجاج وطبقته وأئمة السنة [٥] ، والمتكلمون تكلموا بهذه قبل هؤلاء ، ومازال السّلف يقولون بموجب ذلك .

لكن لما ظهرت الجهمية النفاة فى أوائل المائة الثانية [٦] ، بيّن علماء المسلمين ضلالهم وخطأهم ، ثم ظهرت محنة [٧] الجهمية فى أوائل المائة الثالثة ، وامتُحن العلماء : الإمام أحمد وغيره ، فجرّدوا الرد على الجهمية وكشف [٨] ضلالهم ، حتى جرّد الإمام أحمد الآيات التى فى القرآن ، تدل على بطلان قولهم ، وهى كثيرة جداً ، بل الآيات التى تدل على الصفات الاختيارية التى يسمونها حلول الحوادث كثيرة جداً .

الآيات الدالة على صفة الكلام

وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ [سورة الأعراف : ١١] فهذا بيّنٌ فى أنه إنما أمر الملائكة بالسجود بعد خلق آدم ، لم يأمرهم فى الأزل .

---

(١) ز : وهم ينازعونهم .

(٢) ك : فلحوا .

(٣) ض : لم تكن تلتفت ؛ ز : (غير منقوطة) . والمثبت من (ك) .

(٤) ض : تخلق ؛ ك ، ز (غير منقوطة) .

(٥) انظر ما سبق ١٦١/١ .

(٦) ض : الثالثة ، وهو خطأ .

(٧) ك : ثم ظهرت عنه ، ض : ثم ظهر رعنة . والمثبت من (ز) .

(٨) ك : وكيف ، وهو تحريف .

وكذلك قوله : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [سورة آل عمران : ٥٩] فإنما قال له [: « كن »] (١) بعد أن خلقه من تراب لا فى الأزل .

وكذلك قوله فى قصة موسى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [سورة النمل : ٨] وقال تعالى (٢) : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَارَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّيٓ أَنَا ٱللهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ [سورة القصص : ٣٠] فهذا بيِّنٌ فى أنه إنما (٣) ناداه حين جاء ، لم يكن النداء فى الأزل كما يقول الكلابية ، يقولون : إن النداء قائم بذات الله (٤) فى الأزل ، وهو لازم لذاته لم يزل ولا يزال منادياً له ، لكنه لما أتى خلق فيه إدراكاً لما كان موجودا فى الأزل .

ثم من قال منهم : إن الكلام معنى واحد ، منهم من قال : سمع ذلك المعنى بأذنه ، كما يقوله (٥) الأشعرى . ومنهم من يقول : بل أُفهم منه ما أُفهم ، كما يقوله القاضى أبو بكر وغيره (٦) .

---

(١) كن : ساقطة من (ك) ، (ض) .
(٢) عبارة « وقال تعالى » : ساقطة من (ز) .
(٣) إنما : ساقطة من (ز) .
(٤) ز : الرب .
(٥) ك ، ض : يقول .
(٦) لم أجد للقاضى أبى بكر الباقلانى كلاما بهذا المعنى ، ولكن الشيخ محمد زاهد الكوثرى علق على كلامه فى كتابه « الإنصاف » ص ٨٤ (ت ١) فقال : « وفى شرح المقاصد : (اختصاص موسى عليه السلام بأنه كليم الله تعالى فيه أوجه ... وثالثها : أنه سمع من جهة لكن بصوت غير مكتسب للعباد على ما هو شأن سماعنا ، وحاصله أنه أكرم موسى عليه السلام فأفهمه كلامه بصوت تولى بخلقه من غير كسب لأحد من خلقه . وإلى هذا ذهب أبو منصور الماتريدى وأبو إسحاق الإسفراينى » . وانظر : الإرشاد للجوينى ، ص ١٣٣ - ١٣٤ حيث يقول : « كلام الله تعالى مسموع فى إطلاق المسلمين ... ثم السماع لفظة محتملة لا يتحد معناها ، ولا ينفرد مقتضاها ، فقد يراد بها الإدراك ، وقد يراد بها الفهم =

فقيل لهم : عندكم هو معنى واحد لا يتبعّض ولا يتعدد ، فموسى فهم المعنى كله أو بعضه ؟ إن قلتم : كله ، فقد عَلِم عِلْمَ الله كله [١] ، وإن قلتم : بعضه ، فقد تبعّض ، وعندكم لا يتبعّض [٢] .

ومن قال من [٣] أتباع الكُلاَّبيه بأن النداء وغيره من الكلام القديم حروف ، أو حروف [٤] وأصوات لازمة لذات الرب ، كما يقوله [٥] السالمية ومن وافقهم ، يقولون : إنه خلق له إدراكاً لتلك الحروف والأصوات . والقرآن والسنة وكلام السلف قاطبة يقتضى أنه إنما ناداه وناجاه حين أتى ، لم يكن النداء موجوداً قبل ذلك ، فضلا عن أن يكون قديما أزلياً .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٢] [٦] ، وهذا يدل على أنه لما أكلا منها ناداهما ، لم يناده‍ما قبل ذلك .

= والإحاطة .... فإذا سمى كلام الله تعالى مسموعا فالمعنىّ به كونه مفهوما معلوما عن أصوات مدركة ومسموعة ، والشاهد لذلك من القضايا الشرعية إجماع الأمة على أن الرب تعالى خصص موسى وغيره من المصطفين من الإنس والملائكة بأن أسمعهم كلامه العزيز من غير واسطة . فلو كان السامع لقراءة القارئ مدركا لنفس كلام الله تعالى ، لما كان موسى صلوات الله عليه مخصصا بالتكليم ، وإدراك كلام الله من غير تبليغ مبلغ وإنهاء (لعلها : وإنباء) مرسل » .

(١) كله : ساقطة من (ز) .

(٢) ز : وعندكم لا بعض له .

(٣) من : ساقطة من (ز) .

(٤) أو حروف : ساقطة من (ز) .

(٥) ض : تقوله .

(٦) حرفت الآية فى (ك) ، (ض) إلى : فلما أكلا منها بدت لهما .... إلخ .

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [سورة القصص : ٦٥] ، ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [سورة القصص : ٦٢] ، فجعل النداء فى يوم معين ، وذلك اليوم حادث كائن بعد أن لم يكن ، وهو حينئذ يناديهم ، لم ينادهم قبل ذلك .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَامِ إِلاَّ ما يُتْلَىٰ عَلَيْكُم غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [سورة المائدة : ١] فبيّن أنه يحكم فيحلّل ما يريد ويحرّم ما يريد / ويأمر بما يريد ، فجعل التحليل والتحريم والأمر والنهى متعلقاً بإرادته . [وهذه أنواع الكلام ، فدل على أنه يأمر بإرادته] (١) وينهى بإرادته ، ويحلل بإرادته ، ويحرم بإرادته . ص ٧٤

والكُلاَّبية يقولون : ليس شئ من ذلك بإرادته ، بل هو قديم لازم لذاته (٢) ، غير مراد له ولا مقدور . والمعتزلة مع الجهمية يقولون : كل ذلك مخلوق منفصل عنه ، ليس له كلام قائم به ، لا بإرادته ولا بغير إرادته . ومثل هذا كثير فى القرآن العزيز .

فصل

صفة الإرادة

وكذلك فى الإرادة والمحبة كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [سورة يٓس : ٨٢] ، وقوله : ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [سورة الكهف : ٢٣ - ٢٤] ، وقوله : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ آمِنِينَ ﴾ [سورة الفتح : ٢٧] ، وقوله : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ ﴾ [سورة الإسراء : ١٦] ، وقوله : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ ﴾ [سورة الرعد : ١١] ، وقوله :

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من (ك) ، (ض) ، وأثبته من (ز) .

(٢) ك : بل قديمة لازمة لذاته ؛ ض : بل قديم لازم لذاته . والمثبت من (ز) .

﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾ [سورة الإنسان : ٢٨] ، وقوله : ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ [سورة الإسراء : ٨٦] ، وأمثال ذلك فى القرآن العزيز [١] .

فإن جوازم الفعل المضارع ونواصبه تخلصه للاستقبال ، مثل « إن » و « أن » ، وكذلك « إذا » ظرف لما يستقبل من الزمان . فقوله : « إذا أراد » و « إن شاء [٢] الله » ونحو ذلك يقتضى حصول إرادة مستقبلة ومشيئة [٣] مستقبلة .

صفتا المحبة والرضا

وكذلك فى المحبة والرضا . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [سورة آل عمران : ٣١] ، فإن هذا يدل على أنهم إذا اتبعوه أحبهم الله ، فإنه جزم قوله [٤] « يحببكم الله » [٥] ، فجزَمَه جواباً للأمر ، وهو فى معنى الشرط ، فتقديره [٦] : إن تتبعونى يحببكم الله .

ومعلوم أن جواب الشرط والأمر إنما يكون بعده لا قبله ، فمحبة الله لهم إنما تكون بعد اتباعهم للرسول . والمنازعون منهم من يقول : ما ثمّ محبة بل المراد ثوابا مخلوقا ، ومنهم من يقول : بل ثمّ محبة قديمة أزلية : إما الإرادة وإما غيرها . والقرآن يدل على قول السلف وأئمة [٧] السنة المخالف [٨] للقولين .

---

(١) العزيز : ساقطة من (ز) .
(٢) ز : وإن يشأ .
(٣) ك : أو مشيئة .
(٤) قوله : ساقطة من (ز) .
(٥) ك ، ض : يحببكم به . والمثبت من (ز) .
(٦) ز : تقديره .
(٧) ك ، ض : أئمة .
(٨) ك ، ض : المخالفين .

وكذلك قوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ﴾ [سورة محمد : ٢٨] ، فإنه يدل على أن أعمالهم أسخطته ، فهى سبب لسخطه ، وسخطه عليهم بعد الأعمال لا قبلها .

وكذلك قوله : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [سورة الزخرف : ٥٥] ، وكذلك قوله : ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [سورة الزمر : ٧] علّق الرضا بشكرهم وجعله مجزوما جزاءً له ، وجزاء الشرط لا يكون إلا بعده .

وكذلك قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٢٢] ، ﴿ وَيُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة التوبة : ٧] ، ﴿وَيُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٤٢] ، ﴿وَيُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ [سورة الصف : ٤] ونحو ذلك ، فإنه يدل على أن المحبة بسبب هذه الأعمال ، وهى جزاء لها ، والجزاء إنما يكون بعد العمل والسبب [1] .

فصل

صفتا السمع والبصر

وكذلك السمع والبصر والنظر . قال الله تعالى : ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ [سورة التوبة : ١٠٥] ، هذا فى حق المنافقين . وقال فى حق التائبين : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة التوبة : ١٠٥] فقوله [2] : ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ ﴾ دليل على أنه يراها بعد نزول هذه الآية

---

(١) ك ، ض : والمسبب .

(٢) ك ، ض : وقوله .

الكريمة [(١)] ، والمنازع إما أن ينفى الرؤية وإما أن يثبت رؤية قديمة أزلية [فقط] [(٢)] .

وكذلك قوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة يونس : ١٤] ولام « كى » تقتضى أن ما بعدها متأخر عن المعلول ، فنظره كيف يعملون هو بعد أن جعلهم خلائف .

ظ ٧٤ وكذلك ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾ [سورة المجادلة : ١] ، أخبر أنه يسمع تحاورهما حين كانت تجادل وتشتكى إلى الله .

وقال النبى ﷺ : « إذا قال الإمام سمع الله لمن حمده ، فقولوا : ربنا ولك الحمد ، يسمع الله لكم » [(٣)] فجعل سمعه لنا [(٤)] جزءًا وجواباً للحمد ، فيكون ذلك بعد الحمد ، والسمع يتضمن مع سمع القول قبوله وإجابته .

ومنه قول الخليل : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَاءِ ﴾ [سورة إبراهيم : ٣٩] ، وكذلك قوله : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ [سورة آل عمران : ١٨١] ، وقوله لموسى [وهارون] [(٥)] : ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [سورة طه : ٤٦] .

---

(١) الكريمة : ساقطة من (ز) .

(٢) فقط : ساقطة من (ك) ، (ض) .

(٣) هذا جزء من حديث طويل عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه وأوله – وهذه رواية مسلم – : « إذا صليتم فأقيموا صفوفكم ثم ليؤمكم أحدكم ... » الحديث . وهو فى : مسلم ١/٣٠٣ – ٣٠٥ (كتاب الصلاة ، باب التشهد فى الصلاة) ؛ سنن النسائى ٢/٧٥ – ٧٦ (كتاب الإمامة ، باب مبادرة الإمام) ، ٢/١٩٢ – ١٩٣ (كتاب التطبيق ، باب نوع آخر من التشهد) .

(٤) ز : فجعل يسمع لنا .

(٥) وهارون : زيادة فى (ز) .

والعقل (١) الصريح يدل على ذلك ، فإن المعدوم لا يُرى ولا يسمع بصريح العقل واتفاق العقلاء ، لكن قال من قال من السالمية : إنه يسمع ويرى موجوداً فى علمه لا موجودا بائناً عنه ، ولم يقل [أحد] (٢) : إنه يسمع ويرى بائناً عن الرب . فإذا خلق العباد ، وعملوا وقالوا ، فإما أن نقول : إنه يرى أعمالهم ويسمع أقوالهم (٣) ، وإما لا يرى ولا يسمع . فإن نفى ذلك تعطيل (٤) لهاتين الصفتين ، وتكذيب للقرآن ، وهما صفتا كمال لا نقص فيه ، فمن يسمع ويبصر أكمل ممن لا يسمع ولا يبصر .

والمخلوق يتصف بأنه يسمع ويُبصر ، فيمتنع (٥) اتصاف المخلوق بصفات الكمال دون الخالق سبحانه وتعالى (٦) ، وقد عاب الله تعالى (٧) من يعبد من لا يسمع ولا يبصر فى غير موضع ، ولأنه حيّ ، والحيّ إذا لم يتصف بالسمع والبصر ، اتصف بضد ذلك : وهو العمى والصمم ، وذلك ممتنع ، وبسط هذا له موضع آخر .

وإنما المقصود هنا أنه إذا كان يسمع ويبصر الأقوال والأعمال بعد أن وُجدت ، فإما أن يقال : إنه تجدد [شئ ، وإما أن يقال : لم يتجدد شئ ، فإن كان لم يتجدد] (٨) ، وكان لا يسمعها ولا يبصرها ، فهو بعد أن خلقها لا يسمعها

---

(١) ك ، ض : والمعقول .
(٢) أحد : ساقطة من (ك) ، (ض) وأثبتها من (ز) .
(٣) ك ، ض : إنه يسمع أقوالهم ويرى أعمالهم .
(٤) ك ، ض : فإن نفى ذلك فهو تعطيل .
(٥) ك : فيمنع .
(٦) سبحانه وتعالى : ليست فى (ز) .
(٧) تعالى : ليست فى (ز) .
(٨) ما بين المعقوفتين ساقط من (ك) ، (ض) ، وأثبته من (ز) .

ولا يبصرها . وإن تجدد شئ : فإما أن يكون وجوداً أو عدما ، فإن كان عدماً فلم يتجدد شئ ، وإن كان وجوداً : فإما أن يكون قائما بذات الله ، أو قائما بذات غيره (١) . والثانى يستلزم أن يكون ذلك الغير هو الذى يسمع ويرى فتعيّن أن ذلك السمع والرؤية الموجودين قائم بذات الله (٢) ، وهذا لا حيلة فيه .

والكُلاَّبية يقولون فى جميع هذا الباب : المتجدد هو تعلُّق (٣) [تعلَّق] (٤) بين الأمر والمأمور ، وبين الإرادة والمراد ، وبين السمع والبصر والمسموع والمرئى (٥) .

فيقال لهم : هذا التعلق (٦) إما أن يكون وجوداً وإما أن يكون عدما ، فإن كان عدماً فلم يتجدد شئ ، فإن العدم لا شئ وإن كان وجودا بطل قولهم .

وأيضا فحدوث تعلق هو نسبة وإضافة ، من غير حدوث ما يوجب ذلك – ممتنع ، فلا تحدث (٧) نسبة وإضافة إلا بحدوث أمر وجودى يقتضى ذلك ، وطائفة – منهم ابن عقيل – يسمُّون هذه النسب (٨) أحوالا .

والطوائف متفقون على حدوث نسب وإضافات وتعلقات ، لكن حدوث النسب بدون حدوث ما يُوجبها ممتنع ، فلا تكون (٩) نسبة وإضافة إلا تابعة لصفة ثبوتية (١٠ : كالأبوة والبنوة ، والفوقية والتحتية ، والتيامن والتياسر ، فإنها لابد أن تستلزم أموراً ثبوتية ١٠) .

---

(١) ز : وإما أن يقوم بذات غيره .

(٢) ز : الرب .

(٣) ك : معلق .

(٤) تعلَّق : زيادة فى (ز) .

(٥) ز : والمرائى ، وهو تحريف .

(٦) ك : التعليق .

(٧) ض : يحدث .

(٨) ك ، ض : النسبة .

(٩) ك ، ض : يكون ؛ ز (غير منقوطة) .

(١٠ – ١٠) : ساقط من (ز) .

أفعال الرب الاختيارية

وكذلك كونه خالقا ورازقا ومحسناً وعادلا ، فإن هذه أفعال فعلها بمشيئته وقدرته ، إذ [(١)] كان يخلق بمشيئته ، ويرزق بمشيئته ، ويعدل بمشيئته ، ويحسن / بمشيئته . والذى عليه جماهير المسلمين من السلف والخلف : أن الخلق غير المخلوق ، فالخلق فعل الخالق ، والمخلوق مفعوله .

ص ٧٥

ولهذا كان النبى ﷺ يستعيذ بأفعال الرب وصفاته ، كما فى قوله ﷺ [(٢)] : « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك [(٣)] ، لا أحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » [٣)] ، فاستعاذ بمعافاته كما استعاذ برضاه .

وقد استدل أئمة السنن – كأحمد وغيره – على أن كلام الله غير مخلوق بأنه استعاذ به فقال : « من نزل منزلا فقال : أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق ، لم يضره شىء حتى يرتحل منه » [(٤)] فكذلك معافاته ورضاه غير مخلوق [(٥)] لأنه استعاذ به [(٦)] والعافية القائمة ببدن العبد مخلوقة ، فإنها نتيجة معافاته .

---

(١) ك : إذا ، وهو تحريف .

(٢) ﷺ : ليست فى (ز) .

(٣ – ٣) : ساقط من (ز) . والحديث عن عائشة رضى الله عنها فى : مسلم ٣٥٢/١ (كتاب الصلاة ، باب ما يقال فى الركوع والسجود) وأوله : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد ، وهما منصوبتان ، وهو يقول : اللهم أعوذ برضاك ... الحديث .

(٤) الحديث عن خولة بنت حكيم رضى الله عنها – مع اختلاف يسير فى الألفاظ – فى : مسلم ٢٠٨٠/٤ – ٢٠٨١ (كتاب الذكر والدعاء .. ، باب فى التعوذ من سوء القضاء ....) ؛ سنن الترمذى ١٥٩/٥ – ١٦٠ (كتاب الدعوات ، باب ما جاء ما يقول إذا نزل منزلا) ؛ سنن ابن ماجة ١١٧٤/٢ (كتاب الطب ، باب الفزع والأرق وما يتعوذ منه) ؛ سنن الدارمى ٢٨٩/٢ (كتاب الاستئذان ، باب ما يقول إذا نزل منزلا) ؛ الموطأ ٩٧٨/٢ (كتاب الاستئذان ، باب ما يؤمر به من الكلام فى السفر) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣٧٧/٦ .

(٥) ك ، ض : مخلوقة . والمثبت من (ز) .

(٦) ض : لأنه استعاذ بهما ؛ ك : لا استعاذ به ، وهو تحريف . والمثبت من (ز) .

وإذا كان الخلق فعله والمخلوق مفعوله ، وقد خلق الخلق بمشيئته ، دل على أن الخلق فعل يحصل بمشيئته ويمتنع قيامه بغيره ، فدل على أن أفعاله قائمة بذاته ، مع كونها حاصلة بمشيئته وقدرته .

وقد حكى البخارى إجماع العلماء على الفرق بين الخلق والمخلوق ، وعلى هذا يدل صريح المعقول ، فإنه قد ثبت بالأدلة العقلية والسمعية ، أن كل ما سوى الله تعالى (١) مخلوق محدث كائن بعد أن لم يكن ، وأن الله انفرد بالقدم والأزلية .

وقد قال تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [سورة السجدة : ٤] ، فهو حين خلق السمٰوات ابتداءً إما أن يحصل منه فعل يكون هو خلقا للسمٰوات والأرض ، وإما أن لا يحصل منه فعل (٢) ، بل وجدت المخلوقات بلا فعل . ومعلوم أنه إذا كان الخالق قبل خلقها ومع خلقها وبعده سواء (٣) ، لم يجز تخصيص خلقها (٤) بوقت دون وقت بلا سبب يوجب التخصيص .

وأيضا فحدوث المخلوق بلا سبب (٥) حادث ممتنع فى بدايه (٦) العقل . وإذا قيل : الإرادة والقدرة [القديمة] (٧) خصصت . قيل : نسبة الإرادة القديمة إلى جميع الأوقات سواء .

وأيضا فلا تُعقل إرادة تخصص (٨) أحد المتماثلين إلا بسبب يوجب التخصيص .

---

(١) تعالى : ليست فى (ز) .
(٢) فى (ك) : كأنها : قول ، وهو تحريف .
(٣) ك ، ض : ومع خلقها سواء وبعده سواء . والمثبت من (ز) .
(٤) ك : لخلقها .
(٥) ز : بدون سبب .
(٦) ك ، ض : بداية .
(٧) القديمة : ساقطة من (ك) ، (ض) .
(٨) ك ، ض : تخصيص . والمثبت من (ز) .

وأيضا فلابد عند وجود المراد من سبب يقتضى حدوثه ، وإلا فلو كان مجرد ما تقدم من الإرادة والقدرة كافيا ، للزم وجوده قبل ذلك ، لأنه مع الإرادة التامة والقدرة التامة يجب وجود المقدور .

وقد احتج من قال : الخلق هو المخلوق ، كأبى الحسن ومن اتّبعه مثل ابن عقيل ، بأن قالوا : لو كان غيره لكان : إما قديماً وإما حادثا ، فإن كان قديماً لزم قدم المخلوق لأنهما متضايفان (١) ، وإن كان حادثا (٢) لزم أن تقوم به الحوادث ، ثم ذلك الخلق يفتقر إلى خلق آخر ويلزم التسلسل .

فأجابهم الجمهور ، كل طائفة على أصلها ، فطائفة (٣) قالت : الخلق قديم وإن كان المخلوق حادثا (٤) ، كما يقول ذلك كثير من أهل المذاهب الأربعة ، وعليه أكثر الحنفية . قال هؤلاء : أنتم تسلّمون لنا أن الإرادة قديمة أزلية والمراد محدَث ، فنحن نقول فى الخلق ما قلتم فى الإرادة .

وقالت طائفة (٥) : بل الخلق حادث فى ذاته ، ولا يفتقر إلى خلق آخر ، بل يحدث بقدرته . وأنتم تقولون : إن المخلوق يحصل بقدرته بعد أن لم يكن (٦) ، فإن (٧) كان المنفصل يحصل بمجرد القدرة ، فالمتصل به أَوْلى . وهذا جواب كثير من الكرّامية والهشامية وغيرهم .

---

(١) ز : متضايقان ، وهو تحريف .
(٢) ز : محدثا .
(٣) ز : وطائفة .
(٤) ز : محدثا .
(٥) ز : وطائفة قالت .
(٦) ك ، ض : تكن ؛ ز (غير منقوطة) . ولعل الصواب ما أثبته .
(٧) ز : فإذا .

ظ ٧٥ وطائفة يقولون : هب / أنه يفتقر إلى فعل قبله ، فلم قلتم : إن ذلك ممتنع ؟ وقولكم [١] هذا تسلسل .

فيقال : هذا ليس تسلسلا [٢] فى الفاعلين والعلل الفاعلة ؛ فإن هذا ممتنع باتفاق العقلاء ، بل هو تسلسل فى الآثار والأفعال ، وهو حصول شئ بعد شئ .

وهذا محل النزاع ، فالسلف يقولون : لم يزل متكلما إذا شاء [وكما شاء] [٣] . وقد قال تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [سورة الكهف : ١٠٩] فكلمات الله لا نهاية لها ، وهذا تسلسل جائز كالتسلسل فى المستقبل ؛ فإن نعيم الجنة دائم لا نفاد له ، فما من شئ إلا وبعده شئ بلا نهاية [٤] .

فصل

والأفعال نوعان : متعدٍ ولازم . فالمتعدى مثل : الخلق والاعطاء ونحو ذلك . واللازم مثل : الاستواء والنزول والمجئ والإتيان .

قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [سورة هود : ٧] فذكر الفعلين : المتعدى واللازم ، وكلاهما حاصل بقدرته ومشيئته [٥] ، وهو متصف به ، وقد بسط هذا فى غير هذا الموضع .

---

(١) ك : وقولهم .
(٢) ك : ليس هذا تسلسل ؛ ض : ليس هذا تسلسلا .
(٣) وكما شاء : ساقطة من (ك) ، (ض) . وأثبتها من (ز) .
(٤) ك ، ض : شئ لا نهاية له .
(٥) ض : بمشيئته وقدرته .

الأدلة على هذا الأصل من السنة

والمقصود هنا أن القرآن يدل على هذا الأصل فى أكثر من مائة موضع . وأما الأحاديث الصحيحة فلا يمكن ضبطها فى هذا الباب ، كما فى الصحيحين عن زيد بن خالد الجهنى (١) أن النبى ﷺ صلّى بأصحابه صلاة الصبح بالحديبية (٢ على إثر سماء كانت من الليل ٢) ، ثم قال : أتدرون ماذا قال ربكم الليلة ؟ قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر [بى] (٣) ، فأما من قال : مُطِرْنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب ، وأما من قال : مُطِرْنا بنَوْءِ كذا [ونوء كذا وكذا] (٤) ، فذلك كافر بى مؤمن بالكوكب » (٥) .

وفى الصحاح [فى] (٦) حديث الشفاعة : يقول (٧) كل من الرسل إذا أتَوْا إليه (٨) « إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله » (٩) فقال كل منهم : إن ربى قد غضب اليوم ، وهو بيان أن الغضب حصل فى ذلك اليوم لا قبله .

---

(١) الجهنى : ساقطة من (ز) .

(٢ - ٢) : ساقط من (ز) .

(٣) بى : ساقطة من (ك) ، (ض) .

(٤) ما بين المعقوفتين ساقط من (ز) .

(٥) بعد كلمة « الكوكب » تكررت عبارة « فقال أتدرون ماذا قال ربكم الليلة » فى (ك) ، (ز) إلا أن العبارة عليها شطب فى (ز) . والحديث - مع اختلاف يسير فى الألفاظ - عن زيد بن خالد الجهنى رضى الله عنه فى : البخارى ١٦٥/١ (كتاب الأذان ، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم) ؛ مسلم ٨٣/١ - ٨٤ (كتاب الإيمان ، باب بيان كفر من قال : مطرنا بالنوء) ؛ سنن أبى داود ٢١/٤ (كتاب الطب ، باب فى النجوم) ؛ الموطأ ١٩٢/١ (كتاب الاستقساء ، باب الاستبصار بالنجوم) .

(٦) فى : زيادة من (ز) .

(٧) ك ، ض : فيقول .

(٨) عبارة : « إذا أتوا إليه » ساقطة من (ز) والمعنى أن الرسل إذا أتى الناس إليهم بعد كرب يوم القيامة يطلبون من كل رسول أن يشفع إلى الله تعالى يقول كل منهم العبارة التالية .

(٩) حديث الشفاعة حديث طويل مروى عن عدد من الصحابة من وجوه عدة بألفاظ متقاربة . انظر : البخارى ٨٤/٦ - ٨٥ (كتاب التفسير ، سورة بنى اسرائيل : باب ذرية من حملنا مع نوح) ؛ =

وفى الصحيح : « إذا تكلم الله بالوحى ، سمع أهل السموات كجر السلسلة على الصفوان »[(١)] فقوله : « إذا تكلم الله بالوحى سمع » يدل على أنه يتكلم به حين يسمعونه ، وذلك ينفى كونه أزليا . وأيضا فما يكون[(٢)] كجر السلسلة على الصفا يكون[(٣)] شيئا بعد شىء ، والمسبوق بغيره لا يكون أزليا .

وكذلك فى الصحيح : « يقول الله : قَسَمْتُ الصلاة بينى وبين عبدى [نصفين :][(٤)] نصفها لى ونصفها لعبدى ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال : الحمد لله رب العالمين ، قال الله : حمدنى عبدى . فإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال

= مسلم ١/١٨٠ - ١٨٧ (كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة) . وهو فى مواضع كثيرة فى الصحيحين وغيرهما . انظر : الترغيب والترهيب للمنذرى ٥/٣٩٨ - ٤٠٦ (ط . مصطفى الحلبى ، القاهرة ١٣٥٢ / ١٩٣٣) ؛ جامع الأصول لابن الأثير ١١/١٢٣ - ١٣٣ (ط . السنة المحمدية ، القاهرة ١٣٧٣ / ١٩٥٤) ؛ حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن قيم الجوزية ص ٢٢٣ - ٢٢٧ (تحقيق الأستاذ محمود حسن ربيع ، ط . مكتبة الأزهر ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٥٧/١٩٣٨) .

(١) الحديث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى : سنن أبى داود ٤/٣٢٥ (كتاب السنة ، باب فى القرآن) ونصه : « إذا تكلم الله بالوحى سمع أهل السماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا فيصعقون ، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل ، حتى إذا أتاهم جبريل فُزِّع عن قلوبهم . قال : فيقولون : يا جبريل ماذا قال ربك ؟ فيقول : الحق . فيقولون : الحق ، الحق » . وذكر الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى الحديث فى « صحيح الجامع الصغير » ١/١٧٨ وقال عنه إنه صحيح ، وأنه ورد فى كتاب التوحيد لابن خزيمة وفى كتاب « الأسماء والصفات » للبيهقى . والحديث فى كتاب التوحيد لابن خزيمة ، ص ١٤٥ (بتحقيق الشيخ محمد خليل هراس رحمه الله ، ط . مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ١٣٨٧ / ١٩٦٨) وهو أيضا فى « الأسماء والصفات » ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ (بتحقيق الكوثرى ، ط . السعادة ، القاهرة ، ١٣٥٨) ونبه البيهقى إلى أن الحديث رواه البخارى موقوفا وأبو داود مرفوعا . والحديث فى : البخارى ٩/١٤١ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ولا تنفع الشفاعة عنده ....) وقال : « وقال مسروق عن ابن مسعود : إذا تكلم الله بالوحى .... الحديث » . وجاء حديث آخر بألفاظ مقاربة عن أبى هريرة ذكره ابن تيمية فى درء تعارض العقل والنقل ٢/٤٣ وتكلمت عليه هناك وذكرت أن البخارى أورده فى ثلاثة مواضع وهو فى سنن الترمذى وابن ماجة .

(٢) ز : ما يكون .

(٣) ز : فيكون .

(٤) نصفين : ساقطة من (ك) .

الله : أثنى على عبدى . فإذا قال : مالك يوم الدين ، قال الله [١] : مجّدنى عبدى . فإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين ، قال الله [١] : هذه الآية بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل . فإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، قال الله [٢] : هؤلاء لعبدى ولعبدى ما سأل » [٣] ، فقد أخبر أن العبد إذا قال : الحمد لله ، قال الله : حمدنى [عبدى] [٤] فإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال الله [٥] : أثنى على عبدى .... الحديث .

وفى الصحاح حديث النزول [أنه :] [٦] « ينزل ربنا [٧] كل ليلة حين / يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول : من يدعونى فأستجيب له ؟ من يسألنى فأعطيه ؟ من يستغفرنى فأغفر له ؟ » [٨] فهذا قول وفعل فى وقت معين ، وقد

ص ٧٦

---

(١) الله : ليست فى (ز) .

(٢) الله : ليست فى (ز) .

(٣) سبق الكلام عن الحديث ٢٧٢/١ (ت ٢) وهو عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : مسلم ٢٩٦/١ – ٢٩٧ (كتاب الصلاة ، باب وجوب قراءة الفاتحة) ؛ سنن الترمذى ٢٦٩/٤ – ٢٧٠ (كتاب التفسير ، سورة الفاتحة) .

(٤) عبدى : ساقطة من (ك) ، (ض) . وأثبتها من (ز) .

(٥) الله : ليست فى (ز) .

(٦) أنه : زيادة فى (ز) .

(٧) ربنا : ليست فى (ز) .

(٨) الحديث عن أبى هريرة وغيره من الصحابة رضى الله عنهم فى : البخارى ٥٢/٢ – ٥٣ (كتاب التهجد ، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل) ، ٧١/٨ (كتاب الدعوات ، باب الدعاء نصف الليل) ١٤٣/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : يريدون أن يبدّلوا كلام الله) ؛ مسلم ١٧٥/٣ – ١٧٦ (كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب الترغيب فى الدعاء ....) ؛ سنن أبى داود ٤٧/٢ (كتاب الصلاة ، باب أى الليل أفضل) ، ٣١٤/٤ (كتاب السنة ، باب الرد على الجهمية) ؛ المسند (ط . المعارف) الأرقام : ٩٦٧ ، ٩٦٨ ، ٣٦٧٣ ، ٣٨٢١ ، ٧٥٠٠ ، ٧٥٨٢ ، ٧٦١١ ، ٧٧٧٩ . وهو أيضا فى مواضع أخرى كثيرة فى المسند ، وهو أيضا فى سنن : الترمذى وابن ماجة والدارمى ومسند الطيالسى (وانظر مفتاح كنوز السنة ، مادة : الدعاء) وأفرد ابن خزيمة فصلا لأحاديث النزول فى كتابه « التوحيد » ص ١٢٥ – ١٣٦ .

اتفق السلف على أن النزول فعل يفعله الرب ، كما قال ذلك الأوزاعى وحمّاد بن زيد والفضيل بن عياض [(١)] وأحمد بن حنبل وغيرهم .

وأيضا فقد قال ﷺ : « لله أشد أَذَناً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن ، من صاحب القَيْنَة إلى قينته » [(٢)] . وفى الحديث الصحيح الآخر [(٣)] : « ما أَذِنَ الله لشئ كأَذَنِهِ لنبى حسن الصوت يتغنَّى [(٤)] بالقرآن يجهر به » [(٥)] .

أَذِنَ [(٦)] يَأْذَنُ أَذَناً : أى استمع [(٧)] يستمع استماعا ، كقوله : ﴿ أَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [سورة الانشقاق : ٢] فأخبر أنه يسمع إلى هذا وهذا .

وفى الصحيح : « لا يزال عبدى يتقرّب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا

---

(١) عبارة « والفضيل بن عياض » : ساقطة من (ز) .

(٢) الحديث عن فضالة بن عبيد رضى الله عنه فى : سنن ابن ماجة ٤٢٥/١ (كتاب إقامة الصلاة ، باب فى حسن الصوت بالقرآن) . أورده الشيخ الألبانى فى « ضعيف الجامع الصغير » ٣/٥ ونقل عن السيوطى أنه فى سنن ابن ماجة وفى صحيح ابن حبان وفى المستدرك للحاكم وفى شعب الإيمان للبيهقى عن فضالة بن عبيد ، وضعفه الألبانى ، ولكن ذكر الأستاذ محمد فؤاد عبد الباق فى تعليقه على سنن ابن ماجة « فى الزوائد : إسناده حسن » وقال : « أَذَنا : بفتحتين ، بمعنى : استماعا » . والحديث عن فضالة أيضا فى : المسند (ط . الحلبى) ١٩/١٦ ، ٢٠ .

(٣) ز : الآخر الصحيح .

(٤) ك : يتغن ؛ ز : يقرأ .

(٥) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ١٩١/٦ (كتاب فضائل القرآن ، باب من لم يتغن بالقرآن) ، ١٥٧/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول النبى ﷺ : الماهر بالقرآن مع الكرام البررة ...) ؛ مسلم ٥٤٥/١ – ٥٤٦ (كتاب صلاة المسافرين ، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن) ؛ سنن أبى داود ١٠١/٢ (كتاب الوتر ، باب استحباب الترتيل فى القراءة) ؛ سنن النسائى ١٤١/٢ (كتاب الصلاة ، باب التغنى بالقرآن) ؛ المسند (ط . المعارف) ٨٦/١٤ – ٨٨ ، ٢٢٩ .

(٦) ز : قد أذن .

(٧) ك : استمتع ، وهو تحريف .

أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، (١ ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها » ١) فأخبر أنه لا يزال يتقرّب بالنوافل بعد الفرائض [حتى يحبه ، و « حتى » حرف غاية ، يدل على أنه يحبه بعد تقربه بالنوافل والفرائض] (٢) .

وفى الصحيحين عنه ﷺ فيما يروى عن ربه تعالى قال : « قال (٣) الله : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، إن (٤) ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملإ خير منهم » (٥) وحرف « إن » حرف الشرط ، والجزاء يكون بعد الشرط ، فهذا يبيّن أنه يذكر العبد [بعد أن يذكره العبد] (٦) إن ذكره (٧) فى نفسه [ذكره فى نفسه] (٨) وإن ذكره فى ملإ ذكره

(١ - ١) : ساقط من (ز) . والحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وأوله : إن الله قال : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل .... الحديث ، وهذه رواية البخارى . انظر الحديث فى : البخارى ١٠٥/٨ (كتاب الرقاق ، باب التواضع) . وهو عن عائشة رضى الله عنها فى : المسند (ط . الحلبى) ٢٥٦/٦ .

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من (ك) ، (ض) ، وأثبته من (ز) .

(٣) ز : عن ربه عز وجل قال يقول .

(٤) ز : فإن .

(٥) هذا جزء من حديث عن أبى هريرة وأنس فى : البخارى ١٢١/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ويحذركم الله نفسه) ، ١٥٦/٩ (كتاب التوحيد ، باب ذكر النبى ﷺ وروايته عن ربه) ؛ مسلم ٢٠٦٧/٤ - ٢٠٦٨ (كتاب الذكر ، باب فضل الذكر) ، ٢١٠٢/٤ (كتاب التوبة ، باب فى الحض على التوبة) ؛ سنن الترمذى ٢٣٨/٥ - ٢٣٩ (كتاب الدعوات ، باب منه) ؛ سنن ابن ماجة ١٢٥٥/٢ - ١٢٥٦ (كتاب الأدب ، باب فضل العمل) ؛ المسند (ط . المعارف) ١٥٤/١٣ - ١٥٥ ، (ط . الحلبى) ٤١٣/٢ ، ٤٣٥ ، ٤٠/٣ ، ١٢٢ وفى مواضع أخرى فيه .

(٦) ما بين المعقوفتين فى (ز) فقط .

(٧) ز : إن ذكر .

(٨) ما بين المعقوفتين فى (ز) فقط .

فى ملأ خير منهم . والمنازع يقول : ما زال يذكره أزلا وأبداً . ثم يقول : ذكره وذكر غيره ، وسائر ما يتكلم الله به هو شئ واحد لا يتبعّض ولا يتعدد ، فحقيقة قوله : إن الله لم يتكلم ولا يتكلم ولا يذكر أحداً .

وفى صحيح مسلم فى حديث تعليم الصلاة : « وإذا قال الإمام : سمع الله لمن حمده ، فقولوا : اللهم ربنا ولك الحمد ، يسمع الله لكم » (١) فإن الله قال على لسان نبيه : سمع الله لمن حمده ، (٢ فقوله : سمع الله لمن حمده ، لأن الجزاء بعد الشرط ، فقوله : يسمع الله لكم ، مجزوم حُرِّك [بالكسر] (٣) لالتقاء الساكنين ، وهذا يتقضى أنه يسمع بعد أن تحمدوا ٢) .

فصل

مواقف النفاة من مسألة الصفات والرد عليهم

والمنازعون النفاة كذلك منهم من ينفى الصفات مطلقا ، فهذا يكون الكلام معه فى الصفات (٤) مطلقا لا محض (٥) الصفات الاختيارية ، ومنهم من يثبت الصفات ويقول لا : يقوم بذاته شئ بمشيئته وقدرته ، فيقول : إنه لا يتكلم بمشيئته واختياره ، ويقول : لا يرضى ويسخط ، ويحب ويبغض ، ويختار بمشيئته وقدرته ، ويقول : إنه لا يفعل فعلا هو الخلق يخلق به المخلوق ، ولا يقدر عنده على فعل يقوم بذاته ، بل مقدوره لا يكون إلا منفصلا منه ، وهذا موضع تنازع فيه النفاة .

---

(١) سبق الحديث قبل صفحات قليلة .

(٢ – ٢) : فى (ز) بدلا من هذه العبارات جاءت عبارات أخرى فيها تقديم وتأخير هكذا : « فقوله : يسمع الله لكم مجزوم حرك بالكسر لالتقاء الساكنين ، وهذا يقتضى أنه يسمع بعد أن يقولوا : سمع الله لمن حمده ، لأن الجزاء بعد الشرط » .

(٣) بالكسر : ساقطة من (ك) ، (ض) وهى فى (ز) فقط .

(٤) ك (فقط) : الصلاة ، وهو تحريف .

(٥) ز : لا يخص (بدون نقط) .

فقيل : لا يكون مقدوره إلا [١] بائناً عنه ، كما يقوله [٢] الجهمية والكُلاَّبية والمعتزلة . وقيل : لا يكون مقدوره إلا ما يقوم بذاته ، كما يقوله السالمية [٣] والكرامية . والصحيح أن كليهما مقدور [٤] له .

أما الفعل ، فمثل قوله تعالى [٥] : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِن فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥] [٦] .

وقوله : ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْيِيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [سورة القيامة : ٤٠] .

وقول الحواريين : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ ﴾ [سورة المائدة : ١١٢] .

وقوله : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [سورة يس : ٨١] .

وقوله [٧] : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْيِيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [سورة الأحقاف : ٣٣] إلى أمثال ذلك / مما يبين أنه يقدر على الأفعال كالإحياء والبعث ونحو ذلك . ظ ٧٦

وأما القدرة على الأعيان ، ففي الصحيح عن أبي مسعود قال : « كنت أضرب غلاما فرآني النبي ﷺ ، فقال : « اعلم أبا مسعود [اعلم

(١) ز : لا ، وهو تحريف .
(٢) ز : تقوله .
(٣) ز : الهشامية .
(٤) ك : كلاهما مقدورا ؛ ز : كلاهما مقدور . والمثبت من (ض) .
(٥) تعالى : ليست في (ز) .
(٦) ز : هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم .
(٧) وقوله : ساقطة من (ز) .

أبا مسعود :] [١] لله أقدر عليك منك على هذا » [٢] [فقوله : لله أقدر عليك منك على هذا] [٣] دليل على أن القدرة تتعلق بالأعيان المنفصلة : قدرة الرب وقدرة العبد .

ومن الناس من يقول : كلاهما يتعلق بالفعل ، كالكرامية . ومنهم من يقول : قدرة الرب تتعلق بالمنفصل ، وأما قدرة العبد فلا تتعلق إلا بفعل فى محلها ، كالأشعرية .

والنصوص تدل على أن كلا القدرتين تتعلق بالمتصل والمنفصل ، فإن الله تعالى أخبر أن العبد يقدر على أفعاله كقوله : ﴿ فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [سورة التغابن : ١٦] ، وقوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ٱلْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم من فَتَيَاتِكُم ﴾ [سورة النساء : ٢٥] ، فدل على [٤] أنه منا من يستطيع ذلك ، ومنا من لم يستطع .

وقال النبى ﷺ : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء » أخرجاه فى الصحيحين [٥] .

---

(١) ما بين المعقوفتين فى (ز) فقط .

(٢) الحديث – مع اختلاف فى الألفاظ – عن أبى مسعود البدرى الأنصارى رضى الله عنه فى : مسلم ١٢٨٠/٣ – ١٢٨١ (كتاب الأيمان ، باب صحبة المماليك) ؛ سنن أبى داود ٤٦٢/٤ (كتاب الأدب ، باب فى حق المملوك) ؛ سنن الترمذى ٢٢٥/٣ – ٢٢٦ (كتاب البر والصلة ، باب النهى عن ضرب الخدم وشتمهم) ؛ المسند (ط . الحلبى) ١٢٠/٤ .

(٣) ما بين المعقوفتين ساقط من (ك) فقط .

(٤) ز : أيمانكم ، يدل على أن ...

(٥) الحديث بهذا اللفظ عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى : البخارى ٣/٧ (كتاب النكاح ، باب من استطاع الباءة فليتزوج) ، وبلفظ أطول وألفاظ مقاربة فى : البخارى ٣/٧ (الكتاب نفسه ، باب من لم يستطع الباءة فليصم) ، ٢٦/٣ (كتاب الصوم ، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة) ؛ مسلم ١٠١٨/٢ – ١٠١٩ (كتاب النكاح ، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة) ؛ سنن النسائى ١٤١/٤ (كتاب الصيام ، باب ذكر الاختلاف على محمد بن أبى =

وقوله : « إن استطعت أن تعمل بالرضا مع اليقين فافعل » [١] .

وقوله فى الحديث الذى فى الصحيح [٢] : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » [٣] ، وقد أخبر أنه قادر على عبده ، وهؤلاء الذين يقولون : لا تقوم به الأمور الاختيارية عمدتهم أنه لو قامت به الحوادث لم يخل منها ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث .

وقد نازعهم الناس فى كلا المقدمتين ، وأصحابهم المتأخرون – كالرازى والآمدى – قدحوا فى المقدمة الأولى فى نفس هذه المسألة ، وقدح الرازى فى المقدمة الثانية فى غير موضع من [٤] كتبه ، وقد بسط الكلام على ذلك فى غير هذا الموضع .

= يعقوب) ؛ سنن ابن ماجة ٥٩٢/١ (كتاب النكاح ، باب ما جاء فى فضل النكاح) ؛ سنن الدارمى ١٣٢/٢ (كتاب النكاح ، باب من كان عنده طول فليتزوج) ؛ المسند (ط . المعارف) ٤١١/١ ، ٤١٢ ، ٢٠٨/٥ ، ٤٩/٦ ، ٥٣ .

(١) قال العراق عن هذا الحديث فى تعليقه على الإحياء ٣٤/١٢ : « الترمذى من حديث ابن عباس » ولم أستطع العثور على الحديث فى سنن الترمذى ولا فى غيره من المراجع ولكن ابن تيمية ذكر الحديث مطولا فى كتاب « الاستقامة » وبقيته « .... فافعل ، فإن لم تستطع فإن فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً » . وبينت فى تعليقى على الحديث فى كتاب « الاستقامة » أن الجزء الأخير منه وهو : إن فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً » هو جزء من حديث ابن عباس رضى الله عنهما الذى أوله : « كنت رديف النبى ﷺ فقال : يا غلام – أو يا غُليّم – ألا أعلمك كلمات .... » الحديث وهو فى المسند (ط . المعارف) ٢٨٦/٤ – ٢٨٨ .

(٢) ز : فى الحديث الصحيح .

(٣) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ٩٤/٩ – ٩٥ (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ) ونصه : « دعونى ما تركتكم ، إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شئ فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » . والحديث مع اختلاف فى الألفاظ فى : مسلم ٩٧٥/٢ (كتاب الحج ، باب فرض الحج مرة فى العمر) ؛ سنن النسائى ٨٣/٥ (كتاب المناسك ، باب وجوب الحج) ؛ سنن ابن ماجة ٣/١ (المقدمة ، اتباع سنة رسول الله ﷺ) .

(٤) من : ساقطة من (ز) .

وقولهم : إنما [١] عرفنا حدوث العالم بهذه الطريق ، وبه أثبتنا الصانع . فيقال [٢] لهم : لا جرم ابتدعتم طريقا لا يوافق السمع ولا العقل ، فالعالمون بالشرع يعرفون أنكم مبتدعون محدثون فى الإسلام ما ليس منه ، والذين يعقلون ما يقولون يعلمون أن العقل يناقض ما قلتم ، وأن ما جعلتموه دليلا على إثبات الصانع لا يدل على إثباته ، [بل] [٣] هو استدلال على نفى الصانع .

وإثبات الصانع حق ، وهذا الحق يلزم من ثبوته إبطال استدلالكم بأن ما لم يخل من الحوادث فهو حادث .

وأما كون (٤ طريقكم مبتدعة ما سلكها الأنبياء ولا أتباعهم ولا سلف الأمة ، فلأن كل ٤) من يعرف ما جاء به الرسول ، وإن كانت معرفته متوسطة لم يصل فى ذلك إلى الغاية ، يعلم أن الرسول ﷺ [٥] لم يدع الناس فى [معرفة] [٦] الصانع وتوحيده وصدق رسله إلى الاستدلال بثبوت الأعراض وأنها حادثة ولازمة للأجسام ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث ، لامتناع حوادث لا أول لها ، [بل] يعلم [٧] بالاضطرار أن هذه الطريق لم يتكلم بها الرسول ، ولا دعا إليها أصحابه ، ولا [أصحابه] [٨] تكلموا بها ، ولا دعوا بها الناس .

وهذا يوجب العلم الضرورى من دين الرسول بأنه عند الرسول [٩]

---

(١) ك ، ض : إنا .
(٢) ك ، ض : يقال .
(٣) بل : ساقطة من (ك) .
(٤ — ٤) : ساقط من (ز) .
(٥) ﷺ : ساقطة من (ز) .
(٦) معرفة : ساقطة من (ك) .
(٧) ك ، ض : لا أول لها فعلم .
(٨) أصحابه : زيادة فى (ز) .
(٩) ك : بأنه عبد الرسول ، وهو تحريف ض : فإن عند الرسول . والمثبت من (ز)

والمؤمنين به أن الله يُعرف ، ويُعرف / توحيده وصدق رسله ، بغير هذه الطريق ، ص ٧٧
فدل الشرع دلالة ضرورية على أنه لا حاجة إلى هذه الطريق ، ودل ما فيها من مخالفة نصوص الكتاب والسنة على أنها طريق باطلة ، فدل الشرع على أنه لا حاجة إليها وأنها باطلة .

وأما العقل [١] فقد بسط القول فى جميع ما قيل فيها فى غير هذه المواضع ، وبيّن أن أئمة أصحابها قد يعترفون بفسادها من جهة العقل ، [كما] [٢] يوجد فى كلام أبى حامد والرازى وغيرهما بيان فسادها .

ولما ظهر فسادها للعقل تسلّط الفلاسفة على سالكيها ، وظنت الفلاسفة أنهم [إذا] [٣] قدحوا فيها فقد قدحوا فى دلالة الشرع ، ظنا منهم أن الشرع جاء بموجبها ، إذ كانوا أجهل بالشرع والعقل من سالكيها ، فسالكوها لا للإسلام نصروا ، ولا لأعدائه كسروا ، بل سلّطوا الفلاسفة عليهم وعلى الإسلام ، وهذا كله مبسوط فى مواضع .

وإنما المقصود هنا أن يُعرف أن نفيهم للصفات الاختيارية – التى يسمُّونها حلول الحوادث – ليس لهم دليل عقلى عليه ، وحُذّاقهم يعترفون [٤] بذلك .
وأما السمع فلا ريب أنه مملوء بما يناقضه ، والعقل أيضا يدل على نقيضه [٥] من وجوه نبّهنا على بعضها .

ولما لم يكن مع أصحابها حجة لا عقلية ولا سمعية من الكتاب والسنة ، احتال متأخروهم فسلكوا طريقا سمعية ظنوا أنها تنفعهم ، فقالوا : [٦] هذه

(١) ك : وأما الفعل ، وهو تحريف .
(٢) كما : ساقطة من (ك) .
(٣) إذا : ساقطة من (ك) .
(٤) ز : معترفون .
(٥) ز : يدل نقيضها ، وهو تحريف .
(٦) ك : تنقضهم فقال ، وهو تحريف .

الصفات إن كانت صفات نقص وجب تنزيه الرب عنها ، وإن كانت صفات [(١)] كمال فقد كان فاقداً [لها] [(٢)] قبل حدوثها ، وعدم الكمال نقص ، فيلزم أن يكون كان ناقصا ، وتنزيهه عن النقص واجب بالإجماع .

الرد على حجة للنفاة من وجوه

وهذه الحجة من أفسد الحجج ، وذلك من وجوه :

الأول

أحدها : أن هؤلاء يقولون : نفى النقص عنه لم يُعلم بالعقل وإنما علم بالإجماع ، وعليه اعتمدوا فى نفى النقص [هنا] [(٣)] ، فيعود [الأمر] إلى [(٤)] احتجاجهم بالإجماع . ومعلوم أن الإجماع لا يحتج به فى موارد النزاع [(٥)] ، فإن المنازع لهم يقول : أنا لم أوافقتكم على نفى هذا المعنى ، وإن وافقتكم على إطلاق القول بأن الله منزَّه عن النقص ، فهذا المعنى عندى ليس بنقص ، ولم يدخل فيما [(٦)] سلَّمته لكم ، فإن بيّنتم بالعقل أو بالسمع انتفاءه [(٧)] ، وإلاّ فاحتجاجكم بقولى – مع أنى لم أُرد ذلك – كذب علىَّ ، فإنكم تحتجّون بالإجماع ، والطائفة المثبتة من أهل الإجماع ، وهم لم يسلموا هذا .

الثانى

الثانى : [أن يُقال : لا نسلم] [(٨)] أن عدم هذه الأمور قبل وجودها نقص ، بل لو وُجدت قبل وجودها لكان نقصاً . مثال ذلك : تكليم الله لموسى عليه السلام [(٩)] ونداؤه له ، فنداؤه [(١٠)] حين ناداه صفة كمال ، ولو ناداه قبل أن

---

(١) ز : صفة .

(٢) لها : ساقطة من (ك) فقط .

(٣) هنا : ساقطة من (ك) ، (ض) .

(٤) ك : فيعود إلى ؛ ض : فنعود إلى . والمثبت من (ز) .

(٥) ز : أن الإجماع فى مورد النزاع .

(٦) ك : فيها ، وهو تحريف .

(٧) ز : انتفاوه ، وهو خطأ .

(٨) ما بين المعقوفتين ساقط من (ك) ، (ض) ، وأثبته من (ز) .

(٩) عليه السلام : ليست فى (ز) .

(١٠) ز : ومناداته له فنداه .

يجيء لكان ذلك نقصاً ، فكل منها كمال حين وجوده ، ليس بكمال قبل وجوده ، بل وجوده قبل الوقت الذى تقتضى الحكمة وجوده فيه نقص .

الثالث

الثالث : أن يقال : لا نُسلِّم أن [عدم ذلك نقص ، فإن] ما كان [١] حادثا امتنع أن يكون قديما ، وما كان ممتنعا لم يكن عدمه نقصاً ، إنما النقص فوات [٢] ما يمكن من صفات الكمال .

الرابع

الرابع : أن هذا يرد فى كل ما فعله الرب وخلقه ، فيقال : خَلْقُ هذا : إن كان نقصاً فقد اتصف بالنقص ، وإن كان كمالا فقد كان فاقداً له . فإن قلتم : صفات الأفعال عندنا ليست بنقصٍ ولا كمال . قيل : إذا قلتم ذلك أمكن المنازع أن يقول : هذه الحوادث ليست بنقص ولا كمال .

الخامس

الخامس : أن يقال : إذا عُرض على العقل الصريح ذات يمكنها أن تتكلم بقدرتها وتفعل ما تشاء بنفسها [٣] ، وذات لا يمكنها أن / تتكلم بمشيئتها ولا تتصرَّف بنفسها ألبتة ؛ بل هى بمنزلة الزَّمِن الذى لا يمكنه فعل يقوم به باختياره ، قضى العقل الصريح بأن هذه الذات أكمل ، وحينئذ فأنتم الذين [٤] وصفتم الرب بصفة النقص ، والكمال فى اتصافه [٥] بهذه الصفات ، لا فى نفى اتصافه بها .

ظ ٧٧

السادس

السادس : أن يُقال : الحوادث التى يمتنع كون [٦] كل منها أزليا ، ولا يمكن وجودها إلاّ شيئا فشيئا ، إذا قيل : [أيُّما] [٧] أكمل : أن يقدر على

---

(١) ك : لا نسلم أن كل ما كان .... والمثبت من (ز) ، (ض) .

(٢) ك : نوات ، وهو تحريف .

(٣) ز : بنفسه ، وهو خطأ .

(٤) ك : الذى ، وهو تحريف .

(٥) ك : اتصاله ، وهو تحريف .

(٦) ك : يمتنع يكون ؛ ض : يمتنع أن يكون . والمثبت من (ز) .

(٧) أيّما : ساقطة من (ك) .

فعلها شيئا فشيئا أو لا يقدر على ذلك ؟ كان معلوماً ، بصريح العقل ، أن القادر على فعلها شيئا فشيئا أكمل ممن لا يقدر على ذلك . وأنتم تقولون : إن الرب لا يقدر على شئ من هذه الأمور ، وتقولون : إنه يقدر على أمور مباينة له .

ومعلوم أن قدرة القادر على فعله المتصل به قبل قدرته على أمور مباينة له ، فإذا قلتم : لا يقدر على فعل متصل به ، لزم أن لا يقدر على المنفصل . فلزم على قولكم أن لا يقدر على شئ ، ولا أن يفعل شيئا ، فلزم أن لا يكون خالقاً لشئ . وهذا لازم للنفاة لا محيد لهم عنه .

ولهذا قيل : الطريق التى سلكوها فى حدوث العالم وإثبات الصانع يناقض حدوث العالم وإثبات الصانع ، ولا يصح القول بحدوث العالم وإثبات الصانع إلا بإبطالها لا بإثباتها ، فكأن (1) ما اعتمدوا عليه وجعلوه أصولا للدين ودليلاً عليه ، هو فى نفسه باطل شرعاً وعقلاً ، وهو مناقض للدين ومنافٍ له ، [كما أنه مناقض للعقل ومنافٍ له] (2) .

ولهذا كان السلف والأئمة يعيبون كلامهم هذا ويذمونه ، ويقولون : « من طلب العلم بالكلام تزندق » (3) ، كما قال أبو يوسف ، ويُروى عن مالك . ويقول الشافعى : « حكمى فى أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد والنعال (4) ، ويُطاف بهم فى العشائر (4) ، ويُقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام » (5) ،

---

(١) ك ، ض ، ز : فكان . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من (ك) ، (ض) ، وأثبته من (ز) .

(٣) ز : العلم من بالكلام ، وهو تحريف . وهذا النص ذكره الهروى فى كتاب « ذم الكلام » ونقله عنه السيوطى فى كتابه « صون المنطق والكلام » (تحقيق د . على النشار ، د . سعاد عبد الرازق ، ط . ثانية ، القاهرة ، ١٩٧٠) ١٠٠/١ .

(٤ – ٤) : ساقط من (ز) .

(٥) ذكر هذا النص السيوطى ، صون المنطق ١٠٦/١ .

وقال الإمام [١] أحمد بن حنبل : « علماء الكلام زنادقة ، وما ارتدى [٢] أحد بالكلام فأفلح » [٣] .

وقد صدق الأئمة فى ذلك ، فإنهم يبنون أمرهم على كلام مجمل يَرُوج على من لم يعرف حقيقته ، فإذا اعتقد أنه حق تبين [٤] أنه مناقض للكتاب والسنة ، فيبقى [٥] فى قلبه مرض ونفاق ، وريب وشك ، بل طعن فيما جاء به الرسول .

وهذه هى الزندقة ، وهو كلام باطل من جهة العقل ، كما قال بعض السلف [٦] العلم بالكلام هو الجهل ، فهم يظنون أن معهم عقليات وإنما معهم جهليات : ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ واللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [سورة النور : ٣٩] ، هذا هو الجهل المركب ، [لأنهم] [٧] كانوا فى شك وحيرة فهم فى : ﴿ ظُلُمَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُورٍ ﴾ [سورة النور : ٤٠] .

أين هؤلاء من نور القرآن والإيمان ؟ قال الله تعالى [٨] : ﴿ اللهُ نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ

---

(١) الإمام : ساقطة من (ز) .

(٢) ك : وما ابتدأ ، والمثبت من (ز) ، (ض) .

(٣) ذكر ابن الجوزى نصا قريبا من هذا النص فى « تلبيس إبليس » ص ٨٣ . وانظر ص ٨٢ – ٨٣ ؛ وانظر أيضا : درء تعارض العقل والنقل ١/٢٣٢ ، ٧/١٥٨ ، ٢٤٣ – ٢٤٦ .

(٤) ض : وتبين .

(٥) ك : يبقى ؛ ض : بقى . والمثبت من (ز) .

(٦) ز : بعض العلماء .

(٧) لأنهم : ساقطة من (ك) .

(٨) ز : قال تعالى .

ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة النور : ٣٥] .

فإن قيل : أما كون الكلام والفعل يدخل فى الصفات الاختيارية فظاهر ؛ فإنه يكون بمشيئة الرب وقدرته . وأما الإرادة والمحبة والرضا والغضب ففيه نظر ، فإن [١] نفس الإرادة هى المشيئة ، وهو سبحانه إذا خلق من يحبه – كالخليل – فإنه يحبه ، ويحب المؤمنين ويحبونه .

ص ٧٨ / وكذلك إذا عمل الناس أعمالا يراها [٢] وهذا لازم لابد من ذلك ، فكيف يدخل فى الاختيار ؟

قيل : كل ما كان بعد عدمه فإنما يكون بمشيئة الله وقدرته ، وهو سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فما شاءه [٣] وجب كونه ، وهو يجب بمشيئة [٤] الرب وقدرته ، وما لم يشأه امتنع كونه مع قدرته عليه . كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ [سورة السجدة : ١٣] ، ﴿ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٣] ، ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ [سورة الأنعام : ١١٢] [٥] .

---

(١) ك : كأن ، وهو تحريف .

(٢) ك : رآها .

(٣) ض : فما شاء .

(٤) ك ، ض : وهو تحت مشيئة .

(٥) فى (ز) اختلف ترتيب الآيات وفى آية سورة البقرة زيادة : من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات .

فكون الشئ واجب الوقوع لكونه قد سبق به القضاء ، وعلم [١] أنه لابد من كونه [لا] [٢] يمتنع أن يكون واقعاً بمشيئته وقدرته ، وإرادته – وإن كانت من لوازم ذاته كحياته وعلمه – فإن إرادته للمستقبلات [٣] هى مسبوقة بإرادته للماضى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [سورة يس : ٨٢] ، وهو إنما أراد هذا الثانى بعد أن أراد قبله ما يقتضى إرادته ، فكان حصول الإرادة اللاحقة بالإرادة السابقة .

والناس قد اضطربوا فى مسألة إرادة الله سبحانه وتعالى [٤] على أقوال متعددة ، ومنهم من نفاها . ورجّح الرازى هذا فى « مطالبه العالية » [٥] ، لكن – ولله الحمد – نحن قد قررناها [وبيّناها] [٦] وبيّنا فساد الشبه المانعة منها ، وأن ما جاء به الكتاب والسنة هو الحق المحض الذى تدل عليه المعقولات الصريحة ، وأن صريح العقول موافق لصحيح المنقول .

وكنا قد [٧] بيّنا أولا أنه يمتنع تعارض الأدلة القطعية ، فلا يجوز أن يتعارض دليلان قطعيان ، سواء كانا عقليين أو سمعيين ، أو كان أحدهما عقليا والآخر سمعيا . ثم بيّنا بعد ذلك أنها متوافقة متناصرة متعاضده ، فالعقل يدل على صحة

---

(١) ك ، ض : على .
(٢) لا : ساقطة من (ك) .
(٣) ز : المستقبلات .
(٤) ز : الله تعالى .
(٥) « المطالب العالية » هو آخر ما ألفه فخر الدين الرازى (انظر ترجمته فيما سبق ١/١٨١) ومنه عدة نسخ خطية فى القاهرة واسانبول ، وانظر ما ذكره عنه : محمد صالح الزركان رحمه الله فى كتابه « فخر الدين الرازى وآراؤه الكلامية والفلسفية ، دار الفكر ، ١٣٨٣/١٩٨٣ » ص ٩٤ – ٩٦ .
(٦) وبيناها : زيادة فى (ز) .
(٧) قد : ساقطة من (ز) .

السمع ، والسمع يبين صحة العقل ، وأن من سلك أحدهما أفضى به إلى الآخر ، وأن الذين يستحقون العذاب هم الذين لا يسمعون ولا يعقلون .

كما قال الله تعالى (١) : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [سورة الفرقان : ٤٤] .

وقال تعالى : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِى ضَلاَلٍ كَبِيرٍ ۝ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [سورة الملك : ٨ – ١٠] .

وقال [تعالى] (٢) : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [سورة الحج : ٤٦] .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [سورة ق : ٣٧] .

فقد بيّن القرآن أن من كان يعقل ، أو كان يسمع ، فإنه يكون ناجياً وسعيدا ، ويكون مؤمنا بما جاءت به الرسل . وقد بسطت هذه الأمور فى غير موضع ، والله أعلم .

---

(١) ز : كما قال تعالى .

(٢) تعالى : زيادة فى (ز) .

فصل

فساد حجج النفاة لحلول الحوادث

وفحول النظار : كأبى عبد الله الرازى ، وأبى الحسن الآمدى وغيرهما ذكروا حجج النفاة لحلول الحوادث [١] ، وبيّنوا فسادها [كلها] [٢] فذكروا لهم أربع حجج :

الحجة الأولى

إحداها [٣] : [الحجة] [٤] المشهورة ، وهو أنها لو قامت به لم يخل منها ومن أضدادها ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث ، ومنعوا المقدمة الأولى . والمقدمة الثانية ذكر الرازى وغيره فسادها ، وقد بسط فى غير هذه المواضع .

فساد هذه الحجة

الحجة الثانية

والثانية : أنه لو كان قابلا لها فى الأزل لكان القبول من لوازم ذاته ، فكان [٥] القبول يستدعى إمكان المقبول ، ووجود الحوادث فى الأزل محال ، وهذه أبطلوها هم بالمعارضة بالقدرة : بأنه قادر على إحداث الحوادث ، والقدرة تستدعى إمكان المقدور ، ووجود المقدور – وهو الحوادث – فى الأزل محال .

بطلان هذه الحجة من وجوه

وهذه الحجة / باطلة من وجوه :

ظ ٧٨

الوجه الأول

أحدها : أن يُقال : وجود الحوادث [دائما] [٦] إما أن يكون ممكنا وإما أن يكون ممتنعا [٧] ، فإن كان ممكنا أمكن قبولها والقدرة عليها دائما ، وحينئذ فلا يكون وجود جنسها فى الأزل ممتنعا ، بل يمكن أن يكون جنسها [٨] مقدوراً

(١) ك : لحلول الاتحاد ، وهو خطأ .
(٢) كلها : ساقطة من (ك) .
(٣) ك ، ز : أحدها . والمثبت من (ض) .
(٤) الحجة : زيادة فى (ض) .
(٥) ك : وكان .
(٦) دائما : زيادة فى (ز) .
(٧) ك ، ض : إما أن يكون ممتنعا وإما أن يكون ممكنا ، والمثبت من (ز) .
(٨) ز : جنسا .

مقبولا ، وإن كان ممتنعا فقد امتنع وجود حوادث لا تتناهى ، وحينئذ فلا تكون فى الأزل ممكنة : لا مقدورة ولا مقبولة . وحينئذ فلا يلزم [١] من امتناعها [فى الأزل امتناعها] بعد ذلك [٢] ، فإن الحوادث موجودة ؛ فلا يجوز أن يُقال بدوام امتناعها ، وهذا تقسيم حاصر [٣] يبيّن فساد هذه الحجة .

الوجه الثانى

الوجه الثانى : أن يُقال : لا ريب أن الرب تعالى قادر ، فإما أن يُقال : إنه لم يزل قادراً [٤] ، وإما أن يُقال : بل صار قادراً بعد أن لم يكن . فإن قيل : لم يزل قادراً ، وهو الصواب . فيقال : إذا كان لم يزل قادراً ، فإن كان المقدور لم يزل ممكنا ، أمكن دوام وجود الممكنات ، فأمكن دوام وجود الحوادث ، وحينئذ فلا يمتنع كونه قابلا لها فى الأزل .

وإن [٥] قيل : بل كان الفعل ممتنعا ثم صار ممكنا . قيل : هذا جمع بين النقيضين ، فإن القادر لا يكون قادراً على ممتنع ، فكيف يكون قادراً مع [٦] كون المقدور ممتنعا ؟ ثم يُقال : بتقدير إمكان هذا [كما] [٧] قيل : هو قادر فى الأزل على ما يمكن فيما لا يزال ، [قيل :] [٨] وكذلك فى القبول [٩] ، يُقال : هو قابل فى الأزل لما يمكن فيما لا يزال .

---

(١) ك : فلا يلازم ، وهو تحريف .
(٢) ك : فلا يلزم من امتناعها بعد ذلك ؛ ض : فلا يلزم امتناعها بعد ذلك . والمثبت من (ز) .
(٣) ك : حاضر ، وهو تحريف .
(٤) ك ، ض : لم يزل قادرا وهو الصواب . وجاءت عبارة « وهو الصواب » فى (ز) بعد سطر . وهو الصواب الذى أثبته .
(٥) ك ، ض : فإن .
(٦) ك ، ض : على ، وهو خطأ . والمثبت من (ز) .
(٧) كما : ساقطة من (ك) ، (ض) ، وأثبتها من (ز) .
(٨) قيل : ساقطة من (ك) ، (ض) ، وأثبتها من (ز) .
(٩) ك ، ض : المقبول . والمثبت من (ز) .

الوجه الثالث

الوجه الثالث : [أنه سبحانه] [١] إذا قيل : هو قابل لما فى الأزل [٢] فإنما هو قابل لما هو قادر عليه يمكن وجوده ، فإن ما يكون [٣] ممتنعا لا يدخل تحت القدرة ، فهذا ليس بقابل له .

الوجه الرابع

الرابع : أن يُقال : هو قادر على حدوث ما هو مباين له من المخلوقات . ومعلوم أن قدرة القادر على فعله القائم به أَوْلى من قدرته على المباين له ، وإذا كان الفعل لا مانع منه إلا ما يمتنع [٤] مثله لوجود المقدور المباين ، ثم ثبت أن المقدور المباين هو ممكن وهو قادر عليه ، فالفعل أن [٥] يكون ممكنا مقدوراً أَوْلى .

الحجة الثالثة

إثبات بطلان هذه الحجة

الحجة الثالثة لهم : أنهم قالوا : لو قامت به الحوادث للزم تغيره ، والتغير على الله محال . وأبطلوا هم هذه الحجة – الرازى وغيره – بأن قالوا : ما تريدون بقولكم : لو قامت به [للزم] تغيره [٦] ، أتريدون بالتغير نفس قيامها به أم شئ آخر ؟ فإن أردتم الأول كان المقدّم هو الثانى ، والملزوم هو اللازم ، وهذا لا فائدة فيه ، فإنه يكون تقدير الكلام : لو قامت به الحوادث لقامت به [٧] الحوادث . وهذا كلام لا يفيد .

وإن أردتم بالتغير معنى غير [٨] ذلك فهى ممنو ع ، فلا نسلم أنها لو قامت به لزم تغير غير حلول الحوادث [٩] ، فهذا جوابهم .

---

(١) أنه سبحانه : ساقطة من (ك) ، (ض) ، وأثبتها من (ز) .
(٢) عبارة « لما فى الأزل » : ساقطة من (ز) ومكانها فيها : « لها » .
(٣) ك ، ض : فأما ما .
(٤) ك ، ض : إلا ما يمنع .
(٥) ز : بأن .
(٦) ك : لو قامت به تغيره ؛ ض : لو قامت به تغير . والمثبت من (ز) .
(٧) به : ساقطة من (ز) .
(٨) غير : ساقطة من (ز) .
(٩) ز : فلا نسلم بها لو قامت لزم تغيره غير حلول الحوادث .

المعنى الصحيح للتغير

وإيضاح ذلك : أن لفظ « التغير » لفظ مجمل ، فالتغير فى اللغة المعروفة [١] لا يُراد به مجرد كون المحل قامت به الحوادث ، فإن الناس لا يقولون للشمس والقمر والكواكب إذا تحركت : إنها قد [٢] تغيرت ، ولا يقولون للإنسان إذا تكلم ومشى أنه تغير ، ولا يقولون إذا طاف وصلّى وأمر ونهى وركب : إنه تغير ، إذا كان ذلك عادته ، بل إنما يقولون : « تغير » ، لمن استحال من صفة إلى صفة ، كالشمس [ما] [٣] زال نورها ظاهراً ، لا يقال : إنها تغيرت ، فإذا اصفّرت ، قيل [قد] [٤] تغيرت .

وكذلك الإنسان إذا مرض أو تغير [٥] جسمه بجوع أو تعب [٦] ، قيل : قد تغيّر . وكذلك إذا تغير خلقه ودينه ، / مثل أن يكون فاجراً فيتوب [٧] ويصير [٨] برًّا ، أو يكون برًّا فينقلب فاجراً ، فإنه يقال : قد تغير .

ص ٧٩

ومنه الحديث [٩] : رأيت وجه رسول الله ﷺ متغيرا ، [وهو] لما رأى به [١٠] أثر الجوع ، ولم يزل يراه يركع ويسجد [١١] ، فلم يسم حركته تغيرا .

---

(١) ك : المعروف .

(٢) قد : ساقطة من (ز) .

(٣) ما : ساقطة من (ك) ، وفى (ض) : إذا .

(٤) قد : ساقطة من (ك) ، (ض) .

(٥) ز : وتغير .

(٦) ز : أو بعت ، وهو تحريف .

(٧) ض : فينقلب .

(٨) ز : فيصير .

(٩) ك ، ض : وفى الحديث .

(١٠) ك ، ض : متغيرا لما رأى منه .

(١١) لم أعرف الحديث المقصود ، ولكن ذكر المنذرى فى « الترغيب والترهيب » ١٥٢/٥ – ١٥٣ (ط . مصطفى الحلبى ١٩٣٣/١٣٥٢) عن كعب بن عجرة رضى الله عنه قال : أتيت النبى ﷺ فرأيته متغيرا . فقلت : بأبى أنت وأمى مالى أراك متغيرا ؟ قال : ما دخل جوفى ما يدخل جوف ذات كبد منذ ثلاث ... الحديث . وقال المنذرى : « رواه الطبرانى ، ولا يحضرنى الآن إسناده ، إلا أن شيخنا الحافظ أبا الحسن رحمه الله كان يقول : إسناده جيد » .

وكذلك يقال فلان قد تغير على فلان : إذا صار يبغضه بعد المحبة (١ ، فأما إذا كان ثابتا (٢) على مودته لم يسم هشَّته إليه وخطابه له تغيراً ١) ، وإذا جرى (٣) على عادته فى أقواله وأفعاله فلا يقال إنه قد تغير .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [سورة الرعد : ١١] . ومعلوم أنهم إذا كانوا على عادتهم المحمودة : يقولون ويفعلون ما هو خير ، لم يكونوا قد غيروا ما بأنفسهم . فإذا انتقلوا عن ذلك فاستبدلوا بقصد الخير قصد الشر ، وباعتقادهم الحق (٤) اعتقاد الباطل ، قيل : قد غيّروا ما بأنفسهم ، مثل من كان يحب الله ورسوله والدار الآخرة ، فتغيّر قلبه ، وصار لا يحب الله ورسوله والدار الآخرة ، فهذا قد غيّر ما فى نفسه .

وإذا كان هذا معنى التغير ، فالرب تعالى لم يزل ولا يزال موصوفا بصفات الكمال ، منعوتا بنعوت الجلال والإكرام ، وكماله من لوازم ذاته ، فيمتنع أن يزول عنه شئ من صفات كماله ، ويمتنع أن يصير ناقصا بعد كماله .

وهذا الأصل عليه [يدل] (٥) قول السلف وأهل السنة : إنه لم يزل متكلما إذا شاء ، ولم يزل قادراً ، ولم يزل موصوفاً بصفات الكمال ، ولا يزال كذلك ، فلا يكون متغيراً .

وهذا معنى قول من يقول : « يا مَن يُغيِّر ولا يتغيّر » فإنه يحيل صفات المخلوقات ويسلبها ما كانت متصفة [به] (٦) إذا شاء ، ويعطيها (٧) من صفات الكمال ما لم يكن لها ، وكماله من لوازم ذاته : لم يزل ولا يزال موصوفا بصفات الكمال .

(١ - ١) : ساقط من (ز) .

(٢) ض : فإذا كان ثابتا .

(٣) ز : وإما إذا جرى ...

(٤) ك ، ض : وباعتقاد الحق . والمثبت من (ز) .

(٥) يدل : ساقطة من (ك) ، (ض) ، وأثبتها من (ز) .

(٦) به : ساقطة من (ك) .

(٧) ك : ويعطلها . والمثبت من (ز) ، (ض) .

قال تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [سورة القصص . ٨٨] . وقال تعالى : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ ﴾ [سورة الرحمٰن : ٢٦ ، ٢٧] .

ولكن هؤلاء النفاة هم الذين يلزمهم أن يكون قد تغيّر ، فإنهم يقولون : كان فى الأزل لا يمكنه أن يقول شيئا ، ولا يتكلم بمشيئته وقدرته ، وكان ذلك (١) ممتنعا عليه لا يتمكن منه ، ثم صار الفعل ممكنا يمكنه أن يفعل .

ولهم فى الكلام قولان . فمن أثبت (٢) الكلام المعروف ، وقال : إنه يتكلم بمشيئته وقدرته ، قال أيضا (٣) : إنه صار الكلام ممكنا له بعد أن كان ممتنعا عليه .

ومن لم يصفه بالكلام المعروف ، بل قال : إنه يتكلم بلا مشيئته وقدرته (٤) ، كما تقوله الكُلاَّبية ، فهؤلاء (٥) أثبتوا كلاما لا يُعقل ولم يسبقهم إليه أحد من المسلمين .

بل كان المسلمون قبلهم على قولين : فالسلف وأهل السنة يقولون : إنه يتكلم بمشيئته وقدرته ، وكلامه غير مخلوق . والجهمية يقولون : إنه مخلوق بقدرته ومشيئته . فقال هؤلاء : بل يتكلم بلا مشيئته وقدرته ، وكلامه شئ واحد لازم لذاته ، وهو حرف – أو حروف (٦) – وأصوات أزلية لازمة لذاته ، كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

---

(١) ز : ولا يتكلم بمشيئته فكان ذلك ...
(٢) ك ، ض : من يثبت . والمثبت من (ز) .
(٣) أيضا : ساقطة من (ض) .
(٤) ض : بلا مشيئة ولا قدرة .
(٥) ز : فهو . وهو تحريف .
(٦) ز : وهو حروف .

والمقصود أن هؤلاء كلهم الذين يمنعون أن [يكون] [١] الرب لم يزل يمكنه أن يفعل ما يشاء [٢] ، ويقولون : ذلك يستلزم وجود حوادث لا تتناهى ، وذلك محال ؛ فهؤلاء يقولون : صار الفعل ممكنا له بعد أن كان ممتنعاً عليه .

وحقيقة قولهم : إنه صار قادراً بعد أن لم يكن قادراً . وهذا حقيقة التغير ، مع أنه لم يحدث سبب يوجب كونه قادراً .

وإذا قالوا : هو فى الأزل قادر على ما لا يزال .

قيل : هذا جمع بين النفى والإثبات ، فهو فى الأزل كان قادراً ، فكان الفعل ممكنا له [٣] أو ممتنعا عليه ؟

إن قلتم : ممكن له ، فقد جوَّزتم دوام كونه فاعلاً ، وأنه قادر / على حوادث لا نهاية لها . ظ ٧٩

وإن قلتم : بل كان ممتنعا . قيل [٤] : القدرة على الممتنع [ممتنعة] [٥] ، فمع كون [٦] الفعل ممتنعا غير ممكن ، لا يكون مقدوراً للقادر ، إنما المقدور هو الممكن لا الممتنع .

فإذا قلتم : أمكنه بعد ذلك . فقد قلتم : إنه أمكنه أن يفعل بعد أن كان لا يمكنه أن يفعل . وهذا صريح فى أنه صار قادراً بعد أن لم يكن ، وهو صريح فى التغير .

---

(١) يكون : ساقطة من (ك) ، (ض) . وأثبتها من (ز) .
(٢) ك ، ض : ما شاء . والمثبت من (ز) .
(٣) ز : وكان الفعل ممكنا له ؛ ض : أفكان القول ممكنا له .
(٤) ك : قبل . وهو تحريف .
(٥) ممتنعة : ساقطة من (ك) ، (ض) . وأثبتها من (ز) .
(٦) ض : مع كون .

فهؤلاء النفاة الذين قالوا : إن المثبتة يلزمهم القول بأنه تغير ، قد بان بطلان قولهم ، وأنهم هم الذين قالوا بما يوجب [١] تغيره .

وإذا قال المنازع [٢] : أنا أريد بكونه تغير [٣] : أنه يتكلم [٤] بمشيئته وقدرته ، وأنه يحب من أطاعه [٥] ، ويفرح بتوبة التائب ، ويأتى يوم القيامة .

قيل : فهب أنك سمَّيت هذا تغيّراً ، فلم قلت : إن هذا ممتنع ؟

فهذا محل النزاع ، كما قال الرازى : « فالمقدم هو التالى » [٦] .

وقد [٧] ثبت فى الأحاديث الصحيحة أن الله يوصف بالغيرة ، وهى مشتقة من التغير . فقال ﷺ فى الحديث الصحيح : « لا أحد أَغْيَر من الله أن يزنى عبده أو تزنى أمته » [٨] .

---

(١) ض : إنما يوجب ، وهو تحريف . والمثبت من (ك) ، (ز) .

(٢) سبق العبارات التى تبدأ بجملة : « وإذا قال المنازع » كلام فى نسخة (ك) – ونقلته نسخة (ض) – هو فى غير موضعه ، وقد استغرق ثلاثة أسطر . والذى أثبته هو الذى فى نسخة (ز) وهو الصواب ، وسأشير إلى الكلام الذى جاء فى غير موضعه عندما نصل إليه إن شاء الله .

(٣) ض : تغير ، وهو تحريف .

(٤) ك ، ض : تكلم . والمثبت من (ز) .

(٥) ض (فقط) : وأنه يحب منا الطاعة .

(٦) ض (فقط) : هو الثانى ، وهو خطأ .

(٧) ض (فقط) : فقد .

(٨) الحديث عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها فى : البخارى ٣٥/٧ (كتاب النكاح ، باب الغيرة) ولفظه فيه : « يا أمة محمد ما أحد أغير من الله أن يرى عبده أو أمته يزنى . يا أمة محمد لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » . وجاء الحديث عنها – مطولا ، وأوله : خسفت الشمس فى عهد رسول الله .... الحديث . ومنه : فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله .... » ثم قال : « يا أمة محمد ، والله ما من أحد أغير .... الحديث . وهو – مع اختلاف يسير فى الألفاظ – فى البخارى ٣٤/٢ (كتاب الكسوف ، باب الصدقة فى الكسوف) ؛ مسلم ٦١٨/٢ (كتاب الكسوف ، باب صلاة الكسوف) ؛ سنن النسائى ١٠٨/٣ (كتاب الكسوف ، باب نوع آخر منه (من صلاة الكسوف) ؛ المسند (ط . الحلبى) ١٦٤/٦ .

وقال أيضا : « لا أحد أحب إليه المدح من الله ، من أجل ذلك مدح نفسه ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك بعث الرسل وأنزل الكتب [(١)] ، ولا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » [(٢)] .

[وفى الحديث الصحيح أيضا لما قال سعد بن عبادة : لو رأيت لَكَاع - يعنى امرأة سعد [(٣)] - قد تفخّذها رجل لضربته بالسيف] [(٤)] فقال [(٥)] : أتعجبون من غيرة سعد ، لأنا أُغْيَر منه ، والله أغير منى » [(٦)] .

---

(١) ز : من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين . وهى من ألفاظ الحديث .

(٢) الحديث - مع اختلاف فى الألفاظ - عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى : البخارى ٥٧/٦ (كتاب التفسير ، تفسير سورة الأنعام ، باب ولا تقربوا الفواحش) ، ٣٥/٧ (كتاب النكاح ، باب الغيرة) ، ١٢٠/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ويحذركم الله نفسه) ؛ مسلم ٢١١٣/٤ - ٢١١٤ (كتاب التوبة ، باب غيرة الله تعالى) ؛ سنن الترمذى ٢٠٠/٥ - ٢٠١ (كتاب الدعوات ، باب حدثنا محمد بن بشار) ؛ المسند (ط . المعارف) ٢١٩/٥ - ٢٢٠ ، ٥٦/٦ - ٥٧ ، ٥٩ ؛ سنن الدارمى ١٤٩/٢ (كتاب النكاح ، باب فى الغيرة) .

(٣) فى الأصل (ز) يوجد بياض بعد كلمة امرأة ، ويبدو أنه مكان كلمة محاها الناسخ . وفى « لسان العرب » : « والمرأة لكاع مثل قطام .... وقالوا فى النداء للرجل : يا لُكَعُ ، وللمرأة : يا لَكاع .... وفى حديث سعد بن معاذ : أرأيت إن دخل رجل بيته فرأى لُكاعا قد تفخّذ امرأته ، أيذهب فيحضر أربعة شهداء ؟ » .

(٤) ما بين المعقوفتين ساقط من (ك) ، (ض) ، وأثبته من (ز) .

(٥) ك ، ض : وقال . والمثبت من (ز) .

(٦) جاء الحديث مطولا ومختصرا مع اختلاف فى الألفاظ عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه فى : البخارى ١٧٣/٨ (كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة ، باب من رأى مع امرأته رجلا فقتله) ، ١٢٣/٩ - ١٢٤ (كتاب التوحيد ، باب قول النبى ﷺ : لا شخص أغير من الله) ؛ مسلم ١١٣٥/٢ - ١١٣٦ (كتاب اللعان ، الأحاديث ١٤ - ١٧) ؛ سنن الدارمى ١٤٩/٢ (كتاب النكاح ، باب فى الغيرة) .

الحجة الرابعة

(١ **الحجة الرابعة** : قالوا : حلول الحوادث به أُفُول ، والخليل قد قال : ﴿ لاَ أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٦] . والآفل هو المتحرك الذى تقوم به الحوادث ، فلا يكون إلٰها ١) .

الرد عليها

والجواب : أن قصة الخليل حجة عليهم لا لهم ، وهم المخالفون لإبراهيم ، ولنبيّنا ، ولغيرهما من الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام . وذلك أن الله تعالى قال : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الْآفِلِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۞ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٦ – ٧٩] .

فقد أخبر الله فى كتابه أنه من حين بزغ الكوكب والقمر والشمس ، وإلى حين أفولها ، لم يقل الخليل : لا أحب البازغين ، ولا المتحركين ، ولا المتحولين ، ولا أحب من تقوم به الحركات ولا الحوادث . ولا قال شيئا مما يقوله النفاة ، حتى (٢) أفل الكوكب والشمس والقمر .

والأفول باتفاق أهل اللغة والتفسير ، هو المغِيب (٣) والاحتجاب ، بل هذا معلوم بالاضطرار من لغة العرب التى نزل بها القرآن ، وهو المراد باتفاق العلماء .

(١ – ١) :هذه العبارات جاءت فى (ك) ، (ض) فى غير موضعها حيث أشرت إليها من قبل . والذى أثبته هنا هو الذى فى (ز) ، وهو الصواب .

(٢) ض (فقط) : حين .

(٣) ك ، ض : الغيب .

فلم يقل إبراهيم : لا أحب الآفلين ، حتى [١] أفل وغاب عن الأبصار ، فلم يبق مرئيا ولا مشهودًا ، فحينئذ قال : لا أحب الآفلين . وهذا يقتضى أن كونه متحركا منتقلا تقوم به الحوادث ، بل كونه جسما متحركا تقوم به الحوادث ، لم يكن دليلا عند إبراهيم على نفى محبته .

فإن كان إبراهيم إنما استدل بالأفول على أنه ليس هو رب العالمين كما زعموا ، لزم من ذلك أن يكون ما تقدّم الأفول [٢] من كونه متحركا منتقلا تحله الحوادث ، بل ومن كونه جسما متميزاً ، لم يكن دليلا / عند إبراهيم على أنه ليس رب العالمين ، وحينئذ فيلزم أن تكون قصة إبراهيم حجة على نقيض مطلوبهم ، لا على نفس مطلوبهم [٣] . وهكذا نجد [٤] أهل البدع لا يكادون يحتجون بحجة سمعية ولا عقلية ، إلا وهى عند التأمل [٥] حجة عليهم لا لهم .

ص ٨٠

ولكن إبراهيم لم يقصد بقوله : (هذا ربى) أنه رب العالمين ، ولا كان أحد من قومه يقول [٦] : إنه رب العالمين ، حتى يرد ذلك عليهم [٧] ، بل كانوا مشركين مقرِّين بالصانع ، وكانوا يتخذون الكواكب والشمس والقمر أربابا ، يدعونها [٨] من دون الله ، ويبنون لها الهياكل . وقد صُنِّفت [٩] فى مثل مذهبهم كتب ، مثل كتاب

---

(١) ض : حين .
(٢) ك : ما يقوم الأفول ؛ ض : ما يقوم به الأفول . والمثبت من (ز) .
(٣) ك ، ض : لا على تعيين مطلوبهم . والمثبت من (ز) .
(٤) نجد : ساقطة من (ض) .
(٥) ك : عند التأويل .
(٦) ك ، ض : يقولون .
(٧) ض : من تجويز ذلك عليهم ، وهو تحريف .
(٨) ز : يدعونهم .
(٩) ز : صنف .

« السر المكتوم ، فى السحر ومخاطبة النجوم » [١] وغيره من الكتب .

ولهذا قال الخليل : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُم تَعْبُدُونَ ۝ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ۝ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّى إِلاَّ رَبَّ الْعَالِمِينَ ﴾ [سورة الشعراء ٧٥ - ٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ﴾ [سورة الممتحنة : ٤] .

ولهذا قال الخليل فى تمام الكلام : ﴿ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۝ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٨ ، ٧٩] . [فقوله : (وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين)] [٢] يبيِّن [٣] أنه إنما يعبد الله وحده ، فله يوجه وجهه ، فإنه [إذا] توجه [٤] قصده إليه تبع [٥] قصده وجهه ، فالوجه موجه [٦] حيث توجه القلب ، فصار قلبه وقصده ووجهه متوجها إلى الله تعالى .

ولهذا قال : (وما أنا من المشركين) لم يذكر أنه أقر بوجود الصانع ، فإن هذا كان معلوماً عند قومه ، لم يكونوا ينازعونه فى وجود فاطر السمٰوات والأرض ،

---

(١) ز : فى مخاطبة النجوم . وقد ذكر هذا الكتاب ابن خلكان (وفيات الأعيان ٣/٣٨١) وابن حجر (لسان الميزان ٤/٤٢٦) والزركلى (الأعلام ٧/٢٠٣) . ومنه نسخ خطية عديدة . انظر ما ذكره بروكلمان فى GAL : GI, 507, SI, 735, 920-924, S.III, 1085 . والأستاذ محمد صالح الزركان فى كتابه « فخر الدين الرازى » ص ١٠٩ - ١١١ ، ط . دار الفكر ، بيروت ، ١٣٨٣/١٩٦٣ .

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من (ك) ، (ض) ، وأثبته من (ز) .

(٣) ك ، ض : بين .

(٤) ك ، ض : .... وجهه إذا توجّه .... ؛ ز : فإنه أراد توجه . ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) ض (فقط) : يتبع .

(٦) ك ، ض : توجه .

وإنما كان النزاع فى عبادة غير الله واتخاذه ربًّا ، وكانوا يعبدون الكواكب السماوية ويتخذون لها أصناما أرضية .

وهذا النوع الثانى من الشرك ، فإن الشرك فى قوم نوح كان أصله من عبادة الصالحين أهل القبور ، ثم صوَّروا تماثيلهم ، فكان شركهم بأهل الأرض ، إذ كان الشيطان إنما يضل الناس بحسب الإمكان ، فكان تزيينه [1] أولا الشرك بالصالحين أيسر عليه .

ثم قوم إبراهيم انتقلوا إلى الشرك بالسماويات ، فالكواكب [2] وضعوا لها الأصنام بحسب ما رأوه من طبائعها ، يصنعون لكل كوكب [بيتا] وطعاما [3] وخاتما وبخورا وأقوالا [4] تناسبه .

وهذا كان قد اشتهر على عهد إبراهيم إمام الحنفاء . ولهذا قال الخليل : ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۞ أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ ۞ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الصافات : ٨٥ - ٨٧] [5] . وقال لهم : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۞ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الصافات : ٩٥ ، ٩٦] .

وقصة إبراهيم قد ذكرت فى غير موضع من القرآن مع قومه : إنما فيها نهيهم عن الشرك ، بخلاف قصة موسى مع فرعون ، فإنها ظاهرة فى أن فرعون كان مظهراً لإنكار الخالق وجحوده .

---

(١) ض : ترتيبه . والكلمة غير منقوطة فى (ز) وغير واضحة فى (ك) . ولعل ما أثبته هو الصواب .

(٢) ك ، ض : بالكواكب .

(٣) ك ، ض : لكل كوكب طعاما . والمثبت من (ز) .

(٤) ض : وأموالا .

(٥) جاءت الآية ٨٥ من سورة الصافات محرفة فى (ك) .

وقد ذكر الله عن إبراهيم أنه حاجّ الذى حاجّه فى ربه فى قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٨] فهذا قد يقال : إنه كان جاحداً للصانع ، ومع هذا فالقصة ليست صريحة فى ذلك ، بل يدعو الإنسان إلى عبادة نفسه ، وإن كان لا يصرح بإنكار الخالق ، مثل إنكار فرعون .

وبكل حال فقصد إبراهيم إلى أن تكون حجة عليهم أقرب منها إلى أن تكون حجة لهم ، وهذا بيّن ، ولله الحمد ، بل ما ذكره الله عن إبراهيم يدل على أنه كان يثبت ما ينفونه عن الله ، فإن إبراهيم قال : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [سورة إبراهيم : ٣٩] والمراد أنه [(١)] يستجيب الدعاء ، كما يقول المصلى : سمع الله لمن حمده ، وإنما يسمع [(٢)] الدعاء ويستجيبه بعد / وجوده لا قبل وجوده . ظ ٨٠

كما قال تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾ [سورة المجادلة : ١] ، فهى تجادل وتشتكى حال سمع الله تحاورهما [(٣)] ، وهذا يدل على أن سمعه كرؤيته المذكورة فى قوله : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة التوبة : ١٠٥] وقال : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة يونس : ١٤] فهذه رؤيه مستقلة ونظر مستقل . وقد تقدم أن المعدوم لا يُرى ولا يُسمع منفصلا عن الرائى السامع باتفاق العقلاء ، فإذا وُجدت الأقوال والأعمال سمعها ورآها [(٤)] .

---

(١) ك ، ض : والمراد به أنه ...
(٢) ك : يستمع .
(٣) ك : تجاورها ، وهو تحريف .
(٤) ز : الأعمال والأقوال رآها وسمعها .

والرؤية والسمع أمر وجودى لابد له من موصوف يتصف به ، فإذا كان هو الذى رآها وسمعها ، امتنع أن يكون غيره هو المتصف بهذا السمع وهذا الرؤية ، وأن تكون قائمة بغيره ، فتعين قيام (١) هذا السمع وهذه الرؤية به ، بعد أن خُلقت الأعمال والأقوال ، وهذا قطعى (٢) لا حيلة فيه .

وقد بُسط الكلام على هذه المسألة ، وما قاله (٣) فيها عامة الطوائف ، فى غير هذا الموضع ، وحُكيت ألفاظ الناس [وحججهم] (٤) بحيث يتقين الإنسان أن النافى ليس معه حجة لا سمعية ولا عقلية ، وأن الأدلة العقلية الصريحة موافقة لمذهب السلف وأهل الحديث (٥) ، وعلى ذلك يدل الكتاب والسنة ، مع الكتب المتقدمة : التوراة والإنجيل والزبور ، فقد اتفق عليها نصوص الأنبياء وأقوال السلف وأئمة العلماء ، ودلت عليها (٦) صرائح المعقولات .

فالمخالف فيها كالمخالف فى أمثالها ممن ليس معه حجة لا سمعية ولا عقلية ، بل هو شبيه بالذين قالوا : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [سورة الملك : ١٠] . قال الله تعالى (٧) : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّها لاَ تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴾ [سورة الحج : ٤٦] (٨) .

---

(١) ك : مقام ، وهو تحريف .

(٢) ك ، ض : مطعن .

(٣) ك ، ض : وما قال .

(٤) وحججهم : ساقطة من (ك) ، (ض) .

(٥) ز : لمذهب أهل الحديث والسلف .

(٦) ز : عليه .

(٧) ز : وقال تعالى .

(٨) فى (ك) ، (ض) ، (ز) حرفت الآية إلى أو لم يسيروا ....

ولكن هذه المسألة ومسألة الزيارة وغيرهما حدث من المتأخرين فيها شبه .
وأنا وغيرى كنا على مذهب الآباء فى ذلك : نقول فى الأصلين بقول أهل البدع ، فلما تبين لنا ما جاء به الرسول دار الأمر بين أن نتبع ما أنزل الله ، أو نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، فكان الواجب هو اتباع الرسول ، وأن لا نكون ممن قيل فيه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ [سورة لقمان : ٢١] .

وقد قال تعالى : ﴿ قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ﴾ [سورة الزخرف : ٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ [سورة لقمان : ١٥] .

فالواجب اتّباع الكتاب المنزّل والنبى المرسل ، وسبيل من أناب إلى الله فاتّبع الكتاب والسنة ، كالمهاجرين والأنصار ، دون ما خالف ذلك من دين الآباء وغير الآباء ، والله يهدينا وسائر إخواننا إلى الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم [١] من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .

والله سبحانه أنزل القرآن ، وهدى به الخلق ، وأخرجهم به من الظلمات إلى النور . وأم القرآن هى فاتحة الكتاب ، قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « يقول الله : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين : نصفها لى ، ونصفها لعبدى ، ولعبدى ما سأل . فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين ، قال الله : حمدنى عبدى . فإذا قال : الرحمن / الرحيم ، قال الله [٢] : أثنى علىَّ عبدى . فإذا ص ٨١

(١) ض (فقط) : أنعم الله عليهم .
(٢) ز : قال يقول الله .

قال : مالك يوم الدين . قال الله [١] : مجدّنى عبدى [وقال مرة : فوّض إلى عبدى] [٢] . فإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين . قال الله [٣] : هذه [٤] بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل . فإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . قال : هؤلاء [٥] لعبدى ولعبدى ما سأل » [٦] .

فهذه السورة فيها لله الحمد فى الدنيا [٧] والآخرة ، وفيها للعبد [٨] السؤال ، وفيها لله العبادة له وحده [٩] ، وللعبد [١٠] الاستعانة ، فحق الرب حمده وعبادته وحده ، وهذان [١١] : حمد الرب وتوحيده ، يدور عليهما جميع الدين .

ومسألة الصفات الاختيارية هى من تمام حمده ، فمن لم يقر بها لم يمكنه الإقرار بأن الله محمود ألبتة ، ولا أنه رب العالمين ، فإن الحمد ضد الذم ، والحمد هو الإخبار بمحاسن المحمود مع المحبة له ، والذم هو الإخبار بمساوئ المذموم مع البُغض له .

---

(١) كلمة « الله » ليست فى (ز) .
(٢) ما بين المعقوفتين زيادة فى (ز) .
(٣) كلمة « الله » ليست فى (ز) .
(٤) ز : هذا .
(٥) ز : هذا .
(٦) سبق الحديث فى هذا الجزء (ص ٢٤ – ٢٥) .
(٧) ك ، ض : فيها لله الحمد فله الحمد فى الدنيا .... والمثبت من (ز) .
(٨) ز : للعبدى ، وهو تحريف .
(٩) ك ، ض : وفيها العبادة لله وحده . والمثبت من (ز) .
(١٠) ز : للعبد .
(١١) ز : وهو أن ، وهو تحريف .

وجماع المساوىء فعل الشر ، كما أن جماع المحاسن فعل الخير ، فإذا كان يفعل الخير بمشيئته وقدرته استحق الحمد ، فمن لم يكن له فعل اختيارى يقوم به ، بل ولا يقدر على ذلك ، لا يكون خالقا ولا ربًّا للعالمين .

[والله تعالى يحمد نفسه بأفعاله ، لقوله : ﴿ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الفاتحة : ٢]] [١] ، وقوله : ﴿ الْحَمْدُ للهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ [سورة الأنعام : ١] ، ﴿ ٱلْحَمْدُ للهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَى عَبْدِه الكِتَابَ ﴾ [سورة الكهف : ١] ونحو ذلك ، فإذا لم يكن له فعل يقوم به باختياره امتنع ذلك كله ، فإنه من المعلوم بصريح العقل أنه إذا خلق السمٰوات والأرض فلابد من فعل يصير به [٢] خالقا [لها] [٣] ، وإلا فلو استمر الأمر على حال واحدة ولم [٤] يحدث فعلا ، لكان الأمر على ما كان [عليه] [٥] قبل أن يخلق ، وحينئذ فلم يكن المخلوق موجوداً ، فكذلك يجب أن لا يكون المخلوق موجودا ، إن كان الحال فى المستقبل مثلما كان فى الماضى ، لم يحدث من الرب فعل هو خلق السمٰوات والأرض .

وقد قال تعالى : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [سورة الكهف : ٥١] . ومعلوم أنهم قد شهدوا نفس المخلوق ، فدل على أن الخلق [الذى] [٦] لم يشهدوه ، وهو تكوينه لهما [٧] وإحداثه لهما [٨] غير المخلوق التالى [٩] .

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من (ك) ، (ض) ، وأثبته من (ز) .
(٢) به : ساقطة من (ز) .
(٣) لها : زيادة فى (ز) .
(٤) ك ، ض : ... واحدة لم ...
(٥) عليه : ساقطة من (ك) ، (ض) .
(٦) الذى : ساقطة من (ك) ، (ض) ، وأثبتها من (ز) .
(٧) ك ، ض : لها .
(٨) ك ، ض ، ز : لها . ولعل الصواب ما أثبته .
(٩) ك ، ض : الباقى .

وأيضا فإنه قال : ﴿ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٤] ، فالخلق لها كان فى ستة أيام ، وهى موجودة بعد الستة (١) ، فالذى اختص بالستة (٢) غير الموجود بعد الستة (٣) .

وكذلك [قال] (٤) : ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ [سورة الفاتحة : ٣] فإن الرحمن الرحيم هو الذى يرحم العباد (٥) بمشيئته وقدرته ، فإن لم يكن له رحمة إلا نفس الإرادة (٦) القديمة ، أو صفة أخرى قديمة ، لم يكن موصوفا بأنه يرحم من يشاء ويعذب من يشاء .

قال الخليل (٧) : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ [سورة العنكبوت : ٢٠ ، ٢١] ، فالرحمة ضد التعذيب ، والتعذيب فعله ، وهو يكون بمشيئته ، وكذلك (٨) الرحمة تكون بمشيئته ، كما قال : ﴿ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ﴾ . والإرادة القديمة اللازمة لذاته، أو صفة أخرى كذلك(٩)، ليست بمشيئته ، فلا تكون الرحمة بمشيئته .

وإن قيل ليس بمشيئته إلا المخلوقات المباينة ، لزم أن لا تكون [الرحمة] (١٠)

---

(١) ك ، ض : بعد المشيئة .

(٢) ك ، ض : بالمشيئة .

(٣) ك ، ض : المشيئة .

(٤) قال : ساقطة من (ك) ، (ض) .

(٥) ز : العياد ، وهو تحريف .

(٦) ك ، ض : إرادة ، وهو تحريف .

(٧) عبارة « قال الخليل » : ساقطة من (ز) .

(٨) ك ، ض : كذلك .

(٩) ض : لذاته .

(١٠) الرحمة : ساقطة من (ك) ، (ض) ، وأثبتها من (ز) .

صفة للرب بل تكون مخلوقة له ، وهو إنما يتصف بما يقوم به ، لا يتصف بالمخلوقات ، فلا يكون هو الرحمٰن الرحيم .

وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « لما قضى الله الخلق كتب فى كتاب فهو موضوع عنده فوق العرش : إن رحمتى تغلب غضبى » وفى رواية : « تسبق غضبى » [(١)] ، وما كان سابقا لما يكون بعده لم يكن / إلا بمشيئة الرب وقدرته . ومن قال ما ثمّ رحمة إلا إرادة قديمة ، أو ما يشبّهها ، امتنع أن يكون له غضب مسبوق بها ، فإن الغضب إن فُسِّر بالإرادة فالإرادة لم تسبق نفسها ، وكذلك [إن] [(٢)] فُسِّر بصفة قديمة العين ، فالقديم لا يسبق بعضه بعضا ، وإن فسر بالمخلوقات لم يتصف برحمة ولا غضب .

ظ ٨١

وهو قد فرَّق بين غضبه وعقابه بقوله : ﴿ فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾ [سورة النساء : ٩٣] ، وقوله : ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ [سورة الفتح : ٦] .

(* وفى الحديث الذى رواه [عبد الله بن عمرو بن العاص] [(٣)] عن النبى

---

(١) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ٤/١٠٦ (كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء فى قوله تعالى : وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده) ، ٩/١٥٩ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : بل هو قرآن مجيد) ؛ مسلم ٤/٢١٠٧ - ٢١٠٨ (كتاب التوبة ، باب فى سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه) ؛ سنن الترمذى ٥/٢٠٩ - ٢١٠ (كتاب الدعوات ، باب ١٠٩) ؛ سنن ابن ماجة ٢/١٤٣٥ (كتاب الزهد ، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة) ؛ المسند (ط . المعارف) ١٣/٢٣ ، ٢٤٣ ، ٢٦٥ ، (ط . الحلبى) ٢/٣١٣ ، ٣٥٨ ، ٣٨١ .

(٢) إن : ساقطة من (ك) ، وأثبتها من (ز) ، (ض) .

(* - *) ما بين النجمتين ساقط من (ز) .

(٣) ما بين المعقوفتين ساقط من (ك) ومكانه بياض فيها ، وفى (ض) : رواه الإمام أحمد عن النبى .. إلخ . ولعل الصواب ما أثبته .

ﷺ أنه كان يقول : « أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه ، ومن شر عباده ، ومن همزات الشياطين ، وأن يحضرون » * [١] .

ويدل على ذلك قوله : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ [سورة الإسراء : ٥٤] فعلّق الرحمة بالمشيئة ، كما علق التعذيب [بالمشيئة] [٢] ، وما تعلّق بالمشيئة مما يتصف به الرب فهو من الصفات الاختيارية .

وكذلك كونه مالكا ليوم الدين ، يوم [٣] يدين العباد بأعمالهم : إن خيراً فخير ، وإن شرًّا فشر : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ [سورة الانفطار : ١٧ - ١٩] [٤] ، فإن الملك هو الذى يتصرف [بالأمر] يأمر فيطاع [٥] ، ولهذا إنما يقال : « ملك » لحيٍّ مطاع الأمر [٦] ، لا يقال فى الجمادات لصاحبها : « ملك » ، إنما يقال له : « مالك » . ويقال ليعسوب النحل : « ملك النحل » لأنه يأمر فيُطاع ، والمالك القادر على التصرف فى المملوك .

---

(١) الحديث عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (وهو عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما) فى : سنن أبى داود ١٧/٤ (كتاب الطب ، باب كيف الرق) ؛ سنن الترمذى ٢٠٠/٥ (كتاب الدعوات ، باب ٩٦) وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب . وأول الحديث عنده : « إذا فزع أحدكم فى النوم فليقل : أعوذ بكلمات ... الحديث . وهو عنه أيضا فى المسند (ط . المعارف) ٢٢٢/١٠ - ٢٢٣ . والحديث - مع اختلاف يسير فى الألفاظ - عن الوليد بن الوليد رضى الله عنه فى المسند (ط . الحلبى) ٥٥٧/٤ ، ٦/٦ . وعن يحيى بن سعيد عن خالد بن الوليد رضى الله عنه فى : الموطأ ٩٥٠/٢ (كتاب الشعر ، باب ما يؤمر به من التعوذ) .

(٢) بالمشيئة : ساقطة من (ك) ، (ض) ، وأثبتها من (ز) .

(٣) يوم : ساقطة من (ز) .

(٤) فى (ك) ، (ض) ، (ز) : يوم الدين وما أدراك ما يوم الدين يوم ... إلخ .

(٥) ك ، ض : يتصرف بأمر فيطاع . والمثبت من (ز) .

(٦) ك ، ز : لحى مطيع الأمر . والمثبت من (ض) .

وإذا كان الملك هو الآمر الناهى المطاع ، فإن كان يأمر وينهى بمشيئته كان أمره ونهيه من الصفات الاختيارية ، وبهذا أخبر القرآن . قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [سورة المائدة : ١] .

وإن كان لا يأمر وينهى بمشيئته ، بل أمره لازم له حاصل بغير مشيئته ولا قدرته ، لم يكن هذا مالكا أيضا ، بل هذا إلى أن يكون مملوكا [أقرب] (١) ، فإن الله تعالى خلق الإنسان ، وجعل له صفات تلزمه ، كاللون (٢) والطول والعرض والحياة (٣) ، ونحو ذلك ، مما يحصل (٤) لذاته بغير اختياره ، فكان (٥) باعتبار ذلك (٦) مملوكا مخلوقا للرب فقط ، وإنما يكون ملكا إذا كان يأمر وينهى (٧) باختياره فيطاع (٨) ، وإن كان الله خالقا لفعله ولكل شئ .

ولكن المقصود أنه لا يكون ملكا إلا من (٩) يأمر وينهى بمشيئته وقدرته (١٠) ، [فمن نفى الصفات الاختيارية وقال : ليس للرب أمر ونهى يقوم به بمشيئته] (١١) بل من قال : إنه لازم له بغير مشيئته ، أو قال : إنه مخلوق له ، فكلاهما يلزمه أنه لا يكون ملكا .

---

(١) أقرب : ساقطة من (ك) ، (ض) . أثبتها من (ز) .

(٢) ز : كالقوى .

(٣) ض : والحياء .

(٤) ك : يجعل ، وهو تحريف .

(٥) ك ، ز : كان . والمثبت من (ض) .

(٦) ذلك : غير ظاهرة فى (ز) .

(٧) وينهى : ساقطة من (ز) .

(٨) فيطاع : غير واضحة فى مصورة (ز) .

(٩) إلا من : مطموسة فى (ز) .

(١٠) وقدرته : ساقطة من (ز) .

(١١) ما بين المعقوفتين ساقط من (ك) ، (ض) وأثبته من (ز) . وكلمة « أمر » طمست بعض حروفها فى مصورة (ز) .

وإذا لم يمكنه أن يتصرف بمشيئته لم يكن ملكا [١] أيضا ؛ فمن قال : إنه لا يقوم به فعل اختيارى لم يكن عنده فى الحقيقة مالكا لشئ . وإذا اعتبرت سائر القرآن وجدت أنه من لم يقر بالصفات الاختيارية ، لم يقم [٢] بحقيقة الإيمان ولا القرآن .

فهذا يبين أن الفاتحة وغيرها تدل على الصفات الاختيارية . وقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [سورة الفاتحة : ٥] فيه إخلاص العبادة لله والاستعانة به ، وأن المؤمنين لا يعبدون إلا الله ولا يستعينون إلا بالله ، فمن دعا غير الله من المخلوقين / أو [٣] استعان بهم ، من أهل القبور أو غيرهم [٤] ، لم يحقق قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، ولا يحقق ذلك إلا من فرّق [٥] بين الزيارة الشرعية والزيارة البدعية ، فإن الزيارة الشرعية عبادة لله ، وطاعة لرسوله ، وتوحيد لله ، وإحسان إلى عباده ، وعمل صالح من الزائر يثاب عليه . والزيارة البدعية شرك بالخالق ، وظلم للمخلوقات [٦] ، وظلم النفس .

ص ٨٢

فصاحب الزيارة الشرعية هو الذى يحقق قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، ألا ترى أن اثنين لو شهدا جنازة ، فقام أحدهما يدعو للميت ، ويقول : اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه ، وأكرم نُزله ووسّع [٧] مدخله ، واغسله بماء وثلج وبَرد ، ونقّه من الذنوب والخطايا كما يُنقّى الثوب الأبيض من

---

(١) ك ، ض : مالكا .
(٢) ز : لم يقر .
(٣) أو : ساقط من (ز) .
(٤) ك ، ض : وغيرهم .
(٥) ك : ولا يحقق ذلك الأمر وفرق ... إلخ ، وهو تحريف .
(٦) ك ، ض : للمخلوق .
(٧) ك : وأوسع .

الدنس ، وأبدله داراً خيرًا من داره ، [وجيرانا خيرا من جيرانه] (١) ، وأهلاً خيراً من أهله ، (٢ وأعذه من عذاب النار وعذاب القبر ، وافسح له فى قبره ، ونوِّر له فيه ٢) ، ونحو ذلك من الدعاء له ، وقام الآخر فقال : يا سيدى أشكو إليك ديونى وأعدائى وذنوبى ، وأنا (٣) مستغيث بك ، مستجير بك ، [أجرنى] (٤) ، أغثنى ، ونحو ذلك ، لكان الأول عابداً لله ، ومحسناً (٥) إلى خلقه ، محسنا إلى نفسه بعبادة الله ونفع (٦) عباده ، وهذا الثانى مشركاً [بالله] (٧) مؤذياً ظالماً معتديا على [هذا] (٨) الميت ظالما لنفسه .

فهذا بعض ما بين البدعية والشرعية من الفروق . والمقصود أن صاحب الزيارة الشرعية إذا قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ كان صادقا ، لأنه لم يعبد إلا الله ، ولم يستعن إلا به ، وأما صاحب الزيارة البدعية فإنه عبد غير الله واستعان بغيره .

فهذا بعض ما يبين أن الفاتحة – أم القرآن – اشتملت على بيان المسألتين المتنازع فيهما : مسألة الصفات الاختيارية ، ومسألة الفرق بين الزيارة الشرعية والزياة البدعية . والله تعالى هو المسئول أن يهدينا وسائر إخواننا إلى صراطه المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من (ك) ، (ض) ، وأثبته من (ز) .
(٢ – ٢) : ساقط من (ز) .
(٣) ك ، ض : أنا .
(٤) أجرنى : زيادة فى (ز) .
(٥) ز : محسنا .
(٦) ك ، ض : ونفعه .
(٧) بالله : ليست فى (ك) ، (ض) ، وأثبتها من (ز) .
(٨) هذا : زيادة فى (ز) .

ومما يوضّح ذلك أن النبى ﷺ قال : « إذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين ، قال الله : حمدنى عبدى ، فإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال أثنى علىّ [١] عبدى ، فإذا قال [٢] : مالك يوم الدين ، قال الله : مجدنى [٣] عبدى » فذكر الحمد والثناء والمجد ، [ثم] [٤] بعد ذلك يقول : إياك نعبد وإياك نستعين إلى آخرها .

هذا فى أول القراءة : فى قيام الصلاة ، ثم فى آخر القيام بعد الركوع يقول : « ربنا ولك الحمد ، [٥] ملء السماء وملء الأرض ، إلى قوله [٥] : أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد – وكلنا لك عبد – : لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » [٦] .

وقوله : « أحق ما قال العبد » خبر مبتدأ محذوف : أى هذا الكلام أحق ما قال العبد ، فتبين أن حمد الله والثناء عليه [وتمجيده] [٧] أحق ما قاله العبد ، وفى ضمنه توحيده ، لأنه قال [٨] : « ولك الحمد » أى لك لا لغيرك . وقال فى

---

(١) علىّ : ساقطة من (ز) .
(٢) قال : ساقطة من (ز) .
(٣) ز : قال مجدنى ...
(٤) ثم : ساقطة من (ك) ، (ض) ، وأثبتها من (ز) .
(٥ –٥) : ساقط من (ز) .
(٦) الحديث عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه فى : مسلم ٣٤٧/١ (كتاب الصلاة ، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع) ؛ سنن النسائى (بشرح السيوطى) ١٥٦/٢ (كتاب التطبيق ، باب ما يقوله فى قيامه ذلك) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٨٧/٣ . والحديث بألفاظ مقاربة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى مسلم (فى نفس الكتاب والباب السابقين) وعن شعبة بن الحكم فى : مسلم ٣٤٣/١ (كتاب الصلاة ، باب اعتدال أركان الصلاة) . وانظر : الأذكار للنووى ، ص ٥٢ – ٥٣ (باب ما يقوله فى رفع رأسه من الركوع وفى اعتداله) ؛ جامع الأصول لابن الأثير ٣٥/٥ – ٣٦ .
(٧) فى (ز) : والثناء عليه ومجد . ولعل الصواب ما أثبته .
(٨) ك : لا قال ، وهو تحريف . وفى (ض) : إذا قال . والمثبت من (ز) .

آخره : « لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت » وهذا يقتضى انفراده بالعطاء والمنع ، فلا يستعان إلا به ، ولا يطلب إلا منه . ثم قال : « ولا ينفع ذا الجد منك الجد » فبيّن أن الإنسان وإن أُعطى الملك والغنى والرياسة ، فهذا لا ينجيه منك ، إنما ينجيه الإيمان والتقوى . وهذا تحقيق قوله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [(١)] ، وكان هذا الذكر [(٢)] آخر القيام مناسبا للذكر [(٣)] أول القيام .

ظ ٨٨ وقوله : « أحق ما قال العبد » يقتضى أن يكون حمد الله أحق / الأقوال بأن يقوله العبد ، وما كان أحق الأقوال كان أفضلها وأوجبها على الإنسان .

ولهذا افترض [(٤)] الله [(٥)] على عباده فى كل صلاة أن يفتتحوها بقولهم : (الحمد لله رب العالمين) . وأمرهم أيضا أن يفتتحوا كل خطبة بالحمد لله ، فأمرهم أن يكون [الحمد لله] [(٦)] مقدَّماً على كل كلام : سواء كان خطاباً للخالق أو خطابا للمخلوق .

ولهذا يقدّم النبى ﷺ الحمد أمام الشفاعة يوم القيامة [(٧)] . ولهذا أُمرنا

---

(١) عبارة « إياك نستعين » : ليست فى (ز) .
(٢) ك : فكان فى هذا الذكر ؛ ض : فكان هذا الذكر .
(٣) ك ، ض : ... القيام لأنه ذكر ... ، وهو تحريف . والمثبت من (ز) .
(٤) ك : افرض ، وهو تحريف .
(٥) لفظ الجلالة ليس فى (ز) .
(٦) عبارة « الحمد لله » : ساقطة من (ك) ، (ض) وأثبتها من (ز) .
(٧) ز : أمام شاعته (كذا) يوم القيامة . وفى حديث الشفاعة الذى ذكره البخارى فى صحيحه ٦/٨٤ - ٨٥ (كتاب التفسير ، سورة بنى إسرائيل : باب ذرية من حملنا مع نوح) .... « فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فانطلق فآتى تحت العرش ، فأقع ساجداً لربى عز وجل ، ثم يفتح الله علىّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلى ... الحديث . وجاء حديث الشفاعة فى مواضع كثيرة فى الصحيحين وغيرهما . وانظر ما ذكرته من قبل فى هذا الجزء (ص ٢٥) .

بتقديم الثناء على الله فى التشهد قبل الدعاء[١] . وقال النبى ﷺ : « كل أمر ذى بال لا يُبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم »[٢] .

وأول من يُدعى إلى الجنة الحمَّادون الذين يحمدون الله على السراء والضراء .

---

(١) انظر الأحاديث المختلفة التى جاءت فيما يقال فى التشهد فى : جامع الأصول لابن الأثير ٦/٢٦٤ - ٢٦٩ .

(٢) لم أجد حديثا بهذا اللفظ ، ولكن ذكر السيوطى فى « الجامع الصغير » حديثا عن أبى هريرة رضى الله عنه هو : « كل أمر ذى بال لا يُبدأ فيه بالحمد لله فهو أقطع » وذكر السيوطى أن الحديث قد أخرجه ابن ماجة والبيهقى فى السنن (هـ ، هق) . وأورد الألبانى الحديث فى « ضعيف الجامع الصغير وزيادته » ٤/١٤٧ . وقال : « ضعيف » . كما أورد الألبانى حديثا آخر أخرجه السيوطى عن أبى هريرة وهو : « كل أمر ذى بال لا يُبدأ فيه بحمد الله ، والصلاة علىّ فهو أقطع أبتر ممحوق من كل بركة » وقال السيوطى : (الرهاوى عن أبى هريرة) . وقال الألبانى (المرجع السابق ٤/١٤٨) : « ضعيف » . وذكر السيوطى هذا الحديث الأخير فى « الجامع الكبير » ١/٦٢٣ وقال : « الديلمى والحافظ عبد القادر بن عبد الله الرهاوى فى الأربعين عن أبى هريرة . وقال الرهاوى : غريب تفرد بذكر الصلاة فيه إسماعيل بن أبى زياد الشامى وهو ضعيف جدا لا يعتد بروايته ولا بزيادته » وذكر السيوطى فى « الجامع الكبير » ١/٦٢٣ حديثا ثالثا هو : « كل كلام لا يُبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم » وقال : « هـ (ابن ماجة) ن (النسائى) والعسكرى فى الأمثال عن أبى هريرة » . على أن السيوطى ذكر نفس الحديث فى الجامع الصغير ٢/٩٤ (ط . مصطفى الحلبى ، ١٣٥٨/١٩٣٩) وقال عنه : « أبو داود) عن أبى هريرة صحـ (صحيح) » . وذكر هذا الحديث الألبانى فى « ضعيف الجامع الصغير وزيادته » ٤/١٥٣ وقال : « ضعيف » . وجاءت كلمة « أجذم » فى « المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى » فى أحاديث أخرى ، ولم يذكر « المعجم » الحديث الذى أورده ابن تيمية ولكن أشار إلى حديث آخر صحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه هو : « كل خطبة ليس فيها تشهد فهى كاليد الجذماء » وأخرج الحديث أبو داود والترمذى والإمام أحمد فى مسنده وصححه الألبانى (صحيح الجامع الصغير ٤/١٧٢) . وقال النووى فى « الأذكار » (ط . مصطفى الحلبى ، ١٣٧١/١٩٥٢) ص ٢٤٩ : « روينا فى سنن أبى داود وابن ماجة وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « كل كلام » وفى بعض الروايات « كل أمر لا يُبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم » وروى « أقطع » وهما بمعنى . هذا حديث حسن . وأجذم : بالجيم والذال المعجمة ، ومعناه : قليل البركة » .

وانظر ما سبق : جامع الرسائل ١/١٠٨ .

وقوله : ﴿ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ : جعله ثناءً . وقوله : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ : جعله تمجيدا . وقوله : ﴿ الحَمْدُ للهِ ﴾ [١] حمدٌ مطلق ، فإن الحمد اسم جنس له كمية [٢] وكيفية ، فالثناء تثنيته [٣] وتكبيره تعظيم كميته [المنفصلة] [٤] ، والمجد هو السعة والعلو ، فهو تعظيم [٥] كيفيته [٦] وقدرة وكميته المتصلة .

وذلك أن هذا وصف له بالملك ، والملك يتضمن القدرة وفعل ما يشاء . والرحمن الرحيم : وصف بالرحمة المتضمنة لإحسانه إلى العباد بمشيئته وقدرته أيضا ، والخير يحصل بالقدرة والإرادة التى [٧] تتضمن الرحمة ، فإذا كان قديرا مريداً للإحسان حصل كل خير ، وإنما يقع النقص لعدم القدرة ، أو لعدم إرادة الخير ، فالرحمن الرحيم الملك قد اتّصف بغاية إرادة الاحسان وغاية القدرة ، وذلك يحصل به [كل خير] [٨] خير الدنيا والآخرة .

وقوله : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ مع أنه ملك الدنيا ، لأن يوم الدين لا يدَّعى أحدٌ فيه منازعة ، وهو اليوم الأعظم ، فما [٩] الدنيا فى الآخرة إلا كما يضع أحدكم إصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع [١٠] .

---

(١) كلمة « لله » ليست فى (ز) .
(٢) ك ، ض : اسم جنس والجنس له كمية ...
(٣) ض : كميته . والكلمة فى (ك) غير واضحة .
(٤) ك ، ض : وتكبيرة وتعظيمه كيفيته . والمثبت من (ز) .
(٥) ك ، ض : تعظيم . والمثبت من (ز) .
(٦) ك : كيفيته .
(٧) ز : أى .
(٨) عبارة « كل خير » : ساقطة من (ك) ، (ض) ، وأثبتها من (ز) .
(٩) ك : كما ، وهو تحريف .
(١٠) ك : ترجع .

و « الدين » عاقبة أفعال العباد ، وقد يدل بطريق التنبيه – أو بطريق [(١)] العموم عند بعضهم – على ملك الدنيا ، فيكون له الملك وله الحمد ، كما قال تعالى : ﴿ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة التغابن : ١] ، وذلك يقتضى أنه قادر على أن يرحم ، ورحمته وإحسانه وصف له يحصل بمشيئته ، وهو من الصفات الاختيارية .

وفى الصحيح أن النبى ﷺ كان يعلّم أصحابه الاستخارة فى الأمور كلها ، كما يعلّمهم السورة من القرآن ، يقول : « إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم إنى استخيرك بعلمك ، واستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم [(٢] ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب [٢)] ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر – ويسمّيه باسمه – خير لى فى دينى ودنياى [(٣)] ومعاشى وعاقبة أمرى ، فاقدره لى ويسّره لى ، ثم بارك لى فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر [(٤)] شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى ، فاصرفه عنى واصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان » [(٥)] .

فسأله بعلمه وقدرته ومن فضله ، وفضله يحصل برحمته . وهذه الصفات هى جماع صفات الكمال ، لكن العلم له عموم التعلق : يتعلق بالخالق والمخلوق ،

---

(١) ك ، ض : وبطريق .

(٢ – ٢) : ساقط من (ز) .

(٣) ودنياى : ليست فى (ز) .

(٤) ز : وإن كنت تعلم أنه ....

(٥) الحديث عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى : البخارى ٥٦/٢ (كتاب التهجد ، باب ما جاء فى التطوع) ، ٨١/٨ (كتاب الدعوات ، باب الدعاء عند الاستخارة) ، ١١٨/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : قل هو القادر) ؛ سنن أبى داود ٨٩/٢ ، ٩٠ (كتاب الوتر ، باب فى الاستخارة) ؛ سنن الترمذى ٢٩٨/١ – ٢٩٩ (كتاب الوتر ، باب ما جاء فى صلاة الاستخارة) ؛ سنن النسائى ٦٦/٦٠ (كتاب النكاح ، باب كيف الاستخارة) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣٤٤/٣ .

والموجود والمعدوم . وأما القدرة فإنما تتعلق [بالممكن ، والإراده إنما تتعلق بالموجود المخلوق ، والرحمة أخص منها فإنما تتعلق] [١] بالمخلوق ، وكذلك الملك إنما يكون ملكا على المخلوقات .

فالفاتحة اشتملت على الكمال فى الإرادة ، وهو : الرحمة ، وعلى الكمال فى القدرة ، وهو : مالك يوم الدين . وهذا وهذا إنما يتم بالصفات الاختيارية ، كما تقدم . والله سبحانه وتعالى أعلم [٢] .

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من (ك) ، (ض) . وأثبته من (ز) .

(٢) ز : والله أعلم . وبعد هذه العبارة (ز) : والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على نبيه محمد وآله وصحبه وسلم . وفى (ك) بعد كلمة « أعلم » : آخر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية قدّس الله روحه .

الرسالة الثانية

شرح كلمات من "فتوح الغيب"



ص ١ / (° هذا كتاب يشتمل على شرح كلمات رويت عن الشيخ الإمام العالم ، الناسك الزاهد ، عبد القادر الكيلانى رحمه الله تعالى ، فى كتابه المعروف « بفتوح الغيب » وشرحها شيخ الإسلام ، ومفتى الشام ، الإمام العالم العامل ، الزاهد الورع ، تقى الدين أبو العباس أحمد ، بن عبد الحليم ، بن عبد السلام ، بن تيمية الحرَّانى ، نفع الله به ، وأثابه الجنة ، وغفر له ولجميع المسلمين ، آمين ، ومتَّعه الله بالثناء الجميل ، والعطاء الجزيل .

ظ ١ / بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، توكلتُ عَلى اللهِ .

قال شيخنا الإمام العلامة شيخُ الإسلام ، أبو العباس أحمد ، بن عبد الحليم ، بن عبد السلام ، العالم الربَّانى ، والعامل النورانى بن تيميّة الحرَّانى ، رَضى اللهُ عنه وأرضاه °) .

الحمدُ لله [نحمده] ونستعينه [ونستهديه] (١) ونستغفره ، ونعوذ باللهِ من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده (٢) الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا

(° – °) ما بين النجمتين فى (ز) = (مخطوطة ليبزيج) فقط ، ومكان هذا الكلام فى (ض) = مجموع فتاوى الرياض ، المطبوع بالرياض (١٠/٤٥٥ – ٥٤٩) : « قال شيخ الإسلام ، علامة الزمان ، أبو العباس أحمد بن تيمية ، قدّس الله روحه ، ونوّر ضريحه » .

(١) فى الأصل (ز) : الحمد لله نستعينه . والمثبت من (ض) .

(٢) ض : من يهد .

هادى له . ونشهد [١] أن لا إله إلا الله [وحده لا شريك له] [٢] ونشهد [٣] أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما كثيرًا [٤] .

قال الجيلانى : لابد لكل مؤمن من أمر يمتثله ونهى يجتنبه وقدر يرضى به

[فصل] [٥]

قال الشيخ أبو محمد عبد القادر [الكيلانى] [٦] فى كتاب « فتوح الغيب » [٧] : « لابُدَّ لكل مؤمن فى سائر أحَوالِه من ثلاثة أشياء : أمرٌ يمتثله ، ونهى يجتنبه ، وقدر يرضى به . فأقل حالةٍ لا يخلو المؤمن فيها من أحد هذه الأشياء [٨] الثلاثة ، فينبغى له أن يُلزم همها [٩] قلبه ، وليحدث [١٠] بها نفسَهُ ، ويأخذ بها الجوارح [١١] فى سائر [١٢] أحواله » .

---

(١) ض : وأشهد .

(٢) وحده لا شريك له : زيادة فى (م) = مجموع ٦٩ ظاهرية (مسودات ابن تيمية) ، ص ٢٧٧ – ص ٢٨٤ .

(٣) ض : وأشهد .

(٤) ض : ﷺ تسليما كثيرا ؛ م = ﷺ .

(٥) فصل : زيادة فى (ك) = مخطوطة الكواكب الدرارى بدار الكتب المصرية تفسير ٦٤٥ المجلد الخامس والثمانين ص ٥٥ – ظ ٧٠ .

(٦) الكيلانى : زيادة فى (ك) .

(٧) ص ٧ (الهامش) ، ط . مصطفى الحلبى ، القاهرة ، ١٣٣٠ ، على هامش كتاب « بهجة الأسرار ومعدن الأنوار فى بعض مناقب ... عبد القادر الجيلانى » تأليف على بن يوسف بن جرير اللخمى الشطنوفى .

(٨) الأشياء : ساقطة من (ك) .

(٩) ض : بها .

(١٠) م ، ض : ويحدث .

(١١) فتوح الغيب : ويؤاخذ بها الجوارح .

(١٢) م ، ض : فى كل .

تعليق ابن تيمية

قلت [١] : هذا كلام شريف جامع ، يحتاج إليه كل أحدٍ ، وهو تفصيل لما يحتاج إليه العبدُ ، وهى مطابقةٌ لقوله تعالى : / ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٩٠] . ولقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ [سورة آل عمران : ١٢٠] . ولقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٨٦] .

ص ٢

[٢] فإن التقوى تتضمن فعل المأمور وترك المحظور . والصبر يتضمن الصبر على المقدور . فالثلاثة ترجعُ إلى هٰذين الأصلين [٢] ، والثلاثة فى الحقيقة ترجع إلى امتثال الأمر ، وهو طاعة الله ورسوله .

فحقيقة الأمر أن كل عبد فإنه محتاج فى كل وقت إلى طاعة الله ورسوله ، وهو أن يفعل فى ذلك الوقت ما أُمر به فى ذلك الوقت .

وطاعة الله ورسوله هى عبادة الله التى خلق لها الجنّ والإنس . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [سورة الذاريات : ٥٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [سورة الحجر : ٩٩] ، وقال تعالى [٣] : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٢١] [٤] .

والرسل كلهم أمروا قومهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً . وقال [٥]

---

(١) ك : قال شيخ الإسلام ، مفتى الأنام ، بحر العلوم ، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية قلت ...

(٢ – ٢) هذه العبارات فى هامش (م) وهى غير واضحة .

(٣) تعالى : ليست فى (ك) .

(٤) ك : الذى خلقكم .. الآية .

(٥) ك : فقال .

تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ واجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [سورة النحل : ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَاسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [سورة الزخرف : ٤٥] .

ظ ٢

الثلاثة ترجع إلى امتثال الأمر

وإنما كانت الثلاثة ترجع إلى امتثال الأمر ، لأنه فى الوقت الذى يؤمر فيه بفعل [أمور] من الفرائض [١] : كالصلوات الخمس والحج ونحو ذلك ، [٢] يحتاج إلى فعل ذلك المأمور .

وفى الوقت الذى تحدث [٣] أسباب المعصية [٢] ، يحتاج إلى الامتناع والكراهة والإمساك عن ذلك ، وهذا فعل لما أُمر به فى هذا الوقت ، وأما من لم تخطر له المعصية ببال ، فهذا لم يفعل شيئا يؤجَرُ عليه ، ولكن عدم ذنبه مستلزم لسلامته من عقوبة الذنب . والعدم المحض المستمر لا يُؤمر به ، وإنما يؤمر بأمرٍ يقدر عليه العبد ، وذاك لا يكون إلا حادثا : سواء كان إحداث إيجاد أمرٍ ، أو إعدام أمرٍ .

وأما القدر الذى يرضى به ، فإنه إذا ابتُلى بالمرض أو الفقر أو الخوف ، فهو مأمور بالصبر أمر إيجاب ، ومأمور بالرضا : إما أمر إيجاب ، وإما أمر استحباب ، وللعلماء من أصحابنا وغيرهم فى ذلك قولان . ونفس الصبر والرضا بالمصائب هو طاعة لله ورسوله ، فهو من امتثال الأمر ، / [٤] وهو عبادة لله .

ص ٣

لكن هذه الثلاثة وإن دخلت فى امتثال الأمر [٤] عند الإطلاق ، فعند

---

(١) ز ، ك : بفعل من الفرائض . وأضاف ناشرا (ض) كلمة شئ هكذا : بفعل [شئ] من الفرائض . والذى أثبته من (م) .
(٢ - ٢) ساقط من (ك) .
(٣) ز : يحدث .
(٤ - ٤) : ساقط من (ك) .

التفصيل والاقتران إما أن تخص بالذكر ، وإما أن يُقال : يُراد بهذا ما لا يراد بهذا . كما فى قوله : ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [سورة هود : ١٢٣] ، وقوله : ﴿ فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِى ﴾ [سورة طه : ١٤] ، فإن هذا داخل فى العبادة إذا أطلق اسم العبادة ، وعند الاقتران إما أن يُقال : ذُكِرَ (١) عموماً وخصوصاً ، وإما أن يُقال : ذِكْرُهُ خصوصاً يغنى عن دخوله فى العام .

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [سورة الفاتحة : ٥] ، وقوله ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ۝ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ۝ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً ﴾ [سورة المزمل : ٨ – ١٠] ، وقد يُقال : لفظ « التبتل » (٢) لا يتناول هذه الأمور المعطوفة كما يتناولها لفظ العبادة والطاعة .

وبالجملة فرق بين ما يُؤمر به الإنسان ابتداءً ، وبين ما يُؤمر به عند حاجته إلى جلب المنفعة ودفع المضرة ، أو عند حب الشيء وبغضه .

وكلام الشيخ – (٣ قدَّس الله روحه – يدور ٣) على هذا القطب ، وهو أن يفعل المأمور ، ويترك / المحظور ، ويخلو فيما سواهما عن إرادة (٤) ، لئلا يكون له [هو] (٥) مراد غير فعل ما أمره به ربه (٦) ، وما لم يُؤمر به العبد ، بل فعله الرب

ظ ٣

---

(١) ض (فقط) : ذكره .

(٢) ض (فقط) : التبتيل .

(٣ – ٣) : هذه الكلمات مطموسة فى مصورة (م) .

(٤) ك (فقط) : إرادته .

(٥) هو : زيادة فى (م) .

(٦) ك ، ض : ما أمر الله به . والمثبت من (ز) ، (م) .

عز وجل [١] بلا واسطة العبد ، أو فعله بالعبد بلا هوًى من العبد . فهذا هو القدر الذى عليه أن يرضى به .

وسيأتى من كلام الشيخ ما يبين مراده ، وأن العبد فى كل حال عليه أن يفعل ما أُمر به ويترك ما نهى عنه . وأما إذا لم يكن هو أمراً للعبد [٢] بشىء من ذلك ، فما فعله الرب كان علينا التسليم فيما فعله ، (* وهذه هى الحقيقة فى كلام الشيخ وأمثاله .

وتفصيل الحقيقة الشرعية فى هذا المقام أن هذا *) نوعان : أحدهما : أن يكون العبد مأموراً فيما فعله الرب : إما بحب له وإعانة عليه [٣] ، وإما ببغض له ودفع له . والثانى : أن لا يكون العبد مأموراً بواحد منهما .

فالأول مثل البر والتقوى الذى يفعله غيره ، فهو مأمور بحبه وإعانته عليه ، كإعانة المجاهدين فى سبيل الله على الجهاد [٤] ، وإعانة سائر الفاعلين للحسنات على حسناتهم بحسب الإمكان ، ومحبة ذلك والرضا / به . وكذلك هو مأمور عند مصيبة الغير إما بنصر [٥] مظلوم ، وإما بتعزية مصاب ، وإما بإغناء فقير ، ونحو ذلك .

ص ٤

وأما ما هو مأمور ببغضه ودفعه ، فمثل ما إذا ظهر الكفر والفسوق والعصيان ، فهو مأمور ببغض ذلك ودفعه وإنكاره بحسب الإمكان . كما قال

---

(١) ك ، ض : تعالى . والكلمة غير واضحة فى (م) .

(٢) ض (فقط) : وأما إذا لم يكن هو أمر العبد ...

(* - *) ما بين النجمتين غير ظاهر فى هامش مصورة (م) .

(٣) ز : له .

(٤) لفظ الجهاد غير ظاهر فى مصورة (م) .

(٥) ز : بنصرة .

النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »[(١)] .

حكم المباحات وأنواعها

وأما ما لا يؤمر العبد فيه بواحد منهما ، فمثل ما يظهر له من فعل الإنسان للمباحات التى لم يتبين له أنه يُستعان بها على طاعة ولا معصية ، فهذه لا يؤمر بحبها ولا ببغضها ، وذلك مباحات نفسه المحضة التى لم يقصد الاستعانة بها على طاعة ولا معصية ، مع أن هذا نقص منه ؛ فإن الذى ينبغى أنه لا يفعل من المباحات إلا ما يستعين به على الطاعة ، ويقصد الاستعانة بها على الطاعة ، فهذا سبيل المقرَّبين السابقين ، الذين تقربوا[(٢)] إلى / الله بالنوافل بعد الفرائض ، ولم يزل أحدهم يتقرب إليه بذلك حتى أحبه ، فكان سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها .

ظ ٤

[وأما من فعل المباحات][(٣)] مع الغفلة ، أو فعل فضول المباح التى لا يُستعان بها على طاعة ، مع أداء الفرائض واجتناب المحارم ، باطنا وظاهراً ، فهذا من المقتصدين أصحاب اليمين .

وبالجملة الأفعال التى يمكن دخولها تحت الأمر والنهى ، لا تكون مستوية من كل وجه ، بل إن فعلت على الوجه المحبوب كان وجودها خيراً للعبد ،

---

(١) الحديث عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه فى : مسلم ٦٩/١ (كتاب الإيمان ، باب كون النهى عن المنكر من الإيمان ....) ؛ سنن أبى داود ٤٠٦/١ (كتاب الصلاة ، باب خطبة يوم العيد) ، ١٧٣/٤ - ١٧٤ (كتاب الملاحم ، باب الأمر والنهى) ؛ سنن الترمذى ٣١٧/٣ - ٣١٨ (كتاب الفتن ، باب ما جاء فى تغيير المنكر ...) ؛ سنن ابن ماجة ٤٠٦/١ (كتاب إقامة الصلاة ، باب ما جاء فى صلاة العيدين) ، ١٣٣٠/٢ (كتاب الفتن ، باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣٠/٣ .

(٢) ك : يتقربون .

(٣) ما بين المعقوفتين ساقط من (ز) فقط .

وإلا كان تركها خيراً له [١] وإن لم يعاقب عليها ، ففضول المباح التى لا تعين على الطاعة ، عدمها خير من وجودها ، إذا كان مع عدمها يشتغل بطاعة الله ، فإنها تكون شاغلة له عن ذلك . وأما إذا قُدِّر أنها تشغله عمَّا هو دونها ، فهى خير له مما دونها ، وإن شغلته عن معصية الله كانت رحمة فى حقه ، وإن كان اشتغاله بطاعة الله خيرا له من هذا وهذا .

وكذلك أفعال الغفلة والشهوة التى يمكن الاستعانة بها على الطاعة ، كالنوم / الذى يُقصد به الاستعانة على العبادة ، والأكل والشرب واللباس والنكاح الذى يمكن الاستعانة به على العبادة ، إذا لم يُقصد به ذلك كان نقصاً من العبد ، وفوات حسنةٍ وخيرٍ يحبه الله . ص ٥

ففى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال لسعد : « إنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله ، إلا ازددت بها درجة ورفعة ، حتى اللقمة فى في امرأتك » [٢] . وقال فى الحديث [٣] الصحيح : « نفقة المسلم على أهله يحتسبها صدقة » [٤] .

---

(١) له : ساقطة من (ك) .

(٢) الحديث – مع اختلاف فى بعض الألفاظ – عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه فى : البخارى ١٦/١ – ١٧ (كتاب الإيمان ، باب ما جاء أن الأعمال بالنية) ؛ مسلم ١٢٥٠/٣ – ١٢٥١ (كتاب الوصية ، باب الوصية بالثلث) ؛ سنن أبى داود ٥٣/٣ (كتاب الوصايا ، باب ما جاء فيما يؤمر به من الوصية) ؛ المسند (ط . المعارف) ٦٣/٣ – ٦٤ ، ٧٣ – ٧٤ .

(٣) الحديث : ساقطة من (ض) .

(٤) الحديث – مع اختلاف فى اللفظ – عن أبى مسعود عقبة بن عامر الأنصارى رضى الله عنه فى : البخارى ١٦/١ (كتاب الإيمان ، باب ما جاء أن الأعمال بالنية ..) ، ٨٣/٥ (كتاب المغازى ، باب حدثنى خليفة ...) ؛ سنن الترمذى ٢٣٢/٣ (كتاب البر ، باب ما جاء فى النفقة على الأهل) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٢٧٣/٥ .

فما لا يُحتاج (١) إليه من المباحات ، أو يُحتاج إليه ولم يصحبه إيمان يجعله حسنة ، فعدمه خير من وجوده ، إذا كان مع عدمه يشتغل بما هو خير منه . وقد قال النبى ﷺ : « فى بضع أحدكم صدقة . قالوا : يا رسول : أيأتى أحدنا شهوته ، ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها فى الحرام أما كان عليه وزر ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له بها أجر . (٢) : فلم تعتدون بالحرام ولا تعتدون بالحلال (٣) ؟ » .

وذلك أن المؤمن عند شهوة النكاح يقصد أن يعدل عمَّا حرَّمه الله إلى ما أباحه / الله (٤) ، ويقصد فعل المباح معتقدا أن الله أباحه ، والله يحب أن يُؤخذ (٥) برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته ، كما روى ذلك الإمام (٦) أحمد فى المسند ورواه غيره (٧) ، ولهذا أحب القصر والفطر [فى السفر] (٨) ، فعدول المؤمن عن

ظ ٥

---

(١) ك : فما يحتاج ، وهو تحريف .

(٢) هذا جزء من حديث طويل – مع اختلاف فى الألفاظ – عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه فى : مسلم ٢/٦٩٧ – ٦٩٨ (كتاب الزكاة ، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف) وأوله فيه : عن أبى ذر أن ناسا من أصحاب النبى ﷺ قالوا للنبى ﷺ : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالأجور ... قال : أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون ؟ الحديث . وهو فى : سنن أبى داود ٢/٣٦ – ٣٧ (كتاب التطوع ، باب صلاة الضحى) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٥/١٦٧ ، ١٦٨ .

(٣) عبارة : « فلم تعتدون .. إلخ لم أجدها فى أى موضع من المواضع السابقة ، ولكن فى المسند ٥/١٦٧ : « قال أفتحتسبون بالشر ولا تحتسبون بالخير ؟ » .

(٤) لفظ الجلالة ليس فى (م) ، (ك) .

(٥) ض : يأخذ ، وهو تحريف .

(٦) ض (فقط) : كما رواه الإمام ...

(٧) الحديث فى المسند (ط . المعارف) ٨/١٧٠ عن ابن عمر رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : إن الله يحب أن تؤتى رخصه ، كما يكره أن تؤتى معصيته » وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح ، وأشار إلى وجود الحديث فى « مجمع الزوائد » ٣/١٦٢ وقال الهيثمى : « رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح ، والبزار والطبرانى فى الأوسط ، وإسناده حسن » . وأورد الحديث الألبانى فى « صحيح الجامع الصغير » وقال السيوطى : « حم (أحمد) حب (ابن حُبان فى صحيحه) هب (البيهقى فى شعب الإيمان) عن ابن عمر » وصحح الألبانى الحديث .

(٨) عبارة « فى السفر » زيادة فى (ك) .

الرهبانية والتشديد وتعذيب النفس الذى لا يحبه الله إلى ما يحبه الله [من الرخصة] [١] ، هو من الحسنات التى يثيبه الله عليها ، وإن فعل مباحاً لما اقترن به من الاعتقاد والقصد اللذين كلاهما طاعة لله ورسوله ، فإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى .

وأيضا فالعبد هو [٢] مأمور بفعل ما يحتاج إليه من المباحات : هو [٣] مأمور بالأكل عند الجوع ، والشرب عند العطش . ولهذا يجب على المضطر إلى المَيْتة أن يأكل منها ، ولو لم يأكل حتى مات كان مستوجبا للوعيد ، كما هو قول جماهير العلماء من الأئمة الأربعة وغيرهم . وكذلك هو مأمور بالوطئ عند حاجته إليه ، بل وهو مأمور بنفس عقد النكاح إذا احتاج إليه وقدر عليه .

ص ٦

فقول النبى ﷺ : « فى بضع أحدكم صدقة » ، فإن المباضعة مأمور / بها لحاجته وحاجة المرأة إلى ذلك ، فإن قضاء [٤] حاجتها التى لا تنقضى إلا به بالوجه المباح صدقة .

سلوك الأبرار وسلوك المقربين

والسلوك سلوكان : سلوك الأبرار أهل اليمين ، وهو أداء الواجبات وترك المحرمات باطنا وظاهرا . والثانى : سلوك المقرَّبين السابقين ، وهو فعل الواجب والمستحب بحسب الإمكان ، وترك المكروه والمحرم . كما قال النبى ﷺ : « إذا نهيتكم عن شئ فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فَأْتُوا منه ما استطعتم » [٥] .

---

(١) عبارة « من الرخصة » : ساقطة من (ز) فقط .

(٢) هو : ساقطة من (ض) فقط .

(٣) هو : كذا فى (م) ، (ك) ، (ض) . وفى (ز) : وهو .

(٤) ز (فقط) : فإن قضى ... إلخ .

(٥) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ٩/٩٤ – ٩٥ (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ) ونصه : « دعونى ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شئ فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه =

وكلام الشيوخ الكبار . كالشيخ عبد القادر وغيره – يشير إلى هذا السلوك ، ولهذا يأمرون بما هو مستحب غير واجب ، وينهون عمَّا هو مكروه غير محرم ، فإنهم يسلكون بالخاصة مسلك الخاصة ، وبالعامة مسلك العامة .

وطريق الخاصة – طريق المقرَّبين – ألا يفعل العبد إلا ما أُمر به ، ولا يريد إلا ما أمره الله ورسوله [(١)] بإرادته ، وهو ما يحبه الله ويرضاه ، ويريده إرادة دينية شرعية ، وإلا فالحوادث كلها مرادة له خلقا وتكوينا ، والوقوف مع الإرادة الخلقية القدرية مطلقا غير مقدور عقلا ولا مأمور شرعا .

ظ ٦

وذلك لأن من الحوادث ما يجب دفعه / ولا تجوز إرادته ، كمن أراد تكفير الرجل ، أو تكفير أهله ، أو الفجور به أو بأهله ، أو أراد قتل النبى وهو قادر على دفعه ، أو أراد إضلال الخلق وإفساد دينهم ودنياهم ، فهذه الأمور يجب دفعها وكراهيتها ، لا تجوز إرادتها .

وأما الامتناع عقلا ؛ فلأن الإنسان مجبول على حب ما يلائمه وبغض ما ينافره ، فهو عند الجوع يحب ما يقيته [(٢)] كالطعام ولا يحب ما لا يقيته [(٢)] كالتراب ، فلا يمكن أن تكون إرادته لهذين سواء ، وكذلك يحب الإيمان والعمل الصالح الذى ينفعه ، ويبغض الكفر والفسوق الذى يضره ، بل يحب الله وعبادته وحده ، ويبغض عبادة ما دونه .

= ما استطعتم » . والحديث – مع اختلاف فى اللفظ – فى : مسلم ٢/٩٧٥ (كتاب الحج ، باب فرض الحج مرة فى العمر) ؛ سنن النسائى ٥/٨٣ (كتاب المناسك ، باب وجوب الحج) ؛ سنن ابن ماجة ١/٣ (المقدمة ، باب إتباع سنة رسول الله ﷺ) .

(١) ك : إلا ما أمره الله به ورسوله ؛ ض : إلا ما أمر الله ورسوله .

(٢) ض (فقط) : يغنيه . وفى اللسان : « أقاته يقيته إذا أعطاه قوته ... قت الرجل أقوته إذا حفظت نفسه بما يقوته » .

كما قال الخليل عليه السلام : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الشعراء : ٧٥ - ٧٧] [١] .

وقال تعالى [٢] : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاءُ مِنكُمْ ومِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ﴾ [سورة الممتحنة : ٤] .

فقد أمرنا الله أن نتأسَّى بإبراهيم والذين معه ، إذ تبرَّأوا من المشركين ومما يعبدون / من دون الله . ص ٧

وقال الخليل عليه السلام : ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ [سورة الزخرف : ٢٦ ، ٢٧] ، والبراءة ضد الولاية ، وأصل [البراءة البغض ، وأصل] [٣] الولاية الحب .

وهذا لأن حقيقة التوحيد أن لا تحب إلا الله ، وتحب ما يحبه الله لله ، فلا تحب إلا لله ، ولا تبغض [٤] إلا لله . قال [٥] تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] .

---

(١) فى (ز) ، (م) كتبت الآية الأولى محرفة إلى : أفرأيتم ما تعبدون .

(٢) تعالى : ليست فى (ك) .

(٣) ما بين المعقوفتين ساقط من (ز) فقط .

(٤) ض : لا يحب ... ويحب ... فلا يحب ... ولا يبغض . وفى (ك) ، (ز) ، (م) : هذه الكلمات غير منقوطة .

(٥) ز : وقال .

والفرق ثابت بين الحب لله والحب مع الله . فأهل التوحيد والإخلاص يحبون غير الله لله ، والمشركون يحبون غير الله مع الله ، كحب المشركين لآلهتهم ، وحب النصارى للمسيح ، وحب أهل الأهواء رؤوسهم .

فإذا عُرف أن العبد مفطور على حب ما ينفعه وبغض ما يضره ، لم [١] يمكن أن تستوى إرادته لجميع الحوادث فطرةً وخلقا ، ولا هو مأمور [٢] من جهة الشرع أن يكون مريداً لجميع الحوادث ، بل قد أمره الله بإرادة أمور وكراهة [٣] أخرى .

والرسل – صلوات الله عليهم وسلامه – بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها ، لا بتحويل الفطرة وتغييرها . وقد قال النبى ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه / وينصّرانه ويمجّسانه . قال [٤] تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الروم : ٣٠] [٥] .

ظ ٧

---

(١) لم : ساقطة من (ك) .
(٢) ز : مأموراً ، وهو خطأ .
(٣) ز : وكراهية .
(٤) ك : وقال .
(٥) هذا جزء من حديث عن أبى هريرة رضى الله عنه ولفظه : « كل مولود ... ويمجسانه ، كما تُنتج البهيمة بهيمةً جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم قال أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم : (فطرة الله التى فطر ... لا يعلمون) » الحديث .... وهو – مع اختلاف فى الألفاظ – فى : البخارى ٢/٩٤ – ٩٥ (كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبى) ، وهو فى عدة مواضع أخرى فى البخارى ، وفى مسلم ٨/٥٢ – ٥٤ (كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة) ؛ سنن أبى داود ٤/٣١٦ – ٣١٨ (كتاب السنة ، باب فى ذرارى المشركين) ؛ سنن الترمذى ٣/٣٠٣ (كتاب القدر ، باب ما جاء كل مولود ...) ؛ المسند (ط . المعارف) ١٢/١٦٩ – ١٧٠ ، ١٣/١٨١ – ١٨٢ ، ١٤/١٢٩ – ١٣٠ ، ٢٠٧ ؛ الموطأ ١/٢٤١ . وانظر الحديث وتعليقى عليه فى « درء تعارض العقل والنقل » ٣/٧١ .

وفى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ : « يقول الله تعالى : « خلقت [١] عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين [٢] ، وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزّل به سلطانا » [٣] . والحنيفية هى الاستقامة بإخلاص الدين لله ، وذلك يتضمن حبه تعالى [٤] والذل له ، لا يُشرك به شئ : لا فى الحب ولا فى الذل ، فإن العبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل ، وذلك لا يستحقه إلا الله وحده ، وكذلك الخشية والتقوى لله وحده ، والتوكل على الله وحده .

والرسول يُطاع ويُحب ، فالحلال ما حلَّله [٥] والحرام ما حرَّمه ، والدين ما شرعه . قال الله تعالى [٦] : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَى اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [سورة النور : ٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ ﴾ [سورة التوبة : ٥٩] .

وهذا حقيقة / دين الإسلام . والرسل بعثوا بذلك ، كما قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ

---

(١) ز ، ض : إنى خلقت . والمثبت من (م) ، (ز) .

(٢) ك : الشياطين عن دينهم .

(٣) الحديث عن عياض بن حمار المجاشعى رضى الله عنه فى : مسلم ٢١٩٧/٤ - ٢١٩٨ (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار) وأوله : أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم فى خطبته : « ألا إن ربى أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم .... وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم .... الحديث . وهو مع اختلاف فى اللفظ فى : المسند (ط . الحلبى) ١٦٢/٤ .

(٤) ز : حبه لله تعالى ، وهو تحريف .

(٥) ض : ما أحله .

(٦) ض : قال تعالى .

إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [سورة الشورى : ١٣] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ [سورة المؤمنون : ٥١ ، ٥٢] .

فهذا هو الأصل الذى يجب على كل أحد أن يعتصم به ، فلابد أن يكون مريدا محبًّا (١) لما أمره الله بإرادته ومحبته ، كارهاً مبغضا لما أمره الله بكراهته (٢) وبغضه .

والناس فى هذا الباب أربعة أنواع . أكملهم الذين يحبون ما أحبّه الله ورسوله ، ويبغضون ما أبغضه الله ورسوله ، فيريدون ما أمرهم الله ورسوله بإرادته ، ويكرهون ما أمرهم الله ورسوله بكراهته ، وليس عندهم حب ولا بغض لغير ذلك ، فيأمرون بما أمر الله ورسوله [به] (٣) ولا يأمرون بغير ذلك ، وينهون عن ما نهى الله ورسوله ، ولا ينهون عن غير ذلك .

وهذه حال الخليلين أفضل البرية : محمد وإبراهيم صلى الله عليهما وسلم . وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ / إبراهيم خليلا » (٤) . ظ ٨

---

(١) ز : محبا مريدا .

(٢) ز : بكراهيته .

(٣) به : ساقطة من (ز) وأثبتها من (ك) . وفى (ض) : أمر الله به ورسوله . والعبارة غير واضحة فى مصورة (م) .

(٤) ورد هذا الحديث مطولا عن جندب رضى الله عنه فى : مسلم ١/٣٧٧ – ٣٧٨ (كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب النهى عن بناء المساجد على القبور) ونصه : سمعت النبى ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول : إنى أبرأ إلى الله أن يكون لى منكم خليل ، فإن الله تعالى قد اتخذنى خليلا كما اتخذ =

وقال فى الحديث الصحيح [١] . « إنى والله لا أعطى أحداً ولا أمنع أحدًا ، وإنما أنا قاسمٌ أضع حيث أمرت » [٢] .

وذكر أن ربّه خيَّره بين أن يكون نبيا مَلِكاً ، وبين أن يكون عبداً رسولاً ، فاختار أن يكون عبدًا رسولاً [٣] ، فإن النبى الملك مثل داود وسليمان .

قال تعالى : ﴿ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [سورة ص : ٣٩] ، قالوا : معناه إعط من شئت وامنع من شئت لا نحاسبك .

= إبراهيم خليلا ، ولو كنت متخذا من أمتى خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا . ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، إنى أنهاكم عن ذلك . وجاءت بعض ألفاظ هذا الحديث فى حديث آخر عن عبد الله بن عمرو فى : سنن ابن ماجة ٥٠/١ (المقدمة ، باب فى فضائل أصحاب رسول الله ﷺ) .

(١) ض : وقال ﷺ فى الحديث الصحيح .

(٢) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ٨٥/٤ (كتاب فرض الخمس ، باب قول الله تعالى : فإن لله خمسه) ونصه فيه « ما أعطيكم ولا أمنعكم . أنا قاسم أضع حيث أمرت » . والحديث أيضاً عنه فى المسند (ط . الحلبى) ٤٨٢/٢ ونصه فيه : « والله ما أعطيكم ولا أمنعكم ، وإنما أنا قاسم أضعه حيث أمرت » . وقال ابن حجر فى تعليقه على حديث البخارى (فتح البارى ٢١٨/٦) : « وقد أخرجه أبو داود من طريق همام عن أبى هريرة بلفظ : إن أنا إلا خازن » . وجاء حديث آخر عن معاوية رضى الله عنه بلفظ : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ، وإنما أنا قاسم والله يعطى .... الحديث ، وانظر ما ذكرته عنه فى « درء تعارض العقل والنقل » ٢٧٨/٨ (ت ٢) .

(٣) ذكر الهيثمى فى « مجمع الزوائد » ١٨/٩ - ٢٠ فى باب « تواضعه ﷺ » عدة أحاديث فيها الكلام عن تخييره ﷺ بين أن يكون نبيا ملكا أو عبدا رسولا واختياره ﷺ أن يكون عبدا رسولا ، وقال عن الحديث الأول : « رواه أحمد والبزار وأبو يعلى ورجال الأولين رجال الصحيح » . وحديث أحمد هو فى المسند (ط . المعارف) ١٤٢/١٢ - ١٤٣ ... عن أبى زرعة - قال : ولا أعلمه إلا عن أبى هريرة - قال : جلس جبريل إلى النبى ﷺ ، فنظر إلى السماء ، فإذا مَلَك ينزل ، فقال جبريل : إن هذا المَلَك ما نزل منذ يوم خُلق قبل الساعة ، فلما نزل قال : يا محمد ، أرسلنى إليك ربك ، قال : أفَمَلِكا نبيا يجعلك ، أو عبدا رسولا ؟ قال جبريل : تواضع لربك يا محمد ، قال : بل عبدا رسولا » وقال الشيخ أحمد شاكر عن الحديث : « إسناده صحيح » . والحديث الثانى فى « مجمع الزوائد » عن عائشة بنفس المعنى ، وقال عنه الهيثمى : « رواه أبو يعلى وإسناده حسن » .

فالنبى الملك يُعطى بإرادته ، لا [١] يُعاقب على ذلك ، كالذى يفعل المباحات بإرادته ، وأما العبد الرسول فلا يُعطِى ولا يمنع إلا بأمر ربّه [٢] ، وهو محبته ورضاه وإرادته الدينية . والسابقون المقرّبون أتباع العبد الرسول ، والمقتصدون أهل اليمين أتباع النبى الملك .

وقد تكون للإنسان حال هو فيها خالٍ عن الإرادتين ، وهو أنه لا تكون له إرادة فى عطاء [٣] ولا منع ، لا إرادة [٤] دينية هو مأمور بها ، ولا إرادة نفسانية : سواء كان منهيا عنها أو غير منهى عنها ، بل ما وقع كان مرادًا له ، ومهما فُعل به كان مراداً له ، من غير أن يعرف [٥] المأمورَ به شرعاً فى ذلك .

ص ٩

فهذا بمنزلة من له أموال / يعطيها ، وليس له إرادة فى إعطاء معين : لا إرادة شرعية ولا إرادة مذمومة . بل يعطى كل أحد . فهذا إذا قُدِّر أنه قام بما يجب عليه بحسب إمكانه ، ولكنه خفى عليه الإرادة الشرعية فى تفصيل أفعاله ، فإنه لا يُذم على ما فعل ، ولا يُمدح مطلقا ، بل يمدح لعدم [٦] هواه ، ولو علم تفصيل المأمور به وأراده إرادة شرعية لكان أكمل ، بل هذا – مع القدرة – إما واجب وإما مستحب ، وحال هذا خير من حال من يريد بحكم هواه ونفسه ، وإن كان ذلك مباحاً له ، وهو دون من يريد بأمر ربه لا بهواه ولا بالقَدَر المحض .

الناس فى المباحات على ثلاثة أقسام

فمضمون هذا المقام أن الناس فى المباحات – من الملك والمال وغير ذلك – على ثلاثة أقسام :

---

(١) ز : ولا .

(٢) ك : إلا بأمر الله ربه .

(٣) ز : إعطاء .

(٤) ز : لإرادة ، وهو تحريف .

(٥) ض (فقط) : يفعل .

(٦) ك ، م : بعدم .

قوم لا يتصرفون فيها إلا بحكم الأمر الشرعى ، وهو [١] حال نبينا ﷺ ، وهو [٢] حال العبد الرسول ومن اتبعه فى ذلك .

وقوم يتصرفون فيها بحكم إرادتهم والشهوة التى ليست محرمة ، وهذا النبى الملك [٣] ، وهو حال الأبرار أهل اليمين .

وقوم لا يتصرفون بهذا ولا بهذا . أما الأول فلعدم علمهم به . وأما الثانى فلزهدهم فيه ، بل يتصرفون / فيها بحكم القدر المحض إتّباعا لإرادة الله الخلقية القدرية حين تعذر [٤] معرفة الإرادة الشرعية الأمرية . وهذا كالترجيح بالقرعة إذا تعذر الترجيح بسبب شرعى معلوم ، وقد يتصرف هؤلاء فى هذا المقام بإلهام يقع فى قلوبهم وخطاب .

ظ ٩

وكلام الشيخ عبد القادر – قدّس الله روحه – كثيرا ما يقع فى هذا المقام ، فإنه يأمر بالزهد فى إرادة النفس وهواها ، حتى لا يتصرّف بحكم الإرادة والنفس . وهذا رفع له عن حال الأبرار أهل اليمين ، وعن طريق الملوك مطلقا . ومن حصّل هذا ، وتصرّف بالأمر الشرعى المحمدى القرآنى ، فهو أكمل الخلق ، لكن هذا قد يخفى عليه ، فإن معرفة هذا على التفصيل قد يتعذر أو يتعسّر فى كثير من المواضع .

ألا ترى أن النبى ﷺ لما حكّم سعد بن معاذ فى بنى قريظة [٥] ، فحكم بقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم وغنيمة أموالهم ، قال : « لقد حكمت فيهم بحكم الله

---

(١) ز : وهى .

(٢) ك : وهى .

(٣) ك (فقط) : ... الملك ومن اتبعه .

(٤) ك : تعذرت .

(٥) ز : قريضة ، وهو تحريف .

من فوق سبعة أرقعة » (١) ، وذلك أن تخيير وليّ الأمر بين القتل والاسترقاق ، والمن والفداء ، ليس تخيير [شهوة] (٢) ، بل تخيير / رأى ومصلحة ، فعليه أن يختار الأصلح ، فإن اختار ذلك فقد وافق حكم الله وإلا فلا .

ص ١٠

ولما كان هذا يخفى كثيرا قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح لبُرَيْدة (٣) : « إذا حاصرت أهل حصن فسألوك أن تنزلهم على حكم الله ، فلا تنزلهم على حكم الله ، فإنك لا تدرى ما حكم الله فيهم ، ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك » (٤) .

---

(١) جاء الحديث بهذا اللفظ فى سيرة ابن هشام ٢٥١/٣ . ولكنه جاء – مع اختلاف فى اللفظ – عن أبى سعيد الخدرى فى : البخارى ٦٧/٤ (كتاب الجهاد والسير ، باب إذا نزل العدو على حكم رجل) ، ٣٥/٥ – ٣٦ (كتاب مناقب الأنصار ، باب مناقب سعد بن معاذ) ، ١١٢/٥ (كتاب المغازى ، باب مرجع النبى ﷺ من الأحزاب ...) ؛ مسلم ١٣٨٨/٣ – ١٣٨٩ (كتاب الجهاد والسير ، باب جواز قتال من نقض العهد ...) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٢٢/٣ . ولفظ الحديث فى هذه المواضع : « حكمت فيهم بحكم الله ، أو : بحكم الملك » . وأخرج الإمام أحمد فى مسنده (ط . الحلبى) ١٤١/٦ – ١٤٢ حديثا مقاربا متصلا عن عائشة رضى الله عنها . وانظر ما ذكره الألبانى عن الحديث فى « سلسلة الأحاديث الصحيحة » ٩١/١ – ٩٤ (حديث رقم ٦٧) . وقال ابن حجر فى فتح البارى ٤١٢/٧ : « ... وفى رواية ابن إسحاق من مرسل علقمة بن وقاص : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة . وأرقعة بالقاف جمع رقيع ، وهو من أسماء السماء . قيل : سميت بذلك لأنها رقعت بالنجوم » .

(٢) شهوة : ساقطة من (ز) .

(٣) لبريدة : زيادة فى (ز) .

(٤) هذا جزء من حديث طويل عن سليمان بن بريدة عن أبيه رضى الله عنه وأوله فى : مسلم ١٣٥٦/٣ – ١٣٥٨ (كتاب الجهاد والسير ، باب تأمير الإمام الأمراء ....) : « كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميرا على جيش أو سرية أوصاه .... ثم قال : اغزوا بسم الله فى سبيل الله .... وإذا حاصرت أهل حصن ، فأرادوك على أن تنزلهم على حكم الله .... ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا » . والحديث – مع اختلاف فى اللفظ – فى : سنن أبى داود ٥١/٣ – ٥٢ (كتاب الجهاد ، باب فى دعاء المشركين) ؛ سنن الترمذى ٨٥/٣ – ٨٦ (كتاب السير ، باب ما جاء فى وصية النبى ﷺ فى القتال) ؛ سنن ابن ماجة ٩٥٣/٢ – ٩٥٤ (كتاب الجهاد ، باب وصية الإمام) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣٥٨/٥ .

والحاكم الذى [ينزل أهل الحصن على حكمه عليه أن] [١] يحكم باجتهاده ، فلما أمر سعد بما هو الأرضى لله والأحب إليه ، حكم بحكمه ، ولو حكم بغير ذلك لنفذ [٢] حكمه ، فإنه حكم باجتهاده ، وإن لم يكن ذلك هو حكم الله فى الباطن .

حكم الإلهام فى الشريعة

ففى مثل هذه الحال ، التى لا يتبيّن الأمر الشرعى فى الواقعة المعينة ، يأمر الشيخ عبد القادر وأمثاله من الشيوخ ، تارة بالرجوع إلى الأمر الباطن والإلهام إن أمكن ذلك ، وتارة بالرجوع إلى القدر المحض لتعذر الأسباب المرجّحة من جهة الشرع ، كما يرجّح الشارع بالقرعة ، فهم يأمرون أن لا يرجّح بمجرد إرادته وهواه ، فإن هذا إمّا محرم ، وإمّا مكروه ، وإما منقص [٣] ، فهم فى هذا النهى كنهيهم عن فضول المباحات .

ظ ١٠

ثم إن تبين لهم الأمر الشرعى وجب الترجيح / به ، وإلا رجَّحوا إما بسبب باطن من الإلهام والذوق ، وإما بالقضاء والقدر الذى لا يُضاف إليهم . ومن يرجع فى مثل هذه الحال باستخارة الله ، كما كان النبى ﷺ يعلم أصحابه الاستخارة فى الأمور كلها ، كما يعلمهم السورة من القرآن [٤] ، فقد [أصاب] [٥] .

وهذا كما أنه إذا تعارضت أدلة المسألة [٦] الشرعية عند الناظر المجتهد ، وعند المقلِّد المستفتى ، فإنه لا يرجّح شيئا ، بل ما جرى به القدر أقرُّوه ولم ينكروه . وتاره يرجِّح أحدهم ، إما بمنام وإما برأى مشيرٍ ناصح ، وإما برؤية المصلحة فى أحد الفعلين .

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من (ز) فقط .
(٢) ز : أنفذ .
(٣) ز (فقط) : نقص .
(٤) سبق الكلام على حديث الاستخارة فى هذا الجزء ، ص ٦٩ (ت ٢) .
(٥) أصاب : ساقطة من (ز) ومكانها بياض .
(٦) ك : أدلة فى المسألة ....

وأما الترجيح بمجرد الاختيار ، بحيث إذا تكافأت [١] عنده الأدلة يرجح بمجرد إرادته واختياره ، فهذا ليس قول أحد من أئمة الإسلام ، وإنما هو قول طائفة من أهل الكلام ، ولكن قاله طائفة من الفقهاء فى العامى المستفتى : أنه يخيّر بين المفتين [٢] المختلفين .

وهذا كما أن طائفة من السالكين إذا استوى عنده الأمران فى الشريعة ، رجّح بمجرد ذوقه وإرادته ، فالترجيح بمجرد الإرادة التى لا تستند إلى أمرٍ علمى باطن ولا ظاهر ، لا يقول به أحد / من أئمة العلم والزهد ، فأئمة الفقهاء والصوفية لا يقولون هذا ، لكن [٣] من جوَّز لمجتهد أو مقلد الترجيح بمجرد اختياره وإرادته ، فهو نظير من سوَّغ للسالك الترجيح بمجرد إرادته وذوقه .

ص ١١

لكن قد يُقال : القلب المعمور بالتقوى إذا رجّح بإرادته فهو ترجيح شرعى . وعلى هذا التقدير فمن غلب على قلبه إرادة ما يحبه الله ، وبغض ما يكرهه [٤] ، إذا لم يدر فى الأمر المعين : هل هو محبوب لله أو مكروه [٥] ، ورأى قلبه يحبه أو يكرهه ، كان هذا ترجيحا عنده ، كما لو أخبره [٦] مَنْ صِدْقُهُ أغلب مِنْ كَذِبِهِ ، فإن الترجيح بخبر هذا عند انسداد وجوه [٧] الترجيح ترجيحٌ بدليل شرعى .

ففى الجملة متى حصل ما يُظن معه أن أحد الأمرين أحب إلى الله

---

(١) ك ، ز ، م : تكافت . والمثبت من (ض) .
(٢) ز : المفيين .
(٣) ض : ولكن .
(٤) ض : ما يكرهه الله .
(٥) ز : أو مكروهه ، وهو تحريف .
(٦) ك ، ز ، م : أخبر . والمثبت من (ض) .
(٧) ز : ونحوه ، وهو تحريف .

ورسوله ، كان هذا ترجيحا بدليل شرعى . والذين أنكروا كَوْن الإلهام طريقاً شرعياً [(١)] على الإطلاق ، أخطأوا كما أخطأ الذين جعلوه طريقا شرعيا على الإطلاق .

ولكن إذا اجتهد السالك فى الأدلة الشرعية الظاهرة [(٢)] فلم ير فيها ترجيحا ، وأُلهم حينئذ رجحان أحد الفعلين مع حسن قصده وعمارته بالتقوى ، فإلهام مثل هذا دليل فى حقه ، قد [يكون] [(٣)] أقوى من كثير من الأقيسة / الضعيفة ، والأحاديث الضعيفة ، والظواهر الضعيفة ، والاستصحابات الضعيفة التى يحتج بها كثير من الخائضين فى المذهب والخلاف وأصول الفقه . ظ ١١

وفى الترمذى عن أبى سعيد عن النبى ﷺ أنه قال : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله . ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [سورة الحجر : ٧٥] [(٤)] .

وقال عمر بن الخطاب : « اقتربوا من أفواه المطيعين ، واسمعوا منهم ما يقولون ، فإنه يتجلى لهم أمور صادقة » .

---

(١) شرعيا : ساقطة من (ض) .

(٢) ز : الظاهرة الشرعية .

(٣) يكون : ساقطة من (ز) .

(٤) الحديث عن أبى سعيد الخدرى فى : سنن الترمذى ٣٦٠/٤ – ٣٦١ (كتاب التفسير ، سورة الحجر) وقال الترمذى : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » ؛ تفسير الطبرى (ط . بولاق) ٣١/١٤ – ٣٢ (عن أبى سعيد وابن عمر) . وذكر الحديث الألبانى فى « ضعيف الجامع الصغير » ٨٧/١ وقال عنه : (تخ = البخارى فى التاريخ ، ت = الترمذى) عن أبى سعيد (الحكيم ، وسمويه ، طب = الطبرانى ، عد = ابن سعد فى الطبقات) عن أبى أمامة (ابن جرير = الطبرى) عن ابن عمر » . ثم قال : « وانظر عن الحديث : المقاصد الحسنة للسخاوى (ط . الخانجى : ١٣٧٥/١٩٥٦) ، ص ١٩ – ٢٠ ؛ زاد المسير لابن الجوزى ٤٠٩/٤ . وذكر الهيثمى الحديث فى « مجموع الزوائد » ٢٦٨/١٠ عن أبى أمامة رضى الله عنه بدون قوله : ثم قرأ .... إلخ وقال عنه : « رواه الطبرانى وإسناده حسن » .

وقد ثبت فى الصحيح قول الله تعالى : « ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى » [(١)] .

(* وفى مثل هذا يقال حديث وابصة عن النبى ﷺ أنه قال : « البر ما اطمأنت إليه النفس وسكن إليه القلب [(٢)] ، والإثم ما حاك فى نفسك ، وإن أفتوك وأفتوك » [(٣)] . وفى صحيح مسلم حديث النوَّاس بن سمعان عن النبى ﷺ أنه قال : « البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى / نفسك ، وكرهت أن يطلع عليه ص ١٢

---

(١) سبق الكلام على هذا الحديث القدسى فى هذا الجزء ، ص ٢٦ — ٢٧ .

(* — *) ما بين النجمتين ساقط من (ض) فقط .

(٢) ك : واطمأن إليه القلب . والمثبت من (ز) ، (م) .

(٣) ك : وإن أفتاك الناس وأفتوك . والمثبت من (ز) ، (م) . والحديث عن وابصة بن معبد الأسدى رضى الله عنه مختصرا ومطولا فى : المسند (ط . الحلبى) ٢٢٧/٤ ، ٢٢٨ ؛ سنن الدارمى ٢٤٦/٢ (كتاب البيوع ، باب دع ما يريبك إلى ما لا يريبك) ولفظ الحديث فى المسند ٢٢٨/٢ : .... عن وابصة بن معبد قال : أتيت رسول الله ﷺ وأنا لا أريد أن لا أدع شيئا من البر والإثم إلا سألته عنه ، وإذا عنده جمع ، فذهبت أتخطّى الناس . فقالوا : إليك يا وابصة عن رسول الله ﷺ ، إليك يا وابصة . فقلت : أنا وابصة ، دعونى أدنو منه ، فإنه من أحب الناس إلىّ أن أدنو منه . فقال لى : ادن يا وابصة ، ادن يا وابصة . فدنوت منه ، حتى مست ركبتى ركبته ، فقال : يا وابصة ، أخبرك ما جئت تسألنى عنه أو تسألنى ؟ فقلت : يا رسول الله ، فأخبرنى . قال : جئت تسألنى عن البر والإثم . قلت : نعم . فجمع أصابعه الثلاث ، فجعل ينكت بها فى صدرى ، ويقول : يا وابصة ، استفت نفسك ، البر ما اطمأن إليه القلب ، واطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك فى القلب ، وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس » قال سفيان : « وأفتوك » . وجاء حديث آخر بألفاظ مقاربة عن أبى ثعلبة الخشنى رضى الله عنه فى : المسند (ط . الحلبى) ١٩٤/٤ .

الناس »[١] . وقال ابن مسعود : الإثم حوّاز[٢] القلوب » .

وأيضا فالله تعالى فطر[٣] عباده على الحنيفية ، وهى[٤] حب المعروف وبغض المنكر ، فإذا لم تستحل[٥] الفطرة فالقلوب مفطورة على الحق ، فإذا كانت الفطرة مقوَّمة بحقيقة الإيمان ، منوَّرة بنور القرآن ، وخفى عليها دلالة الأدلة السمعيّة الظاهرة ، ورأى قلبه يرجّح أحد الأمرين ، كان هذا من أقوى الأمارات عند مثله .

وذلك أن الله علَّم القرآن والإيمان . قال تعالى[٦] : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ [سورة الشورى : ٥١][٧] ثم قال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلاَ الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [سورة الشورى : ٥٢][٨] .

---

(١) الحديث عن النوّاس بن سمعان رضى الله عنه فى : ٤/١٩٨٠ (كتاب البر ، باب تفسير البر والإثم) ؛ سنن الترمذى ٤/٢٣ - ٢٤ ، (كتاب الزهد ، باب ما جاء فى البر والإثم) ؛ سنن الدارمى ٢/٣٢٢ (كتاب الرقاق ، باب فى البر والإثم) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٤/١٨٢ .

(٢) ز : جوار ، وهو تحريف . وفى « لسان العرب » : وفى حديث ابن مسعود رضى الله عنه : الإثم حوّازُ القلوب ، هكذا رواه شمر ، بتشديد الواو ، من حاز يحوز أى يجمع القلوب . والمشهور بتشديد الزاى . وقيل : حوّاز القلوب ، أى يحوز القلب ويغلب عليه حتى يركب ما لا يُحَب . قال الأزهرى : ولكن الرواية : حزّاز القلوب ، أى ما حَزَّ فى القلب وحَكَّ فيه » .

(٣) ض : فالله سبحانه وتعالى فطر ؛ م : فالله فطر .

(٤) ض (فقط) : وهو .

(٥) ز : تستحيل ، وهو خطأ .

(٦) ض (فقط) : قال الله تعالى .

(٧) م : إلا وحيا . الآية ؛ ك : إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم ؛ ض : .... أو يرسل رسولا . الآية .

(٨) ك : ... من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم .

وقال جندب بن عبد الله وعبد الله بن عمر : « تعلمنا الإيمان ، ثم تعلمنا القرآن ، فازددنا إيمانا »[١] .

وفى الصحيحين عن حذيفة عن النبى ﷺ قال[٢] : « إن الأمانة نزلت[٣] فى جذر قلوب الرجال ، فعلموا من القرآن ، وعلموا من السنة »[٤] .

وفى الترمذى - [بإسناد جيد][٥] - وغيره[٦] حديث النواس بن سمعان عن النبى ﷺ / أنه[٦] قال : « ضرب الله مثلا صراطا مستقيما ، وعلى جنبتى الصراط سوران ، وفى السورين أبواب مفتّحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة وداعٍ يدعو على رأس الصراط ، وداع يدعو [من][٧] فوق الصراط . فالصراط المستقيم هو الإسلام ، والستور حدود الله ، والأبواب المفتّحة محارم الله ، فإذا أراد العبد أن يفتح بابا من تلك الأبواب ، ناداه المنادى - أو كما قال - : يا عبد الله لا تفتحه ، فإنك إن تفتحه تلجه ، والداعى على رأس الصراط كتاب الله ، والداعى فوق الصراط واعظُ الله فى قلب كل مؤمن »[٨] .

ظ ١٢

---

(١) ذكر ابن تيمية هذا الأثر كاملا فى « درء تعارض العقل والنقل » ٤٥٤/٧ وتمامه : « .... إيمانا ، وأنتم تتعلمون القرآن ، ثم تتعلمون الإيمان » .

(٢) ز ، ض : .... وسلم أنه قال ...

(٣) ز ، ض : إن الله أنزل الأمانة .

(٤) الحديث عن حذيفة رضى الله عنه فى : البخارى ١٠٤/٨ (كتاب الرقاق ، باب رفع الأمانة) ، ٥٢/٩ (كتاب الفتن ، باب إذا بقى فى حثالة من الناس) ، ٩٢/٩ (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ) ؛ ١٢٦/١ (كتاب الإيمان ، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب) ؛ سنن الترمذى ٣٢١/٣ (كتاب الفتن ، باب ما جاء فى رفع الأمانة) ؛ سنن ابن ماجة ١٣٤٦/٢ (كتاب الفتن ، باب ذهاب الأمانة) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣٨٣/٥ .

(٥) عبارة « بإسناد جيد » : زيادة فى (م) .

(٦ - ٦) : ساقط من (ك) ، وعبارة « بن سمعان » ساقطة من (ض) . و « أنه » : ليست فى (م) .

(٧) من : ساقطة من (ز) .

(٨) الحديث عن النواس بن سمعان رضى الله عنه - مع اختلاف فى الألفاظ - فى : سنن الترمذى =

فقد بيَّن أن فى قلب كل مؤمن واعظا [١] ، والواعظ الأمر والنهى بترغيب وترهيب ، فهذا الأمر والنهى الذى يقع فى قلب المؤمن مطابق لأمر القرآن ونهيه ، ولهذا يقوى أحدهما بالآخر [٢] ، وقد يُؤتى العبد أحدهما ولا يؤتى الآخر .

كما فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى [٣] عن النبى ﷺ أنه قال [٤] : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن [٥] (* كمثل الأُتْرُجَّة ريحها طيب وطعمها طيب [٦] ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن / كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها طيب [٧] ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل [٨] الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح

ص ١٣

= ٢٢٢/٤ (كتاب الأمثال عن رسول الله ﷺ ، باب ما جاء فى مثل الله عز وجل لعباده) وأوله : إن الله ضرب مثلا مستقيما .... وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب . والحديث فى المسند (ط . الحلبى) ١٨٢/٤ – ١٨٣ ، وجاء فيه مرتين أوله فى الأولى : ضرب الله .... وفى الثانية : إن الله عز وجل ضرب ....

(١) ض : واعظ .

(٢) بعد كلمة « بالآخر » توجد خمسة أسطر فى نسخة (ض) جاءت فى غير موضعها ، أولها : كما قال تعالى : (نور على نور) قال بعض السلف .... إلخ . وسترد هذه العبارات فى مكانها بعد قليل إن شاء الله .

(٣) الأشعرى : زيادة فى (ز) ، (ض) .

(٤) عبارة « أنه قال » : ليست فى (م) .

(٥) بعد كلمة « القرآن » يوجد بياض فى نسخة (م) بمقدار ثلاثة أسطر ولم يذكر ابن تيمية باقى الحديث .

(* – *) ما بين النجمتين ساقط من (م) ومكانه بياض .

(٦) ض : طعمها طيب وريحها طيب .

(٧) ض : طعمها طيب ولا ريح لها .

(٨) ض : كمثل .

وطعمها مر » »[1] .

وقد قال بعض السلف فى قوله : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ [سورة النور : ٣٥] قال : هو المؤمن ينطق بالحكمة وإن لم يسمع فيها بأثر ، فإذا سمع بالأثر كان نوراً[2] على نور ، نور الإيمان الذى فى قلبه يطابق نور القرآن ، كما أن الميزان العقلى يطابق الكتاب المنزَّل ، فإن الله أنزل الكتاب والميزان ، ليقوم الناس بالقسط .

والإلهام فى القلب تارة يكون من جنس القول والعلم والظن والاعتقاد ، وتارة يكون من جنس العمل والحب والإرادة والطلب ، فقد[3] يقع فى قلبه أن هذا القول أرجح وأظهر وأصوب ، وقد يميل قلبه إلى أحد الأمرين دون الآخر .

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « قد كان فى الأمم قبلكم مُحَدَّثون فإن يكن فى أمتى أحدٌ فعمر منهم »[4] والمحدَّث هو الملهم المخاطب[5] .

---

(١) الحديث عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه فى : البخارى ٧٧/٧ (كتاب الأطعمة ، باب ذكر الطعام) ، ١٩٠/٦ – ١٩١ (كتاب فضائل القرآن ، باب فضل القرآن على سائر الكلام) ، ١٦١/٩ (كتاب التوحيد ، باب قراءة الفاجر والمنافق) ؛ مسلم ٥٤٩/١ (كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضيلة حافظ القرآن) ؛ سنن أبى داود ٣٥٧/٤ – ٣٥٨ (كتاب الأدب ، باب من يؤمر أن يجالس) ؛ سنن الترمذى ٢٧٧/٤ (كتاب الأمثال ، باب ما جاء مثل المؤمن القارىء للقرآن وغير القارىء) ؛ سنن ابن ماجة ٧٧/١ (المقدمة ، باب فضل من تعلم القرآن وعلمه) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٤٠٣/٤ – ٤٠٤ . والأترجة : التفاحة .

(٢) ز : نور .

(٣) ز : قد .

(٤) الحديث عن عائشة رضى الله عنها – مع اختلاف فى الألفاظ – فى : البخارى ١٧٤/٤ (كتاب الأنبياء ، الباب الأخير) ، ١٢/٥ (كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب عمر بن الخطاب) ؛ مسلم ١٨٦٤/٤ (كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عمر ...) ؛ سنن الترمذى ٢٨٥/٥ (كتاب المناقب ، باب من أبواب مناقب أبى حفص عمر بن الخطاب) وقال الترمذى : « وأخبرنى بعض أصحاب ابن عيينة عن سفيان بن عيينة قال : محدّثون ، يعنى : مفهَّمون » ؛ المسند (ط . الحلبى) ٥٥/٦ .

(٥) بعد كلمة « المخاطب » توجد ثمانية أسطر فى نسخة (ض) جاءت فى غير موضعها وسبق =

وأيضا فإذا كانت الأمور الكونية قد تنكشف للعبد المؤمن يقيناً أو ظنًّا ، فالأمور الدينية كذلك بطريق / الأوْلى ، فإنه إلى كشفها أُحْوَج ، لكن هذا فى الغالب لابد أن يكون كشفاً بدليل ، وقد يكون بدليل ينقدح فى قلب المؤمن لا يمكنه التعبير عنه ، وهذا أحد ما فُسِّر به معنى الاستحسان .

ظ ١٣

وقد قال من طعن فى ذلك ، كأبى حامد وأبى محمد (١) : « ما لا يُعَبَّر عنه فهو هوس » (٢) . وليس كذلك ، فإنه ليس كل أحدٍ يمكنه إبانة المعانى القائمة بقلبه ، وكثير من الناس يبيِّنها بياناً ناقصاً ، وكثير من أهل الكشوف (٣) يُلقى فى قلبه أن هذا الطعام حرام ، أو أن هذا الرجل كافرٌ أو فاسق ، من غير دليل ظاهر ، وبالعكس قد يُلقى فى قلبه محبة شخص ، وأنه ولى لله ، أو أن هذا المال حلال .

وليس المقصود هنا بيان أن هذا وحده دليل على الأحكام [الشرعية] (٤) ، لكن أن مثل هذا يكون ترجيحاً لطالب الحق إذا تكافأت عنده الأدلة السمعية الظاهرة ، فالترجيح بها (٥) خير من التسوية بين الأمرين المتناقضين قطعا ، فإن

= ورودها من قبل (ص ٢٢ - ٢٣) وأولها : « فى مثل هذا قول النبى ﷺ فى حديث وابصة : البر .... وقال ابن مسعود : الإثم حزاز القلوب » .

(١) الأرجح أن ابن تيمية يقصد : أبا محمد المقدسى . وهو : أبو محمد تقى الدين عبد الغنى بن عبد الواحد بن على بن سرور المقدسى الجماعيلى الدمشقى الحنبلى ، العلاّمة المحدث ، ولد سنة ٥٤١ وتوفى سنة ٦٠٠ . انظر ترجمته فى : شذرات الذهب ٣٤٥/٤ - ٣٤٦ ؛ العبر ٣١٣/٤ ؛ معجم المؤلفين ٢٧٥/٥ - ٢٧٦ ؛ الأعلام ١٦٠/٤ .

(٢) يقول أبو حامد الغزالى فى كتابه « المستصفى فى أصول الفقه » ١٣٨/١ - ١٣٩ (ط . التجارية ، القاهرة ، ١٣٥٦/١٩٣٧) : « التأويل الثانى للاستحسان : قولهم : المراد به دليل ينقدح فى نفس المجتهد ، لا تساعده العبارة عنه ، ولا يقدر على إبرازه وإظهاره . وهذا هوس ، لأن ما لا يقدر على التعبير عنه لا يدرى أنه وهم وخيال أو تحقيق ... إلخ » .

(٣) ض (فقط) : الكشف .

(٤) الشرعية : ساقطة من (ز) فقط .

(٥) بها : ساقطة من (ك) فقط .

التسوية بينهما باطلة قطعا ، كما قلنا : إن العمل بالظن الناشئ عن ظاهر [١] أو قياس ، خير من العمل بنقيضه إذا احتيج إلى العمل بأحدهما .

والصواب الذى عليه السلف والجمهور ، أنه لابد فى كل حادثة / من دليل شرعى ، فلا يجوز تكافؤ [٢] الأدلة فى نفس الأمر ، ولكن قد تتكافأ عند الناظر لعدم ظهور الترجيح له ، وأما من قال : إنه ليس فى نفس الأمر حق معيّن ، بل كل مجتهد عالم بالحق الباطن فى المسألة ، وليس لأحدهما على الآخر مَزِيَّة فى علم ولا عمل ، فهؤلاء قد يجوِّزون – أو بعضهم – تكافؤ الأدلة ، ويجعلون الواجب التخيير بين القولين . ص ١٤

وهؤلاء يقولون : ليس على الظن دليل فى نفس الأمر ، وإنما رجحان أحد القولين هو من باب الرجحان بالميل والإرادة ، كترجيح النفس الغضبية للانتقام ، والنفس الحليمة للعفو .

وهذا القول خطأ ؛ فإنه لابد فى نفس الأمر من حق معين يصيبه المستدل تارة ويخطئه أخرى ، كالكعبة فى حق من اشتبهت عليه القبلة ، والمجتهد إذا أدَّاه اجتهاده إلى جهة وسقط [٣] عنه الفرض بالصلاة إليها ، كالمجتهد إذا أدَّاه اجتهاده إلى قولٍ فعمل بموجبه : كلاهما مطيع لله ، وهو مصيب ، بمعنى أنه مطيع لله وله أجر على ذلك ، وليس مصيبا ، بمعنى أنه علم الحق المعيّن [٤] ، فإن ذلك لا يكون إلا واحداً ، ومُصِيبُهُ له أجران .

---

(١) ز : الظاهر .

(٢) ك : تكافى .

(٣) ض (فقط) : سقط .

(٤) المعيّن : ساقطة من (ك) .

ظ ١٤ / وهذا فى كشف الأنواع التى يكون عليها دليل / شرعى ، لكن قد يخفى على العبد ، فإن الشارع بيَّن الأحكام الكلية . وأما [أحكام] (١) المعيَّنات التى تسمى تنقيح المناط ، مثل كون الشخص المعيَّن عدلا أو فاسقا ، ومؤمنا (٢) أو منافقا ، ووليًّا لله أو عدوًّا له ، وكون هذا [العقار] (٣) ليتيم أو فقير يستحق الإحسان إليه ، (٤ وكون هذا المعيَّن عدوًّا للمسلمين يستحق القتل ٤) ، وكون هذا المال يُخاف عليه من ظلم ظالم ، فإذا زهد فيه الظالم انتفع (٥) به أهله .

فهذه الأمور لا يجب أن تُعلم بالأدلة الشرعية العامة الكلية ، بل تعلم بأدلة خاصة تدل عليها . ومن طرق [ذلك] (٦) الإلهام (٧) ، فقد يُلهم الله بعض عباده حال هذا المال المعين ، وحال هذا الشخص ، وإن لم يكن هناك دليل ظاهر يشركه فيه غيره .

وقصة الخضر مع موسى (٨) هى من هذا الباب ، ليس فيها مخالفة لشرع (٩) الله ، (١٠ فإنه لا يجوز قط لأحد : [لا] نبى ولا ولى [أن] يخالف (١١) شرع الله ١٠) ، لكن فيها علم حال ذلك المعيّن بسبب باطن يوجب فيه الشرع ما فعله الخضر ، كمن دخل إلى دار وأخذ ما فيها من المال لعلمه بأن صاحبها أذن

---

(١) أحكام : ساقطة من (ز) ، وأثبتها من (م) ، (ك) . وفى (ض) : الأحكام .
(٢) ض : أو مؤمنا .
(٣) العقار : ساقطة من (ز) .
(٤ - ٤) هذه العبارات سبقت فى (ض) العبارات السابقة التى تبدأ بقوله : « وكون هذا العقار .. إلى قوله : الإحسان إليه » .
(٥) ك : وانتفع ، وهو تحريف .
(٦) ذلك : ساقطة من (ز) .
(٧) ك : إلهام ، وهو تحريف .
(٨) ض : وقصة موسى مع الخضر .
(٩) ز ، ك : شرع . والكلمة غير واضحة فى مصورة (م) .
(١٠ - ١٠) : ساقط من (ك) .
(١١) ز : لأحد نبى ولا ولى يخالف . والعبارة غير واضحة فى مصورة (م) . والمثبت من (ض) .

له وغيره لم يعلم ، ومثل من رأى ضالة أخذها ولم يعرفها ، لعلمه / بأنه أتى [١] بها هدية له ، ونحو ذلك . ومثل هذا كثير [٢] عند [٣] أهل الإلهام الصحيح . ص ١٥

والنوع الثانى عكس هذا ، وهو [أنهم] [٤] يتبعون هواهم لا أمر الله [٥] ، فهؤلاء لا يفعلون ولا يأمرون إلا بما يحبونه بهواهم ، ولا يتركون وينهون إلا عمَّا يكرهونه بهواهم [٦] . وهؤلاء شر الخلق ، قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ [سورة الفرقان : ٤٣] . قال الحسن : « هو المنافق لا يهوى شيئا إلا ركبه » [٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ ﴾ [سورة القصص : ٥٠] . وقال عمر بن عبد العزيز : « لا تكن ممن يتّبع [٨] الحق إذا وافق هواه ، ويخالفه إذا خالف هواه ، فإذا أنت لا تثاب [٩] على ما اتّبعته من الحق ، وتُعَاقَب على ما خالفته » . وهو كما قال رضى الله عنه ، لأنه فى الموضعين إنما قصد اتّباع هواه ، لم [١٠] يعمل لله .

---

(١) ك : أثر ، وهو تحريف .
(٢) ز : الباب ، وهو تحريف .
(٣) ز ، ك : عن . والمثبت من (ض) .
(٤) أنهم : ساقطة من (ز) .
(٥) ز : لا أمراً لله .
(٦) ك : ولا يتركون وينهون عمَّا يكرهون إلا بهواهم .
(٧) قال السيوطى فى « الدر المنثور » ٥/٧٢ : « وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن : (أرأيت من اتخذ إلهه هواه) قال : لا يهوى شيئا إلا اتبعه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن قتادة : (أرأيت من اتخذ إلهه هواه) قال : كلما هوى شيئا ركبه » . وفى تفسير القرطبى للآية : « وعن الحسن : لا يهوى شيئا إلا اتبعه » . وفى « زاد المسير » : « وقال قتادة : هو الكافر لا يهوى شيئا إلا ركبه » . وأورد ابن الجوزى فى كتابه « ذم الهوى » (ص ١٧ ، بتحقيق الشيخ محمد الغزالى ، القاهرة ١٣٨١/١٩٦٢) قول الحسن كما أورده ابن تيمية هنا وذكر ابن الجوزى سنده إليه .
(٨) ز : اتبع .
(٩) ز : لاثبات لك ، وهو تحريف .
(١٠) ز : ولم .

ألا ترى أن أبا طالب نصر النبى ﷺ وذبَّ عنه أكثر من غيره ، لكن فَعَل ذلك لأجل القرابة لا لأجل الله تعالى [(١)] ، فلم يتقبل الله ذلك منه ولم يُثبه [(٢)] على ذلك ؟ وأبو بكر الصديق ، رضى الله عنه ، أعانه بنفسه وماله لله ، فقال الله تعالى [(٣)] : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝ الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى ۝ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ [سورة الليل : ١٧ – ٢١] . ظ ١٥

والقسم الثالث : الذى يريد تارة إرادةً يحبها الله ، وتارة إرادةً يبغضها [الله] [(٤)] ، وهؤلاء أكثر المسلمين [(٥)] : فإنهم يطيعون الله تارة ويريدون ما أحبه ، ويعصونه تارةً فيريدون [(٦)] ما يهوونه وإن كان يكرهه .

والقسم الرابع : أن يخلو عن الإرادتين ، فلا يريد لله ولا لهواه ، وهذا يقع لكثير من الناس فى بعض الأشياء ، ويقع لكثير من الزهّاد والنسّاك فى كثير من الأمور .

وأما خلو الإنسان [(٧)] من [(٨)] الإرادة مطلقا فممتنع ، فإنه مفطور على إرادة ما لابد له منه ، وعلى كراهة ما يضره ويؤذيه . والزاهد الناسك إذا كان مسلما

---

(١) ز : لا لأجل القرابة لله تعالى ، وهو تحريف .
(٢) ز : ولم يثيبه ، وهو خطأ .
(٣) م : فقال الله ؛ ك : فقال الله فيه .
(٤) الله : ليست فى (ز) .
(٥) ز ، ك : أئمة المسلمين .
(٦) ز ، ض : ويريدون .
(٧) ك : وأما ما خلق فى الإنسان ، وهو تحريف .
(٨) ض : عن .

فلابد أن يريد أشياء يحبها الله ، مثل أداء الفرائض وترك المحارم ، بل وكذلك عموم المؤمنين لابد أن يريد أحدهم أشياء يحبها الله ، وإلا فمن لم يحب الله [١] ولا أحب شيئا لله ، فلم يحب شيئا من الطاعات : لا الشهادتين ولا غيرهما ، ولا يريد ذلك ، فإنه لا يكون مؤمنا .

فلابد لكل مؤمن من أن تكون له إرادة لبعض ما يحبه الله . وأما إرادة العبد لما يهواه / ولا يحبه الله ، فهذا لازم لكل من عصى الله ، فإنه أراد المعصية والله لا يحبها ولا يرضاها . ص ١٦

وأما الخلو عن الإرادتين المحمودة والمذمومة ، فيقع على وجهين : أحدهما : مع إعراض العبد عن عبادة الله وطاعته وإن علم بها ، فإنه قد يعلم كثيرا من الأمور أنه مأمور بها وهو لا يريدها ولا يكره من غيره فعلها . وإذا اقتتل المسلمون والكفار لم يكن مريداً لانتصار هؤلاء الذى يحبه الله ، ولا لانتصار هؤلاء الذى يبغضه الله .

والوجه الثانى : يقع من كثير من الزُّهَّاد العُبَّاد [٢] : الممتثلين لما يعلمون أن الله أمر به ، المجتنبين لما يعلمون أن الله نهى عنه . وأمور أخرى لا يعلمون أنها مأمور بها ولا منهى عنها ، فلا يريدونها ولا يكرهونها لعدم العلم [٣] ، ويرضون بها من جهة كونها مخلوقة مقدرة ، وقد يعاونون عليها ، ويَرَوْن هذا موافقة لله ، وأنهم لما خلوا عن هوى النفس كانوا مأمورين بالرضا بكل حادث بل والمعاونة عليه .

---

(١) ز : لله .

(٢) تكررت كلمة « العباد » فى (ز) ، وهو تحريف .

(٣) ك : لعدم العلم بها .

وهذا موضع يقع فيه الغلط ، فإن ما أحبه الله ورسوله علينا أن نحب ما أحبه الله ورسوله ، ونبغض ما يبغضه الله ورسوله ، وأما ما لا يحبه الله ورسوله ولا يبغضه الله ورسوله ، كالأفعال التى لا تكليف / فيها ، مثل أفعال النائم والمجنون ، فهذه إذا كان الله لا يحبها ولا يرضاها ولا يكرهها ويذمها ، فالمؤمن أيضا لا ينبغى أن يحبها ويرضاها ولا يكرهها .

ظ ١٦

المؤمن والقدر

وأما كونها مقدورة ومخلوقة لله فذاك لا يختص بها ، بل هو شامل لجميع المخلوقات . والله تعالى خلق ما خلقه لما شاء من حكمته ، وقد أحسن كل شئ خلقه .

والرضا بالقضاء ثلاثة أقسام .

أحدها : الرضا بالطاعات ، فهذا طاعة مأمور بها .

والثانى : الرضا بالمصائب ، فهذا مأمور بها : إما مستحب وإما واجب .

والثالث : الكفر والفسوق والعصيان ، فهذا لا يؤمر بالرضا به [(١)] ، بل يؤمر ببغضه وسخطه ، فإن الله لا يحبه ولا يرضاه . كما قال تعالى : ﴿ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ ﴾ [سورة النساء : ١٠٨] ، وقال : ﴿ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٠٥] ، وقال : ﴿ وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ [سورة الزمر : ٧] ، [وقال : ﴿ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الكافرين ﴾ [سورة آل عمران : ٣٢] ، وقال : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٨٧] [(٢)] [(٣)] وقال : ﴿ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٦٤] [(٣)] .

---

(١) ز : لا يؤمر به بالرضا به ، وهو تحريف .

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من (ز) . وفى (ك) ، (ض) : إن الله لا يحب الكافرين .

(٣ - ٣) : هذه العبارات ليست فى (م) ، (ض) .

وهو ، وإن خلقه لما له فى ذلك من الحكمة ، فلا يمتنع أن يخلق ما لا يحبه لإفضائه إلى الحكمة التى يحبها ، كما خلق الشياطين . فنحن راضون عن الله بأن يخلق ما يشاء ، وهو محمود على ذلك .

وأما نفس هذا الفعل المذموم وفاعله ، فلا نرضى به ولا / نحمده [(١)] ، وفرق بين ما يُحَبُّ لنفسه وما يُراد لإفضائه إلى المحبوب مع كونه مبغضا [(٢)] من جهة أخرى ، فإن الأمر الواحد يراد من وجه [(٣)] ويكره من وجه آخر ، كالمريض الذى يتناول الدواء الكريه ؛ فإنه يبغض الدواء ويكرهه ، وهو مع هذا يريد استعماله لإفضائه إلى المحبوب ، لا لأنه فى نفسه محبوب . ص ١٧

وفى الحديث الصحيح : « يقول الله تعالى [(٤)] : ما [(٥)] ترددت عن شئ أنا فاعله كترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن : يكره الموت ، وأكره مساءته ، ولابد له منه » [(٦)] . فهو سبحانه لمّا كره مساءة عبده المؤمن الذى يكره الموت ، كان هذا مقتضيا أن يكره إماتته ، مع أنه يريد إماتته لما له فى ذلك من الحكمة سبحانه وتعالى .

فالأمور التى يبغضها الله وينهى عنها [لا تُحب ولا تُرضى] [(٧)] لكن

---

(١) ز : فلا يرضى به ولا يحمده .

(٢) ك : مبغوضا .

(٣) ز : جهة .

(٤) تعالى : ساقطة من (ز) .

(٥) ز ، ض : وما .

(٦) هذا جزء من الحديث القدسى عن أبى هريرة وعائشة رضى الله عنهما وأوله : إن الله قال : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلىّ عبدى بشئ أحب إلىّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل ... وسبق الكلام على الحديث فى هذا الجزء (ص ٢٦ – ٢٧) .

(٧) ما بين المعقوفتين ساقط من (ز) ، (ك) ، وأثبته من (م) ، (ض) .

نرضى [(١)] بما يرضى الله به حيث خلقها ، لما له فى ذلك من الحكمة ، فكذلك الأفعال التى لا يحبها ولا يبغضها لا ينبغى أن تُحب ولا تُرضى [(٢)] كما لا ينبغى أن تُبغض .

[والرضا الثابت بالنص هو أن يرضى بالله ربًّا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد نبيا . وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « من رضى بالله ربًّا ، وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا ، كان حقًّا على الله أن يرضيه [(٣)]] [(٤)] .

وأما بالنسبة إلى القدر فيرضى عن الله ، إذ له الحمد على كل حال ، ويرضى بما يرضاه من الحكمة التى خلق لأجلها ما خلق ، وإن كنا نبغض ما يبغضه من المخلوقات ، فحيث انتفى الأمر الشرعى / أو خفى الأمر الشرعى لا يكون الامتثال والرضا والمحبة ، كما يكون فى الأمر الشرعى ، وإن كان ذلك مقدوراً . ظ ١٧

وهذا موضع غلط فيه كثير من خاصة السالكين وشيوخهم ، فضلا عن عامتهم ، ويتفاوتون فى ذلك بحسب معرفتهم بالأمر الشرعى وطاعتهم له ،

---

(١) ز ، ك : يرضى .

(٢) عبارة « ولا ترضى » ليست فى (ك) ، (م) .

(٣) لم أجد حديثا بهذه الألفاظ ولكن ذكر السيوطى فى « الجامع الكبير » ١/ ٧٨٠ حديثا عن أبى سعيد الخدرى نصه : « من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا وجبت له الجنة ، وأخرى يرفع الله بها أهلها فى الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض أو أبعد ما بين السماء والأرض : الجهاد فى سبيل الله » وقال السيوطى : « حب = ابن حبان ، ك = الحاكم فى المستدرك : عب = عبد الرازق) . وأشار إلى هذا الحديث عبد الغنى النابلسى فى « ذخائر المواريث » ٣/ ١٨٢ ، وقال إنه فى (م) = مسلم فى الجهاد عن سعيد بن منصور ، (د) = سنن أبى داود : فى الصلاة عن محمد بن رافع ، (س) = سنن النسائى فى الجهاد عن الحارث بن مسكين . ولم أجد الحديث فى مسلم وسنن أبى داود ، ولكنى وجدته بألفاظ مقاربة عن الحارث بن مسكين فى : سنن النسائى ٦/ ١٧ - ١٨ (كتاب الجهاد ، باب درجة المجاهد فى سبيل الله عز وجل) .

(٤) ما بين المعقوفتين ساقط من (ز) فقط .

فمنهم من هو أعرف [١] من غيره بالأمر الشرعى وأطوع له ، فهذا يكون حاله أحسن ممن نقص [٢] عنه فى المعرفة بالأمر الشرعى والطاعة له ، ومنهم من يبعد عن الأمر الشرعى ويسترسل حتى ينسلخ من الإسلام بالكلية ، ويبقى واقفا مع هواه والقدر .

ومن هؤلاء من يموت كافراً ، ومنهم من يتوب الله عليه ، ومنهم من يموت فاسقاً ، ومنهم من يتوب الله عليه . وهؤلاء ينظرون إلى الحقيقة القدرية معرضين عن الأمر الشرعى ، ولابد مع ذلك من اتّباع أمرٍ ونهى غير الأمر الشرعى ، إما من أنفسهم وإما من غير الله ورسوله ، إذ الاسترسال مع القدر مطلقا ممتنع لذاته ، لما تقدم من أن العبد مفطور على محبة أشياء وبغض أشياء .

وقول من قال : « إن العبد يكون مع الله كالميت مع الغاسل » لا يصح ولا يسوغ على الاطلاق عند [٣] أحد من المسلمين ، وإنما يُقال ذلك فى بعض المواضع ، ومع [هذا فإنما] [٤] ذلك لخفاء أمر الله عليه ، / وإلا فإذا علم ما أمر الله به وأحبه ، فلابد أن يحب ما أحبه الله ، ويبغض ما أبغضه الله [٥] . ص ١٨

فصل

وكما أن الطريقة العلمية بصحة النظر من الأدلة والأسباب الموجبة للعلم ، كتدبر القرآن والحديث ، فالطريقة العملية بصحة الإرادة والأسباب

(١) ك : فمن هو أعرف ، وهو تحريف .
(٢) ك ، ض : يقصر .
(٣) ض : عن .
(٤) ما بين المعقوفتين ساقط من (ز) .
(٥) لفظ الجلالة ليس فى (ض) فى هذا الموضع .

[هى] [١] الموجبة للعمل ، [كعمارة الباطن بالمراقبة ، والخوف من الله على كل حال] [٢] ولهذا يسمُّون السالك فى ذلك : المريد ، كما يسميه أولئك : الطالب .

والنظر جنس تحته حق وباطل ومحمود ومذموم ، وكذلك الإرادة . فكما أن طريق العلم لابد فيه من العلم النبوى الشرعى ، بحيث يكون معلومك المعلومات الدينية النبوية ، ويكون علمك بها مطابقا لما أخبرت به الرسل ، وإلا فلا ينفعك أى معلوم علمته ، ولا أى شئ اعتقدته فيما [٣] أخبرت به الرسل ، بل لابد من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فكذلك الإرادة لابد فيها من تعيين المراد [٤] وهو الله والطريق إليه ، وهو ما أمرت به الرسل ، فلابد أن تعبد الله وتكون عبادتك إياه بما شُرِع على ألسنة رسله ، إذ لابد من تصديق الرسول فيما أخبر علما ، ولابد من طاعته فيما أمر عملا .

ولهذا كان الإيمان قولا وعملا مع موافقة السنة ، فالعلم الحق ما وافق علم الله ، والإرادة / الصالحة ما وافقت محبة الله ورضاه ، وهو حكمه الشرعى ، والله عليم حكيم . ظ ١٨

فالأمور الخبرية لابد أن تطابق حب الله وأمره . فهذا حكمه ، وذاك علمه .

وأما من جعل حكمه مجرد القدر ، كما فعل صاحب « منازل السائرين » وجعل مشاهدة العارف الحكم يمنعه [٥] أن يستحسن [حسنة] [٦] أو يستقبح

---

(١) هى : زيادة فى (ض) فقط .

(٢) ما بين المعقوفتين زيادة فى (ك) فقط .

(٣) ز : وفيها ، وهو تحريف .

(٤) ز : تعين على المراد .

(٥) ك : منعه .

(٦) حسنة : ساقطة من (ز) .

سيئة [١] ، فهذا فيه من الغلط العظيم ما قد نبهنا عليه فى غير هذا الموضع .

فلا ينفع المريد القاصد أن يعبد أى معبود كان ، ولا أن يعبد الله بأى عبادة كانت ، بل هذه طريقة المشركين المبتدعين الذين لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ، كالنصارى ومن أشبههم من أهل البدع ، الذين يعبدون غير الله بغير أمر الله .

وأما أهل الإسلام والسنة فهم يعبدون الله وحده ، ويعبدونه بما شرع ، لا يعبدونه بالبدع ، إلا ما يقع من أحدهم خطأ . فالسالكون طريق الإرادة قد يغلطون تارة فى المراد ، وتارة فى الطريق إليه ، تاره يتألهون [٢] غير الله بالخوف منه والرجاء له ، والتعظيم والمحبة له [٣] ، وسؤاله والرغبة إليه ، فهذا من الشرك المحرّم ، فإن حقيقة التوحيد أن لا تعبد إلا الله .

والعبادة تتضمن كمال الحب ، وكمال / التعظيم ، وكمال الرجاء ، والخشية ، والجلال ، والإكرام . والفناء فى هذا التوحيد هو [٤] فناء المرسلين وأتباعهم ، وهو أن تفنى [٥] بعبادته عن عبادة ما سواه ، وبطاعته عن طاعة ما سواه ، وبسؤاله عن سؤال ما سواه ، وبخوفه عن خوف ما سواه ، وبرجائه [٦] عن رجاء ما سواه ، وبحبه والحب فيه عن محبة ما سواه والحب فيه . ص ١٩

---

(١) ز : سيئته . ويقول الشيخ محمد بن عبد الله الأنصارى الهروى فى كتابه « منازل السائرين » ص ١١ (تحقيق دى بوركى الدومنكى ، ط . المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٦٢) : « واللطيفة الثالثة (من لطائف سرائر التوبة) أن مشاهدة العبد الحكم لم تدع له استحسان حسنة ولا استقباح سيئة ، لصعوده من جميع المعانى إلى معنى الحكم » .

(٢) ز : فتألهون ، وهو تحريف ؛ ض : يألهون . والمثبت من (ك) ، (م) .

(٣) له : ساقطة من (ك) .

(٤) هو : ساقطة من (ض) .

(٥) ك : يغنى ، ز ، م : الكلمة غير منقوطة .

(٦) ز : وبرجاه .

وأما الغالطون فى الطريق فقد يريدون الله ، لكن لا يتبعون الأمر الشرعى فى إرادته ، لكن تارة يعبده أحدهم بما يظنه يرضيه ولا يكون كذلك ، وتارة ينظرون إلى [١] القدر لكونه مراده ، فيفنون فى القدر الذى ليس لهم فيه غرض ، وأما الفناء المطلق فيه فممتنع . وهؤلاء يبقى [٢] أحدهم متبعا لذوقه ووجده المخالف للأمر الشرعى ، أو ناظرا إلى القدر ، وهذا يبتلى به كثير من خواصهم .

والشيخ عبد القادر ونحوه من أعظم مشايخ [٣] زمانهم ، أُمَرَ [٤] بالتزام الشرع : الأمر [٥] والنهى ، وتقديمه على الذوق والقدر ، ومن أعظم المشايخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسية ، فإن الخطأ فى الإرادة من حيث هى إرادة ، إنما يقع من هذه الجهة .

ظ ١٩ فهو يأمر / السالك أن لا تكون له إرادة من جهة هواه أصلا ، بل يريد ما يريده الرب عز وجل : إما إرادة شرعية إن تبين له ذلك ، وإلا جرى [٦] مع الإرادة القدرية ، فهو إما مع أمر الرب ، وإما مع خلقه ، وهو سبحانه له الخلق والأمر .

وهذه طريقة شريفة صحيحة ، إنما يُخاف على صاحبها مِنْ ترك إرادة شرعية لا يعلم أنها شرعية ، أو من تقديم إرادة قدرية على [٧] الشرعية ، فإنه إذا لم

---

(١) إلى : ساقطة من (ض) .
(٢) ض : يفنى .
(٣) ض : مشائخ .
(٤) ك : آمر ؛ ض : أمراً . والمثبت من (م) ، (ز) .
(٥) ض (فقط) : والأمر .
(٦) ز : والأخرى ؛ ض : والاجرى .
(٧) على : ساقطة من (ك) .

يعلم الشرعية فقد يتركها ، وقد يريد ضدها ، فيكون تَرَك مأموراً أو فعل محظوراً وهو لا يعلم .

فإن طريق الإرادة يُخاف على صاحبها من ضعف العمل ، وما يقترن بالعلم من العمل والوقوع فى الضلال ، كما أن طريقة العلم يُخاف على صاحبها من ضعف العمل ، وضعف العلم الذى يقترن بالعمل .

لكن لا يكلف الله نفساً إلا وسعها [من هذا وهذا] (١) . قال تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [سورة التغابن : ١٦] (٢) فإذا تفقه السالك وتعلم الأمر والنهى بحسب اجتهاده ، وكان عمله (٣) وإرادته بحسب ذاك ، فهذا مستطاعه . وإذا أدّى الطالب ما أُمر به وترك ما نُهى عنه ، وكان علمه مطابقا لعمله ، فهذا مستطاعه .

فصل

س ٢٠ أمر الجيلانى بالفناء عن الخلق والهوى والإرادة

قال الشيخ عبد القادر (٤) / : « افن عن الخلق بحكم الله (٥) ، وعن هواك بأمره (٦) ، وعن إرادتك بفعله (٧) ، فحينئذ (٨) تصلح أن تكون وعاءً لعلم الله تعالى » (٩) .

---

(١) عبارة « من هذا وهذا » : ساقطة من (ز) ، (ك) .

(٢) بعد آية سورة التغابن توجد فى (ك) فقط هذه العبارات : « وقال ﷺ : وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم » .

(٣) ض (فقط) : علمه ، وهو تحريف .

(٤) ز ، ض : الشيخ قدّس الله روحه . والكلام التالى فى « فتوح الغيب » ص ١٢ وهو فى المقالة السادسة : فى الفناء عن الخلق .

(٥) فتوح الغيب : عن الخلق بإذن الله تعالى .

(٦) فتوح الغيب : بأمر الله تعالى ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين .

(٧) فتوح الغيب : بفعل الله تعالى .

(٨) فتوح الغيب : وحينئذ .

(٩) تعالى : ليست فى (ك) ، (ض) ، (م) . وهى فى (ز) ، فتوح الغيب .

تعليق ابن تيمية

قلت : فحكمه يتناول خلقه وأمره ، أى : افن عن عبادة الخلق والتوكل عليهم بعبادة الله والتوكل عليه ، فلا تطعهم فى معصية الله ، ولا تتعلق بهم فى جلب منفعة ولا دفع مضرّة .

وأما الفناء عن الهوى بالأمر وعن الإرادة بالفعل ، بأن يكون فعله موافقا للأمر الشرعى لا لهواه ، وأن تكون إرادته لما يخلق تابعةً لفعل الله لا لإرادة نفسه ، فالإرادة تارة تتعلق بفعل نفسه وتارة بالمخلوقات .

فالأول يكون بالأمر ، والثانى لا تكون [(١)] له إرادة . ولابد فى هذا أن يقيد بأن لا تكون له إرادة لم يؤمر بها ، وإلا فإذا أُمر بأن يريد من المقدورات شيئا دون شئ ، فليرد ما أمر بإرادته ، سواء كان موافقاً للقدر أم لا .

وهذا الموضع قد يغلط فيه طائفة من السالكين ، والغالب على الصادقين منهم أنهم لم يعرفوا الإرادة الشرعية فى ذلك المعين ، وهم ليس لهم إرادة نفسانية ، فتركوا إرادتهم لغير المقدور .

ظ ٢٠

كلام الجيلانى عن علامات الفناء

قال الشيخ [(٢)] : « فعلامة فنائك / عن خلق الله [(٣)] انقطاعك عنهم ، وعن التردد إليهم ، واليأس مما فى أيديهم » .

تعليق ابن تيمية

وهو كما قال . فإذا كان القلب لا يرجوهم ولا يخافهم ، لم يتردد إليهم لطلب شئ منهم ، وهذا يشتبه بما يكون مأمورا به من المشى إليهم لأمرهم بما أمر الله به ، ونهيهم عن ما نهاهم الله عنه ، كذهاب الرسل وأتباع الرسل إلى من يبلغونه رسالات الله ، فإن التوكل إنما يصح مع القيام بما أُمر به العبد ، ليكون عابداً لله

---

(١) ك ، ز : لا يكون .

(٢) بعد الكلام السابق مباشرة فى « فتوح الغيب » ص ١٢ .

(٣) فتوح الغيب : الله تعالى .

متوكلا عليه ، وإلا فمن توكل عليه ولم يفعل ما أُمر به ، فقد يكون ما أضاعه من الأمر أَوْلى به مما قام به من التوكل ، أو مثله أو دونه ، كما أن من قام بأمرٍ ولم يتوكل عليه ولم يستعن به فلم يقم بالواجب ، بل قد يكون ما تركه من التوكل والإستعانة أَوْلى به ممّا فعله من الأمر أو مثله أو دونه .

تابع كلام الجيلانى

قال الشيخ [١] : « وعلامة فنائك عنك وعن هواك [٢] ، ترك التكسب والتعلق بالسبب [٣] فى جلب النفع ودفع الضر ، فلا تتحرك [٤] فيك بك [٥] ، ولا تعتمد [٦] عليك لك ، ولا تنصر [٧] نفسك ولا تذب عنك [٨] ، لكن تكل ذلك [٩] كله إلى من تولاّه أولاً فيتولاه آخرًا [١٠] ، كما كان ذلك موكولا إليه فى حالك كونك مغيبا فى الرحم ، / وكونك رضيعا طفلا فى مهدك » .

ص ٢١

تعليق ابن تيمية

قلت : وهذا لأن النفس تهوى وجود ما تحبه وينفعها ، ودفع ما تبغضه [١١] ويضرها ، فإذا فنى عن ذاك بالأمر فعل ما يحبه الله وترك ما يبغضه ، فاعتاض بفعل

---

(١) الشيخ : ليست فى (ك) . والكلام التالى بعد الكلام السابق مباشرة فى « فتوح الغيب » ص ١٣ .

(٢) فتوح الغيب : .... فنائك عن هواك ...

(٣) ز : بالتسبب .

(٤) ز : يتحول .

(٥) فتوح الغيب : فلا تحرك فيك ...

(٦) ز : يعتمد ؛ فتوح الغيب : تتعمد .

(٧) ز : ينصر .

(٨) فتوح الغيب : ... عليك لك ، ولا تذب عنك ، ولا تنفر (كذا) نفسك ...

(٩) ذلك : ساقطة من (ك) .

(١٠) فتوح الغيب : ولا تنفر نفسك تكل ذلك كله إلى الله تعالى لأنه تولاه أولا فيتولاه آخرا .

(١١) ز : يبغضها ، وهو تحريف .

محبوب الله عن محبوبه ، ويترك ما يبغضه الله [١] عمَّا أبغضه . وحينئذ فالنفس لابد لها من جلب المنفعة ودفع المضرة ، فيكون فى ذلك متوكلا على الله .

والشيخ رحمه الله ذكر هنا التوكل دون الطاعة ، لأن النفس لابد لها من جلب المنفعة ودفع المضرة ، فإن [لم تكن متوكلة على الله فى ذلك واثقة به] [٢] لم يمكن أن تنصرف [٣] عن ذلك فتمتثل [٤] الأمر مطلقا ، بل لابد أن تعصى [٥] الأمر فى جلب المنفعة ودفع المضرة ، فلا تصح العبادة [لله] [٦] وطاعة أمره بدون التوكل عليه ، كما أن التوكل عليه لا يصح بدون عبادته وطاعته .

قال تعالى : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [سورة هود : ١٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [سورة الطلاق : ٢ ، ٣] [٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ۝ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ [سورة المزمل : ٨ ، ٩] .

ظ ٢١ والمقصود أن امتثال / الأمر على الإطلاق لا يصح بدون التوكل والاستعانة ، ومن كان واثقا بالله أن يجلب له ما ينفعه ويدفع عنه ما يضره ،

---

(١) ز : ما أبغضها لله ، وهو تحريف .

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من (ز) .

(٣) ز : ينصرف .

(٤) ك : فيمتثل ؛ ز : فتمثيل .

(٥) ز ، ك : يعصى .

(٦) لله : ساقطة من (ز) .

(٧) فى (ك) لم يرد إلا قوله تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) .

أمكن أن يدع هواه ويطيع أمر [مولاه] (١) ، وإلا فنفسه لا تدعه يترك (٢) ما يقول إنه محتاج فيه إلى غيره .

كلام آخر للجيلانى عن علامة فناء إرادة العبد

قال الشيخ (٣) : « وعلامة فناء إرادتك بفعل الله (٤) أنك لا تريد مراداً قط ، فلا يكون لك غرض (٥) ، ولا تقف لك حاجة ولا مرام (٦) ، لأنك (٧) لا تريد مع إرادة الله سواها ، بل يجرى فعله (٨) فيك ، فتكون أنت إرادة الله تعالى وفعله (٩) ، ساكن الجوارح ، مطمئن الجنان ، مشروح (١٠) الصدر ، منوَّر الوجه ، عامر الباطن (١١) ، غنيًّا عن الأشياء بخالقها ، تقلِّبك يد القدرة ، ويدعوك لسان الأزل ، ويعلّمك رب الملل (١٢) ، ويكسوك نورًا (١٣) منه والحلل ، وينزلك منازل من سلف (١٤) من أُولي العلم الأُوَل ، فتكون منكسراً أبداً ، فلا

---

(١) ض ، ز ، م : أمره . والمثبت من (ك) .

(٢) ض : لا تدعه أن يترك .

(٣) ز ، ض : الشيخ رضى الله عنه . والكلام التالى فى « فتوح الغيب » بعد الكلام السابق مباشرة ، ص ١٣ .

(٤) فتوح الغيب : وعلامة فنائك عن إرادتك بفعل الله ...

(٥) فتوح الغيب : ولا يكون لك غرض ؛ ز ، ك : فلا يكسر لك غرض ، وهو تحريف . والمثبت من (م) ، (ض) .

(٦) ك : ولا تقف له حاجة ولا مرام ؛ فتوح الغيب : ولا يبقى لك حاجة ولا مرام .

(٧) فتوح الغيب : فإنك ....

(٨) فتوح الغيب : فعل الله ...

(٩) فتوح الغيب : فتكون أنت عند إرادة الله وفعله ...

(١٠) فتوح الغيب : منشرح ...

(١١) الباطن : كذا فى (م) ، (ز) ، (ض) . وفى (ك) ، فتوح الغيب : البطن .

(١٢) ك ، ز ، ض : الملك . والمثبت من (م) ، فتوح الغيب .

(١٣) فتوح الغيب : أنواراً .

(١٤) فتوح الغيب : وينزلك من أولى العلم الأول ، وسقطت عبارة « منازل من سلف » ، وفى (ك) : من أول ، وهو تحريف .

تثبت فيك شهوة ولا إرادة [١] ، كالإناء المنثلم الذى لا يثبت فيه مائع ولا كدر [٢] ، فتنبو [٣] عن أخلاق البشرية فلن يقبل باطنك شيئا [٤] غير إرادة الله تعالى [٥] ، فحينئذ يضاف إليك التكوين وخرق العادات ، فيُرى ذلك منك فى ظاهر الفعل والحكم [٦] وهو فعل الله / تبارك وتعالى [٧] حقا فى العلم ، فتدخل حينئذ فى زمرة المنكسرة قلوبهم الذين كُسرت إرادتهم البشرية ، وأُزيلت شهواتهم الطبيعية ، واستؤنفت [٨] لهم إرادات [٩] ربانية وشهوات إضافية [١٠] . كما قال النبى ﷺ : حُبِّب إلَىَّ من دنياكم ثلاث : النساء والطيب [١١] وجعلت قرة عينى فى الصلاة [١٢] : فأضيف ذلك إليه [١٣] بعد أن خرج منه وزال عنه ، تحقيقا لما

ص ٢٢

---

(١) فتوح الغيب : فلا يثبت فيك شهوة وإرادة .

(٢) فتوح الغيب : مائع وكدر .

(٣) فتنبو : كذا فى (م) . وفى (ك) ، (ز) : فتنبوا . وفى (ض) : فتفنوا . وفى « فتوح الغيب » : فتنقى .

(٤) م ، ك ، ض : ساكنا . والمثبت من (ز) ، فتوح الغيب .

(٥) فتوح الغيب : الله عز وجل .

(٦) ز : فى ظاهر العقل والحلم ؛ م ، ك ، ض : فى ظاهر العقل والحكم . والمثبت من « فتوح الغيب » ص ١٤ .

(٧) تبارك وتعالى : ليست فى « فتوح الغيب » .

(٨) ز ، ك ، ض : واستوثقت . وفى (م) الكلمة غير منقوطة ، وفى « فتوح الغيب » : فاستؤنفت .

(٩) فتوح الغيب : إرادة .

(١٠) عبارة « شهوات إضافية » : ساقطة من « فتوح الغيب » وفى (ك) كتبت عبارة « وشهوات إضافية » فى الأصل ، وأشير إلى الهامش حيث كتب تصحيح « وظيفية » بدلا من « إضافية » .

(١١) فتوح الغيب : الطيب والنساء .

(١٢) قال السخاوى فى « المقاصد الحسنة » ص ١٨٠ : « ... وأما ما استقر فى هذا الحديث من زيادة « ثلاث » فلم أقف عليها إلا فى موضعين من « الإحياء » ، وفى تفسير آل عمران من الكشاف ، وما رأيتها فى شئ من طرق هذا الحديث بعد مزيد التفتيش . وبذلك صرّح الزركشى فقال : إنه لم يرد فيه لفظ « ثلاث » . قال : وزيادته محيلة للمعنى ، فإن الصلاة ليست من الدنيا » ثم قال السخاوى (ص ١٨١) : =

أشرت إليه [١] وتقدم [٢] . قال الله [٣] : أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى » وساق كلامه ، وفيه قوله : لا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل الحديث .

تعليق ابن تيمية

قلت : هذا المقام هو آخر ما يشير إليه الشيخ عبد القادر [٤] . وحقيقته أنه لا يريد كون شئ إلا أن يكون مأموراً بإرادته ، فقوله : « علامة فناء إرادتك بفعل الله أنك لا تريد مراداً قط » أى : لا تريد مراداً لم تؤمر بإرادته ، فأما ما أمرك الله ورسوله بإرادتك إياه ، فإرادته إما واجب وإما مستحب ، وترك إرادة هذا إما معصية وإما نقص .

وهذا الموضع يلتبس على كثير من السالكين ، فيظنون أن الطريقة الكاملة

= « وقال فى تخريج الكشاف (أى الحافظ العراق) : إن لفظ « الثلاث » لم يقع فى شئ من طرقه وزيادته تفسد المعنى » . وضعّف الدكتور محمد الصبّاغ الحديث فى تعليقه على كتاب « الأسرار المرفوعة فى الأخبار الموضوعة » لملا على القارى (ط . بيروت ، ١٣٩١/١٩٧١) ص ١٧٧ .

والحديث الصحيح عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ هو : « حبب إلىّ من دنياكم : النساء والطيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة » . وهو فى « صحيح الجامع الصغير » وقال عنه السيوطى : « حم = أحمد فى مسنده ، ن = النسائى ، ك : الحاكم فى المستدرك ، هق = البيهقى فى السنن) عن أنس » وصححه الألبانى وأشار إلى « تخريج المشكاة ٥٢٦١ » . وفى تعليقه على « مشكاه المصابيح » للتبريزى ٦٦٩/٢ (ط . المكتب الإسلامى ، دمشق ١٣٨١/١٩٦١) قال الشيخ الألبانى : « وقد اشتهرت على الألسنة زيادة أخرى وهى « ثلاث » ولا أصل لها فى شئ من طرق الحديث ، بل هى مفسدة للمعنى كما لا يخفى » .

والحديث عن أنس رضى الله عنه فى : سنن النسائى ٥٨/٧ ، ٦٠ (كتاب عشرة النساء ، باب حب النساء) وأوله : « حُبب إلىّ من الدنيا ... الحديث . وهو عن أنس فى المسند (ط . الحلبى) ١٢٨/٣ ، ١٩٩ ، ٢٨٥ .

(١) إليه : ساقطة من « فتوح الغيب » . وفى (ك) : إليه ﷺ .

(٢) فتوح الغيب : بما أشرنا وتقدم .

(٣) فتوح الغيب : الله تعالى .

(٤) ض : عبد القادر رضى الله عنه .

ظ ٢٢ أن لا يكون للعبد إرادة أصلا ، وأن قول أبي يزيد [١] : « أريد أن / لا أريد » [٢] لما قيل له : « ماذا تريد ؟ » نقص وتناقض ، لأنه قد أراد ، ويحملون كلام المشايخ الذين يُمدحون بترك الإرادة على ترك الإرادة مطلقا .

وهذا غلط منهم على الشيوخ المستقيمين ، وإن كان من الشيوخ من يأمر بترك الإرادة مطلقا ، فإن هذا غلط ممن قاله ، فإن ذلك ليس بمقدور ولا مأمور .

فإن الحى لابد له من إرادة ، فلا يكون حى [من الناس] إلا أن تكون له إرادة [٣] . وأما الأمر [٤] فإن الإرادة التى يحبها الله ورسوله ، ويأمر بها أمر إيجاب أو أمر استحباب ، لا يدعها إلا كافر أو فاسق أو عاصٍ إن كانت واجبة ، وإن كانت مستحبة كان تاركها تاركاً لما هو خيرٌ له .

---

(١) ز : أبو يزيد ، وهو خطأ . والأرجح أن ابن تيمية يقصد أبا يزيد البسطامى . وهو : أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامى . ويقال : بايزيد ، صوفى شهير له شطحات كثيرة . يقول الزركلى : « وفى المستشرقين من يرى أنه كان يقول بوحدة الوجود ، وأنه كان أول قائل بمذهب الفناء Nirvana ، ويعرف أتباعه بالطيفورية أو البسطامية » . ولد سنة ١٨٨ وتوفى سنة ٢٦١ . انظر ترجمته ومذهبه فى : طبقات الصوفية ، ص ٦٧ - ٧٤ ؛ الطبقات الكبرى ١/٦٥ - ٦٦ ؛ صفة الصفوة ٤/٨٩ - ٩٤ ؛ شذرات الذهب ٢/١٤٣ - ١٤٤ ؛ ميزان الاعتدال ٢/٣٤٦ - ٣٤٧ ؛ الأعلام ٣/٣٣٩ ؛ الرسالة القشيرية ١/٨٠ - ٨٢ ؛ حلية الأولياء ١٠/٣٣ - ٤٢ . وقد ألف الدكتور عبد الرحمن بدوى الجزء الأول من كتابه « شطحات الصوفية » (ط . النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٩) وفيه نصوص مطولة من شطحات البسطامى .

(٢) ذكر هذه العبارة الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه « شطحات الصوفية » (نقلا عن كتاب : النور من كلمات أبى طيفور) ص ١١٥ من نص جاء فى أوله : « قال : سمعت أبا موسى يقول : سمعت أبا يزيد يقول : قطعت المفاوز ... وفيه : ... قال : ما تريد ؟ قال : أريد أن لا أريد . قال : قد أعطيناك » .

(٣) ز : فلا يكون حيًّا لا تكون له إرادة ؛ ض : فلا يمكن حيا أن لا تكون له إرادة ؛ ك : فلا يكون حى من الناس إلا تكون له إرادة . وهذه العبارات غير واضحة فى مصورة (م) . ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

(٤) عبارة « وأما الأمر » : ساقطة من (ض) .

والله تعالى قد وصف الأنبياء والصدّيقين بهذه الإرادة ، فقال تعالى : ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [سورة الأنعام : ٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجزَى ۝ إلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴾ [سورة الليل : ١٩ ، ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً ﴾ [سورة الإنسان : ٩] ، وقال تعالى ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيماً ﴾ [سورة الأحزاب : ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً ﴾ [سورة الإسراء : ١٩] ، وقال تعالى : ﴿ فَاعْبُدُ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ [سورة الزمر : ٢] ، وقال تعالى : ﴿ قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي ﴾ [سورة الزمر : ١٤] وقال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ﴾ [سورة النساء : ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ والْأَنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [سورة الذاريات : ٥٦] .

ص ٢٣

ولا عبادة إلا بإرادة الله ولما أمر به (١) وقال تعالى (٢) ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [سورة البقرة : ١١٢] أي أخلص قصده لله . وقال تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [سورة البيّنة : ٥] وإخلاص الدين له هو إرادته وحده بالعبادة .

وقال تعالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [سورة المائدة : ٥٤] ، وقال : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ ان كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبكُمُ اللهُ ﴾ [سورة آل عمران : ٣١] . وكل محب فهو مريد .

---

(١) ز : ولما يأمر به .
(٢) تعالى : ساقطة من (ك) .

وقال الخليل عليه السلام : ﴿ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٦] ثم قال : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٩] .

ومثل هذا كثير فى القرآن ، يأمر الله بإرادته وإرادة ما يأمر به ، وينهى عن إرادة غيره ، وإرادة ما نهى عنه . وقد قال النبى ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى [١] ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إمرأةٍ / يتزوجها [٢] فهجرته إلى ما هاجر إليه » [٣] . ظ ٢٣

فهما إرادتان : إرادة يحبها الله ويرضاها ، وإرادة لا يحبها [٤] ولا يرضاها ، بل إما نهى عنها وإما لم يأمر بها ولا ينهى عنها .

والناس فى الإرادة ثلاثة أقسام :

قوم يريدون ما يهوونه ، فهؤلاء عبيد أنفسهم والشيطان .

وقوم يزعمون أنهم فرغوا عن الإرادة مطلقا ، ولم يبق لهم مراد إلا ما يقدّره الرب ، وأن [٥] هذا المقام هو أكمل المقامات . ويزعمون أن من قام بهذا فقد

---

(١) ك (فقط) : .... ما نوى ... الحديث .

(٢) ض : ينكحها .

(٣) الحديث عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى : البخارى ٢/١ (كتاب الإيمان ، باب كيف كان بدء الوحى) ؛ مسلم ١٥١٥/٣ - ١٥١٦ (كتاب الإمارة ، باب قوله ﷺ : إنما الأعمال بالنيات) ؛ سنن النسائى ٥١/١ (كتاب الطهارة ، باب النية فى الوضوء) ؛ سنن ابن ماجة ١٤١٣/٢ (كتاب الزهد ، باب النية) .

(٤) ض (فقط) : لا يحبها الله ...

(٥) ك ، ز ، م : أو أن .

قام [١] بالحقيقة ، وهى الحقيقة القدرية الكونية ، وأنه [٢] شهد القيومية العامة ، ويجعلون الفناء [٣] فى شهود توحيد الربوبية هو الغاية ، وقد يسمون هذا : الجمع [٤] والفناء [٥] والاصطلام [٦] ونحو ذلك ، وكثير من الشيوخ زلقوا فى هذا الموضع .

وفى هذا المقام كان النزاع بين الجنيد بن محمد [٧] وبين طائفة من أصحابه الصوفية ، فإنهم اتفقوا على شهود توحيد الربوبية ، وأن الله خالق كل

---

(١) ز : أقام ، وهو تحريف .

(٢) ز (فقط) : وإن .

(٣) عند عبارة « ويجعلون الفناء » ينتهى الموجود من نسخة (م) ، واعتمد فيما يلى على (ك) ، (ز) ، (ض) فقط إن شاء الله .

(٤) فى كتاب « اصطلاحات الصوفية » لكمال الدين عبد الرزاق القاشانى ص ٤١ (تحقيق د . محمد كمال جعفر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨١) : « الجمع : شهود الحق بلا خلق » ، وفى رسالة « اصطلاحات الصوفية » لابن عربى (طبعت مع كتاب التعريفات للجرجانى ، ط . مصطفى الحلبى ، ١٣٥٧/١٩٣٨) ص ٢٣٦ يقول : « الجمع : إشارة إلى حق بلا خلق » . أما الجرجانى فيعرف الجمع والتفرقة (كتاب التعريفات ، ص ٦٨) بقوله : « الفرق : ما نسب إليك ، والجمع ما سلب عنك ، ومعناه : أن يكون كسبا للعبد من إقامة وظائف العبودية ، وما يليق بأحوال البشرية ، فهو فرق ، وما يكون من قبل الحق من إبداء معان وابتداء لطف وإحسان فهو جمع ، ولابد للعبد منهما ، فإن من لا تفرقة له لا عبودية له ، ومن لا جمع له لا معرفة له ، فقول العبد : إياك نعبد ، إثبات للتفرقة بإثبات العبودية ، وقوله : وإياك نستعين ، طلب للجمع . فالتفرقة بداية الإرادة ، والجمع نهايتها » .

(٥) يعرف ابن عربى (المرجع السابق ص ٢٣٦) الفناء عند الصوفية بقوله : « الفناء : عدم رؤية العبد لفعله بقيام الله على ذلك » . وأما الجرجانى (السابق ، ص ١٤٨) فيعرفه بقوله : « الفناء سقوط الأوصاف المذمومة ، كما أن البقاء وجود الأوصاف المحمودة . والفناء فناءان : أحدهما ما ذكرنا ، وهو بكثرة الرياضة . والثانى : عدم الإحساس بعالم الملك والملكوت وهو بالاستغراق فى عظمة البارى ومشاهدة الحق . وإليه أشار المشايخ بقولهم : الفقر سواد الوجه فى الدارين ، يعنى : الفناء فى العالمين » .

(٦) يعرفه عبد الرزاق القاشانى (السابق ، ص ٣٠) بقوله : « الاصطلام هو الوله الغالب على القلب ، وهو قريب من الهيمان » وكذلك يعرفه ابن عربى (السابق ، ص ٢٤٠) بقوله : « الاصطلام : نوع وله يرد على القلب فيسكن تحت سلطانه » .

(٧) أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادى الخزاز ، أصل أبيه من نهاوند وكان يبيع =

شئ وربه ومليكه ، وهو شهود القدر ، وسموا هذا مقام الجمع . فإنه خرج به [١] عن الفرق الأول ، وهو الفرق الطبيعي [٢] بإرادة هذا وكراهة هذا ، ورؤية فعل هذا وترك هذا ، فإن الإنسان قبل أن يشهد هذا التوحيد يرى للخلق فعلاً يتفرّق به قلبه فى / شهود أفعال المخلوقات ، ويكون متبعاً لهواه فيما يريده ، فإذا أراد الحق خرج بإرادته عن إرادة الهوى والطبع ، ثم يشهد [٣] أنه خالق كل شئ ، فخرج بشهود هذا الجمع عن ذاك الفرق ، فلما اتفقوا على هذا ذكر لهم الجنيد [بن محمد] [٤] الفرق الثانى ، وهو بعد هذا الجمع ، وهو الفرق الشرعىّ : ألا ترى أنك تريد ما أُمرت به ، ولا تريد ما نُهيت عنه ، وتشهد أن الله هو [٥] يستحق العبادة دون ما سواه ، وأن عبادته هى بطاعة رسله ، فتفرّق بين المأمور والمحظور وبين أوليائه وأعدائه ، وتشهد توحيد الألوهية ؟

ص ٢٤

فنازعوه فى هذا الفرق : منهم من أنكره ، ومنهم من لم يفهمه ، ومنهم من ادّعى أن المتكلم فيه لم يصل إليه . ثم إنك تجد كثيرا من الشيوخ إنما ينتهى [٦] إلى

= الزجاج ولذلك يقال له القواريرى . والجنيد إمام الصوفية ويقال له : سيد الطائفة ، لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة . توفى ببغداد سنة ٢٧٩ وقيل ٢٩٨ . انظر ترجمته وأقواله فى : طبقات الصوفية ص ١٥٥ - ١٦٣ ؛ الطبقات الكبرى ٧٢/١ - ٧٤ ؛ صفة الصفوة ٢٣٥/٢ - ٢٤٠ ؛ وفيات الأعيان ٣٢٣/١ - ٣٢٥ ؛ شذرات الذهب ٢٢٨/٢ - ٢٣٠ ؛ طبقات الشافعية ٢٦٠/٢ - ٢٧٥ ؛ الأعلام ١٣٧/٢ - ١٣٨ ؛ القشيرية ١٠٦/١ .

(١) ك : فإنه به خرج .

(٢) ك : الطبعى .

(٣) ض : شهد .

(٤) بن محمد : زيادة فى (ض) .

(٥) هو : ليست فى (ض) .

(٦) ك : ينتهون .

ذلك الجمع ، وهو توحيد الربوبية والفناء فيه ، كما فى كلام صاحب « منازل السائرين » [١] مع جلالة قدره ، مع أنه قطعاً كان قائماً بالأمر والنهى المعروفَيْن .

لكن قد يدّعون أن هذا لأجل العامة ، ومنهم من يتناقض ، ومنهم من يقول : الوقوف مع الأمر لأجل مصلحة العامة ، وقد يعبر [عنهم] [٢] بأهل المارستان .

ومنهم من يسمِّى [٣] ذلك مقام التلبيس .

[ومنهم من يقول : إنما التكليف على الإنسان مادام عبدا ، فإذا ترقّى من منزلة العبودية (إلى منزلة) الحرية سقط عنه التكليف ، فلا يبقى عليه تكليف ، لأن الحر لا تكليف عليه لأحد] [٤] .

ومنهم من يقول : التحقيق أن يكون الجمع فى قلبك مشهوداً ، / والفرق على لسانك موجوداً ، فيشهد بقلبه استواء المأمور والمحظور ، مع تفريقه بلسانه [٥] بينهما . ظ ٢٤

ومنهم من يرى أن هذه هى الحقيقة ، التى هى منتهى سلوك [٦] العارفين ، وغاية منازل الأولياء الصدِّيقين .

ومنهم من يظن أن الوقوف مع إرادة الأمر والنهى يكون فى السلوك والبداية . وأما فى النهاية فلا تبقى إلا إرادة القدر . وهو فى الحقيقة قولٌ بسقوط العبادة

(١) وهو عبد الله الأنصارى الهروى ، وتقدم بعض كلامه .
(٢) عنهم : ساقطة من (ز) .
(٣) ك : سمّى ؛ ز : يسم .
(٤) ما بين المعقوفتين ساقط من (ز) ، (ض) وزدت عبارة (إلى منزلة) ليستقيم الكلام .
(٥) بلسانه : ساقطة من (ض) .
(٦) ك : سول .

والطاعة ، فإن العبادة لله والطاعة له ولرسوله إنما تكون فى امتثال الأمر الشرعى ، لا فى الجرى مع المقدور وإن (١) كان كفراً وفسوقاً وعصياناً (٢).

ومن هنا صار كثير من السالكين من أعوان الكفّار والفجّار وخفرائهم ، حيث شهدوا القدر معهم ، ولم يشهدوا الأمر والنهى الشرعيين . ومن هؤلاء من يقول : « من شهد القدر سقط عنه الملام » ويقول (٣) : إن الخضر إنما سقط عنه الملام لمّا شهد القدر .

وأصحاب شهود القدر قد يؤتى أحدهم ملكا من جهة خرق العادة بالكشف والتصرف ، فيظن ذلك (٤) كمالا فى الولاية ، وتكون [تلك] (٥) الخوارق إنما حصلت بأسباب شيطانية وأهواء نفسانية ، وإنما الكمال فى الولاية أن يُستعمل (٦) خرق / العادات فى إقامة الأمر والنهى الشرعيّيْن ، مع حصولهما (٧) بفعل المأمور وترك المحظور ، فإذا حصلت بغير الأسباب الشرعية فهى مذمومة ، وإن حصلت بالأسباب الشرعية ، لكن استُعملت ليُتوصل بها إلى محرَّم كانت مذمومة ، وإن تُوصِّل بها إلى مباح لا يُستعان بها على طاعةٍ كانت للأبرار دون المقرَّبين ، وأما إن حصلت بالسبب الشرعى واستعين بها على فعل الأمر الشرعى ، فهذه خوارق المقرَّبين السابقين .

ص ٢٥

---

(١) ز : إن

(٢) ض : أو فسوقا أو عصيانا .

(٣) ض : ويقولون .

(٤) ز : فيظن أن ذلك ...

(٥) تلك : زيادة فى (ض) .

(٦) ك : تستعمل .

(٧) ك ، ز : حصولها .

فلابد أن يُنظر (١) فى الخوارق فى أسبابها وغاياتها : من أين حصلت ؟ وإلى ماذا أوصلت ؟ كما يُنظر فى الأموال : فى مستخرجها ومصروفها [ومن استعملها – أعنى الخوارق – فى إرادته الطبيعية كان مذموما] (٢) .

ومن كان خاليا (٣) عن الإرادتين الطبيعية والشرعية فهذا حسبه أن يُعفى عنه ، لكونه لم يعرف الإرادة الشرعية ، وأما إن عرفها وأعرض عنها ، فإنه يكون مذموماً مستحقا للعقاب إن لم يُعف عنه ، وهو يُمدح بكون إرادته ليست بهواه ، لكن يجب مع ذلك أن تكون موافقةً لأمر الله (٤) ورسوله ، لا يكفيه أن تكون (٥) لا من هذا ولا من هذا ، مع أنه لا يمكن خلوه (٦) عن الإرادة مطلقا ، بل لابد له من إرادة ، فإن لم يرد ما يحُبه الله ورسوله أراد / مالا يحبه الله ورسوله ، لكن إذا جاهد نفسه على ترك ما يهواه (٧) ، بقى مريداً لما يظن أنه مأمور به ، فيكون ضالا . ظ ٢٥

فإن هذا يشبه حال الضالين من النصارى . وقد قال تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ [سورة الفاتحة : ٦ ، ٧] . قد قال النبى ﷺ : « اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون » (٨) .

---

(١) ك : تنظر .

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من (ز) .

(٣) ز : خالصا .

(٤) ض : الله تعالى .

(٥) ك : يكون .

(٦) ز : خلو .

(٧) ض : تهواه .

(٨) الحديث عن عدى بن حاتم رضى الله عنه فى سنن الترمذى فى موضعين ٢٧١/٤ ، ٢٧٢ =

فاليهود [١] لهم إرادات فاسدة منهى عنها ، كما أُخبر عنهم بأنهم عصوا وكانوا يعتدون ، وهم يعرفون الحق ولا يعملون به ، فلهم علم لكن ليس [لهم] [٢] عمل بالعلم ، وهم فى الإرادة المذمومة المحرَّمة يتّبعون أهواءهم ، ليسوا فى الإرادة المحمودة المأمور بها ، وهى إرادة ما يحبه الله ورسوله .

والنصارى لهم قصد وعبادة وزهد ، لكنهم ضُلاَّل يعملون بغير علم ، فلا يعرفون الإرادة التى يحبها الله ورسوله ، بل غاية أحدهم تجريد نفسه عن الإرادات ، فلا يبقى مريداً لما أمر الله به ورسوله ، كما لا يريد كثيرا مما نهى الله عنه ورسوله .

وهؤلاء ضالون عن مقصودهم ، فإن مقصودهم إنما هو فى طاعة الله ورسوله . ولهذا كانوا ملعونين ، أى بعيدين / عن الرحمة التى تُنال بطاعة الله عز وجل [٣] . ص ٢٦

والعالِمُ الفاجرُ يشبه اليهود ، والعابد الجاهل يشبه النصارى . ومن أهل العلم من فيه شئ من الأول ، ومن أهل العبادة من فيه شئ من الثانى . وهذا الموضع تفرّق فيه بنو آدم وتباينوا تباينا عظيما لا يحيط به إلا الله ، ففيهم من لم يخلق الله خلقا أكرم عليه منه ، وهو خير البرية ، ومنهم من هو شر البرية .

= (كتاب تفسير القرآن ، باب : ومن سورة فاتحة الكتاب) وأوله فى الموضع الأول : أتيت رسول الله ﷺ وهو فى المسجد .... الحديث ، ولفظه : « فإن اليهود مغضوب عليهم وإن النصارى ضُلاَّل » وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث سماك بن حرب ، وروى شعبة عن سماك بن حرب عن عَبَّاد بن حُبَيْش عن عدى بن حاتم عن النبى ﷺ الحديث بطوله » . والحديث فى المسند (ط . الحلبى) ٣٧٨/٤ وفيه : « إن المغضوب عليهم اليهود وإن الضالين النصارى ... » .

(١) ك : واليهود .

(٢) لهم : ساقطة من (ز) .

(٣) عبارة « عز وجل » ليست فى (ك) .

وأفضل الأحوال فيه حال الخليلين : إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم (١) . ومحمد سيد ولد آدم ، وأفضل (٢) الأوَّلين والآخرين ، وخاتم النبيين وإمامهم إذا اجتمعوا ، وخطيبهم إذا وفدوا ، وهو المعروج به إلى ما فوق الأنبياء كلهم (٣) : إبراهيم وموسى وغيرهما .

وأفضل الأنبياء بعده إبراهيم ، كما ثبت فى الصحيح عن أنس بن مالك (٤) ، عن النبى ﷺ أن إبراهيم خير البرية (٥) .

وقد ثبت فى صحيح مسلم ، عن جابر ، عن النبى ﷺ أنه كان يقول فى خطبة يوم الجمعة : « خير الكلام كلام الله ، وخير الهدْى هدى محمدٍ » (٦) . وكذلك كان عبد الله بن مسعود يخطب بذلك يوم الخميس ، [كما] (٧) رواه البخارى فى صحيحه (٨) .

---

(١) ك : محمد وإبراهيم عليهما السلام .

(٢) ك : أفضل .

(٣) كلهم : ساقطة من (ك) .

(٤) بن مالك : زيادة فى (ز) .

(٥) الحديث عن أنس بن مالك رضى الله عنه فى : مسلم ١٨٣٩/٤ (كتاب الفضائل ، باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ) ولفظه : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا خير البرية . فقال رسول الله ﷺ : ذاك إبراهيم عليه السلام » . والحديث فى : سنن أبى داود ٣٠٢/٤ (كتاب السنة ، باب فى التخيير بين الأنبياء) ؛ المسند (ط . الحلبى) ١٧٨/٣ ، ١٨٤ .

(٦) الحديث عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى : مسلم ٥٩٢/٢ (كتاب الجمعة ، باب تخفيف الصلاة والخطبة) . وهو – مع اختلاف فى اللفظ – فى : سنن ابن ماجة ١٧/١ (المقدمة ، باب اجتناب البدع والجدل) ؛ سنن النسائى ١٥٣/٣ (كتاب صلاة العيدين ، باب كيفية الخطبة) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣١٠/٣ .

(٧) كما : زيادة فى (ك) .

(٨) ذكر البخارى فى صحيحه فى موضعين أثرا عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه بهذا المعنى الأول ٢٥/٨ (كتاب الأدب ، فى الهدى الصالح) ونصه : قال عبد الله : إن أحسن الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ » . والثانى ٩٢/٩ (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ) . وانظر ما ذكره ابن حجر فى : فتح البارى ٢٥٢/١٣ – ٢٥٣ .

ظ ٢٦ وقد ثبت فى الصحيحين عن عائشة قالت : ما ضرب / رسول الله ﷺ بيده خادماً له ، ولا إمرأةً ولا دابة ولا شيئاً قط ، إلا أن يجاهد فى سبيل الله ، وما نيل منه قط شئ فانتقم لنفسه ، إلا أن تُنتهك محارم الله ، فإذا انتُهكت محارم الله لم يقم لغضبه شئ حتى ينتقم لله [١] .

وقال أنس خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لى : أفٍ قط ، وما قال لى لشئ فعلته : لم فعلته ؟ ولا لشئ لم أفعله : لم لا فعلته ؟ وكان بعض أهله إذا عتبنى [٢] على شئ قال : « دعوه ، فلو قُضى شئ لكان [٣] .

ورسول الله ﷺ هو أفضل الخلائق ، وسيد ولد آدم ، وله الوسيلة فى المقامات كلها ، ولم يكن حاله أنه لا يريد شيئا ، ولا أنه يريد كل واقع ، كما أنه لم يكن حاله أنه [٤] يتبع الهوى ، بل هو منزَّه عن هذا وهذا .

قال تعالى [٥] : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [سورة

---

(١) جاءت أحاديث مختصرة أو مطولة بنفس المعنى عن عائشة رضى الله عنها فى : سنن أبى داود ٣٤٦/٤ (كتاب الأدب ، باب فى التجاوز فى الأمر) ؛ سنن ابن ماجة ٦٣٨/١ (كتاب النكاح ، باب ضرب النساء) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣٢/٦ ، ٢٠٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٨١ ؛ سنن الدارمى ١٤٧/٢ (كتاب النكاح ، باب فى النهى عن ضرب النساء) .

(٢) ض : عنفنى .

(٣) هذا جمع بين حديثين رويا عن أنس رضى الله عنه الأول ينتهى عند عبارة .. لم لا فعلته ؟ وهو – مع اختلاف فى الألفاظ – فى : البخارى ١١/٤ (كتاب الوصايا ، استخدام اليتيم فى السفر والحضر) ، ١٤/٨ (كتاب الأدب ، باب حسن الخلق والسخاء ...) ؛ سنن أبى داود ٣٤٢/٤ (كتاب الأدب ، باب فى الحلم وأخلاق النبى ﷺ) ؛ سنن الترمذى ٢٤٨/٣ – ٢٤٩ (كتاب البر والصلة ، باب ما جاء فى خلق النبى ﷺ) ؛ المسند (ط . الحلبى) ١٠١/٣ ، ١٢٤ ، ١٧٤ ، ٢٠٠ ، ٢٢٧ ، ٢٥٦ . وأما القسم الأخير من الحديث فهو فى المسند (ط . الحلبى) ٢٣١/٣ .

(٤) ز : أن .

(٥) ض : قال الله تعالى .

النجم : ٣] وقال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ ﴾ [سورة الجن : ١٩] (١) . وقال (٢) : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾ [سورة البقرة : ٢٣] ، وقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ [سورة الإسراء : ١] . والمراد بعبده : عابده المطيع لأمره ، وإلا فجميع المخلوقين عبادٌ (٣) بمعنى أنهم مُعَبَّدون مخلوقون مُدَبَّرون .

وقد قال الله تعالى / لنبيه (٤) : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [سورة الحجر : ٩٩] . قال الحسن البصرى : « لم يجعل الله لعمل المؤمن أجلا دون الموت » (٥) .

ص ٢٧

[وقد] قال الله [تعالى] له (٦) : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة القلم : ٤] قال ابن عباس – ومن وافقه كابن عيينة وأحمد بن حنبل – : « على دين عظيم » (٧) . والدين فعل ما أمر به .

---

(١) ك : .... يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا .

(٢) ض : وقال تعالى .

(٣) ك : عباده .

(٤) ض : وقد قال الله لنبيه ؛ ك : وقد قال تعالى لنبيه .

(٥) قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية : « قال البخارى : قال سالم : الموت (قال المحققون لطبعة دار الشعب : البخارى ، تفسير سورة الحجر ١٠٢/٦) . وسالم هذا هو : سالم بن عبد الله بن عمر ، كما قال ابن جرير . حدثنا محمد بن بشار .... عن سالم بن عبد الله : (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) قال : الموت (تفسير الطبرى ٥١/١٤) . وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره » . وانظر ما أورده الطبرى عن الحسن فى تفسيره .

(٦) ك : وقد قال الله له ؛ ز : وقال الله له . والمثبت من (ض) .

(٧) فى « تفسير ابن كثير » للآية : « قال العوفى ، عن ابن عباس : أى وإنك لعلى دين عظيم ، وهو الإسلام . وكذلك قال مجاهد ، وأبو مالك ، والسدى ، والربيع بن أنس ، والضحّاك ، وابن زيد » . وكذا قال ابن الجوزى فى تفسيره « زاد المسير » ٤٢٨/٨ : « وفيه ثلاثة أقوال : أحدها : دين الإسلام ، قاله ابن عباس » .

وقالت عائشة : « كان خُلُقه القرآن » رواه مسلم (١) ، وقد أخبرت أنه لم يكن يعاقب لنفسه ولا ينتقم لنفسه ، لكن يعاقب لله وينتقم لله (٢) ، وكذلك أخبر أنس أنه كان يعفو عن حظوظه .

وأما حدود الله فقد قال : « والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » أخرجاه فى الصحيحين (٣) .

وهذا هو كمال الإرادة ؛ فإنه أراد ما يحبه الله ويرضاه من الإيمان والعمل الصالح وأمر بذلك ، وكره ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان ونهى عن ذلك ، كما وصفه الله تعالى بقوله : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْأنجِيلِ يَأْمُرُهُم

---

(١) هذا الأثر عن عائشة رضى الله عنها جاء ضمن حديث طويل رواه مسلم ٥١٢/١ – ٥١٤ (كتاب صلاة المسافرين ، باب جامع صلاة الليل ...) وأوله أن سعد بن هشام أراد أن يغزو فى سبيل الله فقدم المدينة ... فأتى ابن عباس فسأله عن وتر رسول الله ﷺ ؟ فقال ابن عباس : ألا أدلك على أعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ ؟ قال : من ؟ قال : عائشة ..... فقلت : يا أم المؤمنين : أنبئينى عن خلق رسول الله ﷺ . قالت : ألست تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . قالت : فإن خلق نبى الله ﷺ كان القرآن ... الحديث . وهو فى : سنن أبى داود ٥٥/٢ – ٥٧ (كتاب التطوع ، باب فى صلاة الليل) .

(٢) هذا الأثر عن عائشة رضى الله عنها فى البخارى ١٨٩/٤ (كتاب المناقب ، باب صفة النبى ﷺ) ونصه : « عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها » . والأثر – مع اختلاف يسير فى الألفاظ – فى : البخارى ٣٠/٨ (كتاب الأدب ، باب قول النبى ﷺ : يسروا ولا تعسروا ...) ، ١٦٠/٨ (كتاب الحدود ، باب إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله) ؛ مسلم ١٨١٣/٤ (كتاب الفضائل ، باب مباعدته ﷺ للآثام ...) ؛ سنن أبى داود ٣٤٦/٤ (كتاب الأدب ، باب فى التجاوز فى الأمر) . والأثر فى الموطأ وفى مسند أحمد فى مواضع كثيرة .

(٣) الحديث عن عائشة رضى الله عنها وجاء فى البخارى فى ثلاثة مواضع : ٢٣/٥ (كتاب فضائل أصحاب النبى ﷺ ، باب ذكر أسامة بن زيد) ، ١٧٥/٤ (كتاب الأنبياء ، باب حدثنا أبو اليمان =

ظ ٢٧ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٥٦ ، ١٥٧] (١) .

وأما لحظ (٢) لنفسه فلم يكن يعاقب ولا ينتقم ، بل يستوفى حق ربه ويعفو عن حظ نفسه ، وفى حظ نفسه ينظر إلى القدر فيقول : « لو قُضى شئ لكان » . وفى حق الله يقوم بالأمر فيفعل ما أمره الله به ، ويجاهد فى سبيل الله أكمل الجهاد الممكن (٣) ، فجاهدهم أولا بلسانه بالقرآن الذى أُنزل عليه .

كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا . فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ [سورة الفرقان : ٥١ ، ٥٢] ثم لما هاجر إلى المدينة وأُذن له فى القتال ، جاهدهم بيده .

وهذا مطابق لما أخرجاه فى الصحيحين عن أبى هريرة وهو معروف أيضا من حديث عمر بن الخطاب ، عن النبى ﷺ فى حديث احتجاج آدم وموسى ،

= ....) ونصه فيه ... أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت ... وفيه : ... فقال رسول الله ﷺ أتشفع فى حد من حدود الله ؟ ثم قام فاختطب ثم قال : إنما أهلك الذين قبلكم .... الحديث وهو فى : البخارى ١٦٠/٨ (كتاب الحدود ، باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع) ؛ مسلم ١٣١٥/٣ - ١٣١٦ (كتاب الحدود ، باب قطع السارق الشريف وغيره ....) ؛ سنن أبى داود ١٨٨/٤ (كتاب الحدود ، باب فى الحد يشفع فيه) . وجاء الحديث فى سنن الترمذى وابن ماجة والنسائى والدارمى ومسند أحمد .

(١) فى (ك) : .... والأغلال التى كانت عليهم .... الآية .

(٢) ز : وأما لحظه ... ، وهو تحريف .

(٣) الممكن : ساقطة من (ك) .

لما لامَ موسى آدم (١) لكونه أخرج نفسه وذريته من الجنة بالذنب الذى فعله ، فأجابه آدم بأن هذا كان مكتوبا علىَّ قبل أن أُخلق بمدة طويلة . قال النبى ﷺ : « فحجَّ آدم موسى » (٢) .

ص ٢٨ وذلك لأن ملام موسى لآدم لم يكن لحق / الله ، وإنما كان لما لحقه وغيره من الآدميين من المصيبة بسبب ذلك الفعل ، فذكر له آدم أن هذا كان أمراً مقدَّراً لابد من كونه ، والمصائب التى تصيب العباد يُؤمرون فيها بالصبر ، فإن هذا هو الذى ينفعهم . وأما لومهم لمن كان سببا فيها فلا فائدة لهم فى ذلك . وكذلك ما فاتهم من الأمور التى تنفعهم ، يؤمرون فى ذلك بالنظر إلى القدر ، (٣ وأما التأسف والحزن فلا فائدة فيه ، فما جرى به القدر من فَوْت منفعة لهم ، أو حصول مضرة لهم ، فلينظروا فى ذلك إلى القدر ٣) ، وأما ما كان بسبب أعمالهم فليجتهدوا فى التوبة من الماضى (٤) والإصلاح فى المستقبل ، فإن هذا الأمر ينفعهم ، وهو مقدور لهم بمعونة الله لهم .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ أنه قال : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير . احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز (٥) ، وإن أصابك شئ فلا تقل : لو أنى فعلت لكان كذا

---

(١) ز ، ك : لآدم . والمثبت من (ض) .

(٢) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ١٤٨/٩ (كتاب التوحيد ، باب وكلَّم الله موسى تكليما) ؛ مسلم ٢٠٤٢/٤ - ٢٠٤٤ (كتاب القدر ، باب حجاج آدم وموسى) ؛ سنن ابن ماجة ٣١/١ - ٣٢ (المقدمة ، باب فى القدر) ؛ المسند (ط . المعارف) ١١٧/١٣ ، ٢٣/١٤ ، ٥٦ ، ٢٤٥ . والحديث عن أبى هريرة وعن عمر رضى الله عنهما فى : سنن أبى داود ٣١١/٤ ، ٣١٢ (كتاب السنة ، باب فى القدر) .

(٣ - ٣) ساقط من (ك) .

(٤) ض : المعاصى . والمثبت من (ك) ، (ز) .

(٥) ض : ولا تعجزن .

وكذا ، ولكن قل : قدَّر الله وما شاء فعل ، فإن لو [(١)] يفتح عمل الشيطان » [(٢)] .

أمر [النبى] ﷺ بحرص العبد على [(٣)] ما ينفعه والاستعانة بالله ، ونهاه عن العجز . وأنفع ما للعبد طاعة الله ورسوله ، / وهى عبادة الله تعالى . وهذان الأصلان هما حقيقة قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [سورة الفاتحة : ٥] ، ونهاه عن العجز ، وهو الإضاعة والتفريط والتوانى [(٤)] ، كما قال فى الحديث الآخر : « الكيِّس من دان نفسه [(٥)] وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من اتبع [نفسه] [(٦)] هواها وتمنَّى على الله الأمانى » رواه الترمذى [(٧)] .

ظ ٢٨

وفى سنن أبى داود أن رجلين تحاكما إلى النبى ﷺ ، فقضى على أحدهما ، فقال المقضىُّ عليه : حسبِىَ اللهُ ونعم الوكيل ، فقال النبى ﷺ : « إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكَيْس ، فإذا غلبك أمر فقل : حسبى الله ونعم الوكيل » [(٨)] فالكَيْس ضد العجز . وفى الحديث : « كل شىء بقدر حتى العجز والكَيْس » رواه مسلم [(٩)] .

---

(١) ز : اللو .

(٢) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : مسلم ٢٠٥٢/٤ (كتاب القدر ، باب فى الأمر بالقوة وترك العجز ....) ؛ سنن ابن ماجة ٣١/١ (المقدمة ، باب فى القدر) ١٣٩٥/٢ (كتاب الزهد ، باب التوكل واليقين) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣٦٦/٢ - ٣٧٠ .

(٣) ك : أمره ﷺ بالحرص على ... ؛ وسقطت كلمة « النبى » من (ز) . والمثبت من (ض) .

(٤) ز : بالتوانى .

(٥) ز : النفس .

(٦) نفسه : ساقطة من (ز) .

(٧) الحديث عن شداد بن أوس رضى الله عنه فى : سنن الترمذى ٥٤/٤ (كتاب صفة القيامة ، باب حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن) وقال الترمذى : « هذا حديث حسن » ؛ سنن ابن ماجة ١٤٢٣/٢ (كتاب الزهد ، باب ذكر الموت والاستعداد له) ؛ المسند (ط . الحلبى) ١٢٤/٤ .

(٨) الحديث عن عوف بن مالك رضى الله عنه فى : سنن أبى داود ٤٢٦/٣ (كتاب الأقضية ، باب الرجل يحلف على حقه) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٢٤/٦ - ٢٥ .وضعّف الألبانى الحديث فى « ضعيف الجامع الصغير » ١٢٧/٢ .

(٩) الحديث عن ابن عمر رضى الله عنهما فى : مسلم ٢٠٤٥/٤ (كتاب القدر ، باب كل شىء =

وليس المراد بالعجز فى كلام النبى ﷺ ما يُضاد القدرة ، فإن من لا قدرة له بحال لا يُلام ، ولا يُؤمر بما لا يقدر عليه بحال . ثم لما أمره بالاجتهاد والاستعانة بالله ونهاه عن العجز ، أمره [1] إذا غلبه أمرٌ أن ينظر إلى القدر ويقول : قدَّر الله وما شاء فعل ، ولا يتحسّر ويتلهف [2] ويحزن ، ويقول : لو أنى فعلت [كذا كذا] [3] لكان [4] كذا وكذا ، فإن لو [5] تفتح عمل الشيطان .

ص ٢٩ وقد قال بعض الناس فى هذا / المعنى : الأمر [6] أمران : أمرٌ فيه حيلة ، وأمر لا حيلة فيه ، فما فيه حيلة لا تعجز عنه [7] ، وما لا حيلة فيه لا تجزع منه [8] . وهذا هو الذى يذكره أئمة الدين كما ذكر الشيخ عبد القادر وغيره ، فإنه لابد من فعل المأمور ، وترك المحظور ، والرضا أو الصبر [9] على المقدور .

وقد قال تعالى حكاية عن يوسف : ﴿ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٩٠] ، فالتقوى تتضمن فعل المأمور وترك المحظور ، والصبر يتضمن الصبر على المقدور .

وقد قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾

= بقدر) ؛ الموطأ ٨٩٩/٢ (كتاب القدر ، باب النهى عن القول بالقدر) ؛ المسند (ط . المعارف) ١٩٣/٨ - ١٩٤

(١) ز : وأمره .
(٢) ك : ولا يتلهف .
(٣) كذا وكذا : زيادة فى (ض) .
(٤) ز ، ك : كان .
(٥) ز : اللو .
(٦) ز : الأمور .
(٧) ض : لا يُعجز عنه .
(٨) ض : لا يُجزع منه .
(٩) ض : والصبر .

[سورة آل عمران : ١١٨ - ١٢٠] [١] فبيّن سبحانه أنه مع التقوى والصبر لا يضر المؤمنين كيد أعدائهم المنافقين .

وقال تعالى : ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٢٥] فبيّن أنه مع الصبر والتقوى يمدّهم بالملائكة وينصرهم على أعدائهم الذين يقاتلونهم .

وقال تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٨٦] / فأخبرهم أن أعداءهم من المشركين وأهل الكتاب لا بد أن يؤذوهم بألسنتهم ، وأخبر أنهم إن يصبروا ويتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ، فالصبر - والتقوى - يدفع شر العدو المظهر للعداوة ، المؤذين [٢] بألسنتهم والمؤذين بأيديهم ، وشر العدو المبطن للعداوة وهم المنافقون . ظ ٢٩

وهذا الذى كان خُلق الرسول ﷺ وهديه ، هو أكمل الأمور . فأما من أراد ما يحبه الله تارة ومالا يحبه تارةً ، أو لم يرد لا هذا ولا هذا ، فكلاهما دون خُلق رسول الله ﷺ ، وإن لم يكن على واحد منهما إثم ، كالذى يريد ما أُتيح له من نَيْل الشهوة المباحة والغضب والانتقام المباح ، كما هو خلق بعض الأنبياء والصالحين ، فهو وإن كان جائزاً لا إثم فيه ، فخلق رسول الله ﷺ أكمل منه .

وكذلك من لم يرد الشهوات المباحة ، وإن كان يستعان بها على أمر مستحب ، ولم يُرد أن يغضب وينتقم ويجاهد [٣] إذا جاز العفو ، و [إن] كان [٤]

---

(١) ز : .... خبالاً ودوا ...
(٢) ك : والمؤذين .
(٣) ك : ويجاهد وينتقم .
(٤) ز : وكان .

الانتقام لله أرضى (١) لله ، كما هو أيضا خلق بعض الأنبياء والصالحين ، فهذا وإن كان جائزا لا إثم فيه ، فخُلق رسول الله ﷺ أكمل منه .

ص ٣٠ وهذا والذى قبله إذا / كان شريعة لنبى ، فلا عيب (٢) على نبى [فيما] شرع الله له (٣) ، لكن قد فضلَّ الله بعض النبيين على بعض ، وفضَّل بعض الرسل على بعض .

والشريعة التى بُعث بها محمد ﷺ أفضل الشرائع ، إذ كان محمد ﷺ أفضل الأنبياء والمرسلين ، وأمته خير أمة أخرجت للناس .

قال أبو هريرة فى قوله : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [سورة آل عمران : ١١٠] : (٤« كنتم خير الناس للناس ٤) ، تأتون بهم فى الأقياد والسلاسل حتى تُدخلوهم الجنة » : يبذلون أنفسهم (٥) وأموالهم فى الجهاد لنفع الناس ، فهم خير الأمم للخلق .

والخلق عيالُ الله ، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله . وأما غير الأنبياء فمنهم (٦) من يكون ذلك شرعةً لاتّباعه لذلك النبى ، وأما من كان من أهل شريعة محمد ﷺ ومنهاجه ، فإن كان ما تركه واجباً عليه وما فعله محرّماً عليه ، كان مستحقا للذم والعقاب ، إلا أن يكون متأوّلا مخطئا ، فالله قد وضع عن هذه الأمة الخطأ والنسيان ، وذنب أحدهم قد يعفو الله عنه بأسباب متعددة .

---

(١) ك : رضى ، وهو تحريف .
(٢) ك : عتب .
(٣) ز : على شئ شرعه الله له ، والمثبت من (ك) ، (ض) .
(٤ – ٤) ساقط من (ك) .
(٥) ز ، ك : ... للناس وذلك أنهم يأتون بهم فى الأقياد والسلاسل حتى يدخلوهم الجنة ويبذلون أنفسهم .... إلخ . والمثبت من (ض) .
(٦) ك : منهم .

ومن أسباب هذا الانحراف ، أن من الناس من تغلب عليه طريقة الزهد فى إرادة نفسه ، فيزهد فى موجب الشهوة والغضب ، كما / يفعل ذلك من يفعله من عُبَّاد المشركين وأهل الكتاب ، كالرهبان وأشباههم . وهؤلاء يرَوْن الجهاد نقصاً لما فيه من قتل النفوس وسبى الذرية وأخذ الأموال ، ويرَوْن أن الله لم يجعل عمارة بيت المقدس على يد داود ، لأنه جرى على يديه سفك الدماء ، ومنهم من لا يرى ذبح شىء من الحيوان ، كما عليه البراهمة ، ومنهم من لا يحرِّم ذلك [١] ، لكنه هو يتقرب إلى الله بأنه لا يذبح حيوانا ولا يأكل لحمه ، بل [٢] ولا ينكح النساء ، ويقول فى ممادحه [٣] : فلان ما نكح ولا ذبح . ظ ٣٠

وقد أنكر النبى ﷺ على هؤلاء . كما فى الصحيحين عن أنس أن نفراً من أصحاب النبى ﷺ سألوا أزواج النبى ﷺ عن عمله فى السرِّ . فقال بعضهم : لا أتزوج النساء . وقال بعضهم : لا آكل اللحم . وقال بعضهم : لا أنام على فراش . فبلغ ذلك النبى ﷺ ، فحمد الله وأثنى عليه وقال [٤] : « ما بالُ أقوام قالوا كذا وكذا ، لكنى أصلى وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، وآكل اللحم ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » [٥] .

وقد قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ

---

(١) ز : لا يجزم بذلك ، وهو تحريف .

(٢) بل : ساقطة من (ض) .

(٣) ض : ويقول مادحه .

(٤) ك : فقال .

(٥) الحديث عن أنس بن مالك رضى الله عنه فى : البخارى ٢/٧ (كتاب النكاح ، باب الترغيب فى النكاح) ؛ مسلم ١٠٢٠/٢ (كتاب النكاح ، باب استحباب النكاح ..) ؛ سنن النسائى ٤٩/٦ – ٥٠ (كتاب النكاح ، باب النهى عن التبتل) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٢٤١/٣ ، ٢٥٩ ، ٢٨٥ .

لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٨٧] [١] ، نزلت فى عثمان بن مظعون وطائفة / معه : كانوا قد عزموا على التبتل ونوع من الترهّب [٢] . ص ٣١

وفى الصحيحين عن سعد أنه قال : « ردَّ رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل ، ولو أذن له لاختصينا » [٣] .

والزهد النافع المشروع الذى يحبه الله ورسوله هو الزهد فيما لا ينفع فى الآخرة ، فأما ما ينفع فى الآخرة وما يُستعان به على ذلك ، فالزهد فيه زهد فى نوع من عبادةِ الله وطاعته ، والزهد إنما يُراد لأنه زهد فيما يضر ، أو زهد فيما لا ينفع ، فأما الزهد فى النافع [٤] فجهل وضلال . كما قال النبى ﷺ : « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز » [٥] .

والنافع للعبد هو عبادة الله وطاعته [٦] وطاعة رسوله ، وكل ما صدّه عن ذلك فإنه ضار لا نافع ، ثم الأنفع له أن تكون كل أعماله عبادة لله وطاعة له ، وإن أدّى الفرائض وفعل مباحاً لا يعينه على الطاعة ، فقد فعل ما ينفعه ومالا ينفعه ولا يضره .

---

(١) فى (ك) ، (ض) لم ترد آخر الآية (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) .

(٢) انظر تفسير الطبرى للآية ١٠/٥١٤ - ٥١٩ (ط . المعارف) ؛ تفسير ابن كثير (ط الشعب) ٣/١٦١ - ١٦٣ .

(٣) ض : لا اختصينا ، وهو تحريف . والحديث عن سعد بن أبى وقاص فى موضعين فى : البخارى ٧/٤ (كتاب الترغيب فى النكاح ، باب ما يكره من التبتل والخصاء) ، سنن النسائى ٦/٤٨ (كتاب النكاح ، باب النهى عن التبتل) . وفى البخارى فى نفس الموضع السابق رواية أخرى عن عبد الله ابن مسعود : « كنا نغزو مع رسول الله ﷺ .... فقلنا : ألا نستخصى ؟ فنهانا عن ذلك ، ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب .... » . وهو فى مسلم عن سعد رضى الله عنه فى : ٢/١٠٢٠ (كتاب النكاح ، باب استحباب النكاح ...) .

(٤) ك : فى المنافع . وفى هامش (ز) كتب أمام هذا الموضع « مطلب تعريف الزهد » .

(٥) ض : ولا تعجزن . ومضى الحديث قبل صفحات قليلة (ص : ١٣٤) .

(٦) ز : هو طاعة الله وعبادته ....

وكذلك الورع المشروع هو الورع عمَّا قد تخاف عاقبته ، وهو ما يُعلم [١] تحريمه وما يُشك [٢] فى تحريمه وليس فى تركه مفسدة أعظم من فعله ، مثل فعل محرم يتعين [٣] ، مثل من يترك أخذ الشبهة ورعاً مع حاجته / إليها ، ويأخذ بدل ذلك محرَّماً بيِّناً تحريمه ، أو يترك واجباً تركه أعظمُ فساداً من فعله مع الشبهة ، كمن يكون على أبيه أو عليه ديون هو مطالب بها ، وليس له وفاء إلا من مال فيه شبهة فيتورع عنها ، ويدع ذمته وذمة أبيه مرتهنة .

ظ ٣١

وكذلك من الورع الاحتياط بفعل ما يُشك فى وجوبه ، لكن على هذا الوجه . وتمام الورع أن يعلم الإنسان خير الخيرين وشرّ الشرين ، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، وإلا فمن لم يوازن ما فى الفعل والترك من المصلحة الشرعية والمفسدة الشرعية ، فقد يدع واجبات ويفعل محرَّمات ، ويرى ذلك من الورع . كمن يدع الجهاد مع الأمراء الظلمة ، ويرى ذلك ورعاً ، ويدع الجمعة والجماعة خلف الأئمة الذين فيهم بدعة أو فجور ، ويرى ذلك من الورع ، ويمتنع عن قبول شهادة الصادق وأخذ علم العالم ، لما فى صاحبه من بدعةٍ خفيةٍ ، ويرى ترك قبول سماع هذا الحق الذى يجب سماعه من الورع .

وكذلك الزهد والرغبة : من لم يراع ما يحبه الله ورسوله من الرغبة والزهد ، وما يكرهه / من ذلك ، وإلا فقد يدع واجبات ويفعل محرمات ، مثل من يدع ما يحتاج إليه من الأكل أو أكل [٤] الدسم حتى يفسد عقله أو تضعف قوته عمَّا

ص ٣٢

(١) ز : تعلم . وفى هامش (ز) كتب أمام هذا الموضع : « مطلب فى تعريف الورع » .
(٢) ز : تشك .
(٣) ض : مثل محرم معين .
(٤) ك : وأكل .

يجب عليه من حقوق الله وحقوق [(١)] عباده ، أو يدع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله ، لما فى فعل ذلك من أذى بعض الناس والانتقام منهم ، حتى يستولى [(٢)] الكفّار والفجّار على الصالحين الأبرار ، فلا ينظر المصلحة الراجحة فى ذلك .

و [قد] قال [(٣)] تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٧] ، يقول سبحانه : وإن كان قتل النفوس فيه شر ، فالفتنة الحاصلة بالكفر وظهور أهله أعظم من ذلك ، فيُدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما .

وكذلك الذى يدع ذبح الحيوان أو يرى [(٤)] أن فى ذبحه ظلما له هو جاهل ، فإن هذا الحيوان لا بد أن يموت ، فإذا قُتل لمنفعة الآدميين وحاجتهم كان خيراً من أن يموت موتاً لا ينتفع به أحد . والآدمى أكمل منه [(٥)] ، ولا تتم مصلحته إلا باستعمال الحيوان فى [(٦)] الأكل والركوب ونحو / ذلك ، لكن ما لا يُحتاج إليه من تعذيبه نهى الله عنه ، كصبر البهائم وذبحها فى غير الحلق واللبة مع القدرة على ذلك ، وأوجب الله الإحسان بحسب الإمكان فيما أباحه من القتل والذبح ، كما فى صحيح مسلم عن شدّاد بن أوس عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله كتب

ظ ٣٢

---

(١) ض : أو حقوق .
(٢) ز : حتى يستولوا .... ، وهو تحريف .
(٣) ك ، ز : وقال .
(٤) ك ، ز : ويرى .
(٥) ز : منهم .
(٦) ك ، ز : من .

الإحسان على كل شئ ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحدّ أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » (١) .

وهؤلاء الذين زهدوا فى الإرادات ، حتى فيما يحبه الله ورسوله من الإرادات ، بإزائهم طائفتان : طائفة رغبت فيما كره الله ورسوله الرغبة (٢) فيه من الكفر والفسوق والعصيان ، وطائفة رغبت فيما أمر الله ورسوله ، لكن لهوى (٣) أنفسهم لا لعبادة الله ، وهؤلاء الذين يأتون بصور الطاعات مع فساد النيات ، كما فى الصحيحين عن النبى ﷺ ، أنه قيل له : يا رسول الله : الرجل يقاتل شجاعةً ، ويقاتل حميَّةً ، ويقاتل رياءً ، فأى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » (٤) .

ص ٣٣ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [سورة النساء : ١٤٢] ، وهؤلاء أهل إرادات فاسدة مذمومة ، فهم مع تركهم الواجب

---

(١) الحديث عن شداد بن أوس رضى الله عنه فى : مسلم ١٥٤٨/٣ (كتاب العيد ، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل) ؛ سنن أبى داود ١٣٢/٣ - ١٣٣ (كتاب الأضاحى ، باب فى الرفق بالذبيحة) ؛ سنن الترمذى ٤٣١/٢ (كتاب الديات ، باب ما جاء فى النهى عن المثلة) ؛ سنن النسائى ١٩٩/٧ - ٢٠٠ (كتاب الضحايا ، باب الأمر بإحداد الشفرة) ، ٢٠٢/٧ (كتاب الضحايا ، باب حسن الذبح) ؛ سنن ابن ماجة ١٠٥٨/٢ (كتاب الذبائح ، باب إذا ذبحتم فأحسنوا الذبح) ؛ سنن الدارمى ٨٢/٢ (كتاب الأضاحى ، باب فى حسن الذبيحة) .

(٢) ز : للرغبة .

(٣) ض : لهواء .

(٤) الحديث عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه فى : البخارى ١٣٦/٩ (كتاب التوحيد ، باب ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) ، ٢٠/٤ (كتاب الجهاد ، باب من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا) ؛ مسلم ١٥١٢/٣ - ١٥١٣ (كتاب الإمارة ، باب من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ...) ؛ سنن أبى داود ٢١/٣ (كتاب الجهاد ، باب من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا) ؛ سنن ابن ماجة ٩٣١/٢ (كتاب الجهاد ، باب النية فى القتال) ؛ سنن النسائى ٢٠/٦ (كتاب الجهاد ، باب من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا) ؛ المسند (ط . الحلبى ، ٣٩٢/٤ ، ٣٩٧ ، ٤٠٥ . وأول الحديث (وهذه رواية مسلم) : أن رجلا إعرابيا أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، الرجل يقاتل للمغنم ... الحديث .

فعلوا المحرم ، وهؤلاء يشبهون اليهود كما يشبه أولئك النصارى .

قال تعالى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ١١٢] .

وقال تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِىَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ [سورة الأعراف : ١٤٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ • وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦] (١) .

فهؤلاء يتبعون أهواءهم غيًّا مع العلم بالحق ، وأولئك يتبعون أهواءهم مع الضلال / والجهل بالحق . كما قال تعالى : ﴿ لاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [سورة المائدة : ٧٧] ، وكلا الطائفتين تاركة (٢) ما أمر الله ورسوله [به] (٣) من الإرادات والأعمال الصالحة ، مرتكبة لما نهى الله ورسوله عنه من الإرادات والأعمال الفاسدة .

ظ ٣٣

فصل

فَأَمْرُ الشيخ عبد القادر ، وشيخه حماد [الدبّاس] (٤) وغيرهما من

(١) جاءت بعض كلمات آيتي سورة الأعراف فى (ك) ، (ض) .

(٢) ك : باذلة ، وهو تحريف .

(٣) به : ساقطة من (ز) .

(٤) الدباس : ساقطة من (ك) ، (ز) ، وستأتى ترجمته فيما بعد (ص ١٦٣) .

المشايخ أهل الاستقامة – رضى الله عنهم – بأنه لا يريد السالك مرادًا قط ، وأنه لا يريد مع إرادة الله عز وجل سواها ، بل يجرى فعله فيه فيكون هو مراد الحق : إنما قصدوا به فيما لم يعلم العبد أمر الله ورسوله فيه ، فأما ما علم أن الله أمر [1] به ، فعليه أن يريده ويعمل به ، وقد صرّحوا بذلك فى غير موضع ، وإن كان غيرهم من الغالطين يرى القيام بالإرادة الخلقية هو الكمال ، وهو الفناء فى توحيد الربوبية ، وأن السلوك إذا انتهى إلى هذا الحد ، فصاحبه إذا قام بالأمر فلأجل غيره ، أو أنه لا يحتاج أن يقوم بالأمر ، فتلك أقوال وطرائق فاسدة ، قد تُكُلِّم عليها فى غير هذا الموضع .

فأما المستقيمون من السالكين ، كجمهور مشايخ السلف ، مثل الفضيل ابن عياض ، وإبراهيم بن أدهم ، وأبى سليمان الدارانى / ومعروف الكرخى ، والسرى السقطى ، والجنيد بن محمد ، وغيرهم من المتقدمين ، ومثل الشيخ عبد القادر ، والشيخ حماد ، والشيخ أبى البيان ، وغيرهم من المتأخرين ، فهم لا يسوِّغون للسالك ، ولو طار فى الهواء أو مشى على الماء ، أن يخرج عن الأمر والنهى الشرعيين ، بل عليه أن يفعل المأمور ويدع المحظور إلى أن يموت ، وهذا هو الحق الذى دل عليه الكتاب والسنه وإجماع السلف .

ص ٣٤

تابع كلام الجيلانى

وهذا كثير فى كلامهم **كقول الشيخ عبد القادر** فى كتاب « فتوح الغيب » [2] : « اخرج من نفسك ، وتنح عنها ، وانعزل عن ملكك ، وسلم الكل إلى الله تبارك وتعالى [3] ، وكن [4] بوابه على باب قلبك ، وامتثل أمره تبارك وتعالى [5] فى إدخال من يأمرك بإدخاله ، وانته نهْيَه فى صدِّ من يأمرك

---

(١) ز : أمره .

(٢) فى المقالة السابقة « فى إذهاب الغم » هامش ص ١٦ .

(٣) تبارك وتعالى : ليست فى « فتوح الغيب » .

(٤) فتوح الغيب : فكن .

(٥) تبارك وتعالى : ليست فى « فتوح الغيب » .

بصدِّه [١] ، فلا تدخل الهوى قلبك بعد أن خرج منه ، فإخراج [٢] الهوى من القلب بمخالفته وترك متابعته فى الأحوال كلها ، وإدخاله فى القلب بمتابعته وموافقته [٣] ، فلا تُرِد إرادة غير إرادته تبارك وتعالى [٤] ، وغير ذلك منك تمنٍ [٥] ، وهو وادى الحمقى [٦] ، وفيه حتفك وهلاكك وسقوطك من عينه تبارك وتعالى [٧] وحجابك عنه .

ظ ٣٤ احفظ أبداً أمره ، وانته أبداً نهيَهُ ، / وسلِّم إليه أبدا مقدوره [٨] ، ولا تشركه بشىء من خلقه ، فإرادتك وهواك وشهواتك [كلها] [٩] خلقه ، فلا تُرِد ولا تَهْوَ [١٠] ولا تَشْتَه كَيلا [١١] تكون مشركا [١٢] . قال الله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ [سورة الكهف : ١١٠] ، ليس الشرك عبادة الأصنام فحسب ، بل هو أيضا متابعتك لهواك ، وأن تختار مع ربك شيئاً سواه : الدنيا وما فيها ، والآخرة وما فيها ، فما سواه تبارك وتعالى [١٣] غيره ، فإذا ركنت إلى غيره فقد أشركت به عز وجل [١٤]

---

(١) ك : فى ضد من يأمرك بضده ، وهو تحريف .
(٢) ز ، ض : وإخراج .
(٣) فتوح الغيب : وموافاته .
(٤) تبارك وتعالى : ليست فى « فتوح الغيب » ، وفى (ك) : تعالى .
(٥) فتوح الغيب ، ز ، ك : تمنى ؛ ض : غير (وهو تحريف) .
(٦) فتوح الغيب : الحمقاء ؛ ز : الحمقا .
(٧) تبارك وتعالى : ليست فى « فتوح الغيب » .
(٨) فتوح الغيب : لمقدوره .
(٩) كلها : زيادة من « فتوح الغيب » .
(١٠) ض : ولا تهوى ، وهو خطأ .
(١١) ك ، ض : لئلا . والمثبت من (ز) ، « فتوح الغيب » هامش ص ١٧ .
(١٢) ض : يكون شركا .
(١٣) فتوح الغيب : عز وجل .
(١٤) عز وجل : ساقطة من (ك) ، (ض) .

[غيره] (١) ، فاحذر ولا تركن ، وخف ولا تأمن ، وفتش ولا (٢) تغفل فتطمئن (٣) ، ولا تضف إلى نفسك حالاً ولا مقاماً ، ولا تدع شيئاً من ذلك » .

وقال الشيخ عبد القادر أيضا (٤) : « إنما هو الله ونفسك ، وأنت المخاطب . والنفس ضد الله وعدوته (٥) ، والأشياء كلها تابعة لله ، فإذا وافقت الحق (٦) فى مخالفة النفس وعداوتها (٧) ، فكنت (٨) خصما له على نفسك » (٩) .

إلى أن قال (١٠) : « فالعبادة كل العبادة فى مخالفتك نفسك وهواك . قال تعالى (١١) : ﴿ وَلاَ تَتَّبِـعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ [سورة ص : ٢٦] (١٢) » .

إلى أن قال (١٣) : « والحكاية المشهورة عن أبى يزيد البسطامى رحمه الله ، لما رأى رب العزة فى المنام فقال له : كيف الطريق إليك يا بارخُذَاه (١٤) ؟ فقال :

---

(١) غيره : ساقطة من (ز) ، وكتبت عبارة « فإذا ركنت إلى غيره فقد أشركت به عز وجل » فى هامش (ز) وفوقها عبارة « من فتوح الغيب » .

(٢) فتوح الغيب : فلا .

(٣) فتطمئن : ساقطة من (ك) .

(٤) فى « فتوح الغيب » هامش ص ٢٣ فى أول المقالة العاشرة : فى النفس وأحوالها .

(٥) فتوح الغيب : وعدوه .

(٦) فتوح الغيب : .... تابعه لله ، والنفس لله خلقا وملكا ، وللنفس ادّعاء وتمنٍ وشهوة ولذة بملابستها ، فإذا وافقت الحق عز وجل ...

(٧) فتوح الغيب : وعدوانها .

(٨) ض : كنت .

(٩) فتوح الغيب : فكنت لله خصما على نفسك .

(١٠) فتوح الغيب هامش ص : ٢٤ .

(١١) فتوح الغيب : ... فى مخالفة نفسك . قال الله تعالى ....

(١٢) فتوح الغيب : لا تتبع ... وهو خطأ .

(١٣) بعد الكلام السابق بسطرين .

(١٤) عبارة « يا بارخذاه » ليست فى (ض) ، فتوح الغيب . والظاهر أنها عبارة فارسية .

ص ٣٥ اترك نفسك / وتعال [١] . فقال أبو يزيد [٢] : فانسخلت من نفسى كما تنسلخ الحية من جلدها . فإذا ثبت أن الخير كله [٣] فى معاداتها فى الجملة فى الأحوال كلها ، فإن كنت فى حال التقوى فخالف النفس بأن تخرج من حرام [٤] الخلق ، وشبههم [٥] ومننهم [٦] ، والاتكال عليهم ، والثقة بهم ، والخوف منهم ، والرجاء لهم ، والطمع فيما عندهم من حطام الدنيا [٧] ، فلا ترج عطاءهم [٨] على طريق الهدية ، أو الزكاة ، أو الصدقة ، أو الكفارة ، أو النذر [٩] ، فاقطع همك منهم من سائر الوجوه والأسباب ، فاخرج [١٠] من الخلق جدا ، واجعلهم كالباب يُرد ويفتح [١١] ، وكالشجرة يوجد [١٢] فيها ثمرة تارة وتخيل [١٣] أخرى ، كل ذلك بفعل فاعل ، وتدبير مدبّر ، وهو الله تبارك وتعالى ، فإذا اصحَّ لك هذا كنت

---

(١) جاءت هذه الحكاية فى كتاب « النور من كلمات أبى طيفور » ، ضمن كتاب « شطحات الصوفية » تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى ، ص ٦٤ ونصها فيه : « سمعت أبا يزيد البسطامى – قدس الله روحه – يقول : رأيت رب العزة فى المنام فقلت : كيف الطريق إليك ؟ فقال : اترك نفسك وتعال » .

(٢) ض : قال أبو يزيد . وفى « فتوح الغيب » . فقال .

(٣) فتوح الغيب : فإذا الخير كله ...

(٤) ض : أجرام ؛ فتوح الغيب : جرام .

(٥) فتوح الغيب : وشبهم ، وهو تحريف ظاهر .

(٦) ض ، فتوح الغيب : ومنتهم .

(٧) فتوح الغيب : من أحكام الدنيا .

(٨) فتوح الغيب : فلا تبرح عطاياهم .

(٩) فتوح الغيب : على طريق الهداية والزكوة والصدقة أو النذر ؛ ك : على طريق .... والنذر .

(١٠) فتوح الغيب : ... والأسباب ، حتى إن كان لك نسب ذو مال لا تتمنى موته لترث ماله ، فاخرج ...

(١١) ض : يرد ويفتتح ؛ ك : يردوه يفتح .

(١٢) ك ، فتوح الغيب (هامش ص ٢٥) : توجد .

(١٣) ض : وتحيل ؛ فتوح الغيب : وتختل .

موحِّداً له تبارك وتعالى [١] . ولا تنس مع ذلك كسبهم لتتخلص [٢] من مذهب الجبرية ، واعتقد أن الأفعال لا تتم بهم دون الله تبارك وتعالى ؛ لكيلا تعبدهم [٣] ، وتنسى الله تعالى ، ولا تقل [٤] فِعْلُهم دون الله فتكفر وتكون [٥] قدريا ، لكن [٦] قل : هى لله خلقاً وللعباد كسباً ، كما جاءت به الآثار لبيان موضع الجزاء من الثواب والعقاب ، وامتثل أمر الله فيهم ، وخلّص قسمك منهم بأمره ولا تجاوزه ، فحكمُهُ / قائم يحكم عليك وعليهم [٧] ، فلا تكن أنت الحاكم ،وكونك معهم قدر ، والقدر ظلمة ، فادخل فى الظلمة بالمصباح ، وهو الحكم : كتاب الله [٨] وسنة رسوله ﷺ ، لا تخرج عنهما .

ظ ٣٥

فإن خطر خاطر ، أو وُجِد إلهام [٩] ، فاعرضهما [١٠] على الكتاب والسنة ، فإن وجدتَ فيهما [١١] تحريم ذلك ، مثل أن تُلهم بالزنا ، أو الربا ، أو مخالطة أهل الفسق والفجور [١٢] ، وغير ذلك من المعاصى ، فادفعه عنك ، واهجره ولا تقبله ، ولا تعمل به ، واقطع بأنه من الشيطان اللعين ، وإن وجدت فيهما إباحته [١٣] ،

---

(١) فتوح الغيب : الله جل وعلا ، لتكون موحّدا للرب .

(٢) ز ، فتوح الغيب : لتخلص .

(٣) ز : دون الله تبارك وتعالى كيلا تعبدهم ؛ فتوح الغيب : دون الله لا تعبدهم .

(٤) ض : ولا تقبل .

(٥) فتوح الغيب : فتكون .

(٦) ض : ولكن .

(٧) فتوح الغيب : فحكم الله قائم بحكمه عليك وعليهم .

(٨) فتوح الغيب : بالظلمة فى المصباح ، وهو كتاب الله ....

(٩) ض : أو وجدت إلهاما ..

(١٠) فتوح الغيب : فاعرضه .

(١١) فتوح الغيب : فيها .

(١٢) فتوح الغيب : .... بالزنا والرباء ومخالطة أهل الفسق والفجور ..

(١٣) فتوح الغيب : وإن وجدت فيها إباحة ...

كالشهوات المباحة : من الأكل والشرب واللبس والنكاح [١] ، فاهجره أيضا ولا تقبله ، واعلم أنه من إلهام النفس وشهواتها ، وقد أُمرت بمخالفتها وعداوتها » .

قلت : ومراده بهجر المباح : إذا لم يكن مأمورا به ، كما قد بيَّن مراده فى غير هذا الموضع ، فإن [٢] المباح المأمور به إذا فعله بحكم الأمر كان ذلك من أعظم نعم [٣] الله عليه ، وكان واجبا عليه . وقد قدَّمت أنه يدعو إلى طريقة السابقين المقرَّبين ، لا يقف عند طريقة الأبرار أصحاب اليمين .

قال [٤] : « وإن لم تجد فى الكتاب والسنة تحريمه ولا إباحته [٥] ، بل هو أمر لا تعقله [٦] ، مثل أن يقال لك [٧] : ائت / موضع كذا وكذا ، الق فلانا الصالح . ولا حاجة لك هناك ، ولا فى الصالح ؛ لاستغنائك عنه بما أولاك الله تعالى من نعمة [٨] من العلم والمعرفة ، فتوقف فى ذلك ، ولا تبادر إليه فتقول : هل هذا الإلهام من الحق فاعمل به ؟ بل انتظر الخير فى ذلك وفعل الحق [٩] ، بأن يتكرر ذلك الإلهام وتؤمر بالسعى ، أو علامة تظهر لأهل العلم بالله تبارك وتعالى [١٠] ، يعقلها العقلاء

ص ٣٦

---

(١) فتوح الغيب (هامش ص : ٢٦) : أو الشرب أو اللبس أو النكاح . وفى (ك) : سقطت كلمة « والشرب » .

(٢) ك : وأن .

(٣) ك ، ض : نعمة .

(٤) بعد كلامه السابق مباشرة فى « فتوح الغيب » هامش ص ٢٦ .

(٥) فتوح الغيب : تحريمه وإباحته .

(٦) ك : لا تفعله .

(٧) فتوح الغيب : مثل السائق لك ..

(٨) فتوح الغيب : ... الله من نعمته ..

(٩) فتوح الغيب : فتقول : هذا إلهام من الحق جل وعلا فاعمل به ، بل انتظر الخير كله فى ذلك وفعل الحق عز وجل .

(١٠) ز : بأن الله تبارك وتعالى ؛ ك : بالله (وسقطت عبارة : تبارك وتعالى) ؛ فتوح الغيب : بالله عز وجل .

من أولياء الله (١) ، والمؤيدون (٢) من الأبدال .

وإنما لم تبادر (٣) إلى ذلك ، لأنك لا تعلم عاقبته وما يؤول الأمر إليه ، وربما كان فيه (٤) فتنة ، وهلاك ، ومكر من الله سبحانه (٥) وامتحان ، فاصبر حتى يكون هو عز وجل (٦) الفاعل فيك ، فإذا تجرَّد الفعل وحُملت إلى هناك واستَقْبَلتك فتنة ، كنت محمولا محفوظا منها (٧) ، لأن الله تعالى لا يعاقبك على فعله ، وإنما تتطرق العقوبة (٨) نحوك ، لكونك فى الشئ » .

تعليق ابن تيمية

قلت : فقد أمر – رحمه الله (٩) – بأن ما كان محظورا فى الشرع يجب تركه ، ولابُدَّ . وما كان معلوما أنه مباح بعينه ، لكونه يُفعل بحكم الهوى لا بأمر الشارع فيترك أيضا ، وأما ما لم يعلم هل هو بعينه مباح لا مضرة فيه أو منه ، مثل السفر إلى مكان معين ، أو شخص / معين ، والذهاب إلى مكان معين أو شخص معين (١٠) ، فإن جنس هذا العمل ليس محرَّما ، ولا كل أفراده مباحة ؛ بل يحرم على الإنسان أن يذهب إلى حيث يحصل له ضرر فى دينه ، فأمره بالكف عن الذهاب حتى يُقهر (١١) أو يتبيّن له (١٢) فى الباطن أن هذا مصلحة ، لأنه إذا

ظ ٣٦

(١) فتوح الغيب : .... العقلاء من الأولياء .

(٢) ز : والمريدون .

(٣) فتوح الغيب : يتبادر ، وهو تحريف .

(٤) ز : ربما كان فيه ؛ فتوح الغيب : وما كان فيه .

(٥) سبحانه : زيادة فى (ز) .

(٦) ك ، ض : حتى يكون عز وجل هو ..

(٧) ض ، ك ، فتوح الغيب : فيها .

(٨) ز ، ض : العقوبات .

(٩) ز ، ض : رضى الله عنه .

(١٠) ز : إلى شخص معين أو مكان معين .

(١١) ض : حتى يظهر .

(١٢) ز : أو يبيّن له .

لم يتبين له أن الذهاب واجب أو مستحب ، لم ينبغ [(١)] له فعله ، وإذا خاف الضرر انبغى [(٢)] له تركه ، فإذا أُكره على الذهاب لم يكن عليه حرج ، فلا يؤاخذ [(٣)] بالفعل ، بخلاف ما إذا فعله باختياره وشهوته [(٤)] ، وإذا [(٥)] تبين أنه مصلحة راجحة كان حسناً .

وقد جاءت شواهدُ السنَّة بأن من ابتلى بغير تعرّض منه أُعين ، ومن تعرّض للبلاء خِيف عليه . مثل قوله ﷺ لعبد الرحمن بن سمره : « لا تسأل الإمارة ، فإنك إن أُعطيتها عن مسألة وُكِلت إليها ، وإن أعطيتها عن [(٦)] غير مسألة أعنت عليها » [(٧)] .

[(٨)] ومنه قوله : « لا تتمنوا لقاء العدو ، وأسألوا الله العافية [فإذا لقيتموهم فاصبروا »] [(٨)] .

---

(١) ز : لم ينبغى ، وهو خطأ .

(٢) ض : ينبغى .

(٣) ك : فلا يؤخذ .

(٤) ض : أو شهوته .

(٥) ض : وإذ .

(٦) ز : من .

(٧) جاء هذا الحديث مختصرا كما أورده ابن تيمية أو مطولا فى بعض الروايات عن عبد الرحمن بن سَمُرَة رضى الله عنه فى : البخارى ١٢٧/٨ – ١٢٨ (كتاب الأيمان والنذور ، الباب الأول) ، ١٤٧/٨ – ١٤٨ (كتاب كفارات الأيمان ، باب الكفارة قبل الحنث وبعده) ، ٦٣/٩ (كتاب الأحكام ، باب من لم يسأل الإمارة أعانه ، باب من سأل الإمارة وكل إليها) ؛ مسلم ١٢٧٣/٣ – ١٢٧٤ (كتاب الأيمان ، باب من حلف يمينا ....) ، ١٤٥٦/٣ (كتاب الإمارة ، باب النهى عن طلب الإمارة) ؛ سنن أبى داود ١٨٠/٣ (كتاب الخراج والإمارة والفىء ، باب ما جاء فى طلب الإمارة) ؛ سنن الترمذى ٤٢/٣ – ٤٣ (كتاب النذور ، باب فيمن حلف على يمين ....) ؛ سنن النسائى ١٩٨/٨ – ١٩٩ (كتاب آداب القضاة ، باب النهى عن مسألة الإمارة) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٦٢/٥ ، ٦٣ .

(٨ – ٨) : ساقط من (ك) . وما بين المعقوفتين فى (ض) فقط . والحديث عن عبد الله بن أبى =

وفى السنن : « من سأل القضاء واستعان عليه [١] وُكِل إليه ، ومن لم يسأل القضاء ولم يستعن عليه أُنزَل الله عليه مَلَكاً يسدّدُهُ » وفى رواية : « وإن أُكره عليه » [٢] .

وفى الصحيحين أنه [ﷺ] [٣] قال فى الطاعون : « إذا سمعتم به بأرض / فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها ، فلا تخرجوا فراراً منه » [٤] . ص ٣٧

ومنه [٥] أنه ﷺ نهى عن النذر [٦] .

= أوفى رضى الله عنه ، وجاء مختصرا عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ٥١/٤ (كتاب الجهاد والسير ، باب كان النبى ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار ....) ، ٦٣/٤ (كتاب الجهاد ، باب لا تمنوا لقاء العدو) ؛ مسلم ١٣٦٢/٣ - ١٣٦٣ (كتاب الجهاد والسير ، باب كراهية تمنى لقاء العدو) ؛ سنن أبى داود ٥٧/٣ - ٥٨ (كتاب الجهاد ، باب فى كراهية تمنى لقاء العدو) .

(١) ض (فقط) : عليه بالشفعاء ....

(٢) الحديث عن أنس بن مالك رضى الله عنه بألفاظ مقاربة فى : سنن الترمذى ٣٩٢/٢ (كتاب الأحكام ، باب ما جاء عن رسول الله ﷺ فى القاضى) وذكر الترمذى حديثا بعده وقال إن الحديث الثانى أصح من هذا الحديث . والحديث عن أنس أيضا فى المسند (ط . الحلبى) ١١٨/٣ ؛ سنن ابن ماجة ٧٧٤/٢ (كتاب الأحكام ، باب ذكر القضاة) . وذكر الألبانى الحديث فى « ضعيف الجامع الصغير » ٢٠٣/٥ وضعفه .

(٣) ﷺ : زيادة فى (ض) .

(٤) الحديث بهذا اللفظ جزء من حديث طويل عن عبد الله بن عباس عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما فى : البخارى ١٣٠/٧ (كتاب الطب ، باب ما يذكر فى الطاعون) . والحديث بمعناه فى نفس المكان عن أسامة ابن زيد رضى الله عنه . والحديث برواياته فى : مسلم ١٧٣٧/٤ - ١٧٤١ (كتاب السلام ، باب الطاعون والطيرة ....) ؛ سنن الترمذى ٢٦٤/٢ (كتاب الجنائز ، باب ما جاء فى الشهداء ....) ؛ الموطأ ٨٩٤/٢ - ٨٩٧ (كتاب الجامع ، باب ما جاء فى الطاعون) .

(٥) ض : وعنه .

(٦) الحديث عن ابن عمر رضى الله عنهما فى : البخارى ١٢٤/٨ - ١٢٥ ونصه : « قال : نهى النبى ﷺ عن النذر ، وقال : إنه لا يرد شيئا ، وإنما يُستخرج به من البخيل » . والحديث عنه أيضا فى : البخارى ١٤١/٨ (كتاب الأيمان والنذور ، باب الوفاء بالنذر) ؛ مسلم ١٢٦١/٣ (كتاب النذر ، باب النهى عن النذر ....) ؛ المسند (ط . المعارف) ١٩١/٧ - ١٩٢ ، ١٠/٨ . والحديث أيضا فى سنن النسائى وابن ماجة . وجاء الحديث بمعناه عن أبى هريرة رضى الله عنه فى مواضع متعددة .

ومنه قوله : « ذرونى ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم . فإذا نهيتكم عن شئ فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » (١) .

فصل

تابع كلام الجيلانى

قال الشيخ عبد القادر (٢) : « وإن كنت فى حالة (٣) الحقيقة ، وهى حالة الولاية ، فخالف هواك ، واتّبع الأمر فى الجملة . واتّباع الأمر على قسمين : أحدهما : أن تأخذ من الدنيا القوت الذى هو حق النفس ، وتترك (٤) الحظ ، وتؤدى الفرض ، وتشتغل بترك الذنوب : ما ظهر منها وما بطن .

والقسم الثانى : ما كان بأمرٍ باطن ، وهو أمر الحق تبارك وتعالى (٥) : يأمر عبده وينهاه ، وإنما يتحقق هذا الأمر فى المباح الذى ليس له حكم فى الشرع ، على معنى أنه (٦) ليس من قبيل النهى (٧) ولا من قبيل الأمر الواجب ، بل هو مهمل تَرَكَ (٨) العبد يتصرف فيه باختياره ، فسُمِّىَ مباحاً ، فلا يُحدث العبد فيه شيئاً من عنده ، بل ينتظر الأمر فيه ، فإذا أُمر امتثل ، فتصير (٩) جميع (١٠) حركاته

---

(١) مضى الحديث من قبل فى هذه الرسالة (ص : ٣١) .
(٢) بعد كلامه السابق مباشرة فى « فتوح الغيب » هامش ص : ٢٦ – هامش ص : ٢٨ .
(٣) ز ، ض : حال .
(٤) ز : وترك ، وهو تحريف .
(٥) فتوح الغيب : عز وجل .
(٦) أنه : ساقطة من « فتوح الغيب » .
(٧) ك : المنهى .
(٨) ز : بترك .
(٩) ض : فيصير .
(١٠) جميع : ليست فى « فتوح الغيب » .

ظ ٣٧

وسكناته بالله [تعالى] (١) ، ما فى الشرع حكمه / فبالشرع ، وما ليس له حكم فى الشرع فبالأمر الباطن ، فحينئذ يصير محِقًّا (٢) من أهل الحقيقة ، وما ليس فيه أمر باطن فهو مجرد الفعل حالة التسليم ، وإن كنت فى حالة (٣) حق الحق ، وهى حاله المحو (٤) والفناء ، [وهى] (٥) حالة الأبدال المنكسرى القلوب (٦) لأجل الحق (٧) ، الموحِّدين العارفين أرباب العلوم والفعل (٨) ، السادة الأمراء الشُّحْن (٩) الخفراء (١٠) للخلق (١١) ، خلفاء الرحمن وأخلائه (١٢) وأعيانه وأحبابه (١٣) عليهم السلام ، فاتّباع الأمر فيها بمخالفتك إياك ، بالتبرِّى من الحول والقوة ، وأن لا يكون (١٤) لك إرادة وهمة فى شىء ألبتة ، دنيا وأخرى (١٥) ، عبد المِلك

---

(١) تعالى : ليست فى (ز) ، (ك) . وفى « فتوح الغيب » : بالله عز وجل .

(٢) ض (فقط) : محققا .

(٣) ز : حال .

(٤) ض : المحق ، وهو خطأ .

(٥) وهى : ساقطة من (ض) ، (ك) ، (ز) . وأثبتها من « فتوح الغيب » .

(٦) فتوح الغيب : المنكسرين للقلوب .

(٧) فتوح الغيب : لأجله .

(٨) فتوح الغيب : والعقل .

(٩) ض ، ز : السخى ، وهو تحريف . وفى « لسان العرب » : « قال ابن برى : وقول العامة فى الشُّحْنة إنه الأمير غلط . وقال الأزهرى : شِحْنة الكورَة مَنْ فيهم الكفاية لضبطها من أولياء السلطان » .

(١٠) ز : الحضراء ؛ فتوح الغيب : خفراء .

(١١) ض : للحق .

(١٢) ض : وأجلائه .

(١٣) فتوح الغيب (هامش ص ٢٨) : وأحبائه

(١٤) ض : تكون .

(١٥) فتوح الغيب : وعقبى .

لا عبد المُلك (١) ، وعبد (٢) الأمر لا عبد الهوى ، كالطفل مع الظئر (٣) ، والميت الغسيل مع الغاسل ، والمريض المغلوب على جنبه مع الطبيب فيما سوى الأمر والنهى » .

وقال أيضا (٤) : « اتبع الشرع فى جميع ما ينزل بك إن كنت فى حالة التقوى ، التى هى القدم الأولى (٥) ، واتبع الأمر فى حالة الولاية [وخمود] وجود الهوى (٦) ولا تتجاوزه (٧) ، وهى القدم الثانية ، وارض بالفعل ، ووافق ، وافن فى حالة (٨) البدلية (٩) والغوثية (١٠) [والقطبية] (١١) والصديقية (١٢) ، وهى المنتهى .

---

(١) ض : عبد المَلَك ، وهو خطأ .

(٢) ك ، ز : عبد .

(٣) فى « لسان العرب » : « الظئر : مهموز : العاطفة على غير ولدها ، المُرضعة له من الناس والإبل ، الذكر والأنثى فى ذلك سواء » .

(٤) فى « فتوح الغيب » هامش ص ٤٤ – هامش ص ٤٥ فى المقالة الثامنة عشر فى النهى عن الشكوى .

(٥) ز : الأول ؛ ك : الأوله .

(٦) ز ، ض ، ك : ووجود الهوى ، وهو خطأ . والمثبت من « فتوح الغيب » .

(٧) فتوح الغيب : ولا تجاوزه .

(٨) ك : فى حال .

(٩) البدلية نسبة إلى البدل عند الصوفية . ويعرف نيكلسون فى « دائرة المعارف الإسلامية » البدل بقوله : « الأبدال جمع البدل ، والبدلاء جمع البديل ، يتصلان بطريق الصوفية الذى يرجع تاريخه إلى القرن الثالث الهجرى ، وهو أن نظام العالم مكلف بحفظه عدد معين من الأولياء ، إذا مات واحد منهم حل محله بدل أو بديل والجمع أبدال ، يستعمل عادة فى الفارسية والتركية مفردا . ويفسر بعض الكتاب البدل بأنه الشخص الذى له قدرة على أن يخلف شخصا روحانيا عندما يترك مكانه ، أو الشخص الذى له قدرة على التحول الروحانى . والاختلاف بيِّن فيما أوردوه عن عدد الأبدال ومكانهم من سلسلة المراتب الصوفية التى يكون القطب على رأسها . وقد أورد ابن حنبل فى مسنده أربعين من الأبدال خلقهم الله فى الشام (جـ ١ ص ١١٢) ويذكر أيضا أن هناك ثلاثين منهم فى أمة محمد (جـ ٥ ص ٣٢٢) ويشير المكى إلى ثلاثمائة من الأبدال يضمون الصدِّيقين والشهداء والصالحين (قوت القلوب ، جـ ٢ ، ص ٧٨ . انظر سورة النساء الآية ٧١) . ويقول الهجويرى إنهم أربعون وإنهم فى المرتبة الرابعة ، يلون الأبرار السبعة ، =

= وفوقهم الأوتاد الأربعة ، ثم النقباء الثلاثة (كشف المحجوب ، ط . شوكوفسكى ، ص ٢٦٩ ، ترجمة نيكلسون ، ص ٢٨٤) . ويحدد ابن عربى عدد الأبدال بسبعة ويضعهم فى المرتبة تحت الأوتاد (الفتوحات ، ج ٢ ، ص ٩) . وقد أخذ بهذا الرأى ابن الفارض فى التائية الكبرى » .

وانظر تعريف « البدلاء » فى « التعريفات للجرجانى » ، « اصطلاحات الصوفية » لابن عربى ، « اصطلاحات الصوفية » للقاشانى . وانظر تعليق الدكتور محمد مصطفى حلمى على « بدل » فى « دائرة المعارف الإسلامية » .

وعلق الشيخ أحمد شاكر رحمه الله على الحديث الذى يشير إليه نيكلسون وهو فى المسند (ط . المعارف) ١٧١/٢ من مسند على بن أبى طالب رضى الله عنه بقوله : « إسناده ضعيف لانقطاعه .. وسيأتى فى شأنهم حديث آخر فى مسند عبادة بن الصامت ٣٢٢/٥ قال فيه أحمد هناك : « وهو منكر » .

وأورد الألبانى الحديثين فى « ضعيف الجامع الصغير » ٢٧٥/٢ وقال عن كل منهما : « ضعيف » . والأول هو : « الأبدال بالشام ، وهم أربعون رجلا ، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا ، يُسقى بهم الغيث ، ويُنتصر بهم على الأعداء ، ويُصرف عن أهل الشام بهم العذاب » . والثانى : « الأبدال فى أمتى ثلاثون ، بهم تقوم الأرض ، وبهم تمطرون وبهم تُنصرون » . وانظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألبانى (ط . دمشق ، ١٣٩٩) ٣٣٩/٢ - ٣٤١ الحديث رقم ٩٣٥ ، ٩٣٦ .

(١٠) ز ، ض ، ك : والعينية . والمثبت من « فتوح الغيب » ، وهى نسبة إلى الغوث عند الصوفية .

(١١) والقطبية : ساقطة من (ز) ، (ض) ، (ك) . وأثبتها من « فتوح الغيب » . وفى كتاب « التعريفات » للجرجانى : « الغوث هو القطب حينما يلتجأ إليه ولا يسمى فى غير ذلك الوقت غوثا » . وفى كتاب « اصطلاحات الصوفية » لابن عربى : « القطب وهو الغوث ، عبارة عن الواحد الذى هو موضع نظر الله من العالم فى كل زمان ، وهو على قلب إسرافيل عليه السلام » والمقصود بالغوث الذى يزعمه الصوفية هو كما يقول الأستاذ الدكتور محمد مصطفى حلمى رحمه الله فى تعليقه على مادة « بدل » فى « دائرة المعارف الإسلامية » : « إن القطب بالمعنى الخاص يدل دلالة قوية على مذهب فلسفى فى الحقيقة المحمدية التى هى عند متفلسفة الصوفية ، أو صوفية الفلاسفة : المخلوق الأول الذى خلقه الله وكان واسطة فى خلق كل ما فى العالم من الكائنات الروحية والمادية » . وانظر تعليقى على « درء تعارض العقل والنقل » ٣١٥/٥ - ٣١٦ . وانظر « اصطلاحات الصوفية » للقاشانى ، ص ١٦٧ .

(١٢) يقول القاشانى فى « اصطلاحات الصوفية » فى تعريف « الصدّيق » : « المبالغ فى الصدق . وهو الذى كمل تصديق كل ما جاءت به رسل الله علما وقولا وفعلا لضياء باطنه وقربه لباطن النبى ﷺ ، لشدة مناسبته له ، ولهذا لم يتخلل فى كتاب الله مرتبة بينهما فى قوله تعالى : (فأولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين) [سورة النساء : ٦٩] » .

ص ٣٨ تنح عن طريق القدر (١) ، خلّ عن سبيله ، رد نفسك / وهواك ، كف لسانك عن الشكوى ، فإذا فعلت ذلك إن كان خيرا زادك المولى طيبة ولذةً وسرورًا (٢) ، وإن كان شرا حفظك فى طاعته فيه ، وأزال عنك الملامة ، وأفقدك فيه (٣) حتى يتجاوز عنك ، ويرحل (٤) عند انقضاء أجله ، كما ينقضى الليل فيسفر عن النهار ، والبرد فى الشتاء فيسفر عن الصيف .

ذلك أنموذج (٥) عندك فاعتبر به (٦) ، ثم ذنوب وآثام وأجرام وتلويث (٧) بأنواع المعاصى والخَطِيَّات (٨) ، ولا يصلح لمجالسة الكريم إلا طاهر (٩) عن أنجاس الذنوب والزّلات ، (* [ولا يقبل على سدته (١٠) إلا طيب (١١) من دون الدعوى والهواشات (١٢) ، كما لا يصلح لمجالسة الملوك إلا الطاهر من الأنجاس وأنواع النتن والأوساخ ، فالبلايا مكفرات (مطهرات) (١٣) . قال النبى ﷺ : « حمى يوم كفارة سنة » (١٤)] *) .

---

(١) ك : طريق الفذ ؛ ض : الطريق القذر ، وهو تحريف .

(٢) فتوح الغيب (هامش ص : ٤٥) . وسروراً ولذة .

(٣) ك : وفقدك فيه ؛ ض : وأقعدك فيه .

(٤) ض : ويريحك .

(٥) ز ، ك : يا نموذج ؛ ض : النموذج . والمثبت من « فتوح الغيب » .

(٦) فتوح الغيب : بهم .

(٧) فتوح الغيب : وتلويثات .

(٨) ض : والخطايا ؛ فتوح الغيب : والخطيئات .

(٩) ز : طاهرا ؛ فتوح الغيب : الطاهر .

(* - *) ما بين النجمتين ساقط من (ز) ، (ك) .

(١٠) ض : ولا يقبل على شدته ؛ فتوح الغيب : ولا يقبل سدته . ولعل الصواب ما أثبته .

(١١) فتوح الغيب : طيبا .

(١٢) فتوح الغيب : الدعاوى والهويمات .

(١٣) مطهرات : زيادة فى « فتوح الغيب » .

(١٤) ذكره ابن الديبع الشيبانى فى « تمييز الطيب من الخبيث » ، ص ٦٩ والعجلونى فى « كشف الخفاء » ٣٦٧/١ وقال : « قال فى المقاصد : رواه القضاعى فى مسنده عن ابن مسعود مرفوعا فى حديث بلفظ : وحمى ليلة تكفر خطايا سنة مجرمة . وله شاهد رواه ابن أبى الدنيا عن أبى الدرداء موقوفا بلفظ : =

تعليق ابن تيمية

قلت : فقد (١) بين الشيخ – رضى الله عنه – أن لزوم الأمر والنهى لا بد منه فى كل مقام ، وذكر الأحوال الثلاث التى جعلها : حال صاحب التقوى ، وحال الحقيقة ، وحال حق الحق . وقد فسَّر مقصوده بأنه لابد للعبد فى كل حال من أن يريد فعل ما أُمر به فى الشرع ، وترك ما نُهى عنه فى الشرع ، وأنه إذا أُمر العبد بترك إرادته ، فهو فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه ، وهذا حق ، فإنه لم يؤمر به فيكون له إرادة فى وجوده ولا نهى عنه فتكون له إرادة فى عدمه ، فيخلو فى مثل هذا عن إرادة النقيضين .

ظ ٣٨

وقد بيَّن / أن صاحب الحقيقة عليه أن يلزم الأمر دائما : الأمر الشرعى الظاهر إن عرفه ، أو الأمر الباطن ، وبيَّن أن الأمر الباطن إنما يكون فيما ليس بواجب فى الشرع ولا محرم ، وأن مثل (٢) هذا ينتظر فيه الأمر الخاص حتى يفعله بحكم الأمر .

فإن قلت : فما الفرق بين هذا وبين صاحب التقوى الذى قبله ؟ وصاحب حق الحق الذى بعده ؟

قيل : أما الذين بعده الذين سماهم « الأبدال » فهم الذين لا يفعلون إلا بأمر الحق ، ولا يفعلون إلا به ، فلا يشهدون لأنفسهم فعلا فيما فعلوه من الطاعات ، بل يشهدون أنه هو الفاعل بهم ما قام بهم من طاعة أمره . ولهذا قال : « فاتباع الأمر فيها بمخالفتك إياك بالتبرى من الحول والقوة » .

= حمى ليلة كفارة سنة . ورواه تمام فى فوائده عن أبى هريرة رفعه بلفظ الترجمة ، وزاد : وحمى يومين كفارة سنتين ، وحمى ثلاثة كفارة ثلاث سنين ، ولابن أبى الدنيا عن الحسن مرسلا – رفعه – إن الله ليكفر عن المؤمن خطاياه كلها بحمى ليلة . وقال ابن المبارك عقب روايته له : إنه من جيد الحديث . ورواه ابن أبى الدنيا أيضا عن الحسن ، قال : كانوا يرجون فى حمى ليلة كفارة لما مضى من الذنوب . وله شواهد كثيرة يقوىّ بعضها بعضا . انتهى » .

(١) ز : قد .

(٢) ز : وإن قيل ، وهو تحريف .

فهؤلاء يشهدون توحيد الربوبية مع توحيد الإلهية ، فيشهدون أن الله هو الذى خلق ما قام بهم من أفعال البر والخير ، فلا يرون لأنفسهم حمداً ولا منّةً على أحدٍ ، ويرون أن الله خالق أفعال العباد ، فلا يرون أحداً مسيئاً إليهم ، ولا يرون لهم حقًّا على أحدٍ ، إذ قد شهدوا أن الله خالق كل شئ من أفعال العباد وغيرها ، وهم يعلمون أن العباد لا يستحقون من أنفسهم / ولا بأنفسهم على الله شيئا ، بل هو الذى كتب على نفسه الرحمة . ص ٣٩

ويشهدون أنه يستحق أن يُعبد لا [١] يشرك به شيئا ، وأنه يستحق أن يُتّقى حق تُقاته ، وحق تقاته أن يُطاع فلا يُعصى ، ويُذكر فلا يُنسى ، ويشكر فلا يُكفر ، فيرون أن ما قام بهم من العمل الصالح فهو بفضله وجوده وكرمه [٢] ، له الحمد فى ذلك .

ويشهدون : أنه لا حول ولا قوة إلا بالله . وأما ما قام بالعباد من أذاهم ، فالله خالقه [٣] وهو من عدله ، وما تركه الناس من حقوقهم التى يستحقونها على الناس فهو الذى لم يخلقه ، وله الحمد على كل حال : على ما فعل وما لم يفعل .

ولهذا كانوا منكسرة قلوبهم ؛ لشهودهم وجوده الكامل وعدمهم المحض ، ولا أعظم انكسارا ممن لم ير لنفسه إلا العدم ، لا يرى له شيئا ، ولا يرى به شيئا .

وصاحب الحقيقة الذى هو دون هذا قد شاركه فى إخلاص الدين لله ، وأنه لا يفعل إلا ما أُمر به [٤] ، فلا يفعل إلا لله ، لكن قصّر عنه فى شهود

---

(١) ض : ولا .

(٢) ك : فهو فضله وجوده وكرمه ؛ ض : فهو جوده وفضله وكرمه .

(٣) ز : فهو خالقه ؛ ض : فهو خلقه .

(٤) به : ساقطة من (ك) .

توحيد الربوبية ورؤيته ، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، وأنه ليس له فى الحقيقة شئ ، بل الرب هو [الخالق] الفاعل (١) لكل ما قام به ، وأن كمال هذا الشهود لا يُبقى شيئا من العجب ولا الكبر ونحو ذلك .

فكلاهما (٢) / قائم بالأمر مطيع لله ، لكن هذا يشهد أن الله هو الذى جعله مسلما مصليا ، وإنه هو فى الحقيقة لم يُحدِث شيئا . وذاك وإن كان يؤمن بهذا ويصدِّق به – إذ (٣) كان مقراً بأن الله خالق أفعال العباد – [لكن] (٤) قد لا يشهده شهوداً يجعله فيه بمنزله المعدوم . ظ ٣٩

وأيضا بينهما فرق من جهة ثانية : وهى أن (٥) الأول تكون له أرادة فى أمور فيتركها ، فهو يميز فى مراداته بين ما (٦) يؤمر به وما ينهى عنه ، وما لا يؤمر به ولا ينهى عنه . وهذا لم يبق له مراد (٧) أصلا إلا [ما] (٨) أراده الربّ : إما أمراً به (٩) فيمتثله هو بالله (١٠) ، وإما فعلا فيه فيفعله الله به . ولهذا شبَّهه بالطفل مع الظئر فى غير الأمر والنهى .

وأما الأول : الذى هو فى مقام التقوى العامة فإن له شهوات للمحرمات ، وله التفات إلى الخلق ، وله رؤية نفسه ، فيحتاج إلى المجاهدة بالتقوى بأن يكف عن

---

(١) ز : بل للرب هو الفاعل . والمثبت من (ك) ، (ض) .
(٢) ز ، ك : وكلاهما .
(٣) ز : إذا .
(٤) لكن : ساقطة من (ز) .
(٥) أن : ساقطة من (ك) .
(٦) ض : بينا .
(٧) ز : مرادا .
(٨) ما : ساقطة من (ز) .
(٩) به : ساقطة من (ك) .
(١٠) ك : بالله تعالى .

المحرمات ، وعن تناول الشهوات بغير الأمر . فهذا يحتاج أن يميِّز بين ما يفعله وما لا يفعله ، وهو التقوى .

وصاحب الحقيقة : لم يبق له ما يفعله إلا ما يُؤمر به فقط ، فلا يفعل إلا ما أُمر به فى الشرع ، وما كان مباحا لم يفعل إلا ما أُمر به [باطنا] [١] .

ص ٤٠ وأما / الثالث : فقد تم شهوده فى أنه لا يفعل إلا الله وبالله ، فلا يفعل إلا ما أَمَرَ [الله] [٢] به لله ، ويشهد أن الله هو الذى فعل ذاك [٣] فى الحقيقة ، ولا تكون له همة [٤] أو إرادة أن يفعل لنفسه ولا لغير الله ، ولا يفعل بنفسه ولا بغير الله [٥] .

والثلاثة مشتركون فى الطريق ، فى أن كُلاً منهم لا يفعل إلا الطاعة ، لكن يتفاوتون بكمال المعرفة والشهادة ، وبصفاء النية والإرادة ، والله أعلم .

فإن قيل : كلام الشيخ كله يدور على أنه يتّبع الأمر مهما أمكن معرفته ظاهراً وباطنا ، وما ليس فيه أمر باطن ولا ظاهر [٦] يكون فيه مسلما لفعل الرب ، بحيث لا يكون له اختيار [٧] لا فى هذا ولا فى هذا ، بل إن عرف الأمر كان معه ، وإن لم يعرفه كان مع القدر ، فهو مع أمر (٨ الرب إن عَرَف ٨) ، وإلا فمع خلقه ،

---

(١) باطنا : ساقطة من (ز) ، (ض) .
(٢) الله : ليست فى (ز) ، (ك) .
(٣) ض : ذلك .
(٤) ك : ولا يكون همه ..
(٥) ض : الله تعالى .
(٦) ض : باطنا ولا ظاهرا .
(٧) ك : اعتبار .
(٨ – ٨) : مكانه بياض فى (ك) .

فإنه سبحانه له الخلق والأمر . وهذا يقتضى أن من الحوادث ما ليس فيه أمر ولا نهى [١] ، فلا يكون لله فيه حكم لا باستحباب ولا كراهة [٢] .

وقد صرح بذلك هو [٣] والشيخ حمّاد الدبّاس [٤] ، وأن السالك يصل إلى أمور لا يكون فيها حكم شرعى بأمر ولا نهى ، بل يقف العبد مع القدر .

وهذا الموضع هو الذى يكون السالك فيه / عندهم مع الحقيقة القدرية [٥] المحضة ، إذ ليس هنا حقيقة شرعية . ظ ٤٠

وهذا مما ينازعهم فيه أهل العلم بالشريعة ، ويقولون : [إن] [٦] الفعل إما أن يكون بالنسبة إلى الشرع وجوده راجحا على عدمه ، وهو الواجب والمستحب . وإما أن يكون عدمه راجحاً على وجوده ، وهو المحرَّم والمكروه . وإما أن يستوى

---

(١) ك : أمر ونهى .

(٢) ز : كراهية .

(٣) أى الجيلانى ، وهو الشيخ أبو محمد محيى الدين عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكى دوست الحسنى ، الجيلانى أو الكيلانى أو الجيلى ، شيخ الطريقة القادرية ، من كبار الزهاد والصوفية ، ولد فى جيلان (وراء طبرستان) سنة ٤٧١ ، وعاش فى بغداد وتصدر للتدريس والإفتاء بها ، وتوفى سنة ٥٦١ . له كتب منها « الغنية لطالب طريق الحق » ، « فتوح الغيب » وهى مطبوعة . انظر ترجمة الجيلى فى : شذرات الذهب ١٩٨/٤ - ٢٠٢ ، وذكر ابن العماد الحنبلى ٢٠٠/٤ أن ابن السمعانى قال عنه : « هو إمام الحنابلة وشيخهم فى عصره » ؛ الذيل لابن رجب ٢٩٠/١ - ٣٠١ ؛ الطبقات الكبرى للشعرانى ١٠٨/١ - ١١٤ ؛ فوات الوفيات لابن شاكر ٤/٢ - ٦ ؛ الأعلام ١٧١/٤ - ١٧٢ .

(٤) هو الشيخ أبو عبد الله حماد بن مسلم بن دده الدبّاس الرحبى الزاهد ، شيخ الشيخ عبد القادر الجيلانى ، نشأ ببغداد ، وكان له معمل للدبس ، وكان أميا لا يكتب ، ولكنه كان شيخا صوفيا له أتباع وأصحاب ، وكان ابن عقيل يحط عليه ويؤذيه . توفى فى رمضان سنة ٥٢٥ . انظر ترجمته فى : الطبقات الكبرى للشعرانى ١١٦/١ ؛ شذرات الذهب ٧٣/٤ - ٧٤ .

(٥) ك : الحقيقة والقدرة .

(٦) إن : زيادة فى (ك)

الأمران ، وهو المباح . وهذا [١] التقسيم بحسب الأمر المطلق .

ثم الفعل المعين الذى يُقال : هو مباح : إما أن تكون [٢] مصلحته راجحة للعبد ، لاستعانته به على طاعة [٣] ولحسن نيته ، فهذا يصير أيضا محبوبا راجح الوجود بهذا الاعتبار . وإما أن يكون مفوِّتاً للعبد ما هو أفضل له ، كالمباح الذى يشغله عن مستحب ، فهذا عدمه خير له .

والسالك المتقرِّب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض : لا يكون المباح المعين فى حقه مستوى الطرفين ، فإنه إذا لم يستعن به على طاعة [٤] ، كان تركه وفعل طاعة [٥] مكانه خيراً له ، وإنما قدر وجوده وعدمه سواء إذا كان مع عدمه يشتغل بمباح مثله .

فيقال : لا فرق بين هذا وهذا ، فهذا يصلح للأبرار أهل اليمين الذين يتقرَّبون إلى الله / بالفرائض : أداء [٦] الواجبات وترك المحرَّمات ، [٧ ويشتغلون مع ذلك ٧] بمباحات . فهؤلاء قد يكون المباح المعين يستوى وجوده وعدمه فى حقهم ، إذا كانوا عند عدمه يشتغلون بمباح آخر ، ولا سبيل إلى أن تترك النفس فعلا إن لم تشتغل بفعل آخر يضاد الأول ؛ إذ لا تكون معطَّلة عن جميع الحركات والسكنات .

ص ٤١

---

(١) ز ، ك : هذا .
(٢) ز : يكون .
(٣) ض : طاعته .
(٤) ض : طاعته .
(٥) ض : الطاعة .
(٦) ز : إذا ، وهو تحريف ؛ ض : كأداء . والمثبت من (ك) .
(٧ – ٧) : مكانه بياض فى (ك) .

ومن هنا [١] أنكر الكَعْبِىُّ [٢] المباح فى الشريعة ؛ لأن كل مباح فهو يشتغل به عن محرّم ، وترك المحرّم واجب ، ولا يمكنه تركه إلا أن يشتغل بضده ، وهذا المباح ضده ، والأمر بالشئ نهى عن ضده ، والنهى عنه أمر بضده المعين [٣] إن لم يكن له إلا ضد واحد ، وإلا فهو أمر بأحد أضداده ، فأى ضد تلبّس به كان واجبا من باب الواجب المخيّر .

وسؤال الكعبى هذا أشكل على كثير من النظّار . فمنهم من اعترف بالعجز عن جوابه : [كأبى الحسن] الآمدى [٤] ، وقوّاه طائفة ، بناء على أن النهى عن الشئ أمر بضده ، كأبى المعالى .

ومنهم من قال : هذا فيما كانت [٥] أضداده محصورة ، فأما ما ليست أضداده محصورة فلا يكون النهى عنه أمراً بأحدهما [٦] ، كما يفرّق بين الواجب المطلق والواجب المخير ، فيقال / فى المخير : هو أمر بأحد الثلاثة ، ويقال فى المطلق : هو أمر بالقدر المشترك ، وجدى [٧] أبو البركات [٨] يميل إلى هذا . ظ ٤١

(١) ض : ومن هذا .

(٢) أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبى البلخى صاحب « المقالات » ورأس فرقة الكعبية من فرق المعتزلة ، وقد توفى سنة ٣١٩ هـ وقيل سنة ٣١٧ . انظر عنه وعن مذهبه : وفيات الأعيان ٢٤٨/٢ - ٢٤٩ ؛ الفرق بين الفرق ص ١٠٨ - ١١٠ ؛ الملل والنحل ١١٦/١ - ١١٧ ؛ اللباب ٤٤/٣ ؛ تاريخ بغداد ٣٨٤/٩ ؛ الخطط للمقريزى ٣٤٨/٢ ؛ لسان الميزان ٢٥٥/٣ ؛ الأعلام ١٨٩/٤ .

(٣) المعين : ساقطة من (ض) .

(٤) ز : كالآمدى .

(٥) ض : فيما إذا كانت .

(٦) ز : بأحدها .

(٧) ض : وجدنا .

(٨) هو مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن محمد بن على بن تيمية الحرانى ، جد المؤلف . ولد بحران حوالى سنة ٥٩٠ وتوفى بها سنة ٦٥٢ . وكان من أئمة فقهاء الحنابلة . انظر ترجمته فى : الذيل لابن رجب ٢٤٩/٢ - ٢٥٤ ؛ فوات الوفيات ٥٧٠/١ ؛ شذرات الذهب ٢٥٧/٥ - ٢٥٩ ؛ النجوم الزاهرة ٣٣/٨ ؛ البداية والنهاية ١٨٥/١٣ ؛ الأعلام ١٢٩/٤ - ١٣٠ .

وقد ألزموا الكعبيّ إذا ترك الحرام بحرام آخر ، وهو قد يقول : عليه ترك المحرّمات كلها إلى ما ليس بمحرم ، بل إما مباح وإما مستحب ، وإما واجب .

وتحقيق الأمر أن قولنا [(١)] : الأمر بالشيء نهى عن ضده وأضداده ، والنهى عنه [(٢)] أمر بضده أو بأحد أضداده ، من جنس قولنا : [(٣] الأمر بالشيء أمر بلوازمه [٣)] ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، والنهى عن الشيء نهى عن ما لا يتم اجتنابه إلا باجتنابه ، فإن وجود المأمور [به] [(٤)] يستلزم [(٥)] وجود لوازمه وانتفاء أضداده ، بل وجود كل شيء هو كذلك يستلزم وجود لوازمه وانتفاء أضداده ، وعدم المنهى عنه [(٦)] ، بل وعدم كل شيء يستلزم عدم ملزوماته ، وإذا كان لا يعدم إلا بضد يخلفه [(٧)] كالأكوان [(٨)] ، فلابد عند عدمه من وجود بعض أضداده .

فهذا حق فى نفسه ، لكن هذه اللوازم جاءت من ضرورة الوجود ، وإن لم تكن [(٩)] مقصوده للأمر [(١٠)] . والفرق ثابت بين ما يؤمر به قصدا ، وبين ما يلزمه [(١١)] فى الوجود .

---

(١) ك : إن قلنا .
(٢) ك : والمنهى عنه .
(٣ - ٣) : مكانه بياض فى (ك) .
(٤) به : زيادة فى (ك) .
(٥) ز : مستلزم .
(٦) ض : النهى عنه .
(٧) ك ، ض : يخلقه .
(٨) ك ، ز : كالألوان .
(٩) ز ، ض : يكن . وفى (ك) : غير منقوطة .
(١٠) ض : الأمر .
(١١) ك ، ض : وما يلزمه .

فالأول هو الذى يُذم ويُعاقب / على تركه ، بخلاف الثانى . فإن من أُمر بالحج أو الجمعة وكان مكانه بعيدا ، فعليه أن يسعى من المكان البعيد ، والقريب يسعى من المكان القريب . فقطع تلك المسافات من لوازم المأمور به ، ومع هذا فإذا ترك هذان الجمعه والحج ، لم تكن عقوبة البعيد أعظم من عقوبة القريب ، بل ذاك [١] بالعكس أوْلى ، مع أن ثواب البعيد أعظم . فلو [٢] كانت اللوازم مقصوده للأمر لكان يُعاقب بتركها ، فكان تكون [٣] عقوبة البعيد أعظم ، وهذا باطل قطعا . ص ٤٢

وهكذا إذا فعل المأمور به فإنه لابد من ترك أضداده ، لكن ترك الأضداد هو من لوازم فعل المأمور به ، ليس مقصودا للأمر ، بحيث أنه إذا ترك المأمور به عوقب على تركه لا على فعل الأضداد التى اشتغل بها ، وكذلك المنهى عنه مقصود الناهى عدمه ، ليس مقصوده فعل شئ من أضداده ، وإذا تركه متلبّسا بضد له كان ذلك من ضرورة الترك .

وعلى هذا إذا [٤] ترك حراماً بحرامٍ آخر فإنه يعاقب على [٤] الثانى ، ولا يقال : فَعَلَ واجبا وهو ترك الأول ، لأن المقصود عدم الأول ، فالمباح الذى اشتغل به عن محرّم لم يؤمر به ولا بأمثاله [٥] / [كان] [٦] أمراً مقصوداً ؛ لكن نُهى عن الحرام ، ومن ضرورة ترك المنهى عنه الاشتغال بضد من أضداده ، فذاك يقع ظ ٤٢

---

(١) ض : ذلك .
(٢) ز : ولو .
(٣) ض : يكون .
(٤ - ٤) : مكانه بياض فى (ك) .
(٥) ض : امتثاله .
(٦) زدت « كان » ليستقيم الكلام .

لازما لترك المنهى عنه ، فليس هو الواجب المحدود بقولنا : « الواجب ما يُذم تاركه ، ويُعاقب تاركه » أو « يكون تركه سببا للذم والعقاب » .

فقولنا : « ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب » أو : « يجب التوصل إلى الواجب بما ليس بواجب » : يتضمن إيجاب [١] اللوازم . والفرق ثابت بين الواجب الأول والثانى ، فإن الأول يُذم تاركه ويعاقب ، والثانى واجب وقوعا ، أى لا يحصل الأول [٢] إلا به ، ويؤمر به أمراً بالوسائل ، ويُثاب عليه ، لكن العقوبة [٣] ليست على تركه .

ومن هذا الباب إذا اشتبهت المَيْتَة بالمذكّى [٤] ، فإن المحرّم الذى يعاقب على فعله أحدهما ، بحيث إذا [٥] أكلهما جميعا لم يعاقب عقوبة من أكل مَيْتَتين ، بل عقوبه من أكل مَيْتة واحده ، والأخرى وجب تركها وجوب الوسائل .

فقول من قال : كلاهما محرم ، صحيح بهذا الاعتبار . وقول من قال : المحرم فى نفس الأمر أحدهما ، صحيح أيضا بذلك الاعتبار . وهذا نظير قول من قال : يجب التوصل إلى الواجب / بما ليس بواجب . ص ٤٣

وإنكار أبى حامد [الغزالى] [٦] وأبى محمد [المقدسى] [٧] على من قال

---

(١) ك : إيجابه .
(٢) الأول : ساقطة من (ض) .
(٣) العقوبة : ساقطة من (ك) .
(٤) ك : اشتبه المذكى بالميتة .
(٥) ك : لو .
(٦) الغزالى : زيادة فى (ض) .
(٧) المقدسى : زيادة فى (ض) . وهو أبو محمد تقى الدين عبد الغنى بن عبد الواحد بن على بن سرور المقدسى الجماعيلى الدمشقى الحنبلى ، وسبقت ترجمته فى هذه المجموعة ، ص ١٠٠ .

هذا ، ومن قال : المحرَّم أحدهما ؛ لا يناسب طريقة الفقهاء ، وحاصله يرجع إلى نزاع لفظى . فإن الوجوب [١] والحرمة الثابتة لأحدهما ليست ثابتة للآخر ، بل هى [٢] نوعٌ آخر ، حتى لو اشتبهت مملوكته بأجنبية بالليل ووطئها [٣] يعتقد [٤] حل وطء إحداهما [٥] وتحريم وطء الأخرى ، كان ولده من مملوكته ثابتا نسبه بخلاف الأخرى ، ولو قدرنا [٥] أنه [٦] اشتبهت [٧] أخته [٨] [٩] بأجنبية وتزوج إحداهما فحُدَّ مثلا ، ثم تزوج الأخرى [٩] لم يحد حدين ، مع أنه لا حد فى ذلك لجواز أن تكون المنكوحة هى الأجنبية .

وبهذا تنحل شبهة الكعبى ، فإن المحرّم تركه مقصود ، وأما الأشتغال بضد من أضداده فهو وسيلة .

فإذا قيل : المباح واجب ، بمعنى وجوب الوسائل ، أى قد [١٠] يُتوسل به إلى فعل واجب وترك محرم [١١] ، فهذا حق .

ثم إن هذا يُعتبر فيه القصد ؛ فإن كان الإنسان يقصد أن يشتغل بالمباح ليترك [١٢] المحرم ، مثل من يشتغل بالنظر إلى إمرأته ووطئها ليدع بذلك النظر إلى

---

(١) ك : الواجب .

(٢) هى : ساقطة من (ض) .

(٣) كلمة « ووطئها » مكانها بياض فى (ك) .

(٤) ك : معتقدا .

(٥ – ٥) : ساقط من (ك) ومكانه بياض .

(٦) ض : أنها .

(٧) ك : لو اشتبهت .

(٨) أخته : ساقطة من (ض) .

(٩ – ٩) : ساقط من (ك) ومكانه بياض .

(١٠) قد : ساقطة من (ك) .

(١١) ز : إلى ترك محرم وفعل واجب .

(١٢) ز : لترك .

الأجنبية ووطئها ، أو يأكل طعاما حلالا ليشتغل به [١] عن الطعام الحرام ، فهذا يثاب على هذه النية والفعل .

ظ ٤٣ كما بيّن ذلك النبى ﷺ / بقوله : « وفى بضع أحدكم صدقه . قالوا : يا رسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويكون له أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام أما كان عليه وزر ؟ قالوا : بلى [٢] . قال : فلم تعْتدُّون بالحرام ولا تعتدُّون [٣] بالحلال [٤] ؟ » .

ومنه قول النبى ﷺ : « إن الله يحب أن تؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته » [رواه أحمد وابن خزيمة فى صحيحه] [٥] .

وقد يقال : المباح يصير واجبا بهذا الاعتبار ، وان تعين طريقا صار واجبا معينا ، وإلا كان واجبا مخيرا ، لكن مع هذا القصد ، وأما [٦] مع الذهول عن ذلك فلا يكون واجبا أصلا ، إلا وجوب الوسائل إلى الترك .

---

(١) ك : ليشغله .

(٢) عبارة « قالوا بلى » : ساقطة من (ض) .

(٣) ض : وزر فلم تحتسبون بالحرام ولا تحتسبون .

(٤) مضى هذا الحديث من قبل فى هذه الرسالة (ص : ٨١) .

(٥) ما بين المعقوفتين ساقط من (ز) . والحديث – مع اختلاف يسير فى الألفاظ – عن عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما فى المسند (ط . المعارف) ١٧٠/٨ وقال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله : « إسناده صحيح .... والحديث فى مجمع الزوائد ١٦٢/٣ وقال : رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح ، والبزار والطبرانى فى الأوسط ، وإسناده حسن » . وأورده الألبانى فى « صحيح الجامع الصغير » ٤٦/٢ (وقال السيوطى : « حم (أحمد) حب (ابن حبان فى صحيحه) ، هب (البيهقى فى شعب الإيمان) : عن ابن عمر » .

(٦) ض : أما .

وترك المحرم لا يشترط فيه القصد ، فكذلك ما يُتوسل به [١] إليه . وإذا قيل : هو مباح من جهة نفسه [٢] ، وأنه قد يجب وجوب المخيّرات [٣] من جهة الوسيلة لم يُمنع ذلك . فالنزاع فى هذا الباب نزاع لفظى اعتبارى ، وإلا فالمعانى الصحيحة لا ينازع فيها من فهمها .

والمقصود هنا أن الأبرار أصحاب اليمين قد يشتغلون عن مباح بمباح آخر [٤] ، فيكون كل من المباحين يستوى وجوده وعدمه فى حقهم ، أما السابقون المقرَّبون فهم إنما يستعملون المباحات إذا كانت طاعةً لحسن القصد فيها [٥] ، والاستعانة على طاعة / الله ، وحينئذ فمباحاتهم طاعات . ص ٤٤

وإذا كان كذلك لم تكن الأفعال فى حقهم إلا ما يترجح وجوده ، فيؤمرون به [٦] شرعا أمر [٧] استحباب ، أو ما يترجح عدمه فالأفضل لهم أن لا يفعلوه ، وإن لم يكن فيه إثم .

والشريعة قد بيَّنتْ [٨] أحكام الأفعال كلها . فهذا سؤال . وسؤال ثانٍ ، وهو أنه إذا قُدِّر أن من الأفعال [٩] ما ليس فيه أمر ولا نهى ، كما فى حق الأبرار ، فهذا الفعل لا يُحمد ولا يُذم ، ولا يُحب ولا يُبغض ، ولا يُنظر فيه إلى [١٠] وجود

---

(١) ك : ما توسل به .
(٢) نفسه : مكانها بياض فى (ك) .
(٣) وجوب المخيرات : مكانها بياض فى (ك) .
(٤) ض : بمباح عن مباح آخر .
(٥) ز : منها .
(٦) به : ساقطة من (ك) .
(٧) ك : شرعا إما أمر ؛ ز : شرعا أم . والمثبت من (ض) .
(٨) ك : تثبت .
(٩) ك : من أفعالهم .
(١٠) ض : إلا .

القدر وعدمه ، بل إن فعلوه لم يحمدوا ، وإن لم يفعلوه لم يحمدوا ، فلا يُجعل من ما يحمدون عليه أنهم يكونون (١) فى هذا الفعل كالميت بين يَدَىْ الغاسل ، مع كون هذا الفعل صدر باختيارهم وإرادتهم ، إذ الكلام فى ذلك .

وأما غير الأفعال الاختيارية ، وهو ما فُعل بالإنسان [بغير اختياره] (٢) ، كما يُحمل الإنسان وهو لا يستطيع الامتناع ، فهذا خارج عن التكليف ، مع أن العبد مأمور فى مثل هذا أن يحبه إن كان حسنةً ، ويبغضه إن كان سيئةً (٣) ، ويخلو عنهما إن لم يكن حسنة ولا سيئة ، فمن جعل الإنسان فيما يستعمله فيه القدر من الأفعال الاختيارية (٤ كالميت بين يدى الغاسل ، فقد رفع / الأمر والنهى عنه فى الأفعال الاختيارية ٤) ، وهذا باطل . ظ ٤٤

وسؤال ثالث ، وهو أن حقيقة هذا القول طى بساط الأمر والنهى عن العبد فى هذه الأحوال ، مع كون أفعاله اختيارية ، وهب أنه ليس له هوى ، فليس كل ما لا هوى فيه يسقط عنه فيه الأمر والنهى ، بل عليه أن يحب ما أحبه الله ورسوله ، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله .

قيل : هذه الأسوله أسولة (٥) صحيحة .

وفصل الخطاب أن السالك قد يخفى عليه الأمر والنهى ، بحيث لا يدرى هل ذلك الفعل مأمور به شرعا أو منهى عنه شرعا ، فيبقى (٦) هواه لئلا (٧) يكون

---

(١) ك : لأنهم لم يكونون ، وهو خطأ .
(٢) عبارة « بغير اختياره » : ساقطة من (ز) ، (ض) .
(٣) ز : شيّه ، وهو تحريف .
(٤ - ٤) : ساقط من (ك) .
(٥) ض : أسئلة .
(٦) ز : فبقى .
(٧) ز ، ك : لأن لا .

له هوى فيه ، ثم يسلّم فيه للقدر [١] ، وهو فعل الرب لعدم معرفته برضا [٢] الرب وأمره وحبه فى ذلك الفعل .

وهذا يعرض لكثير من أئمة العبّاد وأئمة العلماء ، فإنه قد تكون [٣] عندهم أفعال وأقوال لا يعرفون حكم الله الشرعى فيها ، بل قد تعارضت عندهم فيها الأدلة ، أو خفيت الأدلة بالكلية ، فيكونون معذورين لخفاء الشرع عليهم .

وحكم الشرع إنما يثبت فى حق العبد إذا تمكن من معرفته ، فأما [٤] ما لم يبلغه ولم يتمكن من معرفته فلا يُطالب به ، وإنما عليه أن يتّقى الله / ما استطاع . ص ٤٥
وهذا خطأ فى العلم ، وليس خطأ فى العمل ، وهو كالمجتهد المخطىء له أجر على قصده واجتهاده ، وخطأه مرفوع عنه .

فإن قيل : فإذا كان الأمر هكذا ، فالواجب على العبد أن يتوقف فى مثل هذه الحال ، إذا لم يتبين له أن ذلك الفعل مأمور به أو منهى عنه ، وهو لا (٥ يريد أن يفعل شيئا لا مدح فيه ولا ذم ، فيقف لا يستسلم للقدر ٥) ، ويصير محلا لما يستعمل فيه من الأفعال ، اللهم إلا إذا فعل غيره فعلا ، فهو لا يمدحه ولا يذمه ، ولا يرضاه ولا يسخطه ، إذا لم يتبين له حكمه .

فأما كونه هو من أفعاله الاختيارية يصير مستسلما لما يستعمله القدر فيه ، كالطفل مع الظئر ، والميت مع الغاسل ، فهذا ما لم يأمر الله به ولا رسوله ، بل هذا

---

(١) ز : ثم يسلم فيه ثم يسلم منه للقدر .
(٢) ز : برساء .
(٣) ض : يكون .
(٤) ض : وأما .
(٥ –٥) : ساقط من (ك) ومكانه بياض فيها .

محرّم ، وإن عُفِيَ عن صاحبه . وحَسْبُ صاحبه أن يُعفى عنه لاجتهاده وحسن قصده .

أما كونه يحمد على ذلك ، ويُجعل هذا أفضل المقامات ، فليس الأمر كذلك . وكونه مجردا عن هواه ليس مسوِّغاً له أن يستسلم لكل ما يُفعل به .

ثم يقال : الأمور مع هذا نوعان : أحدهما : أن يُفعل به بغير اختياره ، كما يحمل الإنسان ولا يمكنه الامتناع ، وكما تُضجع المرأة / قهرا وتوطأ ، فهذا لا إثم فيه باتفاق العلماء . وأما أن يُكره بالإكراه الشرعى حتى يفعل ، فهذا أيضا معفو [١] عنه فى الأفعال عند الجمهور ، وهو أصح الروايتين عن أحمد ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة النور : ٣٣] . ظ ٤٥

وأما إذا لم يكره الإكراه الشرعى ، فاستسلامه للفعل المطلق الذى لا يُعرف أخير هو أم شر ، ليس هو مأموراً به ، وإن جرى على يده خرق عادة أو لم يجر ، فليس هو مأموراً أن يفعل إلا ما هو خير عند الله ورسوله .

قيل : هذا السؤال صحيح ، وحقيقة الأمر أن السالكين إذا وصلوا [٢] إلى هذا المقام فبحسن [٣] قصدهم وتسليمهم [وخضوعهم] [٤] لربهم ، وطلبهم (٥ منه أن يختار لهم ما هو الأصلح ، إذا استعملوا فى أمر وهم ٥) لا يعرفون [٦] حكمه فى الشرع رجوا أن يكون خيرا ؛ لأن معرفتهم بحكمه قد تتعذر [٧] عليهم ،

---

(١) ز : معفوا ، وهو خطأ .

(٢) عبارة « إذا وصلوا » مكانها بياض فى (ك) .

(٣) ض : فيحسن .

(٤) وخضوعهم : زيادة فى (ض) .

(٥ –٥) : مكان هذه العبارات بياض فى (ك) .

(٦) ض : فى أمورهم لا يعرفون . والمثبت من (ز) .

(٧) ض : قد تعذرت .

والإنسان غير عالم فى كل حال بما هو الأصلح له فى دينه ، وبما هو رضا الله ورسوله [(١)] ، فيبقى حالهم [(٢)] حال المستخير لله فيما لم يعلم عاقبته إذا قال : « اللهم إنى استخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت / علاّم الغيوب . اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى فاقدره لى ، ويسره لى ، ثم بارك لى فيه . وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبه أمرى ، فاصرفه عنى ، واصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان ثم رضّنى به » [(٣)] .

ص ٤٦

فإذا استخار الله كان ما شرح له صدره ، وتيسر له [(٤)] من الأمور هو الذى اختاره الله له ، إذ لم يكن معه دليل شرعى على أن عين [(٥)] هذا الفعل هو مأمور به فى هذه الحال . فإن الأدلة الشرعية إنما تأمر بأمرٍ مطلق عام ، لا بعين [(٦)] كل فعل من كل فاعل ، إذ كان [(٧)] هذا ممتنعا ، وإن كان ذلك المعين يمكن إدراجه تحت بعض خطاب الشارع العام ، إذا [(٨)] كانت الأفراد المعينة داخلة تحت الأمر العام الكلى ، لكن لا يقدر كل أحد على استحضار هذا ، ولا على استحضار أنواع الخطاب .

---

(١) ض : بما هو أرضى لله ورسوله .

(٢) ك : حاله .

(٣) مضى هذا الحديث من قبل فى هذه المجموعة ، (ص : ٦٩)

(٤) له : ساقطة من (ك)

(٥) ك : غير .

(٦) ك : لا تعين .

(٧) ز : إذا كان .

(٨) ك : إذ .

ولهذا كان الفقهاء يعدلون إلى القياس عند خفاء ذلك عليهم . ثم القياس أيضا قد لا يحصل فى كل واقعة ، فقد يخفى على الأئمة المجتهدين ، (١ من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، دخول الواقعة المعينه تحت ١) / خطاب عام ، أو اعتبارها بنظير لها ، فلا يعرف لها أصل (٢ ولا نظير . هذا مع كثرة نظرهم فى خطاب الشارع ومعرفة معانيه ودلالته ٢) على الأحكام ، فكيف بمن [٣] لم يكن كذلك ؟

ظ ٤٦

ثم السالك ليس قصده معرفة الحلال من الحرام [٤] ، بل مقصوده أن هذا الفعل المعين خير من هذا ، وهذا خير من هذا ، وأيهما أحب إلى الله فى حقه فى تلك الحال .

وهذا باب واسع لا يحيط به إلا الله ، ولكل سالك حال تخصه قد يؤمر فيها بما يُنهى عنه غيره ، ويؤمر فى حال بما يُنهى عنه فى حال آخر [٥] .

فقالوا : نحن نفعل الخير بحسب الإمكان ، وهو فعل ما علمنا أنا أُمرنا به ، ونترك أصل الشر ، وهو هوى النفس ، ونلجأ إلى الله فيما سوى ذلك أن يوفقنا لما هو أحب إليه وأرضى له [٦] ؛ فما استعملنا فيه رجونا أن يكون من هذا الباب ، ثم إن أصبنا فلنا أجران ، وإلا فلنا أجر واحد ، وخطؤنا محطوط عنا ، فهذا هذا .

وحينئذ فمن قدَّر أنه عَلِمَ [٧] المشروع وفَعَلَه فهو أفضل من هذا ، ولكن

(١ - ١) : ساقط من (ك) .
(٢ - ٢) : هذه العبارات مكانها بياض فى (ك) .
(٣) ض : من .
(٤) ض : الحلال والحرام .
(٥) ض : فى أخرى .
(٦) ك ، ز : وأرضا له .
(٧) ك : أن علم .

كثير ممن يعلم المشروع لا يفعله ، ولا يقصد [١] أحب الأمور إلى الله ، وكثير منهم يفعله [بشوب] [٢] من الهوى ، فيبقى هذا يفعل [٣] / المشروع بهوى ، وهذا يترك [٤] ما لم يعلم أنه مشروع بلا هوى . فهذا نقص فى العلم ، وذاك نقص فى العمل ، إذ العمل بهوى النفس نقص فى العمل ، ولو كان المفعول واجبا .

ص ٤٧

فيقال : إن تاب صاحب الهوى من هواه كان أرفع بعلمه ، وإن لم يتب فله نصيب من عالم السوء .

ولهذا تشاجر رجلان من المتقدمين عام الحكمين فى مثل هذا . فقال أحدهما لصاحبه : إنما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث . وقال الآخر : أنت كالحمار يحمل أسفارا ؛ فهذا أحسن قصدا وأقوى علما .

ولهذا تجد أصحاب حسن القصد إنما يعيبون على هؤلاء اتّباع الهوى وحب الدنيا والرئاسة ، وأهل العلم يعيبون على أولئك نقص علمهم بالشرع ، وعدولهم عن الأمر والنهى ، فهذا هذا .

والله هو المسئول أن يهدينا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين [وحسن أولئك رفيقا] [٥] .

وقد قال بعض أهل الفقه والزهد : من الناس من سلك الشريعة ومنهم من سلك الحقيقة ، ولعله أراد هؤلاء وهؤلاء . فإن هؤلاء يرجحون بما ييسِّره [٦] الله ،

(١) ك : وهو يقصد .
(٢) مكان كلمة « بشوب » بياض فى (ز) .
(٣) ز ، ض : فعل .
(٤) ز ، ض : ترك .
(٥) ما بين المعقوفتين زيادة فى (ض) .
(٦) ز : يترجحون بما يسره .

ظ ٤٧ مع حسن القصد واتّباع الأمر والنهى المعلوم لهم ، مع / خفاء الأدلة الشرعية فى ذلك المتيسر لهم . وهؤلاء يرجحون بالأدلة الشرعية من الظواهر ، والأقيسة ، وأخبار الآحاد ، وأقوال العلماء ، مع خفاء الأمر المتيسر لهم .

وأيضا فهؤلاء قد يشهدون ما فى ذلك الفعل المقدور (١) من المصلحة والخير ، فيرجّحونه (٢) بحكم الإيمان ، وإن لم يعرفوا دليلا من النص على حسنه ، وأولئك إنما يرجّحون بالنصوص (٣) وما استنبط منها . فهؤلاء لهم القرآن ، وهؤلاء لهم الإيمان .

وسبب هذا أن كلا من الطائفتين خَفِىَ عليه ما مع الأخرى من الحق ، وكل من الطائفتين فى طريقها حق وباطل . فأما المدّعون للحقيقة بدون مراعاة الأمر والنهى الشرعيين ، فهم ضالون ، كالذين يعرفون الأمر والنهى ولا يفعلون إلا ما يهوونه (٤) من الكبائر ، فإنهم فساق . وهؤلاء وهؤلاء (٥) الذين قيل فيهم : « احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون » .

والحقيقة (٦) قد تكون قدرية ، (٧ وقد تكون ذوقية ، وقد تكون شرعية . ولفظ « الشرع » يتناول ٧) المبدَّل والمؤوَّل والمنزَّل (٨) .

---

(١) ض : المقدر .
(٢) ك : فيرجحون .
(٣) ض : من النصوص .
(٤) ز : يهووا .
(٥) وهؤلاء : ساقطة من (ض) .
(٦) والحقيقة : مكانها بياض فى (ك) .
(٧ – ٧) مكان هذه العبارات بياض فى (ك) .
(٨) ك ، ض : المنزل والمؤول والمبدل .

والمقصود هنا ذكر أهل الاستقامة من الطائفتين ، والكلام / على حال أهل العبادة والإرادة ، الذين خرجوا عن الهوى ، وهو الفرق الطبعى ، وقاموا بما علموه من الفرق الشرعى . وبقى قسم ثالث ليس لهم فيه فرق طبعى ولا عندهم فيه فرق شرعى ، فهو الذى جروا فيه مع الفعل والقدر . ص ٤٨

وأما من جرى مع الفرق الطبعى : إما عالما بأنه عاصٍ ، وهو العالم الفاجر ، أو محتجا بالقدر أو بذوقه ووجده معرضا عن الكتاب والسنة ، وهو العابد الجاهل – فهذا خارج عن الصراط المستقيم .

وهذا مما يبيّن [1] كمال حال الصحابة [2] ، وأنهم خير قرون هذه الأمة ، إذ كانوا فى خلافة النبوة يقومون بالفروق الشرعية فى جليل الأمور ودقيقها ، مع اتّساع الأمر . والواحد من المتأخرين قد يعجز عن معرفة الفروق الشرعية فيما يخصه ، كما أن الواحد من هؤلاء يتّبع هواه فى أمر قليل . فأولئك مع عظيم ما دخلوا فيه من الأمر والنهى ، لهم العلم الذى يميّزون به [3] بين الحسنات والسيئات ، ولهم القصد الذى يفعلون فيه الحسنات . والكثير من المتأخرين العالمين والعابدين يفوت أحدهم العلم فى كثير من الحسنات والسيئات ، حتى يظن السيئة [4] حسنة وبالعكس ، أو يفوته القصد فى كثير من / الأعمال ، حتى يتبع هواه فيما وضح له من الأمر والنهى . ظ ٤٨

فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم ، صراط الذين [5] أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

---

(١) ض : بين .
(٢) ض : الصحابة رضى الله عنهم .
(٣) به : ساقطة من (ك) .
(٤) ز : إليه ، وهو تحريف .
(٥) الذين : ساقطة من (ض) .

(* هذا لعمرى إذا كان عند العالم ما *) هو أمر الشارع ونهيه حقيقة ، وعند العابد حسن القصد الخالى عن الهوى حقيقة ، فأما من خلط الشرع المنزَّل بالمبدل (١) والمؤول ، وخلط القصد الحسن باتباع الهوى ، فهؤلاء وهؤلاء مخلِّطون فى علمهم وعملهم .

وتخليط هؤلاء فى العلم سوى تخليطهم وتخليط غيرهم فى القصد ، وتخليط هؤلاء فى القصد سوى تخليطهم وتخليط غيرهم فى العلم . فإنه من عمل بما علم ورَّثه الله علم ما لم يعلم ، وحسن القصد من أَعْوَن الأشياء على نيل العلم ودركه ، والعلم الشرعى من أعون الأشياء على حسن القصد والعمل الصالح ، فإن العلم قائد والعمل سائق والنفس حرون ، فإن ونى قائدها لم تستقم لسائقها ، وإن ونى سائقها لم تستقم لقائدها . فإذا ضعف العلم حار السالك ولم يدر أين يسلك ، فغايته أن يستطرح للقدر ، وإذا ترك العمل حاد (٢) / السالك عن الطريق فسلك غيره ، مع علمه أنه تركه ، فهذا حائر لا يدرى أين يسلك مع كثرة سيره ، وهذا حائد (٣) عن الطريق زائغ عنه مع علمه به . ص ٤٩

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [سورة الصف : ٥] هذا جاهل وهذا ظالم . [قال تعالى] (٤) : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [سورة الأحزاب : ٧٢] ، مع أن الجهل والظلم متقاربان (٥) ، لكن الجاهل لا يدرى أنه ظالم ،

(* - *) مكان الكلمات التى بين النجمتين بياض فى (ك) .

(١) ز : والمبدل .

(٢) ز : جاز ، ض : حار .

(٣) ز : جائز ؛ ض ، ك : حائر . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) قال تعالى : زيادة فى (ض) .

(٥) ك : متقارنان .

والظالم جَهِلَ الحقيقة المانعة له من العلم . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ [سورة النساء : ١٧] .

قال أبو العالية : سألت أصحاب محمد ﷺ فقالوا لى : كل من عصى الله فهو جاهل ، وكل من (١) تاب قبل الموت فقد تاب من قريب .

وقد روى الخلال عن أبى حيان التيمى قال : العلماء ثلاثة : فعالم بالله ليس عالما بأمر الله ، وعالم بأمر الله ليس عالما بالله ، وعالم بالله وبأمر الله .

فالعالم بالله الذى يخشاه ، والعالم بأمر الله الذى يعرف أمره ونهيه .

قلت : (* والخشية تمنع اتّباع الهوى . قال تعالى *) : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [سورة النازعات : ٤٠] .

والكمال / فى عدم الهوى وفى العلم ، [وذلك] (٢) هو لخاتم الرسل ﷺ (٣) الذى قال فيه : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى . وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [سورة النجم : ١ - ٤] ، فنفى عنه الضلال والغى ، ووصفه بأنه ما (٤) ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يُوحى ، فنفى الهوى وأثبت العلم الكامل ، وهو الوحى . فهذا كمال العلم ، وذاك كمال القصد ، ﷺ ، (٥ وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ٥) . ظ ٤٩

---

(١) ز : وأن من ...

(* - *) الكلمات بين النجمتين وكلمة وأمّا من الآية الكريمة مكانها بياض فى (ك) .

(٢) وذلك : زيادة فى (ك) .

(٣) ﷺ : زيادة فى (ز) .

(٤) ض : لا .

(٥ - ٥) : زيادة فى (ز) .

ووصف أعداءه بضد هذين ، فقال [تعالى] [١] : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ [سورة النجم : ٢٣] فالكمال المطلق للإنسان هو تكميل العبودية لله علما وقصدا .

قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ والإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [سورة الذاريات : ٥٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ ﴾ [سورة الجن : ١٩] [٢] .

وقال فيما حكاه عن إبليس : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة ص : ٨٢ ، ٨٣] ، وقال [٣] : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [سورة الحجر : ٤٢] ، وقال : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٢٤] وقال [تعالى] [٤] : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [سورة النحل : ٩٩ ، ١٠٠] وعبادته [تعالى هي] [٥] طاعة أمره ، وأمره لنا ما بلغه الرسول عنه ، فالكمال في كمال طاعة الله ورسوله باطنا وظاهرا ، ومن [٦] كان لم يعرف ما أمر الله به فترك هواه واستسلم للقدر ، أو اجتهد في الطاعة فأخطأ فعل المأمور به إلى ما اعتقده مأمورا به ، أو تعارضت عنده الأدلة فتوقف عمّا هو طاعة في نفس الأمر ، فهؤلاء

ص ٥٠

---

(١) تعالى : زيادة في (ض) .
(٢) في (ك) : .... يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا .
(٣) ض : قال تعالى ؛ ك : وقال تعالى .
(٤) تعالى : ساقطة من (ز) .
(٥) تعالى هي : زيادة في (ك) .
(٦) ومن : ساقطة من (ز) .

مطيعون لله يثابون (١) على ما أحسنوه من القصد لله (٢) ، واستفرغوه من وسعهم فى طاعة الله ، وما عجزوا عن علمه فأخطؤوه (٣ إلى غيره فمغفور لهم .

وهذا من أسباب ٣) فتن تقع بين الأمة ، فإن أقواما يقولون ويفعلون أمورا هم مجتهدون فيها ، وقد أخطأوا ، فتبلغ (٤) أقواما يظنون أنهم تعمدوا فيها الذنب ، أو يظنون أنهم لا يُعذرون بالخطأ ، وهم أيضا مجتهدون مخطئون ، فيكون هذا مجتهدا مخطئا فى فعله ، وهذا مجتهداً مخطئا فى إنكاره ، والكل مغفور لهم . وقد يكون أحدهما مذنبا ، كما قد يكونان جميعا مذنبَيْن : « وخير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة » (٥) .

والواحد / من هؤلاء قد يعطى تصرفا (٦) بالأمر والنهى ، فيولّى ويعزل ، ويعطى ويمنع ، فيظن الظان أن هذا كمال ، وإنما يكون كمالا إذا كان موافقا للأمر ، فيكون طاعة لله ، وإلا فهو من جنس المُلك ، وأفعال الملك إما ذنب (٧) ، وإما عفو ، وإما طاعة . ظ ٥٠

فالخلفاء الراشدون أفعالهم طاعة وعبادة ، وهم أتباع العبد الرسول ، ﷺ (٨) ، وهى طريق (٩) السابقين المقرّبين . وأما طريق (٩) الملوك العادلين ، فإما

---

(١) ض : مثابون .
(٢) لله : ليست فى (ك) .
(٣ - ٣) : مكان هذه الكلمات بياض فى (ك) .
(٤) ك : فبلغ .
(٥) هذا حديث سبق فى هذه الرسالة (ص : ١٢٩) .
(٦) ض : طرفا .
(٧) ز : إما ذنب وإما ذنب ، وهو تحريف .
(٨) ﷺ : زيادة فى (ز) .
(٩) ض : طريقة .

طاعة ، وإما عفو ، وهى طريقة الأنبياء الملوك ، وطريقة الأبرار أصحاب اليمين .

وأما طريقة الملوك الظالمين فتتضمن المعاصى . وهى طريقة الظالمين لأنفسهم . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ [سورة فاطر : ٣٢] ، فلا يخرج الواحد من المؤمنين عن أن يكون من أحد هذه الأصناف : إما ظالم لنفسه وإما مقتصد وإما سابق بالخيرات .

وخوارق العادات ، إما مكاشفة ، وهى من جنس العلم الخارق ، وإما تصرف وهى [١] من جنس القدرة الخارقة ، وأصحابها لا يخرجون / عن الأقسام الثلاثة [٢] . ص ٥١

فصل

وقد تفرّق الناس فى هذا المقام الذى هو غاية مطالب العباد ، فطائفة من الفلاسفة ونحوهم يظنون أن كمال النفس فى مجرد العلم ، ويجعلون العلم الذى به يكمل ما يعرفونه هم من علم ما بعد الطبيعة ، ويجعلون العبادات رياضة لأخلاق النفس حتى تستعد للعلم فتصير النفس عالما معقولا موازياً [٣] للعالم الموجود .

الفلاسفة ضالون كافرون من وجوه : الأول

وهؤلاء ضالون ، بل كافرون من وجوه : منها :

أنهم اعتقدوا الكمال فى مجرد العلم ، كما اعتقد جهم ، والصالحى [٤] ،

---

(١) ك : وهو .

(٢) عند هذا الموضع تنتهى نسخة (ض) = طبعة فتاوى الرياض ، وتبقى نسختا (ك) ، (ز) .

(٣) ك ، ز : موازنا ، وهو تحريف . والذى أثبته هو كلام الفلاسفة .

(٤) لعله : صالح بن عمرو الصالحى . ذكره الشهرستانى فى « الملل والنحل » وذكر الصالحية =

والأشعرى فى المشهور من قوله [١] ، وأكثر اتباعه : أن الإيمان مجرد العلم .

لكن المتفلسفة أسوأ حالا من الجهمية ، فإن الجهمية يجعلون الإيمان هو العلم بالله ، وأولئك يجعلون كمال النفس فى أن تعلم الوجود المطلق من حيث هو وجود ، والمطلق بشرط الإطلاق إنما يكون فى الأذهان لا فى الأعيان ، والمطلق لا بشرط لا يوجد أيضا فى الخارج إلا معينا ، وإن علموا الوجود الكلى المنقسم إلى واجب وممكن ، فليس لمعلوم علمهم وجود فى الخارج .

وهكذا من تصوف وتألَّه على طريقتهم / كابن عربى وابن سبيعن ونحوهما . ظ ٥١

وأيضا فإن الجهمية مقرُّون [٢] بالرسل وبما جاؤوا به من حيث الجملة ، مقرّون بأن الله خلق السمٰوات والأرض فى ستة أيام ، وغير ذلك مما جاءت به الرسل ، بخلاف المتفلسفة .

وبالجملة فكمال النفس ليس فى مجرد العلم ، بل لا بد [٣] مع العلم بالله من محبته وعبادته والإنابة إليه ، فهذا عمل النفس وإرادتها ، وذاك علمها ومعرفتها .

الوجه الثانى : أنهم ظنوا أن العلم الذى تكمل به النفس هو علمهم ، وكثير منه جهل لا علم . الثانى

= فقال : « أصحاب صالح بن عمرو الصالحى ومحمد بن شبيب وأبو شمر وغيلان بن حارث ومحمد بن التيمى ، كلهم جمعوا بين القدر والإرجاء » . وانظر كلام الأشعرى على أبى الحسين الصالحى ، ومذهبه فى الإرجاء فى « مقالات الإسلاميين » ١٩٨/١ . وذكره القاضى عبد الجبار ضمن طبقات المعتزلة فى كتابه « فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة » تحقيق فؤاد سيد ، ص ٢٨١ ، ط . تونس ، ١٣٩٣/١٩٧٤ .

(١) ك : قوليه .

(٢) ك : يقرون .

(٣) لابد : مكانها بياض فى (ك) .

الثالث

الثالث : أنهم لم يعرفوا العلم الإلهى الذى جاءت به الرسل ، وهو العلم الأعلى الذى تكمل به [١] النفس ، مع العمل بموجبه .

الرابع

الرابع : أنهم يرون [٢] أنه إذا حصل لهم ذاك العلم سقطت عنهم واجبات الشرع وأبيحت لهم محرماته [٣] ، وهذه طريقة الباطنية من الإسماعيلية وغيرهم ، مثل أبى يعقوب السجستانى صاحب « الأقاليد الملكوتية » [٤] وأمثاله ، وطريقة من وافقهم من ملاحدة الصوفية الذين يتأوّلون قوله : ﴿ واعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [سورة الحجر : ٩٩] إنك تعمل حتى يحصل لك العلم ، فإذا / حصل العلم سقط عنك العمل .

ص ٥٢

وقد قيل للجنيد : إن قوما يقولون : إنهم يصلون من طريق البر إلى أن تسقط عنهم الفرائض وتباح لهم المحارم ، أو نحو هذا الكلام . فقال : الذى يزنى ويسرق ويشرب الخمر أحسن حالا من هذا [٥] .

ومن هؤلاء من يكون طلبه للمكاشفة ونحوها من العلم أعظم من طلبه لما فرض الله عليه ، ويقول فى دعائه : اللهم إنى أسألك [٦] العصمة فى الحركات

---

(١) ك : به تكمل ...
(٢) ز : يريدون ، وهو تحريف .
(٣) ز : محرمات .
(٤) أبو يعقوب إسحاق بن أحمد السجستانى أو السجزى ، المعروف ببندانه ، من أشهر علماء الإسماعيلية وفلاسفتهم ، ومن كبار دعاتهم ، وكان اليد اليمنى لأبى عبد الله محمد بن أحمد النسفى داعية أهل ما وراء النهر . صنّف أبو يعقوب مصنفات كثيرة ، منها كتاب « أساس الدعوة » وكتاب « تأويل الشرائع » وله كتب مخطوطة فى مكتبة الدكتور محمد كامل حسين رحمه الله . وقد عاش أبو يعقوب فى بخارى ومات مقتولا سنة ٣٣١ . انظر : الفرق بين الفرق ، ص ١٧٠ ؛ طائفة الإسماعيلية ، ص ١٤٩ ، ١٨١ ؛ تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن ٥٧٥/٤ (الطبعة الأولى) .
(٥) ك : فقال : الزنا والسرقة وشرب الخمر خير من هذا .
(٦) ز : إنى أسلك ، وهو تحريف .

والسكنات ، والخطرات والإرادات والكلمات ، من الشكوك والظنون والأوهام الساترة للقلوب [١] عن مطالعة الغيوب .

وأصل المتفلسفة أن الفلسفه التى هى الكمال عندهم هى التشبه بالإله على قدر الطاقة ، وهم يقولون : إن حركات الأفلاك لأجل التشبّه بالأول .

وعلى هذا بنى أبو حامد كتابه فى « شرح الأسماء الحسنى » [٢] ، وتخلق العبد بأخلاق الله ، وأنكر ذلك عليه المازرى [٣] وغيره ، وقالوا : ليس لله خلق يتخلق به العبد .

وعدل أبو الحكم بن برجان [٤] عن لفظ [٥] التخلق إلى لفظ [٥] التعبد .

وعلى هذا الأصل الفلسفى بنى ابن عربى معنى ولى الله ، وأنه المتشبّه به [٦] المتخلّق بأخلاقه ، كما يفسر أبو حامد التقرب من الله بالتشبه به ، وابن عربى ونحوه يجعلون الولى أفضل من النبىّ بناءً على أصُولهم الفلسفيّة الاتحادية .

---

(١) ز : السائرة فى القلوب ، وهو تحريف .

(٢) وهو كتاب « المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى » لأبى حامد الغزالى ، طبع فى القاهرة بالمكتبة العلامية ، بغير تاريخ ، وطبع طبعات أخرى منها طبعة سنة ١٣٢٤ ، ومنه نسخ خطية كثيرة . انظر : مؤلفات الغزالى للدكتور عبد الرحمن بدوى ، ص ١٣٥ – ١٣٦ ، ط . القاهرة ، ١٩٦٠ .

(٣) أبو عبد الله محمد بن على بن عمر التميمى المازرى ، محدث وفقيه مالكى . ولد سنة ٤٥٣ وتوفى سنة ٥٣٦ له كتاب « الكشف والإنباء عن كتاب الإحياء » ذكره الذهبى فى « سير أعلام النبلاء » ونقل عنه ، وأورد ذلكَ الدكتور عبد الكريم العثمان رحمه الله فى كتاب « سيرة الغزالى » ط . دمشق ، بدون تاريخ (ص ٧٢ – ٧٣) . انظر ترجمة المازرى فى : وفيات الأعيان ٤١٣/١ ؛ شذرات الذهب ١١٤/٤ ؛ الأعلام ١٦٤/٧ .

(٤) هو أبو الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد اللخمى الإفريقى ثم الإشبيلى ، متصوف توفى سنة ٥٣٦ بمراكش . انظر ترجمته فى : شذرات الذهب ١١٣/٤ ؛ فوات الوفيات ٥٦٩/١ – ٥٧٠ ؛ لسان الميزان ١٣/٤ – ١٤ ؛ الأعلام ١٢٩/٤ .

(٥ – ٥) : ساقط من (ك) .

(٦) به : ساقطة من (ك) .

وطائفة أخرى عندهم أن الكمال فى القدرة والسلطان والتصرف فى الوجود ، بنفاذ الأمر والنهى ، إما بالملك والولاية الظاهرة ، وإما بالباطن ، وتكون عادتهم ومجاهدتهم كذلك .

وكثير من هؤلاء يدخل فى الشرك والسحر ، فيعبد الكواكب والأصنام لتعينه الشياطين على مقاصده ، وهؤلاء أضل وأجهل من الذين قبلهم .

وعامة من يعبد الله لطلب خوارق العادات يكون فيه نصيبٌ من هذا .

ولهَذا كان منهم من يموت فاسقا أو مسلوباً ، وكلهم ضلاَّل جهال .

وطائفة تجعل الكمال فى مجموع الأمرين ، فيدخلون فى أقوال وأعمال من الشرك والسحر ، ليستعينوا بالشياطين على ما يطلبونه من الإخبار بالأمور الغائبة ، وعلى ما ينفذ به تصرفهم فى العالم .

وأما الحق [١] المبين فهو أن كمال الإنسان فى أن يعبد الله علما وعملا ، كما أمره ربه . وهؤلاءِ هم عبادُ الله ، وهم المؤمنون والمسلمون ، وهم أولياءِ الله المتقون ، وحزب الله المفلحون ، / وجند الله الغالبون ، وهم أهل العلم النافع ، والعمل الصالح ، وهم الذين زكُّوا نفوسهم [٢] وكمَّلوها . كملوا القوَّة النظرية العلمية ، والقوة الإرادية العملية . ص ٥٣

كما قال تعالى : ﴿ واذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى الْأَيْدِى والْأَبْصَارِ ﴾ [سورة صٓ : ٤٥] . وقال تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [سورة النجم : ١ - ٤] .

---

(١) ك : والحق .
(٢) ك : أنفسهم .

النجم : ١ - ٤] . وقال تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ [سورة الفاتحة : ٦ ، ٧] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَىٰ ﴾ [سورة طه : ١٢٣] . وقال تعالى : ﴿ أُوْلَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٥] ، وقال تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [سورة فاطر : ١٠] ، وقال تعالى : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [سورة العصر : ٣] (١) .

هذا ما وجد فى الأصل .

وصلّى الله على محمد النبى وآله وسلم تسليما كثيراً .

كتبه محمد بن أحمد بن على الخطيب بقرية بييلا فى ثانى عشر جمادى الأول سنة أربع وسبعمائة .

---

(١) بعد هذه الآية فى (ك) : « والله سبحانه وتعالى أعلم . آخر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية قدّس الله روحه » .



الرسالة الثالثة

قاعدة في المحبة



ص ١٤٥

/ (فصل فى الحب والبغض)
لأبى العباس أحمد بن تيميّة

بسم الله الرحمن الرحيم ، على الله توكلى .

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، ونشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وحبيبه وخليله ، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

أما بعد ، فهذه قاعدة عظيمة فى المحبة وما يتعلق بها ، من جمع الإمام العلاَّمة ، شيخ الإسلام ، بركة الأنام ، بقية السلف الكرام ، أبى العباس أحمد ، بن الشيخ شهاب الدين عبد الحليم ، بن الشيخ مجد الدين أبى البركات عبد السلام ، ابن تيميّة ، رضى الله عنه وأرضاه .

الحب والإرادة أصل كل فعل وحركة فى العالم والبغض والكراهة أصل كل ترك فيه

قال رضى الله عنه : فصل فى الحب والبغض ، والمحمود من ذلك والمذموم ، وأصل كل فعل وحركة فى العالم من الحب والإرادة ، فهو أصل كل فعل ومبدؤه . كما أن البغض والكراهة مانع وصاد [(١)] لكل ما انعقد بسببه ومادته ، فهو أصل كل ترك ، إذا فُسِّر الترك بالأمر الوجودى [(٢)] ، كما يفسّره بذلك أكثر أهل النظر .

وأما إذا عُنى بالترك مجرد عدم الفعل ، فعدم الفعل تارة يكون لعدم مقتضيه من المحبة والإرادة ولوازمهما ، وقد يكون لوجود مانعه من البغض والكراهة وغيرهما .

---

(١) فى الأصل : وضاد .
(٢) فى الأصل : الوجود .

فأما وجود الفعل فلا يكون إلا عن محبة وإرادة ، حتى دفعه للأمور التى يكرهها ويبغضها ، هو لما فى ذلك من المحبوب أو اللذة يجدها بالدفع ، فيقال : شفى صدره وقلبه ، والشفاء والعافية بمحبوب .

والمحبة والإرادة تكون [١] إما بواسطة وإما بغير واسطة ، مثل فعله للأشياء التى يكرهها ، كشرب الدواء والمكروه ، وفعل الأشياء المخالفة لهواه وصبره ، ونحو ذلك .

فإن هذه الأمور ، وإن كانت مكروهة من بعض الوجوه ، فإنما يفعل أيضا لمحبة وإرادة ، وإن لم تكن المحبة لنفسها ، بل المحبة لملازمها ، فإنه يحب العافية والصحة المستلزمة لإرادة شرب الدواء ، ويحب رحمة الله ونجاته من عذابه المستلزم لإرادة ترك ما يهواه ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ [سورة النازعات : ٤٠] ، فلا يترك الحى ما / يحبه ويهواه إلا لما يحبه ويهواه ، لكن يترك أضعفهما محبة لأقواهما محبة ، كما يفعل ما يكرهه لما محبته أقوى من كراهة ذلك ، وكما يترك ما يحبه لما كراهته أقوى من محبة ذلك .

ظ ١٤٥

ولهذا كانت المحبة والإرادة أصلا للبغض والكراهة وعلة لها ، ولازما مستلزما [٢] لها من غير علة .

وفعل البغض فى العالم إنما هو لمنافاة المحبوب ، ولولا وجود المحبوب لم يكن البغض ، بخلاف الحب للشئ ، فإنه قد يكون لنفسه ، لا لأجل منافاته للبغض [٣] ، وبغض الإنسان وغضبه مما يضاد وجود محبوبه ، ومانع ومستلزم لا يكره عليه ، ونجد قوة البغض للنافى أشد وأحوط .

---

(١) فى الأصل : يكون .

(٢) كلمة « مستلزما » ليست واضحة فى الأصل المخطوط ، وكذا استظهرتها .

(٣) فى الأصل : للبغيض .

ولهذا كان رأس الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله ، وكان من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان .

فالمحبة والإرادة أصل فى وجود البغض والكراهة ، والأصل فى زوال البغيض المكروه ، فلا يوجد البغض إلا لمحبة ، ولا يزول البغيض إلا لمحبة .

فالمحبة أصل كل أمر موجود ، وأصل دفع كل ما يطلب الوجود ، ودفع ما يطلب الوجود أمر موجود ، لكنه مانع من وجود ضده ، فهو أصل كل موجود من بغيض ومانع ولوازمهما .

وهذا القدر الذى ذكرناه من [أن] (١) المحبة والإرادة أصل كل حركة فى العالم ، فقد بيّنّا فى القواعد وغيرها أن هذا يندرج فيه كل حركة وعمل . فإن ما فى الأجسام من حركة طبعية فإنما أصلها السكون ، فإنه إذا خرجت عن مستقرها (٢) كانت بطبعها تطلب مستقرها ، وما فيها (٣) من حركة قسرية فأصلها من القاسر القاهر ، فلم تبق حركة اختيارية إلا عن الإرادة .

والحركات : إما إرادية ، وإما طبعية ، وإما قسرية . لأن الفاعل المتحرك إن كان له شعور بها فهى الإرادية ، وإن لم يكن له شعور فإن كانت على وفق طبع المتحرك فهى الطبعية ، وإن كانت على خلاف ذلك فهى القسرية .

وبيّنّا أن ما فى السموٰات والأرض ، وما بينهما من حركة الأفلاك والشمس والقمر والنجوم ، وحركة الرياح والسحاب والمطر والنبات وغير ذلك ، فإنما هو بملائكة الله تعالى الموكّلة بالسموٰات والأرض ، الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون .

---

(١) زدت « أن » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : خرج عن مستقره .

(٣) فى الأصل : وما فيه .

ص ١٤٦ / كما قال تعالى : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً ﴾ [سورة النازعات : ٥] ، ﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً ﴾ [سورة الذاريات : ٤] ، وكما دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة ، وتوكُّلهم بأصناف المخلوقات .

ولفظ « المَلَك » يشعر بأنه رسول منفذ لأمر غيره ، فليس لهم من الأمر شىء ، بل كم من ملك فى السمٰوات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا . رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [سورة مريم : ٦٤ ، ٦٥] .

وإذا كان كذلك فجميع تلك المحبات والإرادات ، والأفعال والحركات ، هى عبادة لله رب الأرض والسمٰوات ، كما قد بيناه فى غير هذا الموضع .

المحبة التى أمر الله بها هى عبادته وحده لا شريك له

وإذا كان كذلك فأصل المحبة المحمودة التى أمر الله بها ، وخلق خلقه لأجلها ، هى ما فى عبادته وحده لا شريك له ، إذ العبادة متضمنة (١) لغاية الحب بغاية الذل .

والمحبة لما كانت جنسا لأنواع (٢) متفاوتة فى القدر والوصف كان أغلب ما يذكر منها فى حق الله ما يختص به ويليق به ، مثل العبادة والإنابة ونحوهما ؛ فإن العبادة لا تصلح إلا لله وحده ، وكذلك الإنابة .

وقد تُذكر المحبة المطلقة (٣) لكن تقع فيها الشركة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ

---

(١) فى الأصل : يتضمن .
(٢) فى الأصل : أنواع .
(٣) فى الأصل : المطلق .

النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلهِ [سورة البقرة : ١٦٥] .

ولهذا كان هذا الحب أعظم الأقسام المذمومة فى المحبة ، كما أن حب الله أعظم الأنواع المحمودة ، بل عبادة الله وحده لا شريك له هى أصل السعادة ورأسها ، التى لا ينجو أحد من العذاب إلا بها ، وعبادة إله آخر من دونه هو أصل الشقاء ورأسه ، الذى لا يبقى فى العذاب إلا أهله .

فأهل التوحيد الذين أحبوا الله وعبدوه وحده لا شريك له ، لا يبقى منهم فى العذاب أحد . والذين اتخذوا من دونه أندادا يحبونهم كحبه ، وعبدوا غيره ، هم أهل الشرك ، الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [سورة النساء : ٤٨] (١) .

وجماع القرآن هو الأمر بتلك المحبة ولوازمها ، والنهى عن هذه المحبات ولوازمها (٢) ، وضرب الأمثال والمقاييس للنوعين ، وذكر قصص أهل النوعين .

وأصل دعوة جميع المرسلين ، صلى (٣) الله عليهم وسلم ، قولهم : ﴿ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٩] ، وعلى ذلك قاتل من قاتل منهم المشركين ، كما قال خاتم الرسل ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » (٤) . / قال الله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ

ظ ١٤٦

---

(١) لفظ الجلالة غير موجود فى الآية فى الأصل المخطوط .

(٢) فى الأصل : وتلازمها .

(٣) فى الأصل : وصلى .

(٤) مضى الحديث من قبل ١٥/١ (ت ١) .

مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ [سورة الشورى : ١٣] .

ولهذا قال ﷺ فى الحديث المتفق عليه فى الصحيحين عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان » وفى رواية فى الصحيح : « لا يجد طعم الإيمان إلا من كان فيه ثلاث : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله ، كما يكره أن يلقى فى النار » (١) .

وفى الصحيح عن أنس أيضا عن النبى ﷺ قال : « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » (٢) .

وفى صحيح البخارى أن عمر قال : يا رسول الله : والله لأنت أحب إلىَّ من كل شىء إلا من نفسى ، فقال : « لا يا عمر ، حتى أكون أحب إليك من

---

(١) جاء الحديث بلفظ : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان .... » عن أنس بن مالك رضى الله عنه فى : البخارى ١/٨ (كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان) ، ١/٩ (كتاب الإيمان ، باب من كره أن يعود فى الكفر ....) ، ٩/٢٠ (كتاب الإكراه ، باب من اختار الضرب ....) ؛ مسلم ١/٦٦ (كتاب الإيمان ، باب بيان خصال ...) ؛ سنن ابن ماجة ٢/١٣٣٨ - ١٣٣٩ (كتاب الفتن ، باب الصبر على البلاء) .

وجاء الحديث بلفظ : « لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وحتى أن يقذف فى النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله ، وحتى يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما » عن أنس رضى الله عنه فى : البخارى ٨/١٤ (كتاب الأدب ، باب الحب فى الله) .

(٢) ورد الحديث عن أنس بن مالك رضى الله عنه فى : البخارى ١/٨ (كتاب الإيمان ، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان) ؛ مسلم ١/٦٧ (كتاب الإيمان ، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل ....) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣/١٧٧ ، ٢٠٧ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ ؛ سنن ابن ماجة ١/٢٦ (المقدمة ، باب فى الإيمان) .

نفسك » . قال : فوالذى بعثك بالحق لأنت أحب إلىّ من نفسى . قال : « الآن يا عمر » [١] .

ولهذا ورد فى فضل هذه الكلمة : « شهادة أن لا إله إلا الله » من الدلائل ما يضيق هذا الموضع عن ذكره ، وهى أفضل الكلام ، وما فيها من العلم والمحبة أفضل العلوم والمحبات ، كالحديث الذى فى السنن : « أفضل الذكر لا إله إلا الله » [٢] .

والآية المتضمنة لها أعظم آية فى القرآن ، كما فى صحيح مسلم أن النبى ﷺ قال لأُبَىّ بن كعب : « يا أبا المنذر : أتدرى أى آية فى كتاب الله أعظم ؟ قال : ﴿ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٥] قال : فضرب بيده صدرى ، وقال : لِيَهْنِكَ العلم أبا المنذر » [٣] .

وإذا كانت كل حركة فأصلها الحب والإرادة من محبوب مراد لنفسه [٤] ،

---

(١) الحديث عن عبد الله بن هشام رضى الله عنه فى : البخارى ١٢٩/٨ (كتاب الإيمان ، باب كيف كانت يمين النبى ﷺ) ولفظ الحديث : لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك .... الحديث .

(٢) الحديث عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى : سنن ابن ماجة ١٢٤٩/٢ (كتاب الأدب ، باب فضل الحامدين) ؛ سنن الترمذى ١٣٠/٥ (كتاب الدعوات ، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة) ونصه فيه : « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث موسى بن إبراهيم . وقد روى على بن المدينى وغير واحد عن موسى بن إبراهيم هذا الحديث » وذكر الألبانى الحديث فى « صحيح الجامع الصغير » ٣٦٢/١ وحسّنه .

(٣) الحديث بألفاظ مختلفة عن أُبَىّ بن كعب رضى الله عنه فى : مسلم ٥٥٦/١ (كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسى) ؛ وفى المسند عنه (ط . الحلبى) ١٤٢/٥ وعن صحابى لم يذكر اسمه ٥٨/٥ .

(٤) فى الأصل : بنفسه .

لا يُحب لغيره ، إذ لو كان كل شيء محبوبا لغيره لزم الدَّوْر أو التسلسل . والشيء قد يُحب من وجه دون وجه ، وليس شيء يحب لذاته من كل وجه إلا الله وحده ، ولا تصلح [١] الإلٰهية إلا له ، ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا .

والإلٰهية المذكورة فى كتاب الله هى العبادة والتألُّه ، ومن لوازم ذلك أن يكون هوالرب الخالق . وأما ما يظنه طوائف من أهل الكلام أن الألوهية هى نفس الربوبية ، وأن ما ذكر فى القرآن من نفى إلٰه آخر ، والأمثال المضروبة البيِّنة [٢] فالمقصود به نفى رب يشركه فى خلق العالم ، كما هو عادتهم فى كتب الكلام — / فهذا قصور وتقصير منهم فى فهم القرآن ، وما فيه من الحجج والأمثال أُتوا فيه من جهة أن مبلغ علمهم هو ما سلكوه من الطريقة الكلامية ، فاعتقدوا أن المقصودين واحد [٣] ، وليس كذلك ، بل القرآن ينفى أن يَعبد غير الله ، أو أن يتخذه إلٰها [٤] فيحبه ويخضع له محبة الإلٰه وخضوعه ، كما بيَّنت [٥] ذلك عامة آيات القرآن ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] . ولهذا قال الخليل : ﴿ لاَ أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٦] .

ص ١٤٧

ومن المعلوم أن كل حىّ فله إرادة وعمل بحسبه ، وكل متحرك فأصل حركته المحبة والإرادة ، ولا صلاح للموجودات [٦] إلا أن يكون كمال محبتها وحركتها لله تعالى ، كما لا وجود لها إلا أن يبدعها الله .

---

(١) فى الأصل : ولا يصلح .
(٢) البينة : الكلمة فى الأصل غير واضحة ، وكذا استظهرتها .
(٣) فى الأصل : واجلد ، وهو تحريف .
(٤) فى الأصل : أو أن يتخذه الله ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .
(٥) كلمة « بينت » غير واضحة فى الأصل ، وكذا استظهرتها .
(٦) فى الأصل : الموجودات .

ولهذا قال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٢] ، ولم يقل : لعدمتا ، إذ هو قادر على أن يبقيها على وجهة الفساد ، لكن لا يمكن أن تكون صالحة إلا أن يُعبد الله وحده لا شريك له ، فإن صلاح الحى إنما هو صلاح مقصوده ومراده ، وصلاح الأعمال والحركات بصلاح إرادتها ونياتها .

ولهذا كان من أجمع الكلام وأبلغه قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » [١] ، وهذا يعم كل عمل وكل نيّة .

فكل عمل فى العالم هو بحسب نية صاحبه ، وليس للعامل [٢] إلا ما نواه [٣] وقصده وأحبه وأراده بعمله ، ليس فى ذلك تخصيص ولا تقييد ، كما يظنه طوائف من الناس ، حيث يحسبون أن النية المراد به النية الشرعية المأمور بها ، فيحتاجون أن يحصروا [٤] الأعمال بالأعمال الشرعية ، فإن النية موجودة لكل متحرك ، كما قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « أصدق الأسماء الحارث وهمام » [٥] ، فالحارث هو العامل [٦] الكاسب ، والهمام هو القاصد المريد ، وكل إنسان متحرك بإرادته حارث همام .

---

(١) مضى الحديث فى هذه المجموعة (ص : ١٢٢) .

(٢) فى الأصل : وليس للعمل . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : إلا ما هو نواه .... ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : أن يحصوا . ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) جاء الحديث مطولا عن أبى وهب الجشمى رضى الله عنه فى : سنن أبى داود ٣٩٤/٤ (كتاب الأدب ، باب فى تغيير الأسماء) ونصه فيه : « تسمّوا بأسماء الأنبياء ، وأحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن ، وأصدقها حارث وهمام ، وأقبحها حرب ، ومرّة » والحديث عنه أيضا فى المسند ٣٤٥/٤ . وجاء حديث آخر نصه : « أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن » عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فى سنن أبى داود فى الموضع السابق وهو فى مسلم وسنن الترمذى وابن ماجة والنسائى والدارمى .

(٦) فى الأصل : العمل .

كما بينا أن المحبة والإرادة أصل كل عمل ، فكل عمل فى العالم فعن إرادة ومحبة صدر .

ولهذا كانت المحبة والإرادة منقسمة إلى محبوب لله وغير محبوب ، كما أن العمل والحركة منقسم (١) كذلك .

وإذا كان كذلك فالمحبة لها آثار وتوابع – سواء كانت صالحة محمودة نافعة / أو كانت غير ذلك – لها وجد وحلاوة وذوق ووصال وصدود ، ولها سرور وحزن وبكاء .

ظ ١٤٧

والمحبة المحمودة هى المحبة النافعة ، وهى التى تجلب لصاحبها ما ينفعه ، وهو السعادة . والضارة هى التى تجلب لصاحبها ما يضره ، وهو الشقاء .

ومعلوم أن الحى العالم لا يختار أن يحب ما يضره ، لكن [يكون] (٢) ذلك عن جهل وظلم ، فإن النفس قد تهوى ما يضرها ولا ينفعها ، وذلك ظلم منها لها ، وقد تكون جاهلة بحالها به ، بأن تهوى الشيء وتحبه – بلا علم منها بما فى محبته من المنفعة والمضرة – وتتبع هواها ، وهذا حال من اتبع هواه بغير علم .

وقد يكون عن اعتقاد فاسد ، وهو حال من اتّبع الظن وما تهوى نفسه ، وكل ذلك من أمور الجاهلية ، وإن كان كل من جهلها وظلمها لا يكاد يخلو عن شبهة يشتبه بها الحق ، وشهوه هى فى الأصل محمودة إذا وضعت فى محلها ، كحال الذى يحب لقاء قريبه (٣) ، فإن هذا محمود ، وهو (٤) أصل صلة الرحم التى هى شجنة من الرحمن .

---

(١) فى الأصل : كما هو العمل بالحركة منقسمة .
(٢) زدت « يكون » ليستقيم الكلام .
(٣) فى الأصل المصور كأنها : ربه ، ولعل الصواب ما أثبته .
(٤) فى الأصل : وهى .

لكن إذا اتبع هواه ، حتى خرج عن العدل بين ذوى القربى وغيرهم ، كان هذا ظلما ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾ [سورة النساء : ١٣٥] .

وكذلك الذى يحب الطعام والشراب والنساء فإن هذا محمود ، وبه يصلح حال بنى آدم ، ولولا ذلك لما استقامت نفس الأنساب ، ولا وُجدت الذرية ، ولكن يجب العدل والقصد فى ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا ﴾ [سورة الأعراف : ٣١] ، وكما قال تعالى : ﴿ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ٦ ، ٧] .

فإذا تجاوز حد العدل ، وهو المشروع ، صار ظالما [١] عاديا ، بحسب ظلمه وعدوانه .

وقد ذكرنا / فى مواضع [أن] [٢] المشروع ، والنافع ، والصالح ، والعدل ، والحق ، والحسن : أسماء متكافئة ، مسمَّاها واحد بالذات ، وإن تنوعت صفاته ، بمنزله أسماء الله الحسنى ، فأسماؤه تعالى ، وأسماء كتابه ، ودينه ، ونبيه ، مسمَّى كل صنف من ذلك واحد وإن تنوعت صفاته . فكل عمل صالح هو نافع لصاحبه وبالعكس ، وكل نافع صالح فهو مشروع وبالعكس ، وكل ما كان صالحا مشروعا فهو حق وعدل وبالعكس .

ص ١٤٨

(١) فى الأصل : ضالما .

(٢) زدت « أن » ليستقيم الكلام .

ولكن الناس قد يدركون أحد النعتين فيستدلون به على وجود الآخر [(١)] ، مثل أن يعلم أن الله أمر بهذا الفعل وشرعه ، فيعلم من هذا وجوب [(٢)] كونه طاعة لله ورسوله ، وذلك الفعل بعينه يجب أن يكون عملا صالحا ، وهو النافع ، وأن يكون حقًّا وعدلا ، وهذا استدلال بالنص . وقد يعلم كون الشىء صالحا أو عدلا أو حسنا ، ثم يستدل بذلك على كونه مشروعاً ، وهو الاستدلال بالاستصلاح والاستحسان والقياس على كونه مشروعا .

وهذه الطريقة فيها خطر عظيم ، والغلط فيها كثير ، لخفاء صفات الأعمال وأحوالها عنها ، وأن العالم بذلك ، كما ينبغى ، ليس هو إلا رسول الله ﷺ .

فالاستدلال بالمصالح ، التى قد يقال لها المصالح المرسلة [(٣)] ، هو الذى يرى الشىء مصلحة وليس فى الشرع ما ينفيه ، فيستدل بالمصلحة على أنه من الشريعة .

والاستحسان : أن يرى الشىء حسنا فيستدل بحسنه على أنه من الشرع .

والعدل : أن يرى للشىء نظيراً وشبيهاً [(٤)] ، فيستدل على حكمه بحكم نظيره وشبيهه ، وليس هذا موضع الكلام فى ذلك .

لكن أعلم الناس من كان رأيه واستصلاحه واستحسانه وقياسه موافقا للنصوص ، كما قال مجاهد : أفضل العبادة الرأى الحسن ، وهو اتباع السنة . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ﴾ [سورة سبأ : ٦] .

---

(١) فى الأصل كأن العبارة : على الذات ووجود الآخر . ورأيت أن ما أثبته يستقيم به الكلام .

(٢) فى الأصل : وجب .

(٣) فى الأصل : أراد الناسخ أن يكتب « المشتركة » ثم عدل عن ذلك وكتب فوقها « المرسلة » .

(٤) فى الأصل : نظير وشبيه ، وهو خطأ .

وهذا كان السلف يسمون أهل الآراء المخالفة للسنة / والشريعة فى مسائل ظ ١٤٨ الاعتقاد الخبرية ، ومسائل الأحكام العملية : أهل الأهواء [١] ، لأن الرأى المخالف للسنة جهل لا علم ؛ فصاحبه ممن اتّبع هواه بغير علم .

ولهذا يذكر الله فى القرآن من يتبع هواه بغير علم ، ويذم من يتبع هواه [٢] بغير هدى من الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ ﴾ [سورة القصص : ٥٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ١١٩] .

وكل من اتبع هواه [اتبعه] [٣] بغير علم ، إذ لا علم بذلك إلا بهدى الله ، الذى بعث الله به رسله ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [سورة طه : ١٢٣ ، ١٢٤] ولهذا ذم الله الهوى فى مواضع من كتابه .

واتّباع الهوى يكون فى الحب والبغض ، كقوله تعالى : ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [سورة صٓ : ٢٦] ، فهنا يكون اتّباع الهوى هو ما يخالف الحق فى الحكم . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللهُ

---

(١) فى الأصل : .... العملية يسمونها أهل الأهواء .

(٢) فى الأصل : وذم لمن يتبع هواه ... إلخ . وأرجو أن يكون ما أثبته هو الصواب .

(٣) زدت كلمة « اتبعه » لتستقيم العبارة .

أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أن تَعْدِلُوا وَإن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [سورة النساء : ١٣٥] . فهنا يكون اتباع الهوى فيما يُخالف القسط من الشهادة وغيرها . والحق هو العدل ، واتّباع الهوى فى خلاف ذلك هو من الظلم .

وقد نهى رسول الله ﷺ عن اتباع أهواء الخلق . وقال تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِىٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ [سورة البقرة : ١٢٠] ، فنهاه عن اتّباع أهواء الذين أوتوا الكتاب بعد ما جاءه من العلم .

ص ١٤٩ وكذلك / قال تعالى فى الآية الأخرى [(١)] : ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ [سورة البقرة : ١٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُم وَاحْذَرْهُم أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِم ﴾ [سورة المائدة : ٤٩] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُوا فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٠] .

فقد نهاه عن اتّباع أهواء المشركين واتباع أهواء أهل الكتاب ، وحذره أن يفتنوه عمَّا أنزل الله إليه من الحق ، وذلك يتضمن النهى عن اتّباع أهواء أحد فى خلاف شريعته وسنته ، وكذا [(٢)] أهل الأهواء من هذه الأمة .

---

(١) فى الأصل : أخرى .

(٢) فى الأصل : وهو ، وفوقها كتب : كذا . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

وقد بيّن ذلك فى قوله تعالى : ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون . إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين ﴾ [سورة الجاثية : ١٩] . فقد أمره فى هذه الآية باتّباع الشريعة التى جعله عليها ، ونهاه عن اتّباع ما يخالفها ، وهى أهواء الذين لا يعلمون .

ولهذا كان كل من خرج عن الشريعة والسنة من أهل [(١)] الأهواء ، كما سمّاهم السلف .

وقال تعالى : ﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ﴾ [سورة المؤمنون : ٧١] .

وقال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ﴾ [سورة المائدة : ٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم ﴾ [سورة الأنعام : ١١٩] .

وقال تعالى : / ﴿ قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى من قبل ﴾ إلى قوله : ﴿ فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ [سورة القصص : ٤٨ – ٥٠] . ظ ١٤٩

---

(١) فى الأصل : .... والسنة كان من أهل ....

وقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تقْواهُمْ ﴾ [سورة محمد : ١٦ ، ١٧] .

فذكر الذين أوتوا العلم ، وهم الذين يعلمون أن ما أُنزل إليه [1] من ربه الحق ، ويفقهون ما جاء به ، وذكر المطبوع على قلوبهم فلا يفقهون إلا قليلا ، الذين اتبعوا أهواءهم : يسألونهم [2] ماذا قال الرسول آنفا ، وهذه حال من لم يفقه الكتاب والسنة ، بل يستشكل ذلك فلا يفقهه ، أو قرأه متعارضا متناقضا ، وهى صفة المنافقين .

ثم ذكر صفة المؤمنين فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ ﴾ [سورة محمد : ١٧] زيادة الهدى ، وهو ضد الطبع على قلوب أولئك ، وآتاهم تقواهم ، وهو ضد اتّباع أولئك الأهواء .

فصاحب التقوى ضد صاحب الأهواء ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [سورة النازعات : ٤٠] ، وقال تعالى : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَروا فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ [سورة الفتح : ٢٦] .

ولما كانت كل حركة وعمل فى العالم فأصلها المحبة والإرادة ، وكل محبة وإرادة لا يكون أصلها محبة الله وإرادة وجهه فهى باطلة فاسدة ، كان كل عمل

---

(١) أى إلى النبى ﷺ .

(٢) فى الأصل : يسلونهم .

لا يُراد به وجهه باطلا ، فأعمال الثقلين - الجن والإنس - منقسمة : منهم من يعبد الله ومنهم [من] [١] لا يعبده ، بل قد يجعل معه إلّها آخر . وأما الملائكة فهم عابدون لله .

وجميع الحركات الخارجة عن مقدور بنى آدم والجن والبهائم فهى من عمل الملائكة ، وتحريكها لما [٢] فى السماء والأرض وما بينهما ، / فجميع تلك الحركات والأعمال عبادات لله متضمنة لمحبته وإرادته وقصده ، وجميع المخلوقات عابدة لخالقها إلا ما كان من مردة الثقلين ، وليست عبادتها إياه قبولها لتدبيره [٣] وتصريفه وخلقه ، فإن هذا عام لجميع المخلوقات ، حتى كفّار بنى آدم ، فلا يخرج أحد عن مشيئته وتدبيره ، وذلك بكلمات الله التى كان النبى ﷺ يستعيذ بها ، فيقول : « أعوذ بكلمات الله التامات ، التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر » [٤] ، وهذا من عموم ربوبيته وملكه .

ص ١٥٠

وهذا الوجه هو الذى أدركه كثير من أهل النظر والكلام ، حتى فسَّروا ما فى القرآن والحديث من عبادة الأشياء وسجودها وتسبيحها بذلك ، وهم غالطون فى [٥] هذا التخصيص شرعا وعقلا أيضا .

فإن المعقول الذى لهم يعرِّفهم أن كل شىء وكل متحرك ، وإن كان له مبدأ ، فلابد له من غاية ومنتهى - كما يقولون : له علتان : فاعلية وغائية . والذى

---

(١) زدت « من » ليستقيم الكلام .
(٢) فى الأصل : مما .
(٣) فى الأصل : التدبير .
(٤) مضى الحديث فى المجموعة الأولى ص : ١٠ (ت ١) وأوردته كاملا هناك فارجع إليه .
(٥) فى الأصل : وفى .

ذكروه إنما هو من جهة العلة الفاعلية ، وبعض [١] المخلوقين كذلك يجعلونه [من جهة] العلة الغائية [٢] ، وهذا غلط .

فلا يصلح أن يكون شيء من المخلوقات علة فاعلية ولا غائية ، إذ لا يستقل مخلوق بأن يكون علة تامة قط ، ولهذا لم يصدر عن مخلوق واحد شيء قط ، ولا يصدر شيء فى الآثار إلا عن اثنين من المخلوقات ، كما قد بينا هذا فى غير هذا الموضع .

وكذلك لا يصلح شيء من المخلوقات أن يكون علة غائية تامة ، إذ ليس فى شيء من المخلوقات كمال مقصود حتى من الأحياء [٣] . فالمخلوقات بأسرها يجتمع [٤] فيها هذان [٥] النقصان : أحدهما : أنه لا يصلح شيء منها أن تكون علة تامة ؛ لا فاعلية ولا غائية . والثانى : أن ما كان فيها علة فله علة ، سواء كان علة فاعلية أو غائية .

فالله سبحانه رب كل شيء ومليكه ، وهو رب العالمين ، لا رب لشيء من الأشياء إلا هو ، وهو إله كل شيء ، وهو فى السماء / إله ، وفى الأرض إله ، وهو الله فى السموات وفى الأرض ، لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، وما من إله إلا الله ، سبحانه وتعالى عمّا يقول الظالمون علوا كبيرا . ظ ١٥٠

فعبادة المخلوقات وتسبيحها هو من جهة إلاهيته سبحانه وتعالى ، وهو الغاية المقصودة منها ولها .

---

(١) فى الأصل : بعض .
(٢) فى الأصل : يجعلون العلة الغائية ، ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .
(٣) فى الأصل : من الأحياء مراد .
(٤) فى الأصل : يجمع .
(٥) فى الأصل : هذا .

وأما فى الشرع فإن الله فصل بين هذا وبين هذا ، فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَٰوٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [سورة الحج : ١٨] (١) .

فهذا السجود الذى فصل بين كثير من الناس الذى يفعلونه ، وكثير من الناس [الذين لا يفعلونه طوعا] (٢) ، وهم الذين حق عليهم (٣) العذاب ، ليس هو ما يشترك فيه جميع الناس من خلق الله وربوبية الله تعالى إياهم وتدبيرهم .

وكذلك فصل بين الصنفين فى قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَٰوٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُون ﴾ [سورة آل عمران : ٨٣] .

وكذلك فى قوله : ﴿ وَللهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَٰوٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلاَلُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ [سورة الرعد : ١٥] .

وهو سبحانه ذكر فى الآية الأخرى (٤) سجود المخلوقات إلا الكثير من الناس ، لأنه ذكر الطوع فقط ، كما ذكر فى التى قبلها أديان الناس فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [سورة الحج : ١٧] ، فتضمنت هذه الآية حال المخلوقات إلا الجن ، فإنهم لم يُذكروا باللفظ الخاص ،

---

(١) سقطت فى الأصل بعض ألفاظ الآية الكريمة .

(٢) زدت عبارة « الذين لا يفعلونه طوعا » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : عليه .

(٤) أى آية ١٨ من سورة الحج التى ذكرها ابن تيمية قبل سطور قليلة .

لكنهم يندرجون فى الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين ، فإنهم كما قالوا : ﴿ مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴾ [سورة الجن : ١١] .

وقد ذكر طائفة من أهل العربية أنهم يدخلون فى لفظ الناس أيضا .

ص ١٥١ / وقال سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا للهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ . وَللهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [سورة النحل : ٤٨ - ٥٠] .

وفى الصحيحين حديث أبى ذر فى سجود الشمس تحت العرش إذا غابت [١] .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [سورة النور : ٤١] .

وقال تعالى : ﴿ سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [سورة الحديد : ١] ، ﴿ سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّموٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [سورة الحشر : ١] ، ﴿ سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ

---

(١) ذكرت فى المجموعة الأولى ٣٦/١ الحديث الذى يشمل هذا المعنى وهو فى : البخارى ١٢٥/٩ (كتاب التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء) ؛ مسلم ١٣٨/١ (كتاب الأيمان ، باب بيان الزمن الذى لا يقبل فيه الإيمان) ولفظ الحديث فى البخارى هو : « عن أبى ذر قال : دخلت المسجد ورسول الله ﷺ جالس ، فلما غربت الشمس قال : يا أبا ذر هل تدرى أين تذهب هذه ؟ قال : قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها تذهب تستأذن فى السجود فيؤذن لها ، وكأنها قد قيل لها ارجعى من حيث جئت فتطلع من مغربها . ثم قرأ : (ذَلِكَ مُسْتَقَرٌّ لَهَا) فى قراءة عبد الله » . وقد أورد ابن تيمية الحديث فى الموضع المشار إليه مع اختلاف فى الألفاظ . وانظر الدر المنثور ٢٦٣/٥ .

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [سورة الصف : ١] ، ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [سورة الجمعة : ١] ، ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة التغابن : ١] ، ﴿ وَإِن مِّنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [سورة الإسراء : ٤٤] .

قال تعالى : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ هُمْ يَسْتَحْسِرُونَ . يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ١٩ ، ٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٠٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ . فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ ﴾ [سورة فصلت : ٣٧ ، ٣٨] .

وقال تعالى : ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً ﴾ [سورة النساء : ١٧٢] ، ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُم فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ [سورة النساء : ١٧٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَداً . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً . تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَداً . وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً . إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

ظ ١٥١

إلاَّ آتِى الرَّحْمَٰنِ عَبْداً ۞ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۞ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [سورة مريم : ٨٨ – ٩٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۞ لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۞ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَٰهٌ مِن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٦ – ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالِ ۞ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِى اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ [سورة الرعد : ١٢ ، ١٣] .

وقالت الملائكة : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٣٠] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ۞ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [سورة ص : ١٨ ، ١٩] .

أهل الطبع المتفلسفة لا يشهدون الحكمة الغائية من المخلوقات

فأما كثير من الناس ، وأهل الطبع المتفلسفة وغيرهم ، فيعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، ويأخذون [١] بظاهر من القول ؛ يرون ظاهر الحركات والأعمال التى للموجودات ، ويرون بعض أسبابها القريبة ، وبعض حكمها وغاياتها القريبة : أن ذلك هو العلة لها : فاعلا وغاية ، كما يذكرونه فى تشريح الإنسان وأعضائه وحركاته

---

(١) فى الأصل : ويشترون ، ولعل الصواب ما أثبته .

الباطنة والظاهرة ، وما يذكرونه من القوى التى فى الأجسام ، التى هى تكون بها الحركة ، وما يذكرونه من كل شىء .

ومن ذلك ذكرهم [١] الطبيعة التى فى الإنسان ، والقوة الجاذبة ، والهاضمة الغاذية ، والدافعة ، والمولِّدة وغير ذلك ، وأن الرئة تُرَوِّح على القلب لفرط حرارته ، وأن الدماغ أبرد من القلب [٢] ، إلى غير ذلك من الأسباب / والحكم التى فيها من شهود ما فى مخلوقات الله من الأسباب والحكم ما هو عبرة لأولى الأبصار .

ص ١٥٢

لكن يقع الغلط من إضافة هذه الآثار العظيمة إلى مجرد قوة فى جسم ، ولا يشهدون الحكمة الغائية من هذه المخلوقات ، وأن ذلك هو عبادة ربها سبحانه وتعالى .

أهل الكلام ينكرون طبائع الموجودات وما فيها من القوى والأسباب

وقد يعارضهم [٣] كلهم طوائف من أهل الكلام ، فينكرون طبائع [٤] الموجودات وما فيها من القوى والأسباب ، ويدفعون ما أرى الله عباده من آياته فى الآفاق وفى أنفسهم ، مما شهد به فى كتابه من أنه خلق هذا بهذا ، كقوله ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٧] ، وقوله : ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [سورة الجاثية : ٥] .

وكلا الطائفتين قد لا يعلمون ما فيها من الحكمة التى هى عبادة ربها ، وهذا هو المقصود الذى بعث الله به الرسل ، وأنزل به الكتب ، بل إنما يتنازعون فى

---

(١) فى الأصل : وذكرهم ، وهو تحريف .

(٢) بعد كلمة « القلب » توجد عبارة غير واضحة فى الأصل كأنها : « لكن والحركات عليه تعديلا له ولواجه » والكلام يستقيم بدونها .

(٣) فى الأصل : يعاوطهم ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : طباع .

فاعل هذه الأمور ، وما يتعلق بتوحيد الربوبية ، كما قدَّمناه . وأما شهادة غاية هذه الأمور ، وما يتعلق بتوحيد الإلٰهية ، فقد لا يهتدون له . ولهذا كان فى طرقهم من الضلالات والجهالات ما هو مخالف لصحيح المنقول وصريح المعقول .

لكن أهل العلم فى إضافة جميع الحوادث إلى خلق الله ومشيئته وربوبيته أصح عقلا ودينا ، ومن أدخل فى ذلك كل شىء ، حتى أفعال الحيوان ، فهو المصيب الموافق للسنة والعقل ، وهم متكلمة أهل الإثبات الذين يقرّرون أن الله خالق كل شىء وربّه ومليكه .

بخلاف القدرية الذين أخرجوا عن ذلك أفعال الحيوان ، وبخلاف أهل الطبع والفلسفة الذين يخرجون عن ذلك عامة الكائنات من العلل المولّدات ، وكلاهما باطل ، كما بُيِّن فى غير هذا الموضع .

ولهذا تجد هؤلاء إذا تكلموا فى الحركات التى بين السماء والأرض ، مثل حركة الرياح والسحاب والمطر وحدوث المطر ، من الهواء [1] الذى بين السماء والأرض تارة ، / ومن البخار المتصاعد من الأرض تارة ، كما ذكر ذلك أيضا غير واحد من السلف ، وهو حق مشهود بالأبصار ، كما يُخلق الولد فى بطن أمه من المنىّ ، وكما يُخلق الشجر من الحب والنوى ، فشهدوا بعض الأسباب المرئية ، وجهلوا أكثر الأسباب ، وأعرضوا عن الخالق المسبب لذلك كله ، وعما جاء فى ذلك من عبادته وتسبيحه والسجود له ، الذى هو غاية حكمته .

ظ ١٥٢

فإن خلق الله سبحانه للسحاب بما فيه من المطر من هذا البحر وبخار الأرض ، كخلقه للحيوان والنبات والمعدن من هذه الأمور .

---

(١) فى الأصل : الهوى .

ومعلوم أن المنىّ جسم صغير مشابه لهذا الذى فى الحيوان من الأعضاء المكسوَّة والمتنوعة فى أقدارها وصفاتها وحكمها وغاياتها ، هل يقول عاقل : إن هذا مضافٌ إلى عرض وصفة ؟ حالٌّ فى جسم صغير ؟ أو يضاف هذا إلى ذلك الجسم الصغير ؟ هذا من أفسد الأمور فى بديهة العقل .

ومعلوم أنه لا نسبه إلى خلق هذا من هذا ، وإلى ما يصنعه بنو آدم من الصور التى يصنعونها من المداد ، مثل الكتابة بالمداد ، ونسيج الثياب من الغزل ، وصنعة الأطعمه والبنيان من موادها (١) ، وهم مع ذلك لم يخلقوا المواد ولا يفنونها (٢) ، وإنما غايتهم حركة خاصة تعين على تلك الصورة ، ثم لو أضاف مضيف هذه الكتابة إلى المداد لكان الناس جميعا يستجهلونه ويستحمقونه . فالذى يضيف خلق الحيوان والنبات إلى مادتها ، أو ما فى مادتها من الطبع ، أليس هو أحمق وأجهل وأظلم وأكفر ؟!

وكذلك خلق السحاب والمطر من الهواء والبخار ، هو كذلك إضافة الزلزلة إلى احتقان البخار ، وإضافة حركة الرعد إلى مجرد اصطكاك أجرام السحاب ، إلى غير ذلك من الأسباب التى ضلُّوا فيها ضلالا مبينا ، حيث جعلوها هى العلة التامة فاعلا ، ولم يعرفوا (٣) الغاية ، فجهلوا الوضعين . ونازعهم طوائف من الناس فيما يُوجد من الأسباب والقوى التى فى الطباع ، وذلك أيضا جهل .

وإذا كانت المحبة والإرادة أصل كل عمل وحركة . وأعظمها فى الحق محبة الله / وإرادته بعبادته وحده لا شريك له ، وأعظمها فى الباطل أن يتخذ الناس من ص ١٥٣

---

(١) فى الأصل : من سوادها ، وهو تحريف .
(٢) فى الأصل : ينفونها ، وهو تحريف .
(٣) فى الأصل . ولم يعرف .

دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، ويجعلون له عدلا وشريكا - عُلم أن المحبة والإرادة أصل كل دين ، سواء كان دينا صالحا أو دينا فاسدا ، فإن الدين هو من الأعمال الباطنة والظاهرة ، والمحبة والإرادة أصل ذلك كله ، والدين هو الطاعة والعبادة والخُلُق ، فهو الطاعة الدائمة اللازمة التى قد صارت عادة وخُلُقا ، بخلاف الطاعة مرة واحدة ، ولهذا فُسِّر الدين بالعادة والخُلُق ، ويفسر الخلق بالدين أيضا ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة القلم : ٤] (١) ، قال ابن عباس : على دين عظيم ، وذكره عنه سفيان بن عيينة ، وأخذه الإمام أحمد عن سفيان بن عيينة وبذلك فسراه (٢) .

المحبة والإرادة أصل كل دين

معانى كلمة « الدين »

وكذلك يفسر بالعادة ، كما قال الشاعر :

أهٰذا دينه أبدا ودينى ؟ (٣) .

ومنه « الدَّيْدَن » . يقال : هذا ديدنه ، أى عادته (٤) اللازمة (٥) ، فإن « ديدن » من دَانَ ، بمنزلة صلصل من : صَلَّ ، وكَبْكَبَ من كَبَّ ، هو تضعيف له ، والمضعَّف قد يكون مشدَّدا ، وقد يكون حرفَ لِينٍ ، وهم يعاقبون فى كلامهم

---

(١) فى الأصل : إنك ...

(٢) سبق الكلام على تفسير هذه الآية فى هذه المجموعة (ص : ٥٦) .

(٣) فى « لسان العرب » أن هذا الكلام للمُثَقَّب العبدى يذكر ناقته وتمام البيت :

تقولُ إذا دَرَأْتُ لها وَضِينِى أهٰذَا دِينُهُ أَبَداً ودِينِى ؟

والبيت فى ديوان المثقب القصيدة رقم ٧٦ فى « المفضليات » (تحقيق الشيخ أحمد شاكر رحمه الله ، والأستاذ عبد السلام هارون ، ط . دار المعارف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٧١/١٩٥٢) .

(٤) فى الأصل : عبادته ، وهو تحريف .

(٥) فى « اللسان » : « والدين : العادة والشأن ، تقول العرب : ما زال ذلك دينى ودَيْدَنى أى عادتى » .

كثيرا بين الحرف المشدَّد وحرف المثل [١] ، كما يُقال : تَقضِّى البَازِى وتقضَّضَ ، ويُقال : تَسَرَّر وتسرَّى [٢] .

ودان : يكون من الأعلى القاهر ، ويكون من المطيع . يُقال : دِنْتُه فدان ، أى : قهرتُه فذلَّ . كما قال :

هُوَ دَانَ الرِّبَابَ [٣] إذْ كَرِهُو الدِّيـ ـنَ ، دِراكاً بعزة وصيال [٤]

ويُقال فى الأعلى [٥] : « كما تدين تدان » . وأما دين المطيع فيستعمل متعديا ودائما ولازما ، يقال : دنت الله ، ودنت لله . ويقال : فلان لا يدين الله دِينا ، ولا يدين لله ، لأن فيه معنى الطاعة والعبادة ومعنى الذل . فإذا قيل : دان الله فهو قولك : أطاع الله ، وأحبه ، وإذا قيل : دان لله ، فهو كقولك : ذلّ لله ، وخشع لله .

وقد ذكرت أن اسم العبادة يتناول غاية الحب بغاية الذل ، وهكذا الدين

---

(١) كلمة « المثل » غير منقوطة فى الأصل ، وكتب فوقها كلمة « كذا » .

(٢) فى الأصل : تسورّ وتسرر ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : الذباب ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : فأضحوا بعزة وصيال . وفى « لسان العرب » مادة « دين » : قال الأعشى يمدح رجلا :

هُوَ دانَ الرِّبابَ ، إذ كرهوا الدِّيـ ـنَ دِراكاً بغـزوة وصيـال
ثم دانت بعدُ الرِّبابُ ، وكانت كعـذابٍ عُقوبـةُ الأقـوالِ

قال : هو دانَ الرباب يعنى أذلها ، ثم قال دانت بعدُ الربابُ ، أى ذلت له وأطاعته ، والدين لله من هذا إنما هو طاعته والتعبد له . ودانه دِينا أى أذله واستعبده . يقال : دِنْتُهُ فدانٍ .

والبيت فى « ديوان الأعشى » ، ص ١٢ ، القصيدة الأولى ، تحقيق رودلف جاير ، ط . فيينا ، ١٩٢٧ . وجاء فى رواية للبيت : بعزة وصيال .

(٥) فى الأعلى : كذا بالأصل ، ولعل الصواب : فى المثل .

الذى يدين به الناس فى الباطن والظاهر لابد فيه من الحب والخضوع ، بخلاف طاعتهم للملوك ونحوهم ، فإنها قد تكون خضوعا ظاهرا فقط .

والله سبحانه وتعالى سمّى يوم القيامة يوم الدّين ، كما قال : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [سورة الفاتحة : ٤] ، وهو كما روى عن ابن عباس وغيره من السلف : « يوم يدين الله العباد بأعمالهم إن خيراً فخيراً ، وإن شرًّا فشرًّا » [١] . وذلك يتضمن جزاءهم وحسابهم .

فلهذا من قال : هو يوم الحساب ويوم الجزاء ، فقد ذكر بعض صفات الدين ، قال تعالى : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ . وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَاماً كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ . إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ . يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ . وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ . ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ . يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ [سورة الانفطار : ٩ - ١٩] .

ظ ١٥٣ / وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ . تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [سورة الواقعة : ٨٦ ، ٨٧] ، أى : مقهورين ، ومدبَّرين ، ومجزيين [٢] .

---

(١) فى الأصل : إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . وهذا الأثر فى تفسير الطبرى (ط . المعارف) ١٥٦/١ : « ... عن عبد الله بن عباس : (يوم الدين) ، قال : يوم حساب الخلائق ، وهو يوم القيامة ، يدينهم بأعمالهم ، إن خيراً فخيراً ، وإن شرًّا فشرًّا ، إلا من عفا عنه ، فالأمر أمره . ثم قال : (ألا له الخلق والأمر) [سورة الأعراف : ٥٤] .

(٢) يقول ابن الجوزى فى تفسيره « زاد المسير » ١٥٥/٨ - ١٥٦ : « قوله تعالى : (غير مدينين) فيه خمسة أقوال . أحدها : محاسبين ، رواه الضحّاك عن ابن عباس وبه قال الحسن وابن جبير وعطاء وعكرمة . والثانى : موقنين ، قاله مجاهد . والثالث : مبعوثين ، قاله قتادة . والرابع : مجزيين . ومنه يقال : دنته ، وكما تدين تدان ، قاله أبو عبيدة . والخامس : مملوكين أذلاء ، من قولك : دنت له بالطاعة ، قاله ابن قتيبة » .

لابد لكل طائفة من بنى آدم من دين يجمعهم

وإذا كان كل عمل عن محبة وإرادة ، والترك يكون عن بغض وكراهة – وكل أحد همَّام حارث له حب وبغض ، لا يخلو الحى عنهما (١) ، وعمله يتبع حبه وبغضه ، ثم قد يكون ذلك فى أمور هى له عادة وخلق ، وقد يكون فى أمور عارضة لازمة – عُلم أن [كل] (٢) طائفة من بنى آدم لابد لهم من دين يجمعهم ، إذ لا غنى لبعضهم عن بعض ، وأحدهم لا يستقل بجلب (٣) منفعته ودفع مضرته ، فلابد من إجتماعهم ، وإذا اجتمعوا فلابد أن يشتركوا فى اجتلاب ما ينفعهم كلهم ، مثل طلب نزول المطر ، وذلك محبتهم له ، وفى دفع ما يضرهم مثل عدوهم ، وذلك بغضهم له ، فصار ولابد أن يشتركوا فى محبة شىء عام ، وبغض شىء عام ، وهذا هو دينهم المشترك العام .

وأما اختصاص كل منهم بمحبة ما يأكله ويشربه وينكحه ، وطلب ما يستره (٤) باللباس ، فهذا يشتركون فى نوعه لا فى شخصه . بل كل منهم يحب نظير ما يحبه الآخر لا عينه ، بل كل منهم لا ينتفع فى أكله وشربه ونكاحه ولباسه بعين ما ينتفع به الآخر ، بل بنظيره .

وهكذا هى الأمور السماوية فى الحقيقة ، فإن عين المطر الذى ينزل فى أرض هذا ، ليس هو عين الذى ينزل فى أرض هذا ، ولكن نظيره ، ولا عين (٥) الهواء البارد الذى يصيب جسد أحدهم ، قد لا يكون نفس عين الهواء البارد الذى يصيب جسد الآخر ، بل نظيره .

---

(١) فى الأصل : عنها .
(٢) زدت « كل » ليستقيم الكلام .
(٣) فى الأصل : لجلب .
(٤) فى الأصل : ما يضره ، وهو تحريف .
(٥) فى الأصل : ولا من .

لكن الأمور السماوية تقع مشتركة عامة ، ولهذا تعلق حبهم وبغضهم بها عامة مشتركة . بخلاف الأمور التى تتعلق بأفعالهم كالطعام واللباس . فقد تقع مختصة وقد تقع مشتركة [١] .

وإذا كان كذلك فالأمور التى يحتاجون إليها يحتاجون أن يوجبوها على أنفسهم ، والأمور التى تضرهم يحتاجون أن يحرِّموها على نفوسهم ، وذلك دينهم ، وذلك لا يكون إلا باتفاقهم على ذلك ، وهو التعاهد والتعاقد .

الدين هو التعاهد والتعاقد

ولهذا جاء فى الحديث « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » [٢] .

فهذا هو من الدين المشترك بين جميع بنى آدم : من التزام واجبات ومحرمات ، وهو الوفاء والعهد ، وهذا قد يكون باطلا فاسدا ، إذا كان فيه مضرة لهم راجحة على منفعته ، وقد يكون دين حق إذا كانت منفعة خاصة أو راجحة .

كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُّمْ ۝ وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [سورة الكافرون : ١ – ٦] .

وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ [سورة يوسف : ٧٦] [٣] .

---

(١) فى الأصل : فقد يقع مختصا وقد يقع مشتركا .

(٢) الحديث عن أنس بن مالك رضى الله عنه فى مسند أحمد (ط . الحلبى) ١٣٥/٣ وأوله : « ... عن أنس بن مالك قال : ما خاطبنا نبى الله ﷺ إلا قال : لا إيمان لمن لا أمانة له .... » وهو أيضا فيه ١٥٤/٣ ، ٢١٠ ، ٢٥١ .

(٣) يقول ابن الجوزى فى « زاد المسير » ٢٦١/٤ : « فى المراد بالدين ها هنا قولان : أحدهما : أنه السلطان ، فالمعنى فى سلطان الملك ، رواه العوفى عن ابن عباس . والثانى : أنه القضاء ، فالمعنى فى قضاء الملك ، لأن قضاء الملك أن من سرق إنما يُضرب ويُغرَّم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس » . وانظر تفسير الطبرى للآية (ط . المعارف) ١٨٨/١٦ – ١٩٠ .

/ وقال تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ [سورة التوبة : ٢٩] . ص ١٥٤

الدين الحق هو طاعة الله وعبادته

والدين الحق هو طاعة الله وعبادته ، كما بيَّنا أن الدين هو الطاعة المعتادة التى صارت خُلُقا ، وبذلك [1] يكون المطاع محبوباً مراداً [2] ، إذ أصل ذلك المحبة والإرادة .

ولا يستحق أحد أن يُعبد ويطاع على الإطلاق إلا الله وحده لا شريك [له] [3] ، ورسله وأولو الأمر أُطيعوا لأنهم يأمرون بطاعة الله ، كما قال النبى ﷺ فى الحديث المتفق عليه : « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن عصى أميرى فقد عصانى » [4] .

وأما العبادة فلله وحده ليس فيها واسطة ، فلا يعبد العبد إلا الله وحده ، كما قد بيّنا ذلك فى مواضع ، وبينّا أن كل عمل لا يكون غايته إرادة الله وعبادته فهو عمل فاسد غير صالح ، باطل غير حق ، أى لا ينفع صاحبه .

---

(١) فى الأصل : وذلك .

(٢) فى الأصل : محبوب مراد ، وهو خطأ .

(٣) له : ساقطة من الأصل .

(٤) جاء الحديث مختصرا ومطولا مع اختلاف فى الألفاظ عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ٦١/٩ (كتاب الأحكام ، باب قول الله تعالى : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ....) ؛ مسلم ١٤٦٥/٣ ، ١٤٦٦ (كتاب الإمارة ، باب وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية) ؛ سنن النسائى ١٣٨/٧ (كتاب البيعة ، باب الترغيب فى طاعة الإمام) ، ٢٤٣/٨ (كتاب الاستعاذة ، باب الاستعاذة من فتنة المحيا) ؛ سنن ابن ماجة ٤/١ (المقدمة ، باب اتباع سنة رسول الله ﷺ) ، ٩٥٤/٢ (كتاب الجهاد ، باب طاعة الإمام) ؛ المسند (ط . المعارف) ٥٢/١٣ ، ١٧٣ - ١٧٤ ، ٧٦/١٤ ، ٣٩/١٦ - ٤٠ ، ١٠٧/١٧ ، ٩٥/١٨ ، المسند (ط . الحلبى) ٤٦٧/٢ ، ٤٧١ ، ٥١١ .

وقد قال سبحانه : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [سورة البيِّنة : ٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٩٣] .

وقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ [سورة التوبة : ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ١٦١] .

وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾ [سورة التوبة : ١٢٢] .

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » [1] .

وقال تعالى : ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ

---

(١) الحديث عن ابن عباس وأبى هريرة ومعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهم فى : البخارى ٢١/١ (كتاب العلم ، باب من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين) ، ٨٤/٤ (كتاب الخمس ، باب قول الله تعالى فإن لله خمسه) ، ١٠١/٩ (كتاب الاعتصام ، باب قول النبى ﷺ لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ....) ؛ مسلم ٧١٨/٢ ، ٧١٩ (كتاب الزكاة ، باب النهى عن المسألة) ؛ سنن الترمذى ١٣٧/٤ (كتاب العلم ، باب إذا أراد الله بعبد خيرا فقهه فى الدين) وقال الترمذى : « وفى الباب عن عمر وأبى هريرة ومعاوية » ؛ سنن ابن ماجة ٨٠/١ (المقدمة ، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم) ؛ سنن الدارمى ٢٩٧/٢ (كتاب الرقاق ، باب من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين) ؛ المسند (ط . المعارف) ٢٨٢/٤ ، ١٨٠/١٢ ، المسند (ط . الحلبى) ٩٢/٤ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ٢٨٢ .

أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٧] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ الآية [سورة المائدة : ٥٤] .

وهو الدين الحق الذى هو عبادة الله وحده لا شريك له ، وطاعته وطاعة رسوله هو الإسلام العام الذى لا يقبل الله دينا غيره .

كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ ﴾ [سورة آل عمران : ١٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ٨٥] .

/ وقال تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ٨٣] . ظ ١٥٤

وقال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ [سورة الشورى : ١٣] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٩] .

فإذا كان لابد لكل آدمى من اجتماع ، ولابد فى كل إجتماع من طاعة ودين ، وكل دين وطاعة لا يكون لله فهو باطل – فكل دين سوى الإسلام فهو باطل .

كل دين سوى الإسلام باطل

وأيضا فلابد لكل حى من محبوب ، هو منتهى محبته وإرادته ، وإليه تكون حركة باطنه وظاهره ، وذلك هو إلهه ، ولا يصلح ذلك إلا لله وحده لا شريك له ، فكل ما سوى الإسلام فهو باطل .

والمتفرقون أيضا فيه ، الذين أخذ كل منهم ببعضه وترك بعضه ، وافترقت أهواؤهم ، قد بَرِىء الله ورسوله منهم .

لابد فى كل دين من شيئين : العقيدة والشريعة أو المعبود والعبادة

ولابد فى كل دين وطاعة ومحبة من شيئين : أحدهما : الدين المحبوب المطاع . وهو المقصود المراد .

والثانى : نفس صورة العمل التى تُطاع [1] ويُعبد بها ، وهو السبيل والطريق والشريعة والمنهاج والوسيلة .

كما قال الفضيل بن عياض فى قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [سورة هود : ٧] قال : أخلصه وأصوبه . قالوا : يا أبا على ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل ، [حتى يكون خالصا صوابا] [2] ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة .

فهكذا كان الدين يجمع هذين الأمرين : المعبود ، والعبادة . والمعبود إله واحد ، والعبادة طاعته وطاعة رسوله ﷺ ، فهذا هو دين الله الذى ارتضاه ، كما قال تعالى : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾ [سورة المائدة : ٣] ، وهو دين المؤمنين من الأوَّلين والآخرين ، وهو الدين الذى لا يقبل الله من أحد غيره ، لأنه دين فاسد باطل ، كمن عبد من لا تصلح عبادته ، أو عبد بما لا يصلح أن يعبد به .

تنوع الناس فى المعبود وفى العبادة

ثم مع اشتراك الأوَّلين والآخرين فى هذا الدين فيتنازعون فى كل منهما ، فإن الله سبحانه له الأسماء الحسنى ، وله المثل الأعلى ، فقد تعرف هذه الأمة من أسمائه

---

(١) فى الأصل : يطاع .

(٢) ما بين المعقوفتين من كلام الفضيل بن عياض ، وسبق ورود هذا الكلام فى المجموعة الأولى ، ص : ٢٥٧ .

وصفاته ما لا تعرف به الأمة الأخرى ، فهم مشتركون فى عبادة نفسه ، وإن تنوَّعوا فيما عرفوه وعبدوه به من أسمائه وصفاته .

وقد رفع الله بعضهم فوق / بعض درجات ، فهذا تنوعهم فى المعبود [1] ، وكذلك حالهم فى معرفة اليوم الآخر . ص ١٥٥

وأما تنوعهم فى العبادة والطاعة من الأقوال والأفعال ؛ فإنهم متنوِّعون فى ذلك أيضا .

وقد قال تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ [سورة المائدة : ٤٨] .

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الجاثية : ١٨] .

وقال تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِى الْأَمْرِ ﴾ [سورة الحج : ٦٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ [سورة الحج : ٣٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ [سورة البقرة : ١٤٨] .

وهذان الأصلان قد جاءت شريعتنا فيهما [2] بأنواع : فجاءت فى أسماء الله وصفاته بأنواع ، وجاءت فى صفات العبادات بأنواع . والأصل الأول ينضم إليه اليوم الآخر وما جاء فى نعته من الأسماء والصفات والوعد والوعيد .

---

(١) كتب فى أعلى هذه الصفحة إلى اليسار : « الثانى » .

(٢) فى الأصل : فيها .

وهذه الأصول الثلاثة : وهى الإيمان بالله ، وباليوم الآخر ، والعمل الصالح ، هى الموجبة [١] للسعادة فى كل ملة . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٦٢] . والشرع [٢] ما جاءت به الرسل ، وهو الأصل الرابع .

ذم الله التفرق والاختلاف فى الكتاب والسنة

فإن هذه الأصول الأربعة متلازمة ، والتفرق فى ذلك بالأمر فى بعضه ، والنهى عن بعض ، هو من التفرق والاختلاف الذى ذمه الكتاب والسنة من المختلفين .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِى الْكِتَابِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [سورة البقرة : ١٧٦] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ [سورة آل عمران : ١٠٥] .

ولهذا غضب النبى ﷺ لما اختلفوا فى القراءة ، وقال : « كلاهما محسن » [٣] .

---

(١) فى الأصل : هو الموجب .

(٢) فى الأصل : والنوع .

(٣) الحديث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى موضعين فى : البخارى ٣/١٢٠ (كتاب الخصومات ، باب ما يذكر فى الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهود) ، ٤/١٧٥ (كتاب الأنبياء ، الباب الأخير : حدثنا أبو اليمان ...) ونصه فى الموضع الأخير : « .... عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : =

وقال : « إن القرآن نزل على سبعة أحرف فاقرؤوا منه ما تيسر » (١) .
وكذلك غضب لما تنازعوا فى القدر ، وأخذوا يعارضون بين الآيات معارضة تفضى إلى الإيمان ببعض دون بعض .

وهذا التفرّق والاختلاف يوجب الشرك ، وينافى حقيقة التوحيد الذى هو إخلاص الدين كله [لله] (٢) ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ﴾ [سورة الروم : ٣٠] ، ﴿ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [سورة الروم : ٣١ ، ٣٢] .

ظ ١٥٥

فإقامة وجهة الدين حنيفا ، وعبادة الله وحده لا شريك له - وذلك يجمع الإيمان بكل ما أمر الله به وأخبر به - أن يكون الدين كله لله .

= سمعت رجلا قرأ وسمعت النبى ﷺ يقرأ خلافها ، فجئت به النبى ﷺ فأخبرته ، فعرفت فى وجهه الكراهية ، وقال : كلاكما محسن ، ولا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا » .

والحديث عن ابن مسعود رضى الله عنه فى : المسند (ط . المعارف) ٥/٣٢٤ - ٣٢٥ ، ٦/٥ ، ٥ - ٦ ، ١٥٥ ، ١٦٩ . وجاء الحديث عن أبى بن كعب رضى الله عنه (وفيه بيان أنه كان هو الرجل الآخر وفى رواية أنه كان هناك قارىء ثالث) فى المسند ٥/١٢٤ فى عدة روايات .

(١) هذا جزء من حديث طويل عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى : البخارى ٣/١٢٢ (كتاب الخصومات ، باب كلام الخصوم بعضهم فى بعض) ، ٦/١٨٤ - ١٨٥ (كتاب فضائل القرآن ، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف) ، ٩/١٧ - ١٨ (كتاب المرتدين ، باب ما جاء فى المتأولين) ، ٩/١٥٨ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : فاقرأوا ما تيسر من القرآن) ؛ مسلم ١/٥٦٠ (كتاب صلاة المسافرين ، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف) ؛ سنن الترمذى ٤/٢٦٣ - ٢٦٤ (كتاب القراءات ، باب ما جاء أن القرآن أنزل على سبعة أحرف) ؛ سنن أبى داود ٢/ ١٠١ - ١٠٢ (كتاب الوتر ، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف) ؛ سنن النسائى ٢/١١٦ - ١١٧ (كتاب افتتاح الصلاة ، باب جامع ما جاء فى القرآن) ؛ المسند (ط . المعارف) ١/٢٢٤ ، ٢٧٤ - ٢٧٥ ، ٢٨٣ - ٢٨٤ . وأول الحديث (البخارى ٣/١٢٢) : « .... سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها .... فجئت به رسول الله ﷺ فقلت : إنى سمعت هذا يقرأ على غير ما أقرأتنيها . فقال لى : أرسله . ثم قال : اقرأ .... الحديث » .

(٢) زدت « لله » ليستقيم الكلام .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً ﴾ ، وذلك أنه إذا كان الدين كله لله حصل الإيمان والطاعة لكل ما أنزله وأرسل به رسله ، وهذا يجمع كل حق ، ويُجمع عليه كل حق .

وإذا لم يكن كذلك فلابد أن يكون لكل قول ما يمتازون به ، مثل معظَّم مُطَاع ، أو معبود لم يأمر الله بعبادته وطاعته ، ومثل قول ودين ابتدعوه لم يأذن الله به ، ولم يشرعه ، فيكون كل من الفريقين مشركا من هذا الوجه .

وأيضا ففى قلوب بنى آدم محبة وإرادة لما يتألهونه ويعبدونه ، وذلك هو قوام قلوبهم وصلاح نفوسهم ، كما أن فيهم محبة وإرادة لما يطعمونه وينكحونه ، وبذلك تصلح حياتهم ، ويدوم شملهم . وحاجتهم إلى التألّه أعظم من حاجتهم إلى الغذاء ، فإن الغذاء إذا فُقد يفسد الجسم ، وبفقد التألّه تفسد النفس ، ولن يصلحهم إلا تأله الله وعبادته وحده لا شريك له ، وهى الفطرة التى فطروا عليها ، كما قال النبى ﷺ فى الحديث المتفق عليه : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » [١] .

وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبى ﷺ فيما يروى عن ربه أنه قال : « إننى خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين [٢] ، وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزِّل به سلطانا » [٣] .

لكن أكثر الشرك فى بنى آدم بإيجاد إله آخر مع الله ، ودان بذلك كثير منهم فى أنواع كثيرة .

---

(١) مضى الحديث من قبل فى هذه المجموعة ، ص : ٨٥ .
(٢) فى الأصل : الشيطان ، وهو تحريف .
(٣) مضى الحديث من قبل فى هذه المجموعة ، ص : ٨٦ .

فصار كل طائفة من بنى آدم لابد لهم من دين لهذين الأمرين : لحاجة نفوسهم إلى الإله الذى هو محبوب مطلوب لذاته ولأنه ينفع ويضر ، ولحاجتهم إلى التزام ما يحبونه من الحاجات ويدفعونه من المضرات .

وهم مشركون فى المحبة للأمور المنزَّلة : أعيانها وأنواعها ، فهم مشركون فى محبة الإله الذى يعبدونه وتعظيمه ، ومحبة من يبلِّغ عنه ما يختص به ، ومحبة أوامره ونواهيه . مشركون / فى محبة [١] غير ذلك ، ومشركون أيضا فى محبة جنس [٢] ما التزموه من الواجبات والمحرَّمات العامة ، التى هى جلب المنفعة لهم جميعا ، ودفع المضرة عنهم جميعا .

ص ١٥٦

فهذه المحبة هى المحبة الدينية ، كحب الدين الذى هم عليه : حقًّا كان أو باطلا ، وكذلك محبة ما يعين على ذلك ويوصل إليه لأجل ذلك ، فهى [٣] أيضا محبة دينية .

يقول بعض المتفلسفة إن المقصود بالدين مجرد المصلحة الدنيوية

وليس المقصود بالدين الحق مجرد المصلحة الدنيوية من إقامة العدل بين الناس فى الأمور الدنيوية ، كما يقوله طوائف من المتفلسفة فى مقصود النواميس والنبوات : أن المراد بها مجرد وضع ما يحتاج إليه معاشهم فى الدنيا من القانون العدلى الذى ينتظم به معاشهم ، لكن هذا قد يكون المقصود فى أديان من لم يؤمن بالله ورسوله من أتباع الملوك المتفلسفة ونحوهم ، مثل : قوم نوح ، ونمرود ، وجنكيزخان [٤] وغيرهم [٥] .

---

(١) فى الأصل : فى محبته .
(٢) فى الأصل : حسن ، ولعل الصواب ما أثبته .
(٣) فى الأصل : هى .
(٤) فى الأصل : جنكيسخان ، وأشير إلى الهامش حيث كتب « جنكيز خان » وفوقها كلمة « صوابه » .
(٥) فى الأصل : وغيرها .

فإن كل طائفة من بنى آدم محتاجون إلى التزام واجبات ، وترك محرَّمات ، يقوم بها معاشهم وحياتهم الدنيوية . وربما جعلوا مع ذلك ما به يستولون به على غيرهم من الأصناف ويقهرونه ، كفعل الملوك الظالمين مثل جنكيزخان (١) .

فإذا لم يكن مقصود الدين والناموس الموضوع إلا جلب المنفعة فى الحياة الدنيا ، ودفع المضرة فيها ، فليس لهؤلاء فى الآخرة من خلاق ، ثم إن كان مع ذلك جعلوه ليستولوا به على غيرهم من بنى آدم ويقهرونهم ، كفعل فرعون وجنكيزخان (١) ونحوهما ، فهؤلاء من أعظم الناس عذابا فى الآخرة .

كما قال تعالى : ﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [سورة القصص : ٣ ، ٤] . ظ ١٥٦

وقد قص الله سبحانه قصة فرعون فى غير موضع من القرآن ، وكان هو وقومه على دين لهم من دين الملوك ، كما قال تعالى فى قصة يوسف : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ ﴾ [سورة يوسف : ٧٦] وهذا الملك كان فرعون يوسف ، وكان قبل فرعون موسى . وفرعون اسم لمن يملك مصر من القِبْط (٢) ، وهو اسم جنس كقيصر وكسرى والنجاشى ونحو ذلك .

وهؤلاء المتفلسفة الصابئة المبتدعة من المشَّائين ، ومن سلك مسلكهم من المنتسبين إلى الملل فى المسلمين واليهود والنصارى ، يجعلون الشرائع والنواميس

---

(١) فى الأصل : جنكيسخان .

(٢) فى « لسان العرب » : « والقِبْط : جيل بمصر ، وقيل : هم أهل مصر وبُنْكُها » .

والديانات من هذا الجنس [١] ، لوضع قانون تتم به مصلحة الحياة الدنيا ، ولهذا لا يأمرون فيها بالتوحيد ، وهو عبادة الله وحده ، ولا بالعمل للدار الآخرة ، ولا ينهون فيها عن الشرك ، بل يأمرون فيها بالعدل والصدق والوفاء بالعهد ، ونحو ذلك من الأمور التى لا تتم مصلحة الحياة الدنيا إلا بها [٢] ، ويشرعون التأله للمخلصين والمشركين .

وقد تكلمت على أقسام الديانات فى غير هذا الموضع ، وبيّنت الطبعى ، والمِلّى ، والشرعى . وإنما جاء ذكر هذا هنا مطردا .

ولهذا يقيمون النواميس بأنواع من الحيل والسحر والطلسمات [٣] ، كما وضعوه فى كتب ذلك ، ويقولون فى بعض الطيالسم : هذا يصلح لوضع النواميس ، كما [٤] تواصت القرامطة والباطنية ، وكما كان يفعله سحرة فرعون وغيرهم – وآثارهم موجودة بذلك إلى اليوم – وكما يفعله المشركون من الترك والهند فى بلادهم .

---

(١) فى الأصل : الجيش ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : ابهاً ، وهو تحريف .

(٣) فى « شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل » لشهاب الدين الخفاجى : مادة « طلسم » : « طلسم : لفظ يونانى لم يعربه من يوثق به ، وكونه مقلوبا من مسلط وَهْمٌ لا يعتد به . وفى « السر المكتوم » : هو عبارة عن علم بأحوال تمزيج القوى الفعالة السماوية بالقوى المنفعلة الأرضية لأجل التمكن من إظهار ما يخالف العادة والمنع مما يوافقها . انتهى » وانظر الصفدية ٦٦/١ . وفى « دستور العلماء » لعبد النبى بن عبد الرسول الأحمدنكرى (ط . حيدر آباد) ٢٧٨/٢ : « الطلسم علم يتعرف منه كيفية تمزيج القوى العالية الفعالة بالسافلة المنفعلة ليحدث عنها أمر غريب فى عالم الكون والفساد . واختلف فى معنى الطلسم . والمشهور أقوال ثلاثة : الأول : أن الطل بمعنى الأثر فالمعنى أثر اسم . الثانى : أنه لفظ يونانى معناه : عقد لا ينحل . الثالث : أنه كناية عن مسلط . وعلم الطلسمات أسرع تناولا من علم السحر وأقرب مسلكا ، وللسكاكى فى هذا الفن كتاب جليل القدر عظيم الخطر » .

(٤) فى الأصل : وكما .

والمتفلسفة الصابئة تجعل ذلك جنسا لما بُعثت به الرسل من الآيات ، ويجعلون موسى والسحرة والذين عارضوه من جنس واحد .

وهؤلاء كما قال تعالى فيهم : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٢] هم مقرُّون بأن منفعة ذلك لا تكون فى الآخرة ، وإنما يرجون منفعته فى الدنيا ، وإن كان فيه بلوغ بعض الأعراض من رئاسة أو شهوة (١) .

فهو كما قال الله تعالى : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٢] إذ ما فيه من المضرة يربو (٢) على ما فيه من الخير (٣) . قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٣] ، ولهذا كان ما نهى عنه من هذا الجنس إنما هو / لكون الضرر فيه أغلب من المنفعة ، فأما ما ينفع الناس فلم ينه الله عنه . ص ١٥٧

ولهذا لما عرض على النبى ﷺ الرق (٤) قال : « من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل » (٥) وقال : « لا بأس بالرق ما لم يكن فيه شرك » (٦) .

---

(١) توجد فى أعلى الصفحة كلمات كتب بعضها فوق بعض غير واضحة وكأنها : « لدى غير الله شر كبير كله » .

(٢) فى الأصل : يزكى ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : الحط ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : الرقا .

(٥) ورد الحديث عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى موضعين فى : مسلم ٤/١٧٢٦ (كتاب السلام ، باب استحباب الرقية من العين ...) . وجاء الحديث أيضا عنه فى المسند (ط . الحلبى) ٣/٣٠٢ ، ٣٣٤ ، ٣٨٢ ، ٣٩٣ .

(٦) فى الأصل : شر ، وهو تحريف . والحديث عن عوف بن مالك الأشجعى رضى الله عنه فى : مسلم ٤/١٧٢٧ (كتاب السلام ، باب لا بأس بالرق ما لم يكن فيه شرك) ؛ سنن أبى داود ٤/١٥ (كتاب الطب ، باب ما جاء فى الرق) .

وذكر البخارى فى صحيحه فى استخراج السحر عن قتادة قال : « قلت لسعيد بن المسيب : رجل به طب أو يُؤَخَّذُ عن امرأته : أَيُحَلُّ عنه أو يُنَشَّر ؟ قال : لا بأس به ، إنما يريدون به الإصلاح ، فأما ما ينفع الناس فلم يُنْهَ عنه [1] .

فصل

الحب أصل كل عمل والتصديق بالمحبة هو أصل الإيمان

وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل ، وهو [2] أصل الأعمال الدينية وغيرها ، وأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله ، كما أن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله ، فالتصديق بالمحبة هو [3] أصل الإيمان ، وهو قول وعمل ، كما قد بُيِّن فى غير هذا الموضع .

ومعلوم أن قوة [4] المحبة لكل محبوب يتفاوت الناس فيها تفاوتا عظيما ،

---

(١) جاء هذا الأثر فى : البخارى ١٣٧/٧ (كتاب الطب ، باب هل يستخرج السحر) . وقال ابن حجر فى : فتح البارى ٢٣٣/١٠ : « .... عن قتادة عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يرى بأسا إذا كان بالرجل سحر أن يمشى إلى من يطلق عنه ، فقال : هو صلاح . قال قتادة : وكان الحسن يكره ذلك يقول : لا يعلم ذلك إلا ساحر . قال : فقال سعيد بن المسيب : إنما نهى الله عمّا يضر ولم ينه عمّا ينفع . وقد أخرج أبو داود فى « المراسيل » عن الحسن رفعه : « النشرة من عمل الشيطان » ووصله أحمد وأبو داود بسند حسن عن جابر . قال ابن الجوزى : « النشرة حل السحر عن المسحور ، ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر . وقد سئل أحمد عمن يطلق السحر عن المسحور ، فقال : لا بأس به .... قوله : (به طب) بكسر الطاء أى سحر ، وقد تقدم توجيهه . قوله : (أويؤخَّذ) بفتح الواو مهموز وتشديد الخاء المعجمة وبعدها معجمة : أى يحبس عن امرأته ولا يصل إلى جماعها . والأُخذة بضم الهمزة : هى الكلام الذى يقوله الساحر . وقيل : خرزة يرقى عليها ، أو هى الرقية نفسها . قوله : (أَوَيُحَلُّ عنه) بضم أوله وفتح المهملة . قوله : (أو يُنَشَّر) بتشديد المعجمة من النُّشرة بالضم ، وهى ضرب من العلاج يعالج به من يظن أن به سحرا أو مسًّا من الجن ، قيل لها ذلك لأنه يكشف بها عنه ما خالطه من الداء » .

(٢) فى الأصل : وهى .

(٣) فى الأصل : هى .

(٤) كلمة « قوة » غير واضحة فى الأصل ، وكذا استظهرتها .

ويتفاوت حال الشخص الواحد فى محبة [(١)] الشىء الواحد ، بحيث يقوى الحب تارة ويضعف تارة ، بل قد يتبدل أقوى [الحب] [(٢)] بأقوى البغض وبالعكس .

قال تعالى : ﴿ لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ ﴾ إلى قوله : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ﴾ [سورة الممتحنة : ١ - ٤] ، وإبراهيم هو إمام الحنفاء الذين يحبهم الله ويحبونه ، وهو خليل الله .

وقال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ۝ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّى إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الشعراء : ٧٥ - ٧٧] .

وقال تعالى أيضا : ﴿ لاَ أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٦] وقال بعد ذلك : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٩] .

وقد قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] .

ولا ريب أن محبة المؤمنين لربهم أعظم المحبات ، وكذلك محبة الله لهم هى محبة عظيمة جدا ، كما فى صحيح البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « يقول الله تعالى : من عادى لى وليًا فقد بارزنى بالمحاربة ، وما تقرب إلىَّ عبدى

(١) فى الأصل : المحبة .
(٢) فى الأصل : أقوى ، وفوقها : كذا . ورأيت أن إثبات كلمة « الحب » يستقيم به الكلام .

بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى [١] يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى ، ولئن سألنى لأعطينّه ، ولئن [٢] استعاذنى لأعيذنّه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت ، وأكره مساءته ، ولابد له منه » [٣] .

تأويل طوائف من المسلمين للمحبة تأويلات خاطئة

وقد تأوَّل الجهمية – ومن اتبعهم من أهل الكلام – محبة الله لعبده على أنها الإحسان إليه ، فتكون من الأفعال .

ظ ١٥٧

وطائفة أخرى من الصفاتية قالوا : هى إرادة / الإحسان . وربما قال كلا من القولين بعض المنتسبين إلى السنة من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم .

وسلف الأمة وأئمة السنة على إقرار المحبة على ما هى عليه .

وكذلك محبة العبد لربه يفسّرها كثير من هؤلاء بأنها إرادة العبادة له ، وإرادة التقرب إليه ، لا يثبتون أن العبد يحب الله .

وسلف الأمة ، وأئمة السنة ، ومشايخ المعرفة ، وعامة أهل الإيمان : متفقون على خلاف قول هؤلاء المعطِّلة لأصل الدين ، بل هم متفقون على أنه لا يكون شىء من أنواع المحبة أعظم من محبة العبد ربه .

كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] ، وقال

---

(١) فى الأصل : الذى .
(٢) فى الأصل : ولا .
(٣) مضى هذا الحديث من قبل فى هذه المجموعة (ص ٢٧ الصفات ١٠٧ شرح) .

تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [سورة المائدة : ٥٤] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِىَ اللهُ بِأَمْرِهِ ﴾ [سورة التوبة : ٢٤] ، فلم يرض [إلا] (١) بأن يكون الله ورسوله أحب إليهم من الأهلين والأموال ، حتى يكون الجهاد فى سبيل الله الذى هو من كمال الإيمان .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [سورة الحجرات : ١٥] . ولهذا وصف الله المحبِّين له الذين يحبهم هو بالجهاد ، فقال تعالى : ﴿ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِه فَسَوْفَ يَأْتِى اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ﴾ [سورة المائدة : ٥٤] .

تنازع الناس فى لفظ « العشق »

وأما تنازع الناس فى لفظ « العشق » فمن الناس من أهل التصوف والكلام وغيرهم من أطلق هذا اللفظ فى حق الله ، كما روى عبد الواحد بن زيد (٢) فيما يؤثره عن [أحد أنبياء] الله(٣) أنه قال : « عشقنى وعشقته » .

---

(١) زدت « إلا » ليستقيم الكلام .

(٢) عبد الواحد بن زيد البصرى صوفى وواعظ لحق الحسن البصرى وغيره ، متروك الحديث ، وقال البخارى : عبد الواحد صاحب الحسن تركوه ، وقال الجوزجانى : سيىء المذهب ليس من معادن الصدق . توفى سنة ١٧٧ . انظر ترجمته وأقواله فى : العبر ١/٢٧٠ ؛ شذرات الذهب ١/٢٨٧ ؛ ميزان الاعتدال ٢/٦٧٢ - ٦٧٣ ؛ لسان الميزان ٤/٨٠ - ٨١ ؛ حلية الأولياء ٦/١٥٥ - ١٦٥ ؛ الطبقات الكبرى ١/٣٩ - ٤٠ .

(٣) فى الأصل : باسره (غير منقوطة) عن الله . ولعل الصواب ما أثبته . وانظر كلام ابن تيمية بعد قليل (ص ٢٤٠) .

وقال هؤلاء : العشق هو المحبة الكاملة التامة ، وأَوْلى الناس بذلك هو الله ، فإنه هو الذى يجب أن يُحب أكمل محبة ، وكذلك هو يحب عبده محبة كاملة .

ولو قيل : إن العشق هو منتهى المحبة أو أقصاها ، أو نحو ذلك ، فهذا المعنى حق من العبد ، فإنه يحب ربه منتهى المحبة وأقصاها ، والله يحب عبده ، مثل إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم تسليما ، أقصى محبة تكون لعباده ومنتهاها ، وهما خليلا الله .

كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله قد اتخذنى خليلا ، كما اتخذ إبراهيم خليلا »[١] . وقال : « لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صاحبكم خليل الله »[٢] .

وذهب طوائف من أهل العلم والدين إلى إنكار ذلك فى حق الله . ولا رَيْب أن هذا اللفظ ليس مأثوراً عن أئمة السلف .

والذين أنكروه لهم من جهة اللفظ / مأخذان ، ومن جهة المعنى مأخذان : ص ١٥٨

منكرو لفظ العشق لهم من جهة اللفظ مأخذان ومن جهة المعنى مأخذان

أما من جهة اللفظ : فإن هذا اللفظ ليس مأثورا عن السلف . وباب الأسماء والصفات يُتَّبع فيها الألفاظ الشرعية ، فلا نطلق [إلا][٣] ما يرد به الأثر .

المأخذ الأول من جهة اللفظ

---

(١) مضى الحديث من قبل فى هذه المجموعة (ص ٨٧ شرح) .

(٢) جاءت العبارات الأولى من هذا الحديث إلى قوله : « .... لاتخذت أبا بكر خليلا » جزءاً من أحاديث كثيرة عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم . ولكن الحديث بهذا النص جاء عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى : مسلم ١٨٥٥/٤ (كتاب فضائل الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، باب من فضائل أبى بكر الصديق رضى الله عنه) .

(٣) زدت « إلا » ليستقيم الكلام .

والأوَّلون يستدلون بمثل قول عبد الواحد بن زيد ونحوه .

وهؤلاء يقولون : هذا من الإسرائيليات التى لا يجوز الاعتماد عليها فى شرعنا ، فإن ثبوت مثل هذا الكلام عن الله لا يُعلم إلا من جهة نبينا ﷺ ، وذلك غير مأثور عنه . ونحن لا نصدِّق بما ينقل عن الأنبياء المتقدمين ، إلا أن يكون عندنا ما يصدِّقه ، كما لا نكذِّب إلا بما نعلم أنه كذب . وقد قال النبى ﷺ : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدِّقوهم ولا تكذِّبوهم ، فإما أن يحدثوكم بباطل فتصدّقوه ، وإما يحدثوكم بحق فتكذّبوه » [١] . وهذا الوجه يقتضى الامتناع من الإطلاق ، إلا [عند] [٢] الجزم بتحريمه فى جميع الشرائع .

المأخذ الثانى

المأخذ الثانى : أن المعروف من استعمال هذا اللفظ فى اللغة إنما هو فى محبة جنس النكاح ، مثل حب الإنسان الآدمى مثله ممن يستمتع به من امرأة

---

(١) جاء هذا الحديث بألفاظ مقاربة عن أبى نملة الأنصارى رضى الله عنه ونصه فى : سنن أبى داود ١٤٣٣/٣ (كتاب العلم ، باب رواية حديث أهل الكتاب) : « .... أخبرنى ابن أبى نملة الأنصارى عن أبيه أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ وعنده رجل من اليهود مرَّ بجنازة ، فقال : يا محمد ، هل تتكلم هذه الجنازة ؟ فقال النبى ﷺ : « الله أعلم » فقال اليهودى : إنها تتكلم . فقال رسول الله ﷺ : « ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدّقوهم ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله ورسله ، فإن كان باطلا لم تصدقوه ، وإن كان حقا لم تكذبوه » . وهو فى : المسند (ط . الحلبى) ١٣٦/٤ ؛ موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان لعلى بن أبى بكر الهيثمى (تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة ، ط . السلفية) ص ٥٨ . وضعف الألبانى الحديث فى « ضعيف الجامع الصغير وزيادته » ٩١/٥ وقال السيوطى : حم (المسند) ، د (سنن أبى داود) ، حب (صحيح ابن حبان) هق (سنن البيهقى) عن أبى نملة الأنصارى . على أن حديثا صحيحا مقاربا جاء عن أبى هريرة رضى الله عنه ونصه فى : البخارى ١٨١/٣ (كتاب الشهادات ، باب لا يُسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها) : « وقال أبو هريرة عن النبى ﷺ : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أُنزل .... الآية » . وجاء هذا الحديث فى مواضع أخرى فى : البخارى ٢٠/٦ - ٢١ (كتاب التفسير ، سورة البقرة ، باب قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا ....) ، ١١١/٩ (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب قول النبى ﷺ لا تسألوا أهل الكتاب عن شئ) ، ١٥٧/٩ (كتاب التوحيد ، باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب العربية) .

(٢) زدت « عند » ليستقيم الكلام .

أو صبى . فلا يكاد يُستعمل هذا اللفظ فى محبة الإنسان لولده وأقاربه ووطنه وماله ودينه وغير ذلك ، ولا فى محبته لآدمى لغير صورته : مثل محبة الآدمى لعلمه ، ودينه ، وشجاعته ، وكرمه ، وإحسانه ، ونحو ذلك . بل المشهور من لفظ « العشق » هو محبة النكاح ومقدماته ، فالعاشق يريد الاستمتاع بالنظر إلى المعشوق ، وسماع كلامه أو مباشرته بالقبلة والحس والمعانقة أو الوطء (١) ، وإن (٢) كان كثير من العشاق لا يختار الوطء ، بل يحب [تقبيل ومعانقة] موطوءته (٣) ، فهو يحب مقدمات الوطء . وكم ممن اشتغل بالوسيلة عن المقصود .

ثم لفظ « العشق » قد يُستعمل فى غير ذلك ، إما على سبيل التواطؤ (٤) ، فيكون حقيقة فى القدر المشترك ، وإما على سبيل المجاز .

لكن استعماله فى محبة الله إما أن يُفهِم أو يُوهم المعنى الفاسد ، وهو أن الله يُحِب ويُحَب ، كما تحب صور الآدميين التى نستمتع بمعاشرتها ووطئها ، وكما (٥) تحب الحور العين التى فى الجنة .

وهذا المعنى من أعظم الكفر ، وإن كان قد بلغ إلى هذا الكفر الاتحادية ، الذين يقولون : « إنه عين الموجودات » (٦) ، ويقولون : « ما نكح سوى نفسه ، وهو الناكح والمنكوح » (٧) .

---

(١) فى الأصل : الوطى .
(٢) فى الأصل : إن .
(٣) فى الأصل : بل يحب رطوبته ، وكتب فوقها « كذا » . ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .
(٤) فى الأصل : التواطى .
(٥) فى الأصل : كما .
(٦) انظر ما سبق فى المجموعة الأولى ، ص ١٠٤ - ١٠٥ ، ٢٠٤ .
(٧) انظر ما سبق ١/١٦٥ .

ظ ١٥٨

وكذلك الذين يقولون بالحلول العام ، / والذين يقولون بالاتحاد فى صور معينة [١] ، أو بحلوله فيها [٢] ، كما يقوله الغالية من النصارى والرافضة وغالية النسّاك ، فإن هؤلاء يصفونه بما يوصف به البشر من النكاح ، تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوا كبيرا ، هو الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

ومن هؤلاء من يعشق الصور الجميلة ، ويزعم أنه يتجلى فيها [٣] ، وأنه إنما يحب مظاهر جماله . وقد بسطنا الكلام فى كفرهم وضلالهم [٤] فى غير هذا الموضع . فمن زعم أن الله يحب أو يعشق وأشار إلى هذا المعنى ، فهو أعظم كفرا من اليهود والنصارى .

المأخذ المعنوى قيل إن العشق فساد فى الحب والإرادة

وأما المأخذ المعنوى : فهو أن العشق : هل هو فساد فى الحب والإرادة ، أو فساد فى الإدراك والمعرفة ؟ قيل : إن العشق هو الإفراط فى الحب حتى يزيد على القصد الواجب ، فإذا أفرط كان مذموما فاسدا ، مفسدا للقلب والجسم ، كما قال تعالى : ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [سورة الأحزاب : ٣٢] ، فمن صار [مُفْرِطاً صار مريضا] [٥] ، كالافراط فى الغضب والإفراط فى الفرح وفى الحزن .

وهذا الإفراط قد يكون فى محبة الإنسان لصورته ، وقد يكون فى محبته لغير ذلك ، كالإفراط فى حب الأهل والمال ، والإفراط فى الأكل والشرب وسائر أحوال

---

(١) فى أعلى هذه الصفحة إلى اليسار كتب عبارة كأنها « أصحاب الإمام كذلك التقرب » .

(٢) فى الأصل : أو ما كوله فيها ، وهو تحريف . وأحسب أن الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : أنه يتلجى ، وهو تحريف . والمقصود أنهم يقولون إن الله تعالى يتجلى فى الصور الجميلة .

(٤) فى الأصل : وظلالهم .

(٥) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .

الإنسان ، وهذا المعنى ممتنع فى حق الله من الجهتين ، فإن الله لا يُحِبُّ محبة زيادة على العدل . ومحبة عباده المؤمنين له ليس لها حد تنتهى إليه ، حتى تكون الزيادة إفراطا وإسرافا ومجاوزة للقصد . بل الواجب أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه منه كما يكره أن يلقى فى النار » وفى رواية فى الصحيح « لا يجد عبد / حلاوة الإيمان حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .... » إلى آخره [1] ، وقال : « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » [2] .

ص ١٥٩

وفى الصحيح أن عمر قال له : يا رسول الله والله لأنت أحب إلىَّ من كل شيء إلا من نفسى ، فقال : « لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك » ، قال : فلأنت أحب إلى من نفسى ، قال : « الآن يا عمر » [3] .

وقد تقدم دلالة القرآن على هذا الأصل بقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ﴾ [سورة التوبة : ٢٤] .

وقيل إن العشق فساد فى الإدراك والتخيل والمعرفة

وقيل : إن العشق هو فساد فى الإدراك والتخيل والمعرفة ؛ فإن العاشق يخيل

---

(١) مضى هذا الحديث من قبل فى هذه القاعدة ، ص (١٩٨) .

(٢) مضى هذا الحديث من قبل فى هذه القاعدة ، ص (١٩٨) .

(٣) مضى هذا الحديث من قبل فى هذه القاعدة ، ص (١٩٨) .

له المعشوق على خلاف ما هو به حتى يصيبه ما يصيبه من داء العشق ، ولو أدركه على الوجه الصحيح لم يبلغ إلى حد العشق ، وإن حصل له محبة وعلاقة .

ولهذا يقول الأطباء : العشق مرض وسواسى شبيه بالمالنخوليا ، فيجعلونه من الأمراض الدماغية التى تفسد التخيل كما يفسده المالنخوليا .

وإذا كان الأمر كذلك امتنع فى حق الله من الجانبين . فإن الله بكل شىء عليم . وهو سميع بصير ، مقدَّس منزَّه عن نقص أو خلل فى سمعه وبصره وعلمه . والمحبون [١] له عباده المؤمنون الذين آمنوا به وعرفوه بما تعرَّف به إليهم من أسمائه وآياته ، وما قذفه فى قلوبهم من أنوار معرفته ، فليست محبتهم إياه عن اعتقاد فاسد .

لكن قد يقال : إن كثيرا [٢] ممن يكون فيه نوع محبة لله ، قد يكون معها اعتقاد فاسد ، إذ الحب يستتبع الشعور ، لا يستلزم صريح المعرفة ، لا سيما من كان من عقلاء المجانين ، الذين عندهم محبة لله وتألّه ، وفيهم فساد عقل ، فهؤلاء قد يصيب أحدهم ما يصيب العشاق فى حق الله ، ومعهم حب شديد ، ونوع من الاعتقاد والفاسد .

وكثيرا [٣] ما يعترى أهل المحبة من السكر والفناء ، أعظم ما يصيب السكران بالخمر ، والسكران بالصور ، كما قال تعالى فى قوم لوط : ﴿ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [سورة الحجر : ٧٢] ، فالحب له سكر أعظم من سكر الشراب ، كما قيل :

---

(١) فى الأصل : والمحبوب . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : كثير ، وهو خطأ .

(٣) فى الأصل : وكثير .

سُكْرانِ : سكر هوىً وسكر مدامة ومتى إفاقة من به سكران

ومعلوم أنه فى حال السكر والفناء تنقص المعرفة والتمييز ، ويضطرب العقل والعلم ، / فيحصل فى ضمن ذلك من الاعتقادات والتخيلات الفاسدة ، ما هو من جنس العشق الذى فيه فساد الاعتقاد . ظ ١٥٩

وهؤلاء محمودون على ما معهم من محبة الله والأعمال الصالحة والإيمان به ، وأما ما معهم من اعتقاد فاسد وعمل فاسد لم يشرعه الله ورسوله ، فلا يُحمدون على ذلك . لكن إن كانوا مغلوبين على ذلك ، بغير تفريط [١] منهم ولا عدوان ، كانوا معذورين ، وإن كان ذلك لتفريطهم فيما أمروا به ، وتعديهم حدود الله ، فهم مذنبون فى ذلك ، مثل ما يصيب كثيرا ممن يهيج حبه عند [٢] سماع المكاء والتصدية والأشعار الغزلية ، فتتولد لهم أنواع من الاعتقادات والإرادات التى فيها الحق والباطل ، وقد يغلب هذا تارة وهذا تارة .

فباب محبة الله ضل فيه فريقان من الناس : فريق من أهل النظر والكلام والمنتسبين إلى العلم ، جحدوها وكذَّبوا بحقيقتها .

وفريق من أهل التعبد والتصوف والزهد ، أدخلوا فيها من الاعتقادات والإرادات الفاسدة ما ضاهوا [٣] بها المشركين .

فالأولون يشبهون المستكبرين . وهؤلاء يشبهون المشركين .

ولهذا يكون الأول فى أشباه اليهود ، ويكون الثانى فى أشباه النصارى .

وقد أمرنا الله تعالى أن نقول : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّين ﴾ .

---

(١) فى الأصل : تفرط .

(٢) فى الأصل : عن .

(٣) فى الأصل : طاهو ، وهو تحريف .

فصل

كل محبة وبغضة يتبعها لذة وألم

ومن المعلوم أن كل محبة وبغضة فإنه يتبعها لذة وألم ، ففى نيل المحبوب لذة ، وفراقه يكون فيه ألم ، وفى نيل المكروه ألم ، وفى العافية منه تكون فيه لذة . فاللذة تكون [1] بعد إدراك المشتهى [2] ، والمحبة تدعو [3] إلى إدراكه .

فالمحبة : العلة الفاعلة لإدراك الملائم المحبوب المشتهى . واللذة والسرور هى الغاية .

اللذات ثلاثة أجناس
الأول : اللذة الحسية

واللذات الموجودة فى الدنيا ثلاثة أجناس : فجنس بالجسد تارة : كالأكل والنكاح ونحوهما مما يكون بإحساس الجسد ، فإن [أنواع] [4] المأكول والملبوس يباشرها الجسد .

الثانى : اللذة الوهمية

ص ١٦٠

و [جنس] يكون [5] مما يتخيله ويتوهمه بنفسه ونفس غيره ، كالمدح له ، والتعظيم له ، والطاعة له . / فإن ذلك لذيذ محبوب له ، كما أن فوات الأكل والشرب يؤلمه ، وأكل ما يضره يؤلمه . وكذلك فوات الكرامة – بحيث لا يكون له قدر عند أحد ولا منزلة – يؤلمه ، كما يؤلمه ترك الأكل والشرب . ويؤلمه الذم والإهانة ، كما يؤلمه الأكل والشرب الذى يضره .

فالمأكول والمنكوح هى أجساد تُنال بالجسد ، يتلذذ بوجودها ، ويتألم بفقدها ولحصول ما يضر منها [6] . وأما الكرامة فهى فى النفوس إذا كانت النفوس

---

(١) فى الأصل : يكون .
(٢) فى الأصل : المنتهى ، وهو تحريف .
(٣) فى الأصل : يدعوا .
(٤) زدت « أنواع » ليستقيم الكلام .
(٥) فى الأصل : ويكون .
(٦) فى الأصل : ما يصير منها .

ملائمة له وموافقة له ، بأن يعتقد فيه ما يسره ويوافقه بالمحبة والتعظيم ، كان ذلك مما يوجب لذته ، ولذته بإدراكه ذلك الملائم من الناس ، ومدحهم المظهر لاعتقادهم ، ومن طاعتهم وموافقتهم المظهرة لمحبتهم (١) وتعظيمهم .

الثالث : اللذة العقلية

والجنس الثالث أن يكون ما يعلمه بقلبه وروحه وبعقله كذلك (٢) ، كالتلذاذه (٣) بذكر الله ، ومعرفته ، ومعرفة الحق ، وتألمه بالجهل : إما البسيط (٤) ، وهو عدم الكلام والذكر ، وإما المركب وهو اعتقاد الباطل ، كما يتألم الجسد بعدم غذائه (٥) تارة ، وبالتغذى بالمضار أخرى .

كذلك النفس تتألم بعدم غذائها (٦) ، وهو (٧) موافقة الناس وإكرامهم تارة ، وبالتغذى (٨) بالضد ، وهو (٩) مخالفتهم وإهانتهم . فكذلك القلب يتألم بعدم غذائه ، وهو العلم (١٠) الحق وذكر الله تارة ، والتغذى بالضد ، وهو ذكر الباطل واعتقاده أخرى .

قال النبي ﷺ : « إن كل أحد يحب أن تؤتى مأدبته ، وإن مأدبة الله هى القرآن » (١١) .

---

(١) فى الأصل : المظهر ومحبتهم .
(٢) فى الأصل : بذلك .
(٣) فى الأصل : كالتذاذ .
(٤) فى الأصل : البسيطة .
(٥) فى الأصل : غذاه .
(٦) فى الأصل : عذابها .
(٧) فى الأصل : وهى .
(٨) فى الأصل : وبالتعدى .
(٩) فى الأصل : وهى .
(١٠) فى الأصل : المعلم .
(١١) لم أجد حديثا بهذه الألفاظ ، ولكنى وجدت أثراً عن عبد الله بن مسعود فى : سنن الدارمى =

وهذه اللذات الثلاث : اللذات الحسية ، والوهمية ، والعقلية . وقد علمت أن كل ما خلقه الله فى الحى من قوى الإدراك والحركة فإنما خلقه لحكمة ، وفى ذلك من جلب المنفعة للحى ، ودفع المضرة عنه ، ما هو من عظيم نعم الله عليه .

والله سبحانه بعث الرسل لتكميل الفطرة وتقريرها ، لا بتحويلها وتغييرها ، وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، والله شرع من الدين ما فيه استعمال هذه القوى على وجه العدل والاعتدال ، الذى فيه صلاح الدنيا والآخرة .

ومن المعلوم أن قوى الحركة فى الجسد ، التى هى حركات طبعية ، متى لم تكن [1] على وجه الاعتدال ، وإلا فسد الجسد . وكذلك قوى الإدراك والحركة التى فيه وفى النفس متى لم تكن [2] على وجه الاعتدال ، وإلا فسد الجسد . والحركة الطبعية ليس فيها حس ولا إرادة ، وهذه / لا تكون عن حركة إرادية كما تقدم ، لكن لا يكون ذلك فى نفس المتحرك بطبعه [3] ، كحركة الغذاء قبل أن يصرفه الخارج من السبيلين وغير ذلك .

ظ ١٦٠

= ٤٣٣/٢ (كتاب فضائل القرآن ، باب فضل من قرأ القرآن) ونصه : « عن ابن مسعود قال : ليس من مؤدب إلا وهو يحب أن يؤتى أدبه ، وإن أدب الله القرآن » . وجاءت آثار أخرى عن ابن مسعود منها ما ذكره الدارمى فى الموضع السابق : كان عبد الله يقول : « إن هذا القرآن مأدبة الله ، فمن دخل فيه فهو آمن » . ومنها أثر آخر عنه فى سنن الدارمى ٤٢٩/٢ أوله : « إن هذا القرآن مأدبة الله فخذوا منه ما استطعتم .... » ومنها جزء من أثر طويل جاء فى مجمع الزوائد للهيثمى ١٦٤/٧ أوله : وعن عبد الله – يعنى ابن مسعود – قال : « إن هذا القرآن مأدبة الله ، فتعلموا من مأدبة الله ما استطعتم » ، وفى نفس المكان أورد الهيثمى أثرا ثانيا أوله : « وعن أبى الأحوص قال : قال ابن مسعود : هذا القرآن مأدبة الله ، فمن استطاع أن يتعلم منه شيئا فليفعل .... » .

(١) فى الأصل : يكن .

(٢) فى الأصل : فى من لم يكن .

(٣) فى الأصل : بطبعية .

شرع الله من اللذات ما فيه صلاح حال الإنسان وجعل اللذة التامة فى الآخرة

والله سبحانه قد شرع من هذه اللذات ما فيه صلاح حال الإنسان فى الدنيا [١] ، وجعل اللذة التامة بذلك فى الدار الآخرة ، كما أخبر الله بذلك على ألسن رسله بأنها هى دار القرار ، وإليها تنتهى حركة العباد .

واللذة هى الغاية من الحركات الإرادية ، فتكون الغاية من اللذات عند الغاية من الحركات ، ولا يخالف ما يوجد فى الوسيلة والطريق ، فإن الموجود فيها من اللذات بقدر ما يعين على الوصول إلى المقصود التام ، وكل لذة ، وإن جلّت ، هى فى نفسها مقصودة لنفسها ، إذ المقصود لنفسه هو اللذة . لكن من اللذات ما يكون عونا على ما هو أكثر منه أيضا ، فيكون مقصوداً لنفسه بقدره ، ويكون مقصودا لغيره بقدر ذلك الغير ، وهذا من تمام نعمة الله على عباده ، وكل ما يتنعمون به ، إذا استعملوه على وجه العدل الذى شرعه ، أوصلهم به إلى ما هو أعظم نعمة منه .

ولذات الجنه أيضا تتضاعف وتتزايد كما يشاء الله تعالى ، فإن الله يقول ، كما ذكره النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » [٢] وقد قال الله تعالى فى كتابه : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [سورة السجدة : ١٧] .

---

(١) فى الأصل : قد شرع الدنيا من ... فى الدنيا . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى صحيح البخارى ١٤٤/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى « يريدون أن يبدلوا كلام الله ») ، ١١٨/٤ (كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء فى صفة الجنة وأنها مخلوقة) ، ١١٦/٦ (كتاب تفسير القرآن ، باب تفسير سورة تنزيل السجدة) . وأول الحديث فى هذا الموضع الأخير : « يقول الله تعالى : أعددت لعبادى .... والحديث فى : مسلم ٢١٧٤/٤ (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها) فى أربعة مواضع ؛ سنن الترمذى ٢٦/٥ (كتاب التفسير ، باب تفسير سورة السجدة) ؛ سنن ابن ماجة ١٤٤٧/٢ (كتاب الزهد ، باب صفة الجنة) ؛ سنن الدارمى ٣٣٥/٢ (كتاب الرقائق ، باب ما أعد الله لعباده الصالحين) ؛ المسند (ط . المعارف) ٤٦/١٧ ، ١٠٤/١٩ .

ولهذا بعث الله الرسل مبشِّرين ومنذرين : مبشِّرين بنعمة الله التامة فى جنته لمن أطاعهم ، فاتّبع الذكر الذى أنزل عليهم ، واستعمل [١] القسط الذى بعثوا به . ومنذرين بتعظيمهم عقاب الله لمن أعرض عن ذلك وعصاهم فكان من الظالمين .

قال تعالى : ﴿ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [سورة طه : ١٢٣ ، ١٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٣٨ ، ٣٩] .

غلط المتفلسفة ومن اتبعهم فى أمر هذه اللذات

وقد غلطت المتفلسفة من الصابئة والمشركين ونحوهم ، ومن حذا حذوهم ممن صنَّف فى أصناف هذه اللذات ، كالرازى [٢] وغيره فى أمر هذه اللذات فى الدنيا والآخرة ، حتى جرَّهم ذلك الغلط إلى الدين الفاسد فى الدنيا بالاعتقادات الفاسدة ، والعبادات والزهادات الفاسدة ، وإلى التكذيب بحقيقة ما أخبر الله به على ألسن رسله من وعده ووعيده ، / فصاروا تاركين لما ينفعهم من لذات الدنيا ، معرضين عما خلقوا له من لذات الآخرة ، ومعتاضين عن ذلك بأخذ ما يضرهم مما يظنون أنه لذة فى الدنيا ، أو موصل للذة فى الدنيا ، وهم فى ذلك : ﴿ إن

ص ١٦١

(١) فى الأصل : واستعمال .

(٢) لفخر الدين الرازى كتاب « أقسام اللذات » ومنه نسخة خطية فى برلين وأخرى فى أفغانستان . انظر : محمد صالح الزركان : فخر الدين الرازى وآراؤه الكلامية والفلسفية ، ص ٧٨ – ٧٩ ، ط . دار الفكر ، بيروت .

يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِهِمُ الْهُدَى ﴾ [سورة النجم : ٢٣] ، فجهلوا المقاصد والوسائل ، فكانوا ضالين يقصدون ما ينفعهم ويلذهم ، وهم لا يعرفون عين مقصودهم ولا الطريق إليه ، وصار عامتهم غواة منهمكين فى اللذات التى تضرهم .

ضل الأنصارى كذلك فى أمر اللذات

والنصارى ضارعوهم فى بعض ذلك حين كذَّبوا بكثير مما وعدوا به فى الآخرة من اللذات ، وضلّوا بما ابتدعوه من العبادات ، فكانوا ضالين ، كما قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [سورة المائدة : ٧٧] ، ولهذا يغلب على عوامهم الغيّ واتباع شهوات الغى ، إذ لم يحرموا عليهم شيئا من المطاعم والمشارب .

اليهود أعلم لكنهم غواة قساة

وأما اليهود فهم أعلم بالمقصود وطريقه ، لكنهم غواة قساة ، مغضوب عليهم .

ويتبين ذلك بأصلين : أحدهما أنهم [١] اعتقدوا أن اللذات الحسية والوهمية ليست لذات فى الحقيقة ، وإنما هى دفع آلام ، وربما حسّنوا العبارة [٢] فقالوا : ليس المقصود بها التنعم ، وإنما المقصود بها دفع الألم ، بخلاف اللذات العقلية الروحانية ، فإنها هى اللذات فقط ، وهى المقصودة [٣] لذاتها فقط ، وعن هذا يدفعون أن تكون للنفوس بعد مفارقة الدنيا لذات حسية ، أو وهمية ، وإنما يكون لها لذات روحانية فقط .

---

(١) الكلام فيما يلى على الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام .
(٢) فى الأصل : العارة .
(٣) فى الأصل : المقصود .

تحصيل مقالة الفلاسفة فى اللذة

ثم إن من دخل مع أهل الملل منهم وافق [١] المؤمنين بإظهاره للإقرار بما جاءت به الرسل ، وقال : إن ما [٢] أخبرت به الرسل من الوعد والوعيد إنما هو أمثال مضروبة لتفهم العامة المعاد الروحانى ، وما فيه من اللذة والألم الروحانيين ، وربما يغرب بعضهم فأثبت اللذات الخيالية ، بناءً على أن النفوس يمكن أن يحصل لها من إشراق الافلاك [عليها] [٣] ما يحصل لها به من اللذة ما هو من أعظم اللذات الخيالية ، التى قد يقولون : هى أعظم من الحسية .

ظ ١٦١

الأصل الثانى : / أن اللذات العقلية التى أقرُّوا بها لم تحصل لهم ، ولم يعرفوا الطريق إليها ، بل ظنوا أن ذلك إنما [هو] [٤] إدراك الوجود المطلق بأنواعه وأحكامه ، وطلبوا اللذة العقلية فى الدنيا بما هو من هذا النمط من الأمور العقلية ، وتكلموا فى الإلٰهيات بكلام حقه قليل وباطله كثير ، فكانوا طالبين للذة العقلية التى أثبتوها بالأغذية الفاسدة التى تضر وتؤلم ، أكثر من طلبها بالأغذية النافعة ، بل كانوا فاقدين لغذائها الذى لا صلاح لها إلا به ، وهو إخلاص الدين لله ، بعبادته [٥] وحده لا شريك له ، فإن هذا هو خاصة النفس التى خلقت له ، لا تصلح [إلا] [٦] به ، ولا تفسد [٧] فساداً مطلقا مع وجوده قط ، بل من بات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة .

كما ثبت ذلك فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال من وجوه متعددة — من

---

(١) فى الأصل : ناسو (بدون نقط) ولعل الصواب ما أثبته . والكلام هنا على الفلاسفة .

(٢) فى الأصل : وقال بما . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : يمكن أن يجعل لها من احترام الأفلاك ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) زدت « هو » ليستقيم الكلام .

(٥) فى الأصل : بعباده .

(٦) زدت « إلا » ليستقيم الكلام .

(٧) فى الأصل : يفسد .

حديث عثمان بن عفان ، وأبى ذر ، ومعاذ بن جبل ، وأبى هريرة وعتبان بن مالك ، وعبادة بن الصامت ، وغيرهم – : ولا يخلد فى النار من أهل التوحيد أحد ، بل يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال دينار من إيمان أو مثقال شعيرة من إيمان أو مثقال ذرة من إيمان (١) .

وقد تكلمت على رسالة المبدأ والمعاد التى صنفها أبو على بن سينا (٢) ، وزعم أن فيها من الأسرار المخزونة من فلسفتهم بما يناسب هذا مما ليس هذا موضعه ، وبينت ما دخل عليهم من الجهل والكفر فى ذلك من وجوه بيّنة من لغاتهم ومعارفهم التى يفقهون بها ، ويعلمون صحة ما عليه أهل الإيمان بالله ورسوله ، وبطلان ما هم عليه مما يخالف ذلك من الحقيقة ، وإن زعموا أنهم موافقون لأهل الإيمان .

نعم هم مؤمنون ببعض ، وكافرون ببعض ، كما قد بيّنت أيضا مراتب ما معهم ومع غيرهم من الكفر والإيمان فى غير هذا الموضع ، وذكرت ما كفروا به مما خالفوا به الرسل ، وما آمنوا به مما وافقوهم [فيه] (٣) .

---

(١) جاءت أحاديث كثيرة عن النبى ﷺ فيها تصديق لما ذكره ابن تيمية هنا . انظر مثلا قوله ﷺ من حديث أنس بن مالك : « .... فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من إيمان فاخرجوه ... فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه ... » فى : البخارى ٩/١٣٠ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى وجوه يومئذ ناضرة ....) وهو بمعناه فى مسلم ١/١٦٩ – ١٧٠ (كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية) . وانظر قوله ﷺ من حديث آخر لأنس بن مالك : « .... فمن كان فى قلبه مثقال حبة من بُرَّة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها ...) فى : مسلم ١/١٨٣ (كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها) . وانظر : المسند (ط . المعارف) ٤/٢٤٣ ، (ط . الحلبى) ٣/١٧ ، ٩٤ – ٩٥ ، ١١٦ ؛ سنن ابن ماجة ١/٢٣ ، ٢/١٤٤٣ .

(٢) وهى « الرسالة الأضحوية فى أمر المعاد » حققها الدكتور سليمان دنيا ، ط . دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٣٦٨/١٩٤٩ وقد تكلم عليها ابن تيمية فى « درء تعارض العقل والنقل » انظر جـ ١ ص ٩ ، جـ ٥ ص ١٠ – ١٧ ، ص ٥٠ .

(٣) زدت « فيه » ليستقيم الكلام .

ص ١٦٢ فإن الله أمرنا بالعدل ، وأمرنا / أن نعدل بين الأمم ، كما قال تعالى لرسوله : ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ﴾ [سورة الشورى : ١٥] ، وقال تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [سورة الحديد : ٢٥] .

فصل

حب الله أصل التوحيد العملى

وإذا كان أصل الإيمان العملى هو حب الله تعالى ورسوله ﷺ ، وحب الله أصل التوحيد العملى ، وهو أصل التأليه ، الذى هو عبادة الله وحده لا شريك له ، فإن العبادة أصلها أكمل أنواع المحبة ، مع أكمل أنواع الخضوع ، وهذا هو الإسلام .

وأعظم الذنوب عند الله الشرك به ، وهو سبحانه لا يغفر أن يُشرك به ويغفرُ ما دون ذلك لمن يشاء ، والشرك : منه جليل ودقيق ، وخفى وجلى .

كما فى الحديث : « الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل . فقال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله : إذا كان أخفى من دبيب النمل فكيف نصنع به ؟ أو كما قال ، فقال : ألا أعلمك كلمة إذا قلتها نجوت من قليله وكثيره ؟ قل : اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما [لا] (١) أعلم » (٢) .

---

(١) لا : ساقطة من الأصل ، وزدتها لأنها من ألفاظ الحديث .

(٢) لم أجد حديثا عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه بهذا المعنى ولكنى وجدت فى مسند الإمام أحمد ٤٠٣/٤ (ط . الحلبى) حديثا آخر عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه ونصه : « .... عن أبى على رجل من بنى كاهل قال : خطبنا أبو موسى الأشعرى فقال : يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل . فقام إليه عبد الله بن حزن وقيس بن المضارب فقالا : والله لتخرجن مما قلت أو لتأتين عمر =

أصل الإشراك العملى بالله الإشراك فى المحبة

فمعلوم أن أصل الإشراك العملى بالله الإشراك فى المحبة ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] ، فأخبر أن من الناس من يشرك بالله ، فيتخذ أندادا يحبونهم كما يحبون الله ، وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبًّا لله من هؤلاء ، والمؤمنون أشد حبا لله من هؤلاء لأندادهم ولله ، فإن هؤلاء أشركوا بالله فى المحبة ، فجعل المحبة مشتركة بينه وبين الأنداد ، والمؤمنون أخلصوا دينهم لله الذى أصله المحبة لله ، فلم يجعلوا لله عدلا فى المحبة ، بل كان الله ورسوله أحب إليهم [١] مما سواهما ، ومحبة الرسول هى من محبة الله ، وكذلك كل حب فى الله ، وهو الحب لله .

المؤمنون يحبون لله ويبغضون لله

كما فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان » [٢] وفى رواية فى الصحيح « لا يجد حلاوة الإيمان إلا من كان فيه ثلاث خصال : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، كما يكره أن يلقى فى النار » [٣] .

ولهذا / فى الحديث : « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، ظ ١٦٢

= مأذون لنا أو غير مأذون . قال : بل أخرج مما قلت . خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : « يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل » . فقال له من شاء الله أن يقول : وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله ؟ قال : « قولوا : اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلم » .

(١) فى الأصل : إليه .

(٢) مضى الحديث من قبل (ص : ١٩٨ ، ٢٤٣) .

(٣) مضى الحديث من قبل (ص : ١٩٨ ، ٢٤٣) .

فقد استكمل الإيمان » [(١)] وفى الأثر : ما تحاب رجلان فى الله إلا كان أفضلهما أشدهما حبا لصاحبه . لأن هذه المحبة من محبة الله ، وكل من كانت محبته لله أشد كان أفضل .

وخير الخلق محمد رسول الله ﷺ ، وخير البرية بعده إبراهيم ، كما ثبت ذلك فى الحديث الصحيح ، وكل منهما خليل الله .

والخُلَّة تتضمن كمال المحبة ونهايتها ، ولهذا لم يصلح لله شريك فى الخلة ، بل قال ﷺ فى الحديث الصحيح : « لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صاحبكم خليل الله » [(٢)] وفى لفظ : « أنا أبرأ إلى كل خليل من خلته » [(٣)] .

فمحبة ما يحبه الله لله من الأعيان والأعمال من تمام محبة الله ، وهو الحب فى الله ولله ، وإن كان كثير من الناس يغلط فى معرفة كثير من ذلك أو وجوده ، فيظن فى أنواع من المحبة أنها محبة لله ، ولا تكون لله ، ويظن وجود المحبة لله فى أمور ، ولا تكون المحبة لله موجودة ، بل قد يعتقد وجود المحبة لله وتكون معدومة ، وقد يعتقد فى بعض الحب أنه لله ، ولا يكون لله ، كما يعتقد وجود العلم أو العبادة

---

(١) الحديث عن أبى أمامة رضى الله عنه فى : سنن أبى داود ٣٠٤/٤ (كتاب السنة ، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه) وهو - بألفاظ مقاربة - عن سهل بن معاذ الجهنى عن أبيه فى سنن الترمذى ٧٨/٤ (كتاب صفة القيامة ، باب منه) وقال الترمذى : هذا حديث منكر حسن . ؛ وهو فى المسند عنه (ط. الحلبى) ٤٣٨/٣ ، ٤٤٠ . وصححه الألبانى فى « صحيح الجامع الصغير » ٢٢٩/٥ وقال : « د (سنن أبى داود) والضياء عن أبى أمامة » .

(٢) مضى هذا الحديث من قبل (ص : ٢٣٩) .

(٣) الحديث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى : سنن ابن ماجة ٣٦/١ (المقدمة ، باب فى فضائل أصحاب رسول الله ﷺ) ونصه : قال رسول الله ﷺ : « ألا إنى أبرأ إلى كل خليل من خلته ، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، إن صاحبكم خليل الله » . قال وكيع : يعنى نفسه .

أو غير ذلك من الصفات فى بعض الأشخاص والأحوال ، ولا يكون ثابتا ، وقد يعتقد فى كثير من الأعمال أنه معمول لله ، ولا يكون لله .

فمحبة ما يحبه الله من الأعمال الباطنة والظاهرة ، وهى الواجبات والمستحبات : إذا أحببت لله كان ذلك من محبة الله ، ولهذا يوجب ذلك محبة الله لعبده .

وكما فى الحديث الصحيح عن الله تعالى : « من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة ، وما تقرب إلىَّ عبدى بمثل أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرَّب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به [1] ، وبصره الذى يبصر به [1] ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، / وبى يمشى ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت ، وأكره مساءته ، ولابد له منه » [2] . ص ١٦٣

وكذلك محبة كلام الله وأسمائه وصفاته ، كما فى الحديث الصحيح : فى الذى كان يصلِّى بأصحابه فيقرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ : إما أن يقرأها وحدها ، أو يقرأ بها مع سورة أخرى . فأخبروا بذلك النبى ﷺ ، فقال : « سلوه : لِمَ يفعل ذلك ؟ فقال : لأنى أحبها ، فقال : [إن] حبك [إياها أدخلك الجنة] » [3] .

---

(١) فى الأصل : بها ، وهو تحريف .

(٢) مضى الحديث من قبل (ص : ٢٦ - ٢٧) .

(٣) فى الأصل : فقال : حبكا . والصواب ما أثبته ، وهو لفظ الحديث فى سنن الترمذى ٣٤٤/٤ . وقد جمع ابن تيمية هنا بين حديثين الأول عن عائشة رضى الله عنه ونصه فى : البخارى ١١٥/٩ (كتاب التوحيد ، باب ما جاء فى دعاء النبى ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى) : « عن عائشة أن النبى ﷺ بعث رجلا على سرية وكان يقرأ لأصحابه فى صلاته فيختم بقل هو الله أحد . فلما =

وكذلك محبة ملائكة الله وأنبيائه وعباده الصالحين ، كما كان عبد الله بن عمر يدعو بالمواقف فى حجه فيقول : « اللهم اجعلنى أحبك ، وأحب ملائكتك ، وأنبياءك [1] وعبادك الصالحين ، اللهم حببنى إليك وإلى ملائكتك وأنبيائك وعبادك الصالحين » .

محبة الله مستلزمة لمحبة ما يحبه من الواجبات

بل محبة الله مستلزمة لمحبة ما يحبه من الواجبات كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [سورة آل عمران : ٣١] ، فإن اتباع رسوله هو من أعظم ما أوجبه الله تعالى على عباده وأحبه ، وهو سبحانه أعظم شئ بغضا لمن لم يتبع رسوله . فمن كان صادقا فى دعوى محبة الله اتّبع رسوله لا محالة ، وكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

الذنوب تنقص من محبة الله

والذنوب تنقص من محبة الله تعالى بقدر ذلك ، لكن لا تزيل المحبة لله ورسوله إذا كانت ثابتة فى القلب ، ولم تكن الذنوب عن نفاق . كما فى صحيح البخارى عن عمر بن الخطاب : حديث حمار الذى كان يشرب الخمر ، وكان النبى ﷺ يقيم عليه الحد ، فلما كثر ذلك منه لعنه رجل ، فقال النبى ﷺ :

= رجعوا ذكروا ذلك للنبى ﷺ فقال : « سلوه لأى شيء يصنع ذلك ؟ » فسألوه ، فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها . فقال النبى ﷺ : أخبروه أن الله يحبه » . وهذا الحديث جاء أيضا فى : مسلم ٥٥٧/١ (كتاب صلاة المسافرين وقصرها : باب فضل قراءة قل هو الله أحد) ؛ سنن النسائى ١٣٢/٢ (كتاب الافتتاح ، باب الفضل فى قراءة قل هو الله أحد) . وأما الحديث الثانى فهو عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وقد أورده الترمذى مرتين فى سننه ٢٤٣/٤ - ٢٤٤ ونص الرواية المختصرة : « عن أنس أن رجلا قال : يا رسول الله : إنى أحب هذه السورة : قل هو الله أحد . قال : إن حبك إياها أدخلك الجنة » .

(١) فى الأصل : وأنبيائك ، وهو خطأ .

« لا تلعنه ، فإنه يحب الله ورسوله » [١] . وفيه دلالة على أنا منهيون / عن لعنة أحد بعينه ، وإن كان مذنبا ، إذا كان يحب الله ورسوله . ظ ١٦٣

فكما أن المحبة الواجبة تستلزم لفعل الواجبات ، وكمال المحبة المستحبة تستلزم لكمال فعل المستحبات ، والمعاصى تنقض المحبة ، وهذا معنى قول الشبلى [٢] لما سئل عن المحبة ، فقال ما غنَّت به جارية فلان :

تعصى الإله وأنت تزعم حبه هذا محال فى القياس شنيع
لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن أحب مطيع [٣]

وهذا كقوله ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » [٤] وقد تكلمنا على هذا فى غير هذا الموضع .

---

(١) الحديث عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى : البخارى ١٥٨/٨ (كتاب الحدود ، باب ما يكره من لَعْن شارب الخمر وأنه ليس بخارج من الملة) .

(٢) هو أبو بكر دلف بن جحدر الشبلى ، من أئمة الصوفية ، ولد سنة ٢٤٧ وتوفى سنة ٣٣٤ ببغداد ، تفقه على مذهب الإمام مالك ، وصحب الجنيد . انظر ترجمته وأقواله فى : الرسالة القشيرية ١٤٨/١ – ١٤٩ ؛ صفة الصفوة ٢٥٨/٢ – ٢٦١ (وذكر الخلاف فى اسمه واسم أبيه) ؛ حلية الأولياء ٣٦٦/١٠ – ٣٧٥ ؛ طبقات الصوفية ، ص ٣٣٧ – ٣٤٨ ؛ تاريخ بغداد ٣٨٩/١٤ – ٣٩٧ ؛ المنتظم ٣٤٧/٦ – ٣٤٩ ؛ الأعلام ٢٠/٣ – ٢١ .

(٣) نسب أبو حامد الغزالى هذين البيتين إلى عبد الله بن المبارك فى الإحياء ١٠٣/١٤ (ط . لجنة نشر الثقافة الإسلامية ، القاهرة ، ١٣٥٧) ورواهما :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمرى فى الفعال بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

ونسب الدكتور محمد مصطفى حلمى رحمه الله البيتين إلى رابعة العدوية فى كتابه « الحياة الروحية فى الإسلام ، ص ٧٧ ، ط . عيسى الحلبى ، القاهرة ، ١٣٦٤/١٩٤٥ .

(٤) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه – مع اختلاف فى الألفاظ – فى : البخارى ١٣٦/٣ =

والمقصود هنا أن نفرق بين الحب فى الله ولله ، الذى هو داخل فى محبة الله ، وهو من محبته [(١)] ، وبين الحب لغير الله الذى فيه شرك فى المحبة لله ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] ، فإن هؤلاء يشركون بربهم فى الحب ، عادلون به ، جاعلون له أندادا . وأولئك أخلصوا دينهم لله ، فكان حبهم الذى هو أصل دينهم كله لله . وهذا هو الذى بعث الله به الرسل ، وأنزل به الكتب ، وأمر بالجهاد عليه .

كما قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٩٣] وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا ﴾ ص ١٦٤ [سورة التوبة : ٢٤] .

وقد عُلم أن محبة المؤمنين لربهم أشد من محبة هؤلاء المشركين لربهم ولأندادهم ، ثم إن اتخاذ الأنداد هو [(٢)] من أعظم الذنوب ، كما فى الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال : قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك . قلت : ثم أى ؟ قال : ثم أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعَمَ معك .

= (كتاب المظالم ، باب النهى بغير إذن صاحبه) ، ١٠٤/٧ (كتاب الأشربة ، باب إنما الخمر والميسر ...) ، ١٥٧/٨ (كتاب الحدود ، باب لا يشرب الخمر) ، ١٦٤/٨ (كتاب الحدود ، باب إثم الزناة) ؛ مسلم ٧٦/١ ، ٧٧ (كتاب الإيمان ، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصى ....) ؛ سنن أبى داود ٣٠٦/٤ (كتاب السنة ، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه) ؛ سنن الترمذى ١٢٧/٤ (كتاب الإيمان ، باب لا يزنى الزانى وهو مؤمن) ؛ سنن ابن ماجة ١٢٩٨/٢ - ١٢٩٩ (كتاب الفتن ، باب النهى عن النهبة) ؛ سنن الدارمى ١١٥/٢ (كتاب الأشربة ، باب فى التغليظ لمن شرب الخمر) ؛ المسند (ط . المعارف) ٤١/١٣ .

(١) كلمة « محبته » غير واضحة فى الأصل وكذا استظهرتها .

(٢) فى الأصل : هى .

قلت : ثم أى ؟ قال : ثم أن تزانى بحليلة جارك » ، فأنزل الله تصديق ذلك : ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ﴾ [سورة الفرقان : ٦٨] (١) ، فدعاء إلٰهٍ (٢) آخر مع الله هو اتخاذ ندٍّ من دون الله ، يحبه كحب الله ، إذ أصل العبادة المحبة .

والمحبة وإن كانت جنسا تحته أنواع ، فالمحبوبات المعظَّمة (٣) لغير الله قد أثبت الشارع فيها اسم التعبد ، كقوله ﷺ فى الحديث الصحيح : « تعس عبد الدرهم : تعس عبد الدينار ، تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، إن أُعطِىَ رضى ، وإن مُنع سخط » (٤) .

فسمَّى هؤلاء الأربعة [الذين] إن أُعطوا رضوا ، وإن مُنِعوا سخطوا – لأنها محبتهم ومرادهم – عباداً لها (٥) ، حيث قال : عبد الدرهم ، وعبد الدينار ، وعبد القطيفة ، وعبد الخميصة .

---

(١) الحديث – بألفاظ متقاربة – عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى : البخارى ١٨/٦ (كتاب التفسير ، سورة البقرة ، باب قوله تعالى : فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) ، ٨/٨ (كتاب الأدب ، باب قتل الولد خشية أن يأكل معه) ، ١٦٤/٨ (كتاب الحدود ، باب إثم الزناة) ، ١٥٢/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : فلا تجعلوا لله أنداداً) ؛ مسلم ٩٠/١ ، ٩١ (كتاب الإيمان ، باب كون الشرك أقبح الذنوب) ؛ سنن الترمذى ١٧/٥ – ١٨ (كتاب التفسير ، تفسير سورة الفرقان) ؛ سنن أبى داود ٣٩٤/٢ (كتاب الطلاق ، باب فى تعظيم الزنا) ؛ سنن النسائى ٨٢/٧ – ٨٣ (كتاب التحريم ، باب ذكر أعظم الذنب) ؛ المسند (ط . المعارف) ٢١٧/٥ ، ٧٦/٦ ، ٨٦ – ٨٧ .

(٢) فى الأصل : إلٰهاً ، وهو خطأ .

(٣) فى الأصل : المعضمة ، وهو تحريف .

(٤) الحديث – مع اختلاف فى اللفظ – عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ٣٤/٤ (كتاب الجهاد ، باب الحراسة فى الغزو فى سبيل الله) ؛ سنن ابن ماجه ١٣٨٦/٢ (كتاب الزهد ، باب فى المكثرين) وهو فى موضعين .

(٥) فى الأصل العبارة مضطربة هكذا : فسمى هؤلاء إن أعطوا رضوا وإن منعوا سخطوا لأنها محبتهم ومرضاهم إلى هذه الأتبعة عبادا لها ، ولعل الصواب ما أثبته .

مراتب العشق

فإذا كان الإنسان مشغوفا بمحبة بعض المخلوقات لغير الله ، الذى يرضيه وجوده ، ويسخطه عدمه - كان فيه من التعبد بقدر ذلك . ولهذا يجعلون العشق مراتب مثل : العلاقة ، ثم الصبابة ، ثم الغرام ، ويجعلون آخره التتيم : والتتيم : التعبد ، وتيم الله : هو عبد الله . فيصير العاشق لبعض الصور عبداً لمعشوقه .

ذكر الله العشق فى القرآن عن المشركين

والله سبحانه إنما ذكر هذا العشق فى القرآن عن المشركين ، فإن العزيز وامرأته وأهل مصر كانوا مشركين ، كما قال لهم يوسف عليه الصلاة والسلام : ﴿ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . وَاتَّبَعتُ مِلَّةَ آبَائِى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ مِن شَىْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ . يَا صَاحِبَىِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة يوسف : ٣٧ - ٤٠] .

ظ ١٦٤

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُم فِى شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُم لَن يَبْعَثَ اللهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ . الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [سورة غافر : ٣٤ ، ٣٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة يوسف : ٣٠] .

وأما يوسف عليه السلام فإن الله ذكر أنه عصمه بإخلاصه الدين لله ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٢٤] ، فأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء والفحشاء . ومن السوء عشقها ومحبتها ، ومن الفحشاء الزنا ، وقد يزنى بفرجه من لا يكون عاشقا ، وقد يعشق من لا يزنى بفرجه ، والزنا بالفرج أعظم من الإلمام بصغيرة كنظرة وقبلة .

وأما الإصرار على العشق ولوازمه : من النظر ونحوه ، فقد يكون أعظم من الزنا الواحد بشيء كثير ، والمخلصون يصرف الله عنهم السوء والفحشاء ، ويوسف عليه السلام كان من المخلصين ، حيث كان يعبد الله ، لا يشرك به شيئا ، وحيث توكَّل على الله ، واستعان به ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ۝ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [سورة يوسف : ٣٣ ، ٣٤] .

وهذا تحقيق قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [سورة النحل : ٩٨ - ١٠٠] ، فأخبر سبحانه أن المتوكلين على الله ليس للشيطان عليهم سلطان ، وإنما سلطانه على المتولِّين له ، والمتولى من الولاية ، وأصله المحبة والموافقة ، كما أن العداوة أصلها البغض والمخالفة . فالمتولُّون [1] له هم الذين يحبون ما يحبه الشيطان ويوافقه ، فهم مشركون [2] به حيث أطاعوه وعبدوه بامتثال أمره ، كما قال تعالى :

المتولون للشيطان هم الذين يحبون ما يحبه

(١) فى الأصل : فالمتولين ، وهو خطأ .
(٢) فى الأصل : مشركين ، وهو خطأ .

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِى آدَمَ أَلاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ وَأَنِ اعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [سورة يس : ٦٠ ، ٦١] .

والشياطين شياطين الإنس والجن ، والعبادة فيها الرغبة والرهبة . قال تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ۞ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ۞ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۞ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ۞ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۞ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ۞ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۞ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۞ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ۞ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [سورة صٓ : ٧٥ - ٨٥] فأقسم الشيطان ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

ص ١٦٥

وقد أخبر الله أنه ليس له سلطان على هؤلاء [1] فقال فى الحجر : ﴿ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۞ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [سورة الحجر : ٣٤ ، ٣٥] ، ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة الحجر : ٣٩ ، ٤٠] قال تعالى ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [سورة الحجر : ٤٢] .

وقوله ﴿ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ استثناء منقطع فى أقوى القولين ، إذ العباد هم العابدون ، لا المعبودون . كما قال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً ﴾ [سورة الفرقان : ٦٣] .

---

(١) فى أعلى ص ١٦٥ كتب إلى اليسار منها : « الثالث » .

وقال تعالى : ﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ [سورة الإنسان : ٦] .

وقال تعالى : ﴿ الْأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ۝ يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَومَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ۝ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ [سورة الزخرف : ٦٧ – ٦٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ ﴾ [سورة الجن : ١٩] .

وقال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ [سورة الإسراء : ١] .

وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِى الْأَيْدِى وَالْأَبْصَارِ ﴾ [سورة صٓ : ٤٥] .

عباد الله المخلصون ليس للشيطان عليهم سلطان

وإذا كان عباد الله المخلصون ليس له (١) عليهم سلطان ، وأن سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ، وقد أقسم أن يغويهم إلا عباد الله المخلصين ، وأخبر الله أن سلطانه ليس على عباد الله ، بل على من اتبعه من الغاوين .

والغىُّ : اتّباع الأهواء والشهوات ، وأصل ذلك أن الحب لغير الله كحب الأنداد ، وذلك هو الشرك ، قال الله تعالى فيه : ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [سورة النحل : ١٠٠] ، فبيّن أن صاحب الإخلاص ، مادام صادقا فى إخلاصه ، فإنه يعتصم من هذا الغى وهذا الشرك ، وإن الغى هو يضعف الإخلاص ، ويقوّى هواه (٢) الشرك . فأصحاب

---

(١) أى للشيطان .

(٢) أى هوى الإنسان .

العشاق يتولون الشيطان ويشركون به

ظ ١٦٥

العشق ، الذى يحبه الشيطان ، فيهم من تولّى الشيطان ، والإشراك به بقدر ذلك ، لما فاتهم من إخلاص المحبة لله ، والإشراك بينه وبين غيره فى المحبة ، حتى يكون فيه نصيب / من اتّخاذ الأنداد ، وحتى يصيروا عبيداً لذلك المعشوق ، فيفنون فيه [(١)] ويصرحون بأنّا عبيد له [(٢)] ، فيوجد فى هذا الحب والهوى ، واقتراف [(٣)] ما يبغضه الله ، وما حرَّمه من الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، وأن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن يقولوا على الله ما لا يعلمون ، فيوجد فيه من الشرك الأكبر والأصغر ، ومن قتل النفوس بغير حق ، ومن الزنا ، ومن الكذب ، ومن أكل المال بالباطل ، إلى غير ذلك ما ينتظم هذه الأصناف التى يكرهها [(٤)] الله تعالى ، لأن أصله أن يكون حبه كحب الله ، وهو من ترك [(٥)] إخلاص المحبة ، ومن الإشراك بينه وبين غيره ، أو من جعل المحبة لغير الله ، فإذا عمل موجب ذلك ، كان ذلك هو اتّباع الهوى بغير هدىً من الله .

وفى الأثر : ما تحت أديم السماء إلٰه يعبد أعظم عند الله من هوى متبع . قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ۞ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [سورة الفرقان : ٤٣ ، ٤٤] .

ولهذا لا يبتلى بهذا العشق إلا من فيه نوع شرك فى الدين ، وضعف إخلاص لله . وسبب هذا ما ذكره بعضهم فقال : إنه ليس شيء من

---

(١) فى الأصل : فينمى فيه ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : بأنا عبيداً له ، وهو خطأ .

(٣) فى الأصل : واجتناب ، وهو خطأ ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : التى يكرهه ، وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : لأن أصله ما حبه كحب الله هو من ترك .... إلخ . ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

المحبوبات يستوعب محبة القلب إلا محبة الله أو محبة بشر مثلك . أما محبة الله فهى التى خُلق لها العباد ، وهى سعادتهم ، وقد تكلمنا عليها فى غير هذا الموضع .

وأما البشر المتماثل ، من ذكر أو أنثى ، فإن فيه من المشاكلة والمناسبة ما يوجب أن يكون لكل شيء من الحب نصيب من المحبوب يستوعبه حبه ، ولهذا لا يُعرف لشيء [١] من المحبوبات التى تُحب لغير الله من الاستيعاب ما يعرف لذلك ، حتى يُزيل العقل ، ويُفقد الإدراك ، ويُوجب انقطاع الإرادة لغير ذلك المحبوب ، ويوجب مرض [٢] الموت ، وإنما يعرض هذا كله لضعف ما فى القلب من حب الله وإخلاص الدين له ، عبادةً واستعانةً ، فيكون فيه من الشرك ما يسلِّط الشيطان عليه ، حتى يغويه بهذا الغى ، الذى فيه من تولِّى الشيطان والإشراك به ، ما يتسلط به الشيطان .

ولهذا قد يطيع هذا المحب لغير الله محبوبه أكثر [٣] مما يطيع الله ، حتى يطلب القتل فى سبيله ، كما يختار المؤمن القتل فى سبيل الله ، وإذا كان محبوبه مطيعه من وجه وعبدا له ، [فهو أولى] [٤] بأن / يكون هو مطيعه وعبدا له من وجه آخر . ص ١٦٦

وإذا كان النبى ﷺ قال : « شارب الخمر كعابد وثن » [٥] . ومرّ علىّ

---

(١) فى الأصل : شيء . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : لمرض . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : لمحبوبه أو أكثر ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) زدت عبارة « فهو أولى » ليستقيم الكلام .

(٥) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : سنن ابن ماجة ١١٢٠/٢ (كتاب الأشربة ، باب مدمن الخمر) ونصه : « مدمن الخمر كعابد وثن » . وصححه الألبانى فى « صحيح الجامع الصغير » ٢٠٥/٥ .

رضى الله عنه (١) بقوم يلعبون بالشطرنج فقال : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ وأظنه قلب الرقعة (٢) .

وذلك أن الله جمع بين الخمر والميسر ، وبين الأنصاب والأزلام فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٩٠ ، ٩١] .

مع أن الخمر إذا سكر بها الشارب كان سكره يوما أو قريبا من يوم أو بعض يوم ، وأما سكر الشهوة والمحبة الفاسدة من العشق ونحوه فسكره قوى دائم . قال تعالى فى قوم لوط : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [سورة الحجر : ٧٢] .

فكيف إذا خرج عن حد السكر إلى حد الجنون ، بل كان الجنون المطبق لا الحمق (٣) ، كما أنشد محمد بن جعفر فى كتاب « اعتلال القلوب » (٤) قال : أنشدنى الصيدلانى :

قالت جُنِنْتُ على رأسى فقلت لها العشق أعظم مما بالمجانين

---

(١) فى الأصل : ومر على عليلم . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) أورد ابن كثير هذا الخبر فى تفسيره لآية ٥٢ سورة الأنبياء عن ابن أبى حاتم .... قال : مر علىّ على قوم يلعبون بالشطرنج ، فقال : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ لأن يمس صاحبكم جمراً حتى يطفأ خير له من أن يمسّها .

(٣) فى الأصل : الحامق .

(٤) هو أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر السامرى الخرائطى ، محدث أديب ، ولد سنة ٢٤٠ وتوفى سنة ٣٢٧ ، من تصانيفه : « اعتلال القلوب » فى أخبار العشاق (وهو مخطوط) . انظر ترجمته فى : تاريخ بغداد ١٣٩/٢ - ١٤٠ ؛ شذرات الذهب ٣٠٩/٢ ؛ الأعلام ٢٩٧/٦ ؛ معجم المؤلفين ١٥٤/٩ - ١٥٥ .

العشق ليس يفيق الدهر صاحبُه وإنما يصرع المجنون فى الحينِ [(١)]

وقال الآخر :

سُكرانِ : سكرُ هوىً وسكر مُدَامة ومتى إفاقة من به سكـرانِ

فصاحبه أحق بأن يشبه بعابد الوثن والعاكفين على التماثيل يعملونها [(٢)] على صورة آدمى .

وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ [سورة يوسف : ٣٠] أى : شغفها حبه ، أى وصل حبه إلى شغاف القلب ، وهى جلدة فى داخله ، فهذا يكون قد اتخذ ندا يحبه كحب الله .

يوقع الشيطان العداوة والبغضاء بين المؤمنين بالعشق

وإذا كان الشيطان يريد أن يوقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فالعداوة والبغضاء التى يريد أن يوقعها بالعشق ، وصدّه عن ذكر الله وعن الصلاة بذلك أضعاف غيره ، كما قد تكلمنا عليه فى غير هذا الموضع ، وبيّنا أن جميع المعاصى يجتمع فيها هذان الوصفان ، وأن ذكر ذلك فى الخمر والميسر اللذين هما من أواخر المحرمات — ينبّه على ما فى غيرهما من ذلك مما حُرِّم / قبلهما : كقتل النفوس بغير حق ، والفواحش ، ونحو ذلك . ظ ١٦٦

ومما يبين هذا أن الفواحش التى أصلها المحبه لغير الله ، سواء كان المطلوب المشاهدة أو المباشرة أو الإنزال أو غير ذلك ، هى فى المشركين أكثر منها فى

(١) أورد ابن الجوزى البيتين فى كتابه « ذم الهوى » ص ٣١٧ ، ونسبهما المحقق الأستاذ مصطفى عبد الواحد إلى مجنون ليلى (انظر الفهرس ص : ٧١١) .
(٢) فى الأصل : يعملونه ، وهو تحريف .

المخلصين ، ويوجد فيهم ما لا يوجد فى المخلصين لله .

قال الله تعالى : ﴿ يَا بَنِى آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ . قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ . فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٧ - ٣٠] ، فأخبر سبحانه أنه جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ، وهو قوله تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ [سورة الكهف : ٥٠] وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [سورة النحل : ١٠٠] .

وإذا كان سلطانه على أوليائه الذين تولوه والذين هم به مشركون ، وهم الذين لا يؤمنون بالله – وقال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [سورة الحجر : ٤٢] – فيكون هؤلاء هم الغاوين ، وهم الذين قال الشيطان : لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين .

ولهذا أخبر سبحانه عن أوليائه أنهم ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٨] ، فأخبر عن أولياء الشيطان ، وهم الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون : أنهم إذا فعلوا فاحشة احتجوا بالتقليد

لأسلافهم ، وزعموا مع ذلك أن الله أمرهم [بها][1] ، فيتّبعون الظن – فى قولهم : إن الله أمرهم بها – وما تهوى الأنفس فى تقليد أسلافهم واتباعهم .

وهذا الوصف فيه بسط كثير لكثير من المنتسبين إلى القبلة من الصوفية والعبَّاد ، والأمراء والأجناد ، والمتكلمة والمتفلسفة ، والعامة وغيرهم ، يستحلُّون من الفواحش ما حرَّمه الله ورسوله ، وأصله العشق الذى يبغضه الله .

/ وكثير منهم يجعل ذلك دينا ، ويرى أنه يتقرب بذلك إلى الله ، إما لزعمه أنه يزكّى النفس ويهديها ، وإما لزعمه أنه يجمع بذلك قلبه على آدمى ، ثم ينتقل إلى عبادة الله وحده ، وإما لزعمه أن الصور الجميلة مظاهر الحق ومشاهده ، وربما اعتقد حلول الرب فيها واتحاده بها ، ومنهم من يخص ذلك بها ، ومنهم من يقول بإطلاق . وهؤلاء إذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها . ص ١٦٧

وكل هؤلاء فيهم من الإشراك بقدر ذلك ، ولهذا يظهر الافتتان بالصور وعشقها فيمن فيهم شرك : كالنصارى والرهبان والمتشبهين بهم من هذه الأمة : من كثير من المتفلسفة والمتصوفة الذين يفتنون بالأحداث وغيرهم ، فتجد فيهم قسطاً عظيما من اتخاذ الأنداد من دون الله ، يحبونهم كحب الله ، إما تدينا ، وإما شهوة ، وإما جمعا بين الأمرين . ولهذا تجد بين أغنيائهم [2] وفقرائهم ، وبين ملوكهم وأمرائهم تحالفا على اتخاذ أنداد [3] من دون الله من هذين الوجهين .

ولهذا تجدهم كثيرا ما يجتمعون على سماع الشعر والأصوات التى تهيج الحب المشترك : الذى يجتمع فيه محب الرحمٰن ، ومحب الأوثان ، ومحب الصلبان ، ومحب الإخوان ، ومحب الأوطان ، ومحب المردان ، ومحب النسوان .

---

(١) زدت « بها » ليستقيم الكلام .

(٢) أغنيائهم : ليست واضحة بالأصل ، وكذا استظهرتها .

(٣) فى الأصل : أندادا ، وهو خطأ .

وهذا السماع هو سماع المشركين ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [سورة الأنفال : ٣٥] .

وسبب ما ذكرنا أن الله خلق عباده لعبادته التى تجمع محبته وتعظيمه ، فإذا كان فى القلب ما يجد حلاوته من الإيمان بالله والتوحيد له ، احتاج إلى أن يستبدل بذلك ما يهواه ، فيتخذ إلهه هواه ، فيتخذ الشيطان وذريته أولياء من دون الله ، وهم لهم عدو ، بئس للظالمين بدلا .

ولهذا كان هذا ونحوه من تبديل الدين ، وتغيير فطرة الله التى فطر الناس عليها . قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [سورة الروم : ٣٠] وقال تعالى : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً . إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً . لَعَنَهُ اللهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفروضاً . وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ ﴾ [سورة النساء : ١١٦ - ١١٩] .

قال تعالى : ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ﴾ [سورة الروم : ٣٠] . ونفس ما خلقه الله لا تبديل له : لا يمكن أن توجد المخلوقات على غير ما يخلقه الله عليها (١) ، ولا أن تخلق على غير الفطرة التى خلقها (٢) الله عليها ، لكن بعض الخلق قد يغير بعضها ، كما قال النبى ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة / فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه ، كما تُنتج البهيمة [بهيمة] (٣) جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » (٤) . ظ ١٦٧

(١) فى الأصل : عليه .

(٢) فى الأصل : خلقهم .

(٣) زدت كلمة « بهيمة » لأنها من ألفاظ الحديث .

(٤) مضى الحديث من قبل (ص : ٨٥ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٣٨ ، ٢٣٠) .

أصل العبادة المحبة والشرك فيها أصل الشرك

ومما يبين ذلك أن أصل العبادة هى المحبة ، وأن الشرك فيها أصل الشرك ، كما ذكره الله فى قصة إمام الحنفاء إبراهيم الخليل ، حيث قال : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٦] ، وقال فى القمر : ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٧] فلما أفلت الشمس قال : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۝ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٨ ، ٧٩] .

ولهذا تبرأ إبراهيم من المشركين وممن أشركوا (١) بالله ، قال : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ۝ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّى إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الشعراء : ٧٥ – ٧٧] وقال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ﴾ [سورة الممتحنة : ٤] .

ومما يوضح ذلك أنه قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة البقرة : ١٩٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سورة الأنفال : ٣٩] فأمر بالجهاد حتى لا تكون فتنة وحتى يكون الدين كله لله ، فجعل المقصود عدم كون الفتنة ، ووجود كون الدين كله لله ، وناقض (٢) بينهما ، فكون الفتنة ينافى كون الدين لله ، وكون الدين لله ينافى كون

---

(١) فى الأصل : أشركوه ، وهو تحريف .

(٢) وناقض : فى الأصل الكلمة غير واضحة ، وكذا استظهرتها .

الفتنة . والفتنة قد فُسِّرت بالشرك ، فما حصلت به فتنة القلوب ففيه شرك ، وهو ينافى كون الدين كله لله .

الفتنة جنس تحته أنواع من الشبهات والشهوات

والفتنة جنس تحته أنواع من الشبهات والشهوات ، وفتنة الذين يتخذون من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله من أعظم الفتن . ومنه فتنة أصحاب العجل ، كما قال تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ [سورة طه : ٨٥] قال موسى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تَضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِى مَن تَشَاءُ ﴾ [سورة الأعراف : ١٥٥] وقال تعالى : ﴿ وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [سورة البقرة : ٩٣] .

قيل لسفيان بن عيينه : إن أهل الأهواء يحبون ما ابتدعوه من أهوائهم حبا شديدا ، فقال : أنسيت قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] وقوله تعالى : ﴿ وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [سورة البقرة : ٩٣] أو كلاما هذا معناه ، وكل ما أُحِب لغير الله فقد يحصل به من الفتنة ما يمنع / أن يكون الدين لله .

ص ١٦٨

وعشق الصور من أعظم الفتن ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [سورة التغابن : ١٥] . ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَموَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا ﴾ [سورة التوبة : ٢٤] .

وقد قال سبحانه : ﴿ الٓمٓ ۞ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [سورة العنكبوت : ١ - ٣] .

ومما يبين ذلك أن رجلا قال للنبى ﷺ : ما شاء الله وشئت ، فقال : « أجعلتنى لله ندا ، بل ما شاء الله وحده » [(١)] فأنكر عليه أن جعله ندا لله فى هذه الكلمة التى جمع فيها بينه وبين الله فى المشيئة ، إذ مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله ، فلا يكون شريكه ، لما يُعلم أن كون الشىء ندا لله قد يكون بدون أن يُعبد العبادة التامة ، فإن ذلك الرجل ما كان يعبد رسول الله تلك [(٢)] العبادة .

فصل

محبة الله توجب المجاهدة فى سبيله

وبهذا يتبين أن محبة الله توجب المجاهدة فى سبيله قطعا ، فإن من أحب الله وأحبه الله أحب ما يحبه الله ، وأبغض ما يبغضه الله ، ووالى من يواليه الله ، وعادى من يعاديه الله . لا تكون [(٣)] محبة قط إلا وفيها [(٤)] ذلك بحسب قوتها وضعفها ، فإن المحبة توجب الدنو من المحبوب ومحابّه ، والبعد عن مكروهاته ، ومتى كان مع المحبة نبذ [(٥)] ما يبغضه المحبوب فإنها تكون تامة .

موادة عدو الله تنافى المحبة

وأما موادة عدوه فإنها تنافى المحبة ، قال تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ

---

(١) لم أجد الحديث بهذا اللفظ ، ولكنى وجدت حديثا مقاربا لفظه (فى المسند (ط . المعارف) ٢٥٣/٢) عن ابن عباس أن رجلا قال للنبى ﷺ : ما شاء الله وشئت ! فقال النبى ﷺ : « أجعلتنى والله عَدْلاً ، بل ما شاء الله وحده » . والحديث بلفظ مقارب عن ابن عباس رضى الله عنهما فى : المسند (ط . المعارف) ١٩٣/٤ ، ٨٥/٥ وجاء مختصرا ٢٩٦/٣ .

وذكر هذا الحديث ابن حجر فى « فتح البارى » (ط . السلفية) ٥٤٠/١١ وقال إن الحديث فى مسند أحمد والنسائى .

(٢) فى الأصل : ذلك .

(٣) فى الأصل : يكون .

(٤) فى الأصل : وفيه .

(٥) نبذ : ليست واضحة بالأصل ، وكذا استظهرتها .

أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [سورة المجادله : ٢٢] ، فأخبر أن المؤمن – الذى لابد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، كما فى الحديث المتفق عليه : « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » (١) – لا تجده (٢) موادا لمن حاد الله ورسوله ، فإن هذا جمع بين الضدين لا يجتمعان . ومحبوب الله ومحبوب معاديه لا يجتمعان .

فالمحب له (٣) لو كان موادًّا لمحاده لكان محبا لاجتماع مراد المتحادين المتعاديين وذلك ممتنع ، ولهذا لم تصلح هذه الحالة إلا لله ورسوله ، فإنه يجب على العبد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ولايكون مؤمنا إلا بذلك . ولا تكون هذه المحبة مع محبة من يحاد الله ورسوله ويعاديه أبدا ، فلا ولاء لله إلا بالبراءة من عدو الله ورسوله .

وأما المؤمنون الذين قد يقاتل بعضهم بعضا ، فأولئك ليسوا متحادين من كل وجه ، فإن مع كل منهما من الإيمان ما يحب عليه الآخر ، وإن كان يبغضه أيضا ، فيجتمع فيهما المحبة والبغضة ، وكذلك كل منهما / لا يجب أن تكون جميع أفعاله موافقة لمحبة [الله] (٤) وجميع أفعال الآخر موافقة لبغض الله ، بل لابد أن يفعل أحدهما ما لا يحبه الله وإن لم يبغضه ، و لابد أن يكون فى الآخر أيضا ما يحبه الله إذ هو مؤمن ، فيجب أن يعطى كل واحد من المحبة بقدر إيمانه ، ولا يجب أن يحب من أحدهما ما لا يحبه وإن كان لايبغضه بل ولا يحب [من] واحدهما (٥) ما كان خطأً

ظ ١٦٨

---

(١) مضى الحديث من قبل (ص : ١٩٨ ، ٢٤٣) .

(٢) فى الأصل : لا يجد ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : فالحب له ، وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٤) زدت كلمة الجلالة ليستقيم الكلام .

(٥) فى الأصل : بل ولا يحبه واحدهما ، ولعل الصواب ما أثبته .

أو ذنبا مغفورا ، وإن كان لا يبغض على ذلك ، فلا يحب إلا ما أحبه الله ورسوله ، فيحب ما كان من اجتهاده من عمل صالح .

وهذا الذى ذكرناه أمر يجده الإنسان من نفسه ويحسه : أنه إذا أحب الشئ لم يحب ضده ، بل يبغضه . فلا يتصور اجتماع إرادتين تامتين للضدين ، لكن قد يكون فى القلب نوع محبة وإرادة لشئ ، ونوع محبة وإرادة لضده ، فهذا كثير [(١)] ، بل هو غالب على بنى آدم ، لكن لا يكون واحد [(٢)] منهما تاما ، فإن المحبة والإرادة التامة توجب [(٣)] وجود المحبوب المراد مع القدرة ، فإذا كانت القدرة حاصلة ولم يوجد المحبوب المراد لم يكن الحب والإرادة تامة . وكذلك البغض التام يمنع وجود البغيض مع القدرة ، فمتى [(٤)] وجد مع إمكان الامتناع لم يكن البغض تاما .

ومن هنا يعرف أن قول النبى ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » [(٥)] على بابه : لو كان بغضه لما أبغضه الله من هذه الأفعال تاما لما فعلها . فإذا فعلها فإما أن يكون تصديقه بأن الله يبغضها فيه ضعف ، أو نفس بغضه لما يبغضه الله فيه ضعف ، وكلاهما يمنع تمام الإيمان الواجب .

محبة الله ورسوله على درجتين : واجبة ومستحبة

ومحبة الله ورسوله على درجتين : واجبة وهى درجة المقتصدين ، ومستحبة وهى درجة السابقين .

---

(١) فى الأصل : كثيرا ، وهو خطأ .

(٢) فى الأصل : واحدا ، وهو خطأ .

(٣) فى الأصل : توجد ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : فمن . ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) مضى الحديث من قبل (ص : ٢٥٩) .

المحبة الواجبة وهى محبة المقتصدين

فالأولى تقتضى أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، بحيث لا يحب شيئا يبغضه ، كما قال تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [سورة المجادلة : ٢٢] ، وذلك يقتضى محبة جميع ما أوجبه الله تعالى ، وبغض ماحرَّمه الله تعالى ، وذلك واجب ، فإن إرادة الواجبات إرادة تامة تقتضى وجود ما أوجبه (١) ، [كما تقتضى عدم الأشياء التى نهى الله عنها] (٢) ، وذلك مستلزم لبغضها التام .

فيجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه (٣) الله ، ويبغض ما أبغضه الله . قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [سورة محمد : ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَاأُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ فى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ [سورة التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥] .

ص ١٦٩

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ [سورة الرعد : ٣٦] .

المحبة المستحبة وهى محبة السابقين

وأما محبة السابقين بأن يحب ما أحبه الله من النوافل والفضائل محبة تامة . وهذه حال المقرَّبين الذين قرَّبهم الله إليه . فإذا كانت محبة الله ورسوله الواجبة تقتضى بغض ما أبغضه الله ورسوله ، كما فى سائر أنواع المحبة ، فإنها توجب بغض

---

(١) فى الأصل : ما واجبه . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : ما أوجبه . ولعل الصواب ما أثبته .

الضد ، عُلم أن الجهاد من موجب محبة الله ورسوله ، فإن مقصود الجهاد تحصيل (١) ما أحبه الله ، ودفع ما أبغضه الله .

ترك الجهاد لعدم المحبة التامة وهو دليل النفاق

فمن لم يكن فيه داع إلى الجهاد ، فلم يأت بالمحبة الواجبة قطعا ، كان فيه نفاق (٢) ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [سورة الحجرات : ١٥] .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « من [مات] ولم يغز (٣) ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق » (٤) .

وكذلك جمع بينهما فى قوله تعالى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ . يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة التوبة : ١٩ - ٢٢] ، فقرنه بالمحبة (٥) فى الآيتين من

---

(١) فى الأصل : يحصل ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : فيكن فيه نفاقا ، وهو خطأ .

(٣) فى الأصل : من لم يغز . والمثبت هو تمام الحديث .

(٤) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : مسلم ٣/١٥١٧ (كتاب الإمارة ، باب ذم من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو) ؛ سنن أبى داود ٣/١٥ - ١٦ (كتاب الجهاد ، باب كراهية ترك الغزو) ؛ سنن النسائى ٦/٧ - ٨ (كتاب الجهاد ، باب التشديد فى ترك الجهاد) ؛ المسند (ط . المعارف) ١٧/٤١ .

(٥) أى فقرن الجهاد بالمحبة .

قوله : ﴿ قُلْ إن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَى يَأْتِىَ اللهُ بِأَمْرِهِ ﴾ [سورة التوبة : ٢٤] ، وفى قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَيَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ﴾ [سورة المائدة : ٥٤] . فأخبر أن القوم الذين يحبهم الله ورسوله هم أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [سورة الفتح : ٢٩] ، فوصفهم بالذلة والرحمة لأوليائه [١] إخوانهم ، والعزة والشدة على أعدائه أعدائهم ، وأنهم يجاهدون فى سبيل الله .

والجهاد من الجُهد وهو الطاقة ، وهو أعظم من الجَهد الذى هو المشقه ، فإن الضم أقوى من الفتح ، وكلما كانت الحروف أو الحركات أقوى كان المعنى أقوى .

ظ ١٦٩ ولهذا كان الجُرح [٢] أقوى من الجَرح ، / فإن الجُرْح هو المجروح نفسه ، وهو غير [٣] الجَرْح ، مصدر ، وهو فعل .

وكذلك الكُره ، والمكروه ، والمكره ، كما قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ﴾ [سورة الرعد : ١٥] .

فالجُهد : نهاية الطاقة والقدرة [٤] ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ ﴾ [سورة التوبة : ٧٩] .

---

(١) فى الأصل : لأولياة ، وهو تحريف .
(٢) فى الأصل : الخرج ، وهو تحريف .
(٣) فى الأصل : عين ، وهو تحريف .
(٤) فى الأصل : القدرة .

وفى الحديث : « أفضل الصدقة جُهد من مقل يُسرُّه إلى فقير » (١) . ولهذا قال النبى ﷺ : « الجهاد سنام العمل » (٢) ، فإنه أعلى الإرادات فى نهاية القدرة ، وهذا هو أعلى ما يكون من الإيمان ، كالسنام الذى هو أعلى ما فى البعير ، وقد يكون بمشقة ، وقد لا يكون .

وأما الجَهد فهو المشقة ، وإن لم يكن تمام القدرة .

فالجهاد فى سبيل الله تعالى من الجُهد ، وهى المغالبة [فى سبيل] الله (٣) بكمال القدرة والطاقة ، فيتضمن شيئين ، أحدهما : استفراغ الوسع والطاقة . والثانى : أن يكون ذلك فى تحصيل محبوبات الله ودفع مكروهاته ، والقدرة والإرادة بهما يتم الأمر .

انقسام الناس إلى أربعة أقسام

وهنا (٤) انقسم الناس أربعة أقسام : فقوم لهم قدرة ، ولهم إرادة ومحبة غير

---

(١) الحديث بلفظ : « فأى الصدقة أفضل ؟ قال ﷺ : جهد المقل » عن عبد الله بن حُبْشى رضى الله عنه فى : سنن أبى داود ٢/٩٣ – ٩٤ (كتاب الصلاة ، باب طول القيام) ؛ سنن النسائى ٥/٤٣ – ٤٤ (كتاب الزكاة ، باب جهد المقل) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٢/٤١١ – ٤١٢ . وصحح الألبانى هذا الحديث فى تعليقه على مشكاة المصابيح للتبريزى ٢/٣٥٧ . وجاء حديث آخر عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه فى المسند (ط . الحلبى) ٥/١٧٨ وفيه : « .... قلت : يا رسول الله فما الصدقة ؟ قال : أضعاف مضاعفة وعند الله مزيد . قلت : أيها أفضل يا رسول الله ؟ قال : جهد من مقل أوسر إلى فقير » . وجاء حديث ثالث بمعنى الحديث السابق فى المسند ٥/٢٦٥ عن أبى أمامة رضى الله عنه وضعف الألبانى هذا الحديث الأخير فى « ضعيف الجامع الصغير » ١/٣١٨ .

(٢) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : سنن الترمذى ٣/١٠٤ ، ١٠٥ (كتاب الجهاد ، باب أى الأعمال أفضل) ونصه : « سئل رسول الله ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟ أو أى الأعمال خير ؟ قال : إيمان بالله ورسوله . قيل : ثم أى شىء ؟ قال : الجهاد سنام العمل . قيل : ثم أى شىء يا رسول الله ؟ قال : ثم حج مبرور » . ثم قال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح ، وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ » . والحديث فى : المسند (ط . المعارف) ١٤/٢٤٩ .

(٣) فى الأصل : وهى الغالبة لله . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : هنا .

١ - قوم لهم قدرة وإرادة ومحبة غير مأمور بها

مأمور بها ، فهم يجاهدون ، ويستعملون جهدهم وطاقتهم ، لكن لا فى سبيل الله ، بل فى سبيل آخر : إما محرمة ، كالفواحش ماظهر منها وبطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، والإشراك بالله مالم ينزل به سلطانا ، والقول على الله بغير علم الحق .

وإما فى سبيل لا ينفع عند الله ، مما جنسه مباح ، لاثواب فيه ، لكن الغالب [أن] (١) مثل هذا كثيرا ما يقترن (٢) به من الشُّبه مايجعله فى سبيل الله أو فى سبيل الشيطان .

٢ - قوم لهم إرادة صالحة ومحبة كاملة لله وقدرة كاملة

وقوم لهم إرادة صالحة ، ومحبة كاملة لله ، ولهم أيضا قدرة كاملة ، فهؤلاء سادة المحبين المحبوبين ، المجاهدين فى سبيل الله ، لايخافون لومة لائم ، كالسابقين (٣) الأولين من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم القيامة .

٣ - قوم فيهم إرادة صالحة ومحبة قوية لكن قدرتهم ناقصة

والقسم الثالث : قوم فيهم إرادة صالحة ، ومحبة لله قوية تامة ، لكن قدرتهم ناقصة ، فهم يأتون بمحبوبات الحق من مقدورهم ولايتركون مما يقوون عليه شيئا (٤) ، لكن قدرتهم (٥) قاصرة ، ومحبتهم (٦) كاملة ، فهو مع القسم الذى قبله .

ومازال فى المؤمنين على عهد النبى ﷺ وبعده من هؤلاء خلق كثير . وفى مثل هؤلاء قال النبى ﷺ : « إن بالمدينة لرجالا ماسرتم مسيرا ولا سلكتم واديا

---

(١) زدت « أن » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : يفترون ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : فالسابقين ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : ولا يأتون يتركون ما يقوون عليه شيئا . ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) فى الأصل : لكن قلوبهم . ولعل الصواب ما أثبته .

(٦) فى الأصل : ومحبة . ولعل الصواب ما أثبتهم .

إلا كانوا معكم . قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : وهم بالمدينة ، حبسهم العذر »[(١)] .
وقال له سعد بن أبى وقاص : يارسول الله الرجل يكون حامية القوم يسهم له مثلما يسهم لأضعفهم ؟ فقال : ياسعد وهل تنصرون إلا بضعفائكم ؟ بدعائهم وصلواتهم واستغفارهم[(٢)] » .

وروى أن النبى ﷺ كان يستفتح / بصعاليك المهاجرين ، وقال : « رب أشعث أغبر ، ذى طمرين ، مدفوع بالأبواب ، لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره »[(٣)] وهذا كثير .

ص ١٧٠

---

(١) الحديث عن أنس رضى الله عنه فى : البخارى ٢٦/٤ (كتاب الجهاد ، باب من حبسه العذر عن الغزو) ؛ سنن أبى داود ١٧/٣ - ١٨ (كتاب الجهاد ، باب فى الرخصة فى القعود من العذر) ؛ سنن ابن ماجة ٩٢٣/٢ (كتاب الجهاد ، باب من حبسه العذر عن الجهاد) ؛ المسند (ط . الحلبى) ١٠٣/٣ ، ١٦٠ ، ٣٠٠ ، ٣٤١ . وجاء حديث آخر بألفاظ مقاربة عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى : مسلم ١٥١٨/٣ (كتاب الإمارة ، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر) ؛ سنن ابن ماجة (فى الموضع السابق) .

(٢) الحديث عن مصعب بن سعد عن أبيه سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه فى : البخارى ٣٦/٤ - ٣٧ (كتاب الجهاد ، باب من استعان بالضعفاء والصالحين فى الحرب) ونصه : « عن مصعب بن سعد قال : رأى سعد رضى الله عنه أن له فضلا على من دونه . فقال النبى ﷺ : هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم ؟ » والحديث بألفاظ مقاربة فى : سنن النسائى ٣٧/٦ - ٣٨ (كتاب الجهاد ، باب الاستنصار بالضعيف) . وما رواه ابن تيمية هو أقرب إلى رواية المسند (ط . المعارف) ٥١/٣ : « عن سعد بن مالك (وهو سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه) قال : قلت : يا رسول الله ، الرجل يكون حامية القوم ، أيكون سهمه وسهم غيره سواء ؟ قال : ثكلتك أمك ابن أم سعد ! وهل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم ؟! » وقال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله فى تعليقه : « إسناده ضعيف لانقطاعه » ..

وقال ابن حجر فى « فتح البارى » ٨٨/٦ - ٨٩ عن رواية البخارى : « ثم إن صورة هذا السياق مرسل لأن صعبا لم يدرك زمان هذا القول ، لكن هو محمول على أنه سمع ذلك من أبيه ، وقد وقع التصريح عن مصعب بالرواية له عن أبيه عند الإسماعيلى .... ، وكذا أخرجه هو والنسائى .... » .

وجاء حديث آخر بألفاظ مقاربة عن أبى الدرداء رضى الله عنه فى سنن أبى داود ٣٢/٣ (كتاب الجهاد ، باب فى الانتصار برذل الخيل والضعفة) ؛ المسند (ط : الحلبى) ١٩٨/٥ .

(٣) الحديث بألفاظ مقاربة عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : مسلم ٢٠٢٤/٤ (كتاب البر =

٤ – من قدرته وإرادته للحق قاصرة ، وفيه إرادة للباطل

والقسم الرابع : من قدرته قاصرة وإرادته للحق قاصرة ، وفيه من إرادة الباطل ما الله به عليم ، فهؤلاء ضعفاء المجرمين ، ولكن قد يكون لهم من التأثير بقلوبهم نصيب وحظ مع أهل باطلهم ، كما يوجد فى العلماء والعبّاد والزاهدين من المشركين وأهل الكتاب [١] ومنافقى هذه الأمة ما فيه مضاهاة [٢] لعلماء المؤمنين وعُبّادهم [٣] ، وذلك أن الشيطان جعل [لكل] شيء [٤] من الخلق نظيرا فى الباطل ، فإن أصل الشر هو الإشراك بالله ، كما أن أصل الخير هو الإخلاص لله .

فإن الله سبحانه خلق الخلق ليعبدوه وحده لا يشركوا به شيئا ، وبذلك أرسل الرسل ، وبه أنزل الكتب ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [سورة النحل : ٣٦] .

العبادة تجمع كمال المحبة وكمال الذل

والعبادة تجمع كمال المحبة وكمال الذل ، فالعابد محب خاضع ، بخلاف من يحب من لا يخضع له ، بل يحبه ليتوسل به إلى محبوب آخر ؛ وبخلاف من يخضع لمن لا يحبه ، كما يخضع للظالم ، فإن كُلاًّ من هذين ليس عبادة محضة . وإن كل

= والصلة ، باب فضل الضعفاء) ، ٢١٩١/٤ (كتاب الجنة .... ، باب النار يدخلها الجبارون ، والجنة يدخلها الضعفاء) . وجاء حديث آخر عن معاذ بن جبل رضى الله عنه فى : سنن ابن ماجة ١٣٧٨/٢ (كتاب الزهد ، باب من لا يؤبه له) ونصه : « عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : ألا أخبرك عن ملوك الجنة ؟ قلت : بلى . قال : « رجل ضعيف مستضعف ، ذو طمرين ، لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره » . وضعف الألبانى هذا الحديث فى « ضعيف الجامع الصغير » ٢٤٢/٢ . وقال ابن الأثير فى « النهاية فى غريب الحديث والأثر » : « الطِّمْر : الثوب الخَلَق » . وانظر : المسند (ط . الحلبى) ١٤٥/٣ ، ٤٠٧/٥ .

(١) فى الأصل : الكتب .

(٢) فى الأصل : مظاهاة .

(٣) فى الأصل : وعبادتهم ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : لشيء ، ولعل الصواب ما أثبته .

محبوب لغير الله ، ومعظم لغير الله ، ففيه شوب من العبادة ، كما قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش » (١) .

وذلك كما جاء فى الحديث : « إن الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل » (٢) مع أنه ليس فى الأمم أعظم تحقيقا للتوحيد من هذه الأمة ، ولهذا كان شدَّاد بن أَوْس يقول : يا نعايا (٣) العرب يا نعايا (٣) العرب ، إن أخوف ما أخوف عليكم الرياء والشهوة الخفية » قال أبو داود : الشهوة الخفية : حب الرياسة (٤) .

وفى حديث الترمذى عن كعب بن مالك أن النبى ﷺ قال : « ماذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » قال الترمذى : حديث حسن صحيح (٥) . والحرص يكون على [قدر] (٦) قوة الحب والبغض .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَايُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [سورة يوسف : ١٠٦] ، وروى أن أبابكر الصديق رضى الله عنه قال للنبى ﷺ : إذا كان

---

(١) مضى هذا الحديث من قبل (ص : ٢٦١) .

(٢) مضى هذا الحديث من قبل (ص : ٢٥٤) .

(٣) نعايا : الكلمة فى الأصل غير منقوطة ، وكذا قرأتها ، وانظر التعليق التالى .

(٤) علقت على هذا الأثر فى المجموعة الأولى (ص ٢٣٣ ت ١) وذكرت فى تعليقى أن المنذرى فى « الترغيب والترهيب » ٤/٥٠ ذكر أن هذه ألفاظ حديث رواه عبد الله بن زيد رضى الله عنه عن النبى ﷺ وأن الحديث رواه الطبرانى بإسنادين أحدهما صحيح . وذكرت فى فهرس التصويبات والاستدراكات أن الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى نبهنى إلى أن القراءة الصحيحة هى « نعايا » لا « بغايا » (كما جاءت فى طبعةالترغيب والترهيب) وأحالنى إلى « النهاية » لابن الأثير ، و « الفائق » للزمخشرى . وانظر « النهاية » مادة « نعا » .

(٥) الحديث عن كعب بن مالك رضى الله عنه فى : سنن الترمذى ٤/١٦ - ١٧ (كتاب الزهد ، باب حدثنا سويد بن نصر) ؛ سنن الدارمى ٢/٣٠٤ (كتاب الرقاق ، باب ما ذئبان جائعان) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣/٤٥٦ ، ٤٦٠ .

(٦) زدت كلمة « قدر » ليستقم الكلام .

الشرك أخفى من دبيب النمل فكيف نتجنبه ؟ فقال النبى ﷺ : « ألا أعلمك / كلمة إذا قلتها نجوت من قليله وكثيره ، قل : اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، واستغفرك لما لا أعلم »[(١)] فأمره مع الاستعاذة من الشرك المعلوم بالاستغفار ، فإن الاستغفار والتوحيد بهما يكمل الدين .

ظ ١٧٠

كما قال تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [سورة محمد : ١٩] وقال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ . أَلَّا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ . وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [سورة هود : ١ - ٣] .

وفى الحديث : « إن الشيطان قال : أهلكت بنى آدم بالذنوب ، وأهلكونى بلا إلٰه إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء ، فهم يذنبون ولا يستغفرون ، لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا »[(٢)] وهذا كذلك ، فإن من اتخذ إلٰهه هواه صار يعبد مايهواه ، وقد زُيِّن له سوء عمله فرآه حسنا .

قال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِى مِن دُونِى أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً . قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً . الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ [سورة الكهف : ١٠٢ - ١٠٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِى تَبَابٍ ﴾ [سورة غافر : ٣٧] .

---

(١) مضى هذا الحديث من قبل (ص : ٢٥٤) .

(٢) لم أجد هذا الحديث .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِّنكُمْ إِنِّى أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّى أَخَافُ اللهَ واللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة الأنفال : ٤٨ ، ٤٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ [سورة الأنعام : ١٣٧] .

وكمال الدين هو أداء الواجبات وترك المحرَّمات ، والفعل والترك أصلهما الحب والبغض ، فإذا ترك مأمورا أو فعل محظورا (١) فإنما هو لنقص الإيمان الذى هو التصديق ، وحب ما يحبه الله وبغض ما يبغضه الله .

والمحبوبات على قسمين : قسم يُحب لنفسه ، وقسم يُحب لغيره . إذ لا بد من محبوب يحبُّ (٢) لنفسه ، وليس شيء شُرع أن يحب لذاته إلا الله تعالى ، وكذلك التعظيم لذاته ، تارة يعظم الشيء لنفسه ، وتارة يعظم لغيره ، وليس شيء يستحق التعظيم [لذاته] (٣) إلا الله تعالى .

وكل ما أمر الله أن يُحب ويُعظم فإنما محبته لله وتعظيمه عبادة لله ، فالله هو المحبوب المعظَّم فى المحبة والتعظيم ، المقصود المستقر الذى إليه المنتهى . وأما ما سوى ذلك فيحب لأجل الله ، أى لأجل محبة العبد لله : يحب ما أحبه الله ،

---

(١) فى الأصل : فعلا محضورا ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : يحبه ، وهو تحريف .

(٣) زدت « لذاته » ، ليستقيم الكلام .

فمن تمام محبة الشيء محبة محبوب المحبوب ، وبغض بغيضه ، ويشهد لهذا الحديث : « أوثق عرى الإيمان الحب فى الله ، والبغض فى الله » [١]

وفى السنن « من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان » [٢] .

ص ١٧١

فمن أحب شيئا لذاته / أو عظَّمه لذاته غير الله فذاك شرك به ، وإن أحبه ليتوصل به إلى محبوب آخر وتعظيم آخر سوى الله فهو من فروع هذا . والله سبحانه لم يشرع أن يعبد [الإنسان] [٣] شيئا من دونه ، أو يتخذ إلٰها ليتوصل بعبادته ، كما قال تعالى : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَـٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [سورة الزخرف : ٤٥] وقال تعالى : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٥١] .

من أحب شيئا كما يحب الله أو عظمه كما يعظم الله فقد أشرك

فمن أحب شيئا كما يحب الله ، أو عظَّمه كما يعظم الله فقد جعله لله ندا ، وإن كان [يقول :] [٤] إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ، وأنهم شفعاؤنا عند الله .

---

(١) الحديث – مع اختلاف فى بعض الألفاظ – فى مسند أحمد (ط . الحلبى) ٢٨٦/٤ عن البراء ابن عازب رضى الله عنه ولفظه « .... إن أوسط عرى الإيمان أن تحب فى الله وتبغض فى الله .... » . وحسنه الألبانى فى « صحيح الجامع الصغير » ١٨١/٢ وقال السيوطى : « حم (أحمد فى مسنده) ، ش (مصنف ابن أبى شيبة) ، هب (البيهقى فى شعب الإيمان) عن البراء » . وقال السيوطى فى « الجامع الكبير » : « أوثق عرى الإيمان الموالاة فى الله والحب فى الله والبغض فى الله » – (طب) = الطبرانى فى المعجم الكبير عن ابن عباس » .

(٢) مضى الحديث من قبل (ص : ٢٥٦) .

(٣) زدت كلمة « الإنسان » ليستقيم الكلام .

(٤) زدت كلمة « يقول » ليستقيم الكلام .

قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] أى يحبونهم كما يحبون الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله منهم ، لأنهم أخلصوا لله ، فلم يجعلوا المحبة مشتركة بينه وبين غيره ، فإن الاشتراك فيها يوجب [١] نقصها ، والله لا يتقبل ذلك ، كما فى الحديث الصحيح يقول الله تعالى « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء ، وهو كله للذى أشرك » [٢] .

فالمؤمن – الذى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما – لابد أن يكون ما أحبه الله ورسوله أحب إليه مما لم يحبه الله ورسوله ، وأن يبغض ما يبغضه الله ورسوله ، فلا يكون ذلك البغيض أحب إليه من محبوب الله ورسوله .

والحب التام منا مستلزم للإرادة التامة الموجبة للفعل مع القدرة ، والبغض التام منا مستلزم للكراهة التامة المانعة للقدرة . فإذا كان العبد قادرا على محبات الحق ولا يفعلها فلضعف محبتها فى قلبه ، أو وجود ما يعارض الحق ، مثل محبته لأهله وماله ، فإن ذلك قد يمنعه عن فعل محبوب الحق .

كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا ﴾ [سورة التوبة : ٢٤] .

وقال ﷺ : « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من

---

(١) فى الأصل : توجب .

(٢) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : مسلم ٢٨٨٩/٤ (كتاب الزهد ، باب من أشرك فى عمله غير الله) ؛ سنن ابن ماجه ١٤٠٥/٢ (كتاب الزهد ، باب الرياء والسمعة) ؛ المسند (ط . المعارف) – مع اختلاف يسير فى الألفاظ – ١٥٥/١٥ .

ولده ووالده والناس أجمعين » [١] . وقال له عمر : والله يارسول الله لأنت أحب إلىَّ من كل شىء إلا من نفسى . فقال : لا ياعمر ، حتى أكون أحب إليك من نفسك . قال : فأنت أحب إلىَّ من نفسى . قال : الآن ياعمر » [٢] وهذان الحديثان فى الصحيح .

فإن كانت واجبات نقص من درجة [٣] المقتصدين من أصحاب اليمين حتى يتوب أو يمحوها بشىء آخر ، وإن كانت نوافل – فإنها [٤] من القُرَب – بحسب ذلك . وإذا فعل مكروهات الحق فلضعف بعضها فى قلبه ، أو لقوة محبتها التى تغلب بعضها . فالإنسان لا يأتى شيئا من المحرَّمات – كالفواحش ماظهر منها ومابطن والإثم والبغى بغير الحق ، والشرك بالله مالم ينزل به سلطانا ، والقول على الله بغير علم – إلا لضعف الإيمان فى أصله أو كماله ، أو ضعف / العلم والتصديق ، وإما ضعف المحبة والبغض .

ظ ١٧١

الإنسان لا يفعل الحرام إلا لضعف إيمانه ومحبته

لكن إذا كان أصل الإيمان صحيحا ، وهو التصديق ، فإن هذه المحرمات [يفعلها المؤمن مع كراهته] وبغضه لها [٥] ، فهو إذا فعلها لغلبة الشهوة عليه ، فلابد أن يكون مع فعلها فيه بغض لها ، وفيه خوف من عقاب الله عليها ، وفيه رجاء لأن يخلص من عقابها ، إما بتوبة ، وإما حسنات ، وإما عفو ، وإما دون ذلك ، وإلا فإذا لم يبغضها ، ولم يخف الله فيها ، ولم يرج رحمته ، فهذا لا يكون مؤمنا بحال ، بل [هو] [٦] كافر أو منافق .

---

(١) مضى الحديث من قبل (ص : ١٩٨ ، ٢٤٣) .

(٢) مضى الحديث من قبل (ص : ١٩٨ – ١٩٩ ، ٢٤٣) .

(٣) فى الأصل : من حد . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : فإنه . ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) فى الأصل جاءت هذه العبارات محرفة هكذا : لكن إذا كان إيمانكم صحيحا وهو تصديقه فإن هذه المحرمات وبغضه لها . ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

(٦) زدت « هو » ليستقيم الكلام .

فكل سيئة يفعلها المؤمن لا بد أن تقترن بها حسنات له ، لكن قوة شهوته للسيئة وما زُيِّن له فيها ، حتى ظن أنها مصلحة له ، أوجب وقوعها ، وهو اتّباع الظن وما تهوى الأنفس ، وهذا القدر عَارَضَ بعض إيمانه فترجَّح عليه ، حتى ما هو ضد لبعض الإيمان ، فلم يبق مؤمنا الإيمان الواجب . كما قال النبى ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » (١) ، وهو فيما يفعله متبع للشيطان فيما زيَّنه له حتى رآه حسنا ، وفيما أمره به فأطاعه ، وهذا من الشرك بالشيطان ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ [سورة الكهف : ٥٠] وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِى آدَمَ أَلاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝ وَأَنِ اعْبُدُونِى هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [سورة يس : ٦٠ ، ٦١] .

ولهذا لم يخلص من الشيطان إلا المخلصون لله ، كما قال تعالى عن إبليس : ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة الحجر : ٣٩ ، ٤٠] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [سورة الحجر : ٤٢] وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [سورة النحل ٩٩ ، ١٠٠] .

فإذا كان الشيطان ليس له سلطان إلا على من أشرك به ، فكل من أطاع الشيطان فى معصية الله فقد تسلط الشيطان عليه ، وصار فيه من الشرك بالشيطان بقدر ذلك .

---

(١) مضى الحديث من قبل (ص : ٢٥٩ ، ٢٧٧) .

والشيطان يوالى الإنسان بحسب عدم إيمانه كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٧] وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۞ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۞ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ [سورة الزخرف : ٣٦ – ٣٨] وقال تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٢٤] .

ويشهد لهذا ما ثبت فى صحيح مسلم عن جابر عن النبى ﷺ : « إن الشيطان ينتصب عرشه على البحر ، ويبعث [١] سراياه [٢] » .

فجميع ما نهى الله عنه [هو] [٣] من شعب الكفر وفروعه ، كما أن كل ما أمر الله به هو من الإيمان والإخلاص / لدين الله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [سورة الأنفال : ٣٩] . ص ١٧٢

لكن قد يكون ذلك شركا أكبر ، وقد يكون شركا أصغر ، بحسب مايقترن [٤] به من الإيمان ، فمتى اقترن بما نهى الله عنه الإيمان لتحريمه وبغضه وخوف

(١) فى الأصل : ويبث . والذى أثبته هو لفظ الحديث .

(٢) الحديث عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه ولكن جاء بثلاث روايات أولها : « سمعت النبى ﷺ يقول : إن عرش إبليس على البحر ، فيبعث سراياه فيفتنون الناس ، فأعظمهم عنده أعظمهم فتنة » . والرواية الثالثة موافقة للرواية الأولى من قوله : « فيبعث ... إلخ » وأما الرواية الثانية فهى مطولة أولها : « إن إبليس يضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه ، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة ... الحديث . وجاء الحديث برواياته فى مسلم ٢١٦٧/٤ (كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب تحريش الشيطان ....) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣١٤/٣ ، ٣٣٢ ، ٣٥٤ ، ٣٦٦ ، ٣٨٤ .

(٣) زدت « هو » ليستقيم الكلام .

(٤) فى الأصل : ما يفترون ، وهو تحريف .

العقاب ورجاء الرحمة لم يكن شركا أكبر ، وأما إن اتخذ [الإنسان مايهواه] [١] إلٰها من دون الله وأحبه [٢] كحب الله فهذا شرك أكبر ، والدرجات فى ذلك متفاوتة .

وكثير من الناس يكون معه من الإيمان بالله وتوحيده ماينجيه من عذاب الله ، وهو يقع فى كثير من هذه الأنواع ، ولا يعلم أنها شرك ، بل لا يعلم أن الله حرَّمها ، ولم تبلغه فى ذلك رسالة من عند الله ، والله تعالى يقول : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [سورة الإسراء : ١٥] ، فهؤلاء يكثرون جدا فى الأمكنة والأزمنة التى تظهر فيها فترة الرسالة بقلة القائمين بحجة الله ، فهؤلاء قد يكون معهم من الإيمان ما يُرحمون به ، وقد لا يُعذَّبون بكثير مما يُعذَّب [به] [٣] غيرهم ممن كانت عليه حجة الرسالة .

تزيين الشيطان لكثير من الناس أنواعا من الحرام ضاهوا بها الحلال

فينبغى أن يعرف أن استحقاق العباد للعذاب بالشرك فما دونه مشروط ببلاغ الرسالة فى أصل الدين وفروعه ، ولهذا لما كثر الجهل وانتشر ، زيَّن الشيطان لكثير من الناس أنواعا من المحرمات ضاهوا [٤] بها الحلال ، وقد لا يعلمون أنها محرَّمة بغيضة إلى الله ، بل قد يظنون أن ذلك محبوب لله مأمور به ، وقد يظنون أن فيها هذا وهذا ، وهم فى ذلك يتّبعون الظن وما تهوى الأنفس . وقد يعلمون تحريم ذلك ، ويظهرون عدم الوجه المحرم خداعا ونفاقا . فهؤلاء غير المؤمن الذى يحب الله ورسوله ويأتى بالمحرم معتقدا أنه محرَّم ، وهو مبغض له [٥] ، خائف راج [٦] .

---

(١) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .
(٢) فى الأصل : وأحب .
(٣) زدت « به » ليستقيم الكلام .
(٤) فى الأصل : ظاهوا .
(٥) فى الأصل : يبغض له ، وهو تحريف .
(٦) فى الأصل : راجى ، وهو خطأ .

وهذه الأمور توجد فى الأقسام الثلاثة . ونحن نذكر أمثلة ذلك فى المحرَّمات التى ذكرها الله فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَابَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٣٣] فالله سبحانه قد حرَّم الفواحش كما ذكر .

وقد قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [سورة المؤمنون : ٥ ، ٦] ، فلم تُبح إلا المرأة التى هى زوج أو ملك يمين . وقد ذكر ما اشترطه فى الحلال بقوله : ﴿ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ [سورة النساء : ٢٥][(١)] ، وقوله ﴿ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِى أَخْدَانٍ ﴾ [سورة المائدة : ٥] .

كما فى الصحيح عن عائشة قالت : كان النكاح فى الجاهلية على أربعة أنحاء [(٢)] : وذكرت أصحاب الرايات ، وهن المسافحات ، وأن إلحاق النسب فى

---

(١) قال الطبرى فى تفسيره (ط . المعارف) ١٩٣/٨ : « غير مسافحات ولا متخذات أخدان : ذات الخليل الواحد . قال (أى ابن عباس رضى الله عنهما) : المسافحات : المعالنات بالزنا .... كان أهل الجاهلية يحرِّمون ما ظهر من الزنا ، ويستحلّون ما خفى ، يقولون : أما ما ظهر منه فهو لؤم ، وأما ما خفى فلا بأس بذلك » . وفى تفسير ابن كثير للآية : « وقال الضحاك : ولا متخذات أخدان : ذات الخليل الواحد المقرّة به » .

(٢) هذا الأثر عن عائشة رضى الله عنها جاء فى مواضع منها فى : البخارى ١٥/٧ - ١٦ (كتاب النكاح ، باب من قال : لا نكاح إلا بولى ....) ؛ سنن أبى داود ٣٧٧/٢ - ٣٧٨ (كتاب النكاح ، باب فى وجوه النكاح التى كان يتناكح بها أهل الجاهلية) . ونص هذا الأثر فى البخارى : « .... أخبرنى عروة ابن الزبير أن عائشة زوج النبى ﷺ أخبرته أن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء ، فنكاح منها نكاح الناس اليوم : يخطب الرجل إلى الرجل وليَّته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها .

ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها : أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد ، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع . =

وطئهن كان بالقافة (١) ، وذكرت التى يطأها جماعة محصورة (٢) ، وأن الإلحاق كان بتعيين المرأة . وذكرت نكاح الاستبضاع (٣) ، وهو غير (٤) نكاح ذوات الأخدان . وذكرت النكاح الرابع ، وهو النكاح المعروف ، الذى أحلَّه الله .

فالشيطان جعل من الحرام / ما فيه مضاهاة للحلال ، وإن سُمِّىَ باسم آخر ، لكن المعنى فيه اشتراك ، فالله أباح للرجل امرأته ومملوكته (٥) ، وكل من الرجل والمرأة زوج الآخر (٦) ، فذوات الأخدان بينهن [وبين أخدانهن] (٧) نوع ازدواج واقتران كذلك ، ولهذا ميَّز الله بين هذا وهذا .

ظ ١٧٢

= ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها ، فإذا حملت ووضعت ، ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها تقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم ، وقد ولدت فهو ابنك يا فلان ، تُسمّى من أحبت باسمه ، فيلحق به ولدها ، لا يستطيع أن يمتنع به الرجل .

ونكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها ، وهن البغايا ، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون عَلَماً ، فمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها ، جمعوا لها ودعوا لها القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون فالتاط به ودُعى ابنه لا يمتنع من ذلك .

فلما بُعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله ، إلا نكاح الناس اليوم » .

(١) قال ابن حجر فى « فتح البارى ١٨٥/٩ : « القافة : جمع قائف بقاف ثم فاء ، وهو الذى يعرف شَبَهُ الولد بالوالد بالآثار الخفية » .

(٢) فى الأصل : محضورة ، ولعل الصواب ما أثبته ، وانظر قول عائشة رضى الله عنها فى التعليق السابق : « يجتمع الرهط دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها » .

(٣) فى الأصل : الاستمتاع ، وهو تحريف وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته ، وانظر خبر عائشة السابق رضى الله عنها .

(٤) فى الأصل : وهى من ، وهو تحريف ، وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته . وقد ذكر ابن حجر فى « فتح البارى » ١٨٤/٩ : « قوله (أربعة) : قال الداودى وغيره : بقى عليها (أى على عائشة رضى الله عنها) أنحاء لم تذكرها : الأول : نكاح الخدن ، وهو قوله تعالى : ﴿ولا متخذات أخدان﴾ [سورة النساء : ٢٥] . وانظر التفسير السابق لآية ٢٥ من سورة النساء .

(٥) فى الأصل : ومملوكيه .

(٦) فى الأصل : آخر .

(٧) فى الأصل : فذوات الأخدان بينهما ... إلخ . ولعل الصواب ما أثبته .

وأخفى [١] من ذلك مؤاخاة كثير من الرجال لكثير من النساء أو لكثير من الصبيان ، وقولهم : إن هذه مؤاخاة لله إذا لم تكن [٢] المؤاخاة على فعل الفاحشة كذوات الأخدان ؛ فهذا الذى يظهرونه للناس الذين يوافقونهم ويقرّونهم على ذلك ، ويرَوْن كلهم أن من أحب صبيا – أو امرأة – لصورته وحسنه من غير فعل فاحشة ، فإن هذا محبة لله .

فهذا من الضلال والغىّ وتبديل الدين ، حيث جعل ماكرهه الله محبوبا لله ، وهو نوع من الشرك ، والمحبوب المعظّم بذلك طاغوت .

وذلك أن اعتقاد أن التمتع بالمحبة والنظر أو نوع من المباشرة إلى المرأة الأجنبية والصبيان هو لله وهو حب فى الله ، كفر وشرك ، كاعتقاد أن محبة الأنداد حب لله ، وأن الاجتماع على الفاحشة تعاون على البر والتقوى ، وأن الإقامة على ذلك بالعبادة [٣] هى عبادة لله ، ونحو ذلك .

فاعتقاد أن هذه الأمور التى حرمها الله ورسوله تحريما ظاهرا : أنها دين الله ومحبة الله ، نوع من الشرك والكفر .

ثم قد يكون منها – من خفيِّها – أشياء تروج على من لم يبلغه العلم ، كما اشتبه على كثير من العلماء والعباد أن استماع أصوات الملاهى تكون عبادة لله ، واشتبه [٤] على من هو أضعف علما وإيمانا أن التمتع بمشاهدة هذه الصور يكون عبادة لله .

ثم بعد هذا الضلال ومافيه من الغى هم أربعة أقسام :

---

(١) فى الأصل : واخفا .
(٢) فى الأصل : لم يكن .
(٣) فى الأصل : بالقيادة .
(٤) فى الأصل : اشتبه .

قوم يعتقدون أن هذا لله ويقتصرون عليه ، كما يوجد مثل ذلك فى كثير من الأجناد والمتنسكة والعامة .

وقوم يعلمون أن هذا ليس لله ، وإنما يظهرون هذا الكلام نفاقاً وخداعا ، لئلا يُنكر عليهم ، وهؤلاء من وجه أمثل ، لما يُرجى لهم من التوبة ، ومن جهة أخبث ، لأنهم يعلمون التحريم ويأتون المحرم .

وقوم مقصودهم ماوراء ذلك من الفاحشة الكبرى ، فتارة يكونون من أولئك الظالمين الذين يعتقدون أن هذه المحبة التى لاوطء فيها لله ، فيفعلون شيئا لله ، ويفعلون هذا لغير الله ، وتارة يكونون [١] من أولئك الغاوين المنافقين الذين يظهرون أن هذه المحبة لله ، وهم يعلمون أنها للشيطان ، فيجمع هؤلاء بين هذا الكذب وبين الفاحشة الكبرى . وهؤلاء فى هذه المخادنة [٢] والمؤاخاة يضاهون النكاح [٣] ، فإنه يحصل بين هذين من الاقتران والازدواج مايشبه اقتران الزوجين ، ويزيد عليه تارة ، وينقص عنه أخرى . وما يشبه اقتران المتحابين فى الله والمتآخين [٤] فى الله ، لكن الذين / آمنوا أشد حبا لله . ص ١٧٣

فالمتحابان فى الله يعظم تحابهما ويقوى ويثبت ، بخلاف هذه المؤاخاة الشيطانية ، فإنه يترتب عليها أنواع من الفساد . ثم هذا قد يظهر وينتشر حتى قد يسمونه زواجا ، ويقولون [٥] : تزوج هذا بهذا ، كما يفعل ذلك بعض المستهزئين

---

(١) فى الأصل : يكون ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : المحادثة ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : يظاهون للنكاح ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : المتواخيين .

(٥) فى الأصل : ويقول ، وهو تحريف .

بآيات الله من فجّار الفساق [١] والمنافقين ، ويقرّه الحاضرون على ذلك ويضحكون ، وربما أعجبهم مثل هذا المزاح .

كما أن اعتقاد أن هذه المحبة لله أوجب لمن كان من فجّار الفساق والمنافقين أن يقول لهم : الأمرد حبيب الله ، والملتحى عدو الله ، وذلك يعجبهم ويضحكون منه ، وحتى اعتقد كثير من المردان أن هذا حق ، وهو داخل فى قول النبى ﷺ : « إذا أحب الله العبد نادى فى السماء : يا جبريل إنى أحب فلانا [٢] » ، فيصير يعجبه أن يُحب ويعتقد الغاوى أنه محبوب .

وذلك أن من فقهاء الكوفة من لا يوجب فى اللوطية الحد بل التعزير ، إلا إذا أسرف [٣] فيه فإنه يبيح قتله سياسة ، ومن الفقهاء من يوجب فيه حد الزانى ، كأشهر قَوْلَى الشافعى ، وإحدى الروايتين عن أحمد ، وقول أبى يوسف ومحمد . وأكثر فقهاء الحجاز وأهل الحديث يوجبون قتلهما جميعا ، كمذهب مالك ، وظاهر مذهب أحمد .

وزعم بعض الفقهاء أن فجور [الرجل] بمملوكه [٤] شبهة فى درء [٥] الحد ، وهو موجب للتعزير ، كما هو أحد القولين فى وطء أمته المحرَّمة عليه برضاع

---

(١) فى الأصل : من فجار الفجار ، وستتكرر العبارة بعد قليل كما أثبتها هنا .

(٢) الحديث عن أبى هريرة رضى الله فى : البخارى ١١١/٤ (كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة) ، وبقية الحديث فيه : « .... فلانا فأحببه فيحبه جبريل ، فينادى جبريل فى أهل السماء : إن الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض » . والحديث أيضا فى : البخارى ١٤/٨ (كتاب الأدب ، باب المقه من الله تعالى) ، ١٤٢/٩ (كتاب التوحيد ، باب كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة) ؛ مسلم ٢٠٣٠/٤ (كتاب البر والصلة والآداب ، باب إذا أحب الله عبدا حببه إلى عباده) ؛ سنن الترمذى ٣٧٨/٤ (كتاب تفسير القرآن ، سورة مريم) ؛ المسند (ط . المعارف) ٤٨/١٤ ، ٢٠٩/١٦ ، ٨١/١٨ – ٨٢ ، (ط . الحلبى) ٥١٤/٢ .

(٣) فى الأصل : أشرف ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : أن الفجور بمملوكه . ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) فى الأصل : دار ، وهو تحريف .

أو محرَّمته . وأيضا فالعقوبة بالقتل إنما تكون فى حق البالغ (١ ، وأما الصبى – وأمثاله – فيجوز قتله إذا قاتل مع الكفار ١) ، فأما بمجرد فعله هو بنفسه فلا يقتل بل يعاقب بما يزجره (٢) .

وكذلك النوع الثانى من الحلال ، وهو ملك اليمين ، فإن المرأة قد تملك الرجل ، والرجل قد يملك الصبى ، وقد يكون فى هذا الملك نوع من ملك الرجل الأمة ، فربما استمتعت المرأة بمملوكها بمقدمات النكاح ، أو بالنكاح ، مضاهاة لاستمتاع الرجل بمملوكته (٣) ، وربما تأوَّلت القرآن على ذلك ، واعتقدت أن ذلك داخل فى قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ [سورة المؤمنون : ٦] ، كما رفع إلى عمر ابن الخطاب امرأة تزوجت عبدها ، وتأوَّلت هذه الآية ، ففرَّق بينهما ، وأدَّبه ، وقال : ويحك إنما هذه للرجال لا للنساء (٤) .

وكذلك كثير من جهَّال الترك وغيرهم قد يملك من الذكران من يحبهم ويستمتع بهم ، وقد يتأوَّل بعضهم على ذلك : ﴿ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ [سورة المؤمنون : ٦] ، ومن المعلوم أن هذا كفر بإجماع المسلمين ، فالاعتقاد بأن (٥) الذكران حلال – بملك أو غير ملك – باطل وكفر بإجماع المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم .

(١ – ١) : هذه العبارات مضطربة محرفة فى الأصل ، وكذا استظهرتها .

(٢) انظر فى حكم اللواط : المغنى لابن قدامة ٣١/٩ – ٣٢ (ط . مطبعة العاصمة ، القاهرة ، بدون تاريخ) ؛ نيل الأوطار للشوكانى ٢٨٦/٧ – ٢٨٨ (ط . المنيرية ، ١٣٤٤) ؛ المحلّى لابن حزم ٣٨٠/١١ – ٣٨٦ (ط . المنيرية ، ١٣٥٢) .

(٣) فى الأصل : بمملوكه ، وهو تحريف .

(٤) انظر : تفسير الطبرى (دار المعارف) ٥٨٦/٩ ؛ تفسير ابن كثير ٤٥٧/٥ وقال ابن كثير عن هذا الأثر : « هذا أثر غريب منقطع » .

(٥) فى الأصل : فاعتقاد بيان ، وهو تحريف .

ثم من هؤلاء من يتأول هذه الآية ، ومنهم من يتأول : ﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ ﴾ [سورة البقرة : ٢٢١] ولا يفرق بين المنكوح والناكح ، كما سألنى مرة بعض الناس عن هذه الآية ، وكان ممن يقرأ القرآن ويطلب العلم ، وقد ظن أن معناها إباحة ذكران المؤمنين .

وآخرون قد يجتمع بهم من يقول لهم : إن فى هذه المسألة [١] خلافا ، ويكذب / أئمة المسلمين الذين لاتكون مذاهبهم ظاهرة فى بلاده ، مثل من يكون بأرض الروم فيكذب على مذهب مالك ويقول : هو مباح فى مذهب مالك ، ومنهم من يقول : هذا مباح للضرورة ، مثل أن يبقى الرجل أربعين يوما [٢] ، إلى أمثال هذه الأمور التى خاطبنى فيها ، وسألنى عنها ، طوائف من الجند والعامة والفقراء ، وكان عندهم من هذه الاعتقادات الفاسدة ألوان مختلفة ، قد صدتهم عن سبيل الله .

ظ ١٧٣

ومنهم من قد بلغه خلاف بعض العلماء فى وجوب الحد فى بعض الصور ، فيظن أن ذلك خلاف فى التحريم ، فربما قال ذلك أو اعتقده ، ولا يفرِّق بين الخلاف على الحد المقدَّر والتحريم ، وأن الشىء قد يكون من أعظم المحرَّمات ، كالدم والميتة ولحم الخنزير ، وليس فيه حدٌّ مقدر .

ثم ذلك الخلاف قد يكون قولا ضعيفا [٣] ، فيتولد من ذلك القول الضعيف - الذى هو خطأ بعض المجتهدين [٤] ، وهذا [٥] الظن الفاسد الذى هو خطأ بعض الجاهلين - ومن الكذب الذى هو فرية بعض الظالمين ، تبديل

---

(١) فى الأصل : المسلمة .
(٢) أربعين يوما : كذا بالأصل . والمقصود أن يبقى الرجل أربعين يوما بدون نكاح .
(٣) فى الأصل : معينا ، وهو تحريف .
(٤) فى الأصل : المجتهد ، وهو تحريف .
(٥) فى الأصل : وهو .

الدين ، وطاعة الشياطين ، وسخط رب العالمين ، حتى نُقل أن كثيرا من المماليك يتمدّح بأنه لا يعرف إلا سيده ، كما تتمدح الأمة بأنها لا تعرف إلا سيدها وزوجها ، وكذلك كثير من المردان (١) الأحداث يتمدّح بأنه لا يعرف إلا خدينه وصديقه أو مؤاخيه ، كما تتمدح المرأة بأنها لاتعرف إلا زوجها . وكذلك كثير من الزناة بالمماليك والأحداث من الصبيان ، قد يتمدح بأنه عفيف عمَّا سوى خدنه ، الذى هو قرينة كالزوجة ، أو عمَّا سوى مملوكه الذى هو قرينه (٢) ، كما يتمدح المؤمن بأنه عفيف [إلا] (٣) عن زوجته أو ما ملكت يمينه .

ولا ريب أن الكفر والفسوق والعصيان درجات ، كما أن الإيمان والعمل الصالح درجات : ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٦٣] . وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ [سورة التوبة : ٣٧] ، وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ [سورة التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥] وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [سورة الصف : ٥] ، كما قال تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ [سورة إبراهيم : ٢٧] وقال ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً ﴾ [سورة المائدة : ٦٨] ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ ﴾ [سورة الرعد : ٣٦] .

فالمتخذ خدنا من الرجل والنساء أقل شرا من المسافح ، لأن الفساد فى ذلك أقل ، والمستخفى بما يأتيه أقل إثما من المجاهر المستعلن ، كما فى الحديث عن

---

(١) فى الأصل كأنها : اللصفا . ولعل الصواب ما أثبته . وانظر : إغاثة اللهفان لابن القيم ، ٢/١٤٦ (ط . الفقى ، القاهرة ١٣٥٨/١٩٣٩) .

(٢) فى الأصل الكلمة غير واضحة كأنها « كربنه » ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) زدت « إلا » ليستقيم الكلام .

النبى ﷺ أنه قال : « من ابتلى من هذه القاذورات بشىء فليستتر بستر الله ، فإنه من يبد لنا صفحته نُقِمْ عليه كتاب الله » [١] .

وقد قال ﷺ : « من ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة » [٢] .

ص ١٧٤ وفى الحديث : / « إن الخطيئة إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها ، ولكن إذا أعلنت فلم تنكر ضرت الجماعة [٣] » .

وفى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال : « كل أمتى معافى إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يبيت [٤] الرجل على الذنب وقد ستره الله ، فيصبح فيتحدث بذنبه [٥] ، ويقول : يا فلان فعلت الليلة كيت وكيت » ، أو كما قال [٦] .

---

(١) الحديث عن زيد بن أسلم رضى الله عنه فى : الموطأ ٨٢٥/٢ (كتاب الحدود ، باب ما جاء فيمن اعترف على نفسه بالزنا) ولفظه : أن رجلا اعترف على نفسه بالزنا .... فأمر به رسول الله ﷺ فجلد . ثم قال : أيها الناس ، قد آن لكم أن تنتهوا عن حدود الله . من أصاب من هذه القاذورات .... الحديث .

(٢) الحديث بهذا اللفظ جزء من حديث طويل عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : مسلم ٢٠٧٤/٤ (كتاب الذكر ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن) وأوله : « من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا .... الحديث . وهو – مع اختلاف فى اللفظ – فى : سنن أبى داود ٣٩٣/٤ (كتاب الأدب ، باب فى المعونة للمسلم) ؛ سنن ابن ماجة ٨٢/١ (المقدمة ، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم) ٨٥٠/٢ (كتاب الحدود ، باب الستر على المؤمن ودفع الحدود بالشبهات) ؛ سنن الترمذى ٤٣٩/٢ (كتاب الحدود ، باب ما جاء فى الستر على المسلم) ؛ المسند (ط . المعارف) ١٦١/١٣ ، ٨٦/١٥ وفى مواضع أخرى فيه .

(٣) ذكر السيوطى فى « الجامع الكبير » هذا الحديث بلفظ : « الخطية إذا أخفيت لا تضر إلا صاحبها ، وإذا ظهرت فلم تغيّر ضرت العامة » ثم قال السيوطى : « الديلمى عن أبى هريرة » .

(٤) فى الأصل : أن سب (بغير نقط) .

(٥) فى الأصل : سيه ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٦) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ١٩/٨ – ٢٠ (كتاب الأدب ، باب ستر المؤمن على نفسه) ونصه : « كل أمتى معافىً إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ، =

فالإقلال والاستخفاء خير من هذه الوجوه ، ولكن قد يقترن بها ما يكون أعظم من بعض المسافحة والمجاهرة ، وهى المحبة والتعظيم التى توجب محبة ما يحبه الخدن ، وتعظيم مايعظمه ، وموالاة من يواليه ، ومعاداة من يعاديه ، والاستسرار بذلك والنفاق فيه ، فقد تكون فى هذه الموالاة والمعاداة والنفاق من العدوان والضرر على المسلمين ، أعظم مما فى المجاهرة والمسافحة ، ويكون [(١)] ذلك بمنزلة الكافر المعلن كفره ، وهذا بمنزلة المنافق . فأما إذا لم يكن عدوان على الناس وتضييع لحقوقهم لانتفاء المحبة أو لغير ذلك ، فالأول أخبث وأفحش . وتفاوت الشرور فى القدر والصفة كثير ، كما يتفاضل الخير أيضا فى القدر والوصف ، والواجب استعمال [(٢)] الكتاب والسنة فى جميع الأمور [(٣)] .

ولا ريب أن هذه المخادنة وملك اليمين ونحو ذلك مما فيه اشتراك فى محرم مضاد للحلال ، لابد أن يتضمن من [(٤)] المباح ما يصير فيه من الشبه بالحلال ، و [من] التمييز [(٥)] عن الحرام المحض مايكون فيه رواج له ، إذ الحرام المحض من كل وجه لا يشتبه بالحلال المحض من كل وجه ، بل يقتنى [(٦)] الرجل المملوك لنوع من الاستخدام ، ويضم إلى ذلك الاستمتاع ، وقد يكون هذا أغلب فى نفسه من

= ثم يصبح وقد ستره الله ، فيقول : يا فلان عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر الله عنه » . والحديث أيضا فى : مسلم ٢٢٩١/٤ (كتاب الزهد ، باب النهى عن هتك الإنسان ستره) .

(١) فى الأصل الكلمة غير واضحة كأنها : مراده . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : واستعمال .

(٣) فى الأصل كأنها : والدارين .

(٤) فى الأصل : فى ، وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : والتمييز . ولعل الصواب ما أثبته .

(٦) فى الأصل : يقنى . ولعل الصواب ما أثبته .

الآخر ، وقد يكون بالعكس . وذلك الاستخدام قد يكون مباحا فى الشريعة ، وقد يكون فيه نوع من الظلم والعدوان ، إما باسترقاق الأحرار ، وإما باشتراء المماليك لنفسه بالمال المغصوب [١] من بيت المال أو غيره ، وإما فى استخدامهم على وجه الكبرياء والعلو فى الأرض بإذلاله لهم [٢] فى غير طاعة الله ، وإذلال الناس بهم فى غير طاعة الله ، إلى أمثال ذلك من الوجوه التى يكون فيها من الظلم والعدوان أمور عظيمة ، وينضم إلى ذلك الفاحشة .

وكذلك فى المخادنة التى صورتها مؤاخاة ، قد تكون لأجل الاستئجار لصناعة ونحوها ، وقد تكون لتعلم صناعة أو كتابة أو قراءة أو علم أو تأديب وتنوير ، وغير ذلك من الأمور المباحة والمستحبة والواجبة فى الدين ، وقد تكون لكفالة وتربية ، إما ليتم ذلك الصبى أو غربته ، أو لقرابة بينهما ، أو غير ذلك ، وقد يكون اشتراكا محضا فى صناعة أو تجارة أو بحمل مال ، أو مجاورة وصلة [٣] ، أو تعلم أو تأدب أو غير ذلك مما يشترك الناس فيه لغير فاحشة بشركة مباحة أو مأمورٍ بها أو منهيٍّ [٤] عنها ، ويكون بينهم فى ذلك من التعاقد والتحالف ما يكون بين المشتركين فى الأمور ، وقد يسمى ذلك صديقا ورفيقا ، وسمى بالتركية / خوشداشا وغير ذلك ، وهو من قسم التحالف ، فيكون بين المشتركين فى الحلال والحرام [٥] من المعاوضة والمشاركة ، [إما] [٦] على غير فاحشة ، وإما [٧]

ظ ١٧٤

---

(١) فى الأصل : المال لنفسه المغضوب ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : بإذلالهم له ، وهو خطأ . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل الكلمة غير واضحة وكذا استظهرتها .

(٤) فى الأصل : أو منهيا ، وهو خطأ .

(٥) فى الأصل : فى المشتركين فى الحرم ، والكلام ناقص ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٦) زدت « إما » ليستقيم الكلام .

(٧) فى الأصل : إما .

معاوضة بتلك ، فتكون شبهة مع الشهوة . فغالب وقوع المحرمات من هذا الباب ، وقد لُبِّس فيه الحق بالباطل ، وأُشْرِك (١) فيه الحق بالباطل .

موقف المؤمن من الشرور والخيرات وما يجب عليه حيالها

والمؤمن ينبغى له أن يعرف الشرور الواقعة ، ومراتبها فى الكتاب والسنة ، كما يعرف الخيرات الواقعة ، ومراتبها فى الكتاب والسنة ، فيفرِّق [بين] (٢) أحكام الأمور الواقعة الكائنة ، والتى يُراد إيقاعها فى الكتاب والسنة ، ليقدِّم ما هو أكثر خيراً وأقل شرًّا على ما هو دونه ، ويدفع أعظم الشرين باحتمال أدناهما ، ويجتلب أعظم الخيرين بفوات أدناهما ، فإن من لم يعرف الواقع فى الخلق ، والواجب فى الدين ، لم يعرف أحكام الله فى عباده ، وإذا لم يعرف ذلك كان قوله وعمله بجهل ، ومن عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح .

وإذا عَرَف ذلك فلابد أن يقترن بعلمه العمل الذى أصله محبته لما يحبه الله ورسوله ، وبغضه لما يبغضه الله ورسوله . وما اجتمع فيه الحبيب والبغيض ، المأمور به والمنهى عنه ، أو الحلال والمحظور (٣) ، أعطى كل ذى حق حقه ليقوم الناس بالقسط ، فإن الله بذلك أنزل الكتاب ، وأرسل الرسل ، فالعلم بالعدل قبل فعل العدل .

فإذا علم وأحب (٤) ، كان من تمامه الجهاد عليه ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [سورة الحديد : ٢٥] (٥) ، والعلم

---

(١) فى الأصل : وأشركه .

(٢) زدت « بين » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : والمحضور .

(٤) فى الأصل : واجب .

(٥) جاءت الآية فى الأصل محرّفة .

هو طريق إلى العمل وسبب ، كما قيل فى قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ [سورة الكهف : ٨٤] أى علما .

فالعلم بالخير سبب إلى فعله ، والعلم بالشر سبب إلى منعه ، هذا مع حسن النية ، وإلا فالنفس الأمَّارة بالسوء قد يكون علمها [١] بالسوء سبب لفعله ، وبالخير سبب لمنعه ، وكذلك الإثم والبغى بغير الحق ، مثل الخمر الذى اتُّخذ منه أنواع من المسكرات ، وقيل : إنها حلال ، وسُمِّيت بغير أسماء الخمر ، وهى من الخمر .

وكذلك ظلم العباد فى النفوس والأموال والأعراض ، فيه ما قد سمى حقًّا وعدلاً [٢] وشرعا وسياسة وجهادا فى سبيل الله ، وهو من الكفر والفسوق والعصيان ما لا يحصيه إلا الله . وكذلك الإشراك بالله بغير حق ، والقول بما لا يُعلم ، مثل أنواع الغلو فى الدين ، واتخاذ العلماء والعباد أربابا من دون [الله ، والقول] [٣] بتحريم الحلال ، وتحليل الحرام ، وأنواع الإشراك بالمخلوقات : عبادة لها ، واستعانة بها ، وغُلُوا فيها ، وقولا على الله فى أسمائه وصفاته وأحكامه ما [٤] قد دخل فى ذلك من الباطل الذى سُمِّىَ بأسماء محمودة أو غير مذمومة : كالعبادة ، والزهادة ، والتحقيق ، وأصول الدين ، والفقه ، والعلم ، والتوحيد ، والكلام ، / والفقر والتصوف ما لا يحصيه إلا الله [٥] . ص ١٧٥

ومما ينبغى أن يُعرف أن كل تبديل يقع فى الأديان ، بل كل اجتماع فى العالم ، لابد فيه من التحالف ، وهو الاتفاق والتعاقد على ذلك ، من اثنين فصاعدا .

---

(١) فى الأصل : عملها ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : وعده . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .

(٤) بعد « ما » كتب « وبها » ويبدو أنها زائدة ، ونسى الناسخ حذفها .

(٥) فى أعلى صفحة ١٧٥ إلى اليسار كتب : الرابع .

بنو آدم لا يمكن عيشهم إلا بالتعاقد والتحالف

فإن بنى آدم لا يمكن (١) عيشهم إلا بما يشتركون فيه من جلب منفعتهم ودفع مضرتهم . فاتفاقهم على ذلك هو التعاقد والتحالف .

ولهذا كان الوفاء بالعهود من الأمور التى اتفق أهل الأرض على إيجابها لبعضهم على بعض ، وإن كان منهم القادر الذى لا يوفِّى بذلك ، كما اتفقوا فى إيجاب العدل والصدق ، فإذا اتفقوا وتعاقدوا على اجتلاب الأمر الذى يحبونه ، ودفع الأمر الذى يكرهونه ، أعان بعضهم بعضا على اجتلاب المحبوب ، ونصر بعضهم بعضا على دفع المكروه ، ولو لم يتعاقدوا بالكلام ، فنفس اشتراكهم فى أمر يوجب عليهم اجتلاب ما يصلح ذلك الأمر المشترك ، ودفع ما يضره ، كأهل النسب الواحد ، وأهل البلد الواحد ، فإن التناسب والتجاور يوجب التعاون على جلب المنفعة المشتركة ، ودفع الضرر المشترك .

فصار الاشتراك بينهم تارة يثبت بفعلهم ، وهو التعاقد على ما فيه خيرهم (٢) ، وتارة يثبت بفعل الله تعالى . وقد جمع الله عز وجل هٰذين الأصلين فى قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾ [سورة النساء : ١] ، وذكر فى هذه السورة [الأمور] (٣) التى بينهم من جهة الخلق ، وهى من جهة العقود ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْرًا ﴾ [سورة الفرقان : ٥٤] .

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ۝ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ [سورة الرعد : ٢٠ ، ٢١] الآية .

---

(١) فى الأصل : لا تمكن .

(٢) بعد كلمة « التعاقد » يوجد فى المصورة كلمات غير واضحة كأنها : لعطارد عنها . ولعل ما أثبته يستقيم به المعنى .

(٣) زدت « الأمور » ليستقيم الكلام .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلاَّ الفَاسِقِينَ . الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أن يُوصَلَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٦ ، ٢٧] .

وإذا كان لابد فى كل ما يشتركون فيه ، من تحالف وغير تحالف ، من التعاون على جلب المحبوب ، والتناصر لدفع المكروه ، فالمحبوب هو الموالى ، والمكروه هو المعادى ، فلابد لكل بنى آدم من ولاية وعداوة ، ولهذا جميعهم يتمادحون بالشجاعة والسماحة ؛ فإن السماحة إعانة على وجود المحبوب بالأموال والمنافع وغير ذلك ، والشجاعة نصر لدفع المكروه بالقتال وغيره ، ولا قوام لشىء من أمور بنى آدم إلا بذلك ، ومبنى ذلك بينهم على العدل فى المشاركات والمعاوضات .

فظهر أن جميع أمور بنى آدم لابد فيها من تعاون بينهم ، ودفع ومنع لغيرهم ، فلابد لهم من عقد وقدرة ، والعقد أصله الإرادة كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ ﴾ [سورة النساء : ١] / أى يتعاهدون ويتعاقدون [1] ، والقدرة : القدرة . ظ ١٧٥

ومعلوم أنه لابد فى كل فعل من إرادة وقدرة ، والمشتركون لابد من اتفاقهم فى إرادة وفى قدرة . فالذى يناله بعضهم من جلب محبوب ودفع مكروه من بعض ، هو بالإرادة والطوع ، والذى ينالونه من غيرهم من جلب محبوب ودفع مكروه ، وهو بالقدرة على ذلك العدو المكروه منه ، كما أن [2] الوطء [3] بملك النكاح الذى هو عقد ، أصله الإرادة والطوع ، وبملك اليمين ، الذى هو قهر بالقدرة على سبيل الكره ، واشتراكهم فى الجلب والدفع إما أن يكون تبعا لتعاقدهم ، وإما أن

(١) فى تفسير الطبرى للآية عن الضحاك والربيع : اتقوا الله الذى به تعاقدون وتعاهدون .
(٢) فى الأصل : كما لو أن ....
(٣) فى الأصل : الوطى .

يكون بأمر آمر مطاع فيهم ، فالأول : هو التحالف . والثانى : ما يطاع بغير تحالف ، سواء كانت طاعته بحق أو بغير حق .

فالذى بحق ما أمر الله بطاعته من أنبيائه وأولى الأمر من المؤمنين ، وطاعة الوالدَيْن ، ونحو ذلك ، وما يُجاب به بعضهم إلى مراد بعض بحق ، فإن ذلك هو معنى الطاعة ، إذ المقصود بها موافقة المطلوب .

وأما بغير حق فكطاعة الطواغيت ، وهو كل ما عُظِّم بباطل .

التحالف يكون وفقا الشريعة منزلة أو شريعة غير منزلة أو سياسة

وكل قوم لا تجمعهم طاعة مطاع فى جميع أمورهم ، فلابد لهم من التعاقد والتحالف فيما لم يأمرهم به المطاع .

ولهذا كانت الشريعة المنزَّلة من عند الله الأفعال فيها التى تجب لله ، وتجب لبعض الناس على بعض : تارة تجب بإيجاب الله ، وتارة تجب بالعقد : كالنذر ، وكعقود المفاوضات والمشاركات ، فلا واجب فى الشريعة إلا بشرع أو عقد .

وإذا لم يكونوا على شريعة منزَّلة من عند الله ، فإما أن يكونوا على شريعة [غير] (١) منزَّلة أو سياسة وضعها بعض المعظَّمين (٢) فيهم بنوع قدرة وعلم ونحو ذلك ، وما بقدرة من هذه الأمور الجامعة أوجب التحالف بينهم ، فإنه لا ينتظم لهم أمر إلا بطاعة آمرٍ متحالفون عليه ، أو يأمرهم به من يطيعونه ، ولهذا أُنكر التحالف فى الأمم الخارجة عن الشريعة ، وفى الخارجين عنها ، وفى الأمور التى لا تُرَدُّ إلى الشريعة ، وإنما يظهر ذلك حيث تدرس آثار النبوة المطاعة ، فيتحالف قوم على طاعة مَلِك أو شيخ ، أو طاعة بعضهم لبعض فى (٣) أمور

---

(١) زدت « غير » ليستقيم الكلام .
(٢) فى الأصل : المعضمين .
(٣) فى الأصل : من .

يتفقون عليها ويتحالفون ، كما كان العرب فى جاهليتهم [١] يتحالفون . ومنه الحليف الذى يكون فى القبيلة / فيصير منهم . ص ١٧٦

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ [سورة النساء : ٣٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ . وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [سورة النحل : ٩١ ، ٩٢] .

وكذلك ما يوجد من التحالف بالتآخى وغير التآخى للملوك والمشايخ وأهل الفتوة ورماة البندق ، وسائر المتفقين على بعض الأمور ، هو داخل فى هذا . وأيمان [٢] التعاقد والتحالف عام لبنى آدم ، وهم فى جاهليتهم تارة يتحالفون تحالفاً بحبه الله ، كما قال النبى ﷺ : « لقد شهدت حلفا مع عمومتى [٣] فى دار عبد الله بن جُدْعَان ما يسرنى بمثله حُمْر النَّعَم ، أو قال : [ما] [٤] يسرنى حُمْر النَّعَم وأن أنقضه [٥] ، ولو دُعيت إلى مثله فى الإسلام لأجبت » [٦] .

---

(١) فى الأصل : كما كان فى العرب جاهليتهم ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : ... هذا إيمان .

(٣) فى الأصل : فى عمومتى . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته . وعبارة « مع عمومتى » جاءت فى حديث آخر ، كما سوف أبينه بعد قليل إن شاء الله .

(٤) زدت « ما » ليستقيم الكلام .

(٥) فى الأصل : وإن نقضه . ولعل الصواب ما أثبته .

(٦) لم أجد هذا الحديث فى كتب السنة ، ولكن جاء فى سيرة ابن هشام ١٤١/١ – ١٤٢ =

وفى مثل هذا ما رواه [مسلم] عن [جبير بن مطعم ، عن] النبى ﷺ [1] أنه [قال :] [2] « لا حلف فى الإسلام ، وما كان من حلف فى الجاهلية فلم يزده الإسلام إلا شدة » [3] .

= ونصه : « قال ابن إسحاق : فحدثنى محمد بن زيد بن المهاجر بن قنفذ التيمى أنه سمع طلحة بن عبد الله ابن عوف الزهرى يقول : قال رسول الله ﷺ : لقد شهدت فى دار عبد الله بن جُدعان حلفاً ما أحب أن لى به حُمْر النَّعم ، ولو أُدعى به فى الإسلام لأجبت » .

وذكر الخبر ابن سعد فى « الطبقات الكبرى » ١/١٢٨ – ١٢٩ (ط . بيروت ، ١٣٧٦/١٩٥٧) ونصه فيه : « قال : وأخبرنا محمد بن عمر قال : فحدّثنى محمد بن عبد الله عن الزهرى عن طلحة بن عبد الله بن عوف عن عبد الرحمن بن أزهر عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ : ما أحب أن لى بحلف حضرته بدار ابن جُدعان حُمْرَ النَّعَم وأنى أغدر به ، هاشم وزُهرة وتَيْم تحالفوا أن يكونوا مع المظلوم ما بَلَّ بحر صوفة ، ولو دُعيت به لأجبت . وهو حلف الفضول » .

(١) فى الأصل : ما رواه (كذا) عن جابر عن النبى ﷺ . وكتبت كلمة « كذا » فوق البياض . والصواب ما أثبته إن شاء الله .

(٢) زدت « قال » ليستقيم الكلام .

(٣) الحديث عن جبير بن مطعم رضى الله عنه فى : مسلم ٤/١٩٦٠ (كتاب فضائل الصحابة ، باب مؤاخاة النبى ﷺ بين أصحابه رضى الله تعالى عنهم) ونصه فيه : « لا حلف فى الإسلام ، وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة » . والحديث أيضا فى : سنن أبى داود ٣/١٧٧ – ١٧٨ (كتاب الفرائض ، باب فى الحلف) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٤/٨٣ .

على أن هذا الحديث يقابله حديث آخر عن أنس رضى الله عنه جاء فى : البخارى ٣/٩٦ (كتاب الكفالة ، باب قول الله تعالى : والذين عاقدت أيمانكم ....) ونصه : « ... حدثنا عاصم ، قال : قلت لأنس رضى الله عنه : أبلغك أن النبى ﷺ قال : لا حلف فى الإسلام ؟ فقال : قد حالف النبى ﷺ بين قريش والأنصار فى دارى » . وجاء هذا الحديث أيضا فى : سنن أبى داود ٣/١٧٨ (كتاب الفرائض ، باب فى الحلف) وفى مواضع أخرى فى كتب السنة .

وقال النووى فى شرحه على مسلم ١٦/٨١ – ٨٢ : « قال القاضى : قال الطبرى : لا يجوز الحلف اليوم ، فإن المذكور فى الحديث والموارثة به وبالمؤاخاة كله منسوخ لقوله تعالى : ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾[سورة الأنفال : ٧٥] . وقال الحسن : كان التوارث بالحلف ، فنسخ بآية المواريث . قلت : أما ما يتعلق بالإرث فيستحب فيه المخالفة عند جماهير العلماء . وأما المؤاخاة فى الإسلام ، والمحالفة على طاعة الله تعالى ، والتناصر فى الدين ، والتعاون على البر والتقوى وإقامة الحق ، فهذا باقٍ لم ينسخ » .

وهذا الحلف يسمى حلف المُطَيِّبين [١] ، كان يقدم إلى مكة من يظلمه بعض أكابرها ، فيستصرخ فلا ينصره أحد ، حتى أنشد بعض القادمين :

يا آل مكة مظلوم بضاعته ببطن مكة بين الركن والحجر

وكان عبد الله بن جدعان [٢] من خيارهم ، فاجتمعت قبائل من قريش فى بيته على التحالف للتعاون على العدل ونصر المظلوم ، ووضعوا أيديهم فى قصعة فيها طيب ، فسمى حلف المطيّبين [٣] .

---

(١) جاء ذكر حلف المطيبين فى مسند أحمد فى موضعين الأول ٣/١٢١ - ١٢٢ (ط . المعارف) ونصه : « ... عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن عبد الرحمن بن عوف عن النبى ﷺ قال : شهدت حِلف المُطَيِّبين مع عمومتى وأنا غلام ، فما أحب أن لى حُمْر النَّعَم وأنى أنكثه . قال الزهرى : قال رسول الله ﷺ : لم يُصب الإسلام حلفا إلا زاده شدة ، ولا حلف فى الإسلام ، وقد ألف رسول الله ﷺ بين قريش والأنصار » . والحديث الثانى ٣/١٣٦ (ط . المعارف) وهو مختصر للحديث الأول وصحح الشيخ أحمد شاكر الحديثين (والقسم الذى يبدأ بكلام الزهرى مرسل) ، وذكر أن الحديث فى مجمع الزوائد ٨/١٧٢ وأن ابن كثير نقله فى تاريخه ٢/٢٩٠ - ٢٩١ وأن ابن كثير نقل عن البيهقى قوله : « وزعم بعض أهل السير أنه أراد حلف الفُضُول ، فإن النبى ﷺ لم يدرك حلف المطيبين » ووافق ابن كثير البيهقى (انظر كلامه فى ذلك) ، ولكن الشيخ أحمد شاكر رحمه الله خالفه وقال : « ولا شك أن الحلف الذى كان عقيب موت قصى قديم ، ولكن هذا لا ينفى أن يسمى الحلف الذى شهده رسول الله « حلف المطيبين » فهو حلف آخر كان قبل البعثة ، ولعله كان توكيداً للحلف القديم . انظر : النهاية ١/٢٤٩ - ٢٥٠ وفيها : « وكان رسول الله ﷺ وأبو بكر رضى الله عنه من المطيبين ، وكان عمر رضى الله عنه من الأحلاف » . ونحو هذا فى قاموس الفيروزابادى فى مادة (ط ى ب) » .

(٢) انظر ما ذكره ابن كثير فى تاريخه من أخبار عبد الله بن جُدْعان ٢/٢١٧ - ٢١٨ = ١/١١٦ - ١١٧ (السيرة النبوية لابن كثير ، تحقيق الأستاذ مصطفى عبد الواحد ، ط . عيسى الحلبى ، ١٣٨٤/١٩٦٤) .

(٣) قال ابن كثير فى تاريخه ٢/٢٩١ - ٢٩٢ = السيرة النبوية ١/٢٥٨ - ٢٥٩ : « قالوا : وكان حلف الفضول قبل المبعث بعشرين سنة فى شهر ذى القعدة ، وكان بعد حرب الفِجار بأربعة أشهر ، وذلك لأن الفجار كان فى شعبان من هذه السنة . وكان حلف الفُضُول أكرم حلف سُمِع به ، وأشرفه فى العرب ، وكان أول من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب . وكان سببه أن رجلا من زَبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل ، فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الزبيدى الأحلاف : عبد الدار =

فأما إذا كان القول على الشريعة التى بعث الله بها رسوله فى دينهم ودنياهم فإن ذلك يغنيهم عن (١) التحالف إلا عليها ، فعليها يكون تحالفهم وتعاقدهم وتعاونهم وتناصرهم ، كما وصف الله به المحبين المحبوبين فى قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ [سورة المائدة : ٥٤] .

وعلى ذلك يُبَايَعُ المطاعون (٢) فيهم من الأمراء والعلماء وغيرهم ، كما قال أبو بكر الصديق فى خطبته للمسلمين : « أطيعونى ما أطعت الله [ورسوله] (٣) ، فإذا عصيت الله [ورسوله] (٣) فلا طاعة لى عليكم » (٤) .

= ومخزوماً وجُمحاً وسهماً وعدىَّ بن كعب ، فأبوا أن يعينوا على العاص بن وائل ، وزبروه – أى انتهروه – فلما رأى الزبيدى الشر أوفى على أبى قُبيس عند طلوع الشمس ، وقريش فى أنديتهم حول الكعبة ، فنادى بأعلى صوته :

يا آل فِهْر لمظلوم بضاعتَــه	ببطن مكة نائى الدار والنفَرِ
ومُحرِمٍ أشعثٍ لم يقْضِ عُمْرته	يا للرجال وبين الحجر والحِجرِ
إن الحرام لمَنْ تمَّت كرامتَــه	ولا حَرَام لثوب الفاجر الغَدِرِ

فقام فى ذلك الزبير بن عبد المطلب ، وقال : ما لهذا مَتْرك . فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرَّة فى دار عبد الله بن جُدعان فصنع لهم طعاماً ، وتحالفوا فى ذى القعدة فى شهر حرام ، فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونُنّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدىّ إليه حقه ما بَلَّ بحرٌ صوفةً ، ومارسى ثَبير وحِرَاء مكانها ، وعلى التآسى فى المعاش . فسمت قريش ذلك الحلفَ حلفَ الفضول ، وقالوا : لقد دخل هؤلاء فى فضلٍ من الأمر ... » .

(١) فى الأصل : يعنيهم على . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : الطاعون ، وهو تحريف ظاهر .

(٣) ورسوله : ساقطة من الأصل ، وهى من تمام خطبة أبى بكر رضى الله عنه .

(٤) فى الأصل : فيكم ، وهو خطأ . وقد أورد ابن كثير فى « تاريخه » ٦/٣٠١ الخطبة كاملة وسندها : « وقال محمد بن إسحاق بن يسار ، حدثنى الزهرى ، حدثنى أنس بن مالك قال ... » وأول الخطبة : « أما بعد أيها الناس فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم .... » وقال ابن كثير : « وهذا إسناد صحيح » .

وبذلك أمر الله ورسوله فى طاعة أولى الأمر ، فقال النبى ﷺ : « على المرء المسلم السمع والطاعة : فى عسره ويسره ، ومنشطه ومكرهه [١] ، ما لم يؤمر بمعصية الله ، فإذا أمر بمعصية / الله فلا سمع ولا طاعة » [٢] . وقال النبى ﷺ : « إنما الطاعة فى المعروف » [٣] ، و « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » [٤] .

ظ ١٧٦

وفى الصحيح أن عبد الله بن عمر كتب بيعته إلى عبد الملك بن مروان لما اجتمع الناس عليه : « لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين ، إنى قد أقررت لك بالسمع والطاعة على سنة الله وسنة رسوله فيما استطعت ، وقد أقرَّ بَنِيَّ لما أقررت به » [٥] فأخبره أنه يعاقده على ما أمر الله به من الطاعة له فى طاعة الله بحسب قدرته ، وهذا واجب عليه بالشرع .

---

(١) فى الأصل : ومكروهه . والمثبت هو لفظ الحديث .

(٢) جمع ابن تيمية هنا بين حديثين . الأول عن ابن عمر رضى الله عنهما ونصه (فى مسلم) : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ، إلا أن يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » . وسبق هذا الحديث فى المجموعة الأولى ، ص ٢٧٤ ت ٣ . والحديث الثانى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، ونصه فى مسلم ١٤٦٧/٣ ، (كتاب الإمارة ، باب وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية ....) : « عليك السمع والطاعة ، فى عسرك ويسرك ، ومنشطك ومكرهك ، وأثرة عليك » ، وهو فى : سنن النسائى ١٢٦/٧ (كتاب البيعة ، باب البيعة على الأثرة) .

(٣) سبق ورود هذا الحديث فى المجموعة الأولى من « جامع الرسائل » ص ٢٧٤ وذكرت نصه وتكلمت عليه فى (ت ١) . والحديث أيضا عن علىّ رضى الله عنه فى : البخارى ١٦١/٥ (كتاب المغازى ، باب بعث النبى ﷺ خالد بن الوليد إلى بنى خزيمة) ، ٨٨/٩ (كتاب الآحاد ، باب ما جاء فى إجازة خبر الواحد الصدوق فى الآذان والصلاة ....) ؛ سنن أبى داود ٥٥/٣ (كتاب الجهاد ، باب فى الطاعة) ؛ سنن النسائى ١٤٢/٧ (كتاب البيعة ، جزاء من أمر بمعصية فأطاع) ؛ المسند (ط . المعارف) ٤٦/٢ ، ٩٨ ، ٢٢١ .

(٤) مضى الحديث من قبل فى المجموعة الأولى ، ص ٢٧٤ ت ٢ فارجع إليه .

(٥) فى الأصل : وقد أمرتنى لما أقررت به . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته . وجاء هذا الأثر مرتين فى : صحيح البخارى ٧٧/٩ ، ٧٨ (كتاب الأحكام ، باب كيف يبايع الإمام الناس) عن عبد الله ابن دينار عن عبد الله بن عمر أنه كتب « إنى أقر بالسمع والطاعة لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين على سنة الله وسنة رسوله فيما استطعت ، وإنَّ بَنِيَّ قد أقروا بذلك » . وجاء الأثر بمعناه فى : الموطأ ٩٨٣/٢ (كتاب البيعة ، باب ما جاء فى البيعة) .

فهو تعاقد على ما أمر الله بمنزلة نفس الدخول فى الإسلام ، وبيعة النبى ﷺ ، كما بايعه الأنصار ، وكما بايعه المسلمون تحت الشجرة ، وكما كان يبايع المسلمين على السمع والطاعة ويلقّنهم : فيما استطعتم [١] .

وطاعة الرسول واجبة على الخلق بإيجاب الله بمعاقدتهم على ذلك : معاقدة على طاعة الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ٨١] .

لكن هذا إنما كان ظاهرا فى أيام الخلفاء الراشدين ، وبعدهم كثرت العقود الموافقة للشريعة تارة ، والمخالفة لها أخرى ، فلا جرم كان الحكم العام فى جميع هذه العقود أنه يجب الوفاء فيها بما كان طاعةً لله ، ولا يجوز الوفاء فيها بما كان معصية لله ، كما قال النبى ﷺ فى الأحاديث الصحيحة : « ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست فى كتاب الله ، ما كان من شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل ، وإن كان مائة شرطٍ . كتاب الله [٢] أحق ، وشرط الله أوثق » [٣] وقال ﷺ : « من نذر أن

---

(١) جاءت أحاديث متعددة ذكر فيها أن النبى ﷺ كان يقول لصحابته إذا بايعوه على السمع والطاعة (أو يلقنهم) : « فيما استطعت » أو « فيما استطعتم » وللنساء : « فيما استطعتن وأطقتن » . وانظر هذه الأحاديث المتعددة التى جاءت عن عبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك وأميمة بنت رُقَيْقَة رضى الله عنهم جميعا فى : البخارى ٧٧/٩ ، ٧٨ (كتاب الأحكام ، باب كيف يبايع الإمام الناس) ؛ مسلم ١٤٩٠/٣ (كتاب الإمارة ، باب البيعة على السمع والطاعة) ؛ سنن النسائى ١٣٦/٧ - ١٣٧ (كتاب البيعة ، باب البيعة فيما يستطيع الإنسان) ؛ سنن ابن ماجة ٩٥٨/٢ (كتاب الجهاد ، باب البيعة) ؛ الموطأ ٩٨٢/٢ - ٩٨٣ (كتاب البيعة ، باب ما جاء فى البيعة) ؛ المسند (ط . المعارف) ١٩٣/٧ ، ٢٨٨ - ٢٨٩ ، ١٣٠/٨ ، ١١٢/٩ .

(٢) فى الأصل : ما به من شرط كان الله . والتصحيح من روايات الحديث الصحيحة .

(٣) هذا جزء من حديث عن عائشة رضى الله عنها وأوله (وهذا لفظ البخارى ٩٤/١) عن =

يطيع [الله] (١) فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » (٢) ، وفى السنن « المسلمون على شرطهم ، إلا شرطا أحلَّ حراما أو حرَّم حلالا » (٣) .

فأما أمر الدين وما يحبه الله ويقرِّب إليه ، فليس لعقود بنى آدم فيه أثر ، بل المرجع فى ذلك إلى أمر الله ورسوله ، فلا دين إلا ما أمر الله به ، ومن اتّبع فى ذلك عقود بنى آدم ، فهم الذين اتّبعوا شركاءهم ، الذين شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن الله / به ، وهذه حال جميع ما ابتُدع من الدين ، فإن الذى ابتدعه وافقه عليه غيره وحالفه ، فاتخذوه دينا ، فتدين هذا فيه يظهر حال جميع [أهل] (٤) البدع المخالفة للكتاب والسنة وأن (٥) الموافقة عليها هى من هذا الباب .

ص ١٧٧

= عائشة قالت : أتتها بريرة تسألها فى كتابتها . فقالت : إن شئت أعطيت أهلك ويكون الولاء لى .... فلما جاء رسول الله ﷺ ذكرته ذلك ، فقال : « ابتاعيها فأعتقيها ، فإن الولاء لمن أعتق » ثم قام رسول الله ﷺ على المنبر ... الحديث . وهو فى : البخارى ٩٤/١ (كتاب الصلاة ، باب ذكر البيع والشراء على المنبر فى المسجد) وهو فى مواضع أخرى فى البخارى ١٢٤/٨ ؛ مسلم ١١٤٢/٢ - ١١٤٣ (كتاب العتق ، باب إنما الولاء لمن أعتق) ؛ سنن أبى داود ٢١/٤ (كتاب العتق ، باب فى بيع المكاتب إذا فسخت الكتابة) ؛ سنن النسائى ٢٦٨/٧ (كتاب البيوع ، باب بيع المكاتب) ؛ سنن ابن ماجة ٨٤٢/٢ - ٨٤٣ (كتاب العتق ، باب المكاتب) ؛ الموطأ ٧٨٠/٢ - ٧٨١ (كتاب العتق ، باب مصير الولاء لمن أعتق) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٨٢/٦ .

(١) لفظ الجلالة غير موجود بالأصل .

(٢) الحديث عن عائشة رضى الله عنها فى : البخارى ١٤٢/٨ (كتاب الأيمان والنذور ، باب النذر فى الطاعة ، باب النذر فيما لا يملك وفى معصية) ؛ سنن أبى داود ٢٣٢/٣ (كتاب الأيمان والنذور ، باب ما جاء فى النذر فى المعصية) ؛ سنن النسائى ١٦/٧ (كتاب الأيمان والنذور ، باب النذر فى الطاعة ، باب النذر فى المعصية) ؛ سنن ابن ماجة ٦٨٧/١ (كتاب الكفارات ، باب النذر فى المعصية) ؛ الموطأ ٤٧٦/٢ (كتاب النذور ، باب ما لا يجوز من النذور فى معصية الله) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣٦/٦ ، ٤١ ، ٢٢٤ .

(٣) هذا جزء من حديث عن عمرو بن عوف المزنى عن أبيه عن جده رضى الله عنه فى : سنن الترمذى ٤٠٣/٢ (كتاب الأحكام ، باب ما ذكر عن رسول الله ﷺ فى الصلح بين الناس) . وأول الحديث : « الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا حرّم حلالا أو أحل حراما ، والمسلمون على شروطهم ... الحديث . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » وذكر المباركفورى فى شرحه ٥٨٤/٤ - ٥٨٥ (ط . السلفية ، المدينة المنورة ، ١٣٨٥/١٩٦٥) أقوال العلماء فى هذا التصحيح وخلاصتها أن طرق الحديث يشهد بعضها لبعض وأقل أحوالها أن يكون المتن الذى اجتمعت عليه حسنا .

(٤) زدت « أهل » ليستقيم الكلام .

(٥) فى الأصل : أن .

وأكثر ما ينفق بين المسلمين ما فيه حق وباطل ، إذ الباطل المحض لا يبقى بينهم ، وذلك يتضمن التحالف على غير ما أمر الله به ، والتبديل لدين الله بما لُبِّس من الحق بالباطل ، وهذه حال اليهود والنصارى وسائر أهل الضلال ، فإنهم عدلوا عمَّا أمرهم الله باتّباعه ، فلبَّسوه بباطل ابتدعوه ، بدَّلوا به دين الله ، وتحالفوا على ذلك الذى ابتدعوه .

وأما المعاملات فى الدنيا فالأصل فيها أنه لا يَحْرُم منها إلا ما حرَّمه الله ورسوله ، فلا حرام إلا ما حرَّم الله ، ولا دين إلا ما شرعه . وإذا لم يَحْرُم إلا ما حرَّمه الله ورسوله فكأنّ ما كان بدله بدون التعاقد يجب بالتعاقد ، فإن العقد يوجب على كل واحد من المتعاوضين والمتشاركين ما أوجبه الآخر على نفسه له ، ولهذا قال النبى ﷺ : « المسلمون على شروطهم إلا شرطا أحلَّ حراما ، أو حرَّم حلالا » .

المسلمون على شروطهم إلا شرطا أحلّ حراما أو حرّم حلالا

وهذا الموضع كثر [١] فيه غلط كثير من الفقهاء بتحريم عقود وشروط لم يحرِّمها الله ، كما كثر [٢] فى الأول غلط كثير من العبَّاد والعلماء بابتداع دين لم يشرعه الله ، وإيجابه بالتعاقد عليه ، حتى يوجبون طاعة شخص معين ميتٍ أو حيٍّ من العلماء فى كل شىء ، ويحرِّمون طاعة غيره فى كل شىء نازعه فيه ، لمجرد عقد العامى الذى انتسب إلى هذا دون هذا .

وكذلك فى المشايخ ، حتى قد يأمرونه بمخالفة ما تبيَّن له من الشريعة لأجل العقد الذى التزمه للمذهب والطريقة ، فيشترطون شروطا ليست فى كتاب الله ، ويأمرون بطاعة المخلوق فى معصية الخالق ، وأكثر ذلك يدخله نوع من الاجتهاد

(١) فى الأصل : كبير ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : كبر ، وهو تحريف .

الظاهر الذى فيه نوع من اتّباع الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى .

والواجب فى جميع هذه الأمور أن ما يتبين أنه طاعة لله ورسوله وجب اتّباعه ، وما اشتبه على الإنسان حاله سلك فيه مسلك الاجتهاد بحسب قدرته ، ولا يكلّف الله نفسا إلا وسعها ، واجتهاد العامة هو طلبهم للعلم من العلماء بالسؤال والاستفتاء بحسب إمكانهم .

فإذا كان جميع ما عليه بنو [1] آدم لابد فيه من تعاون وتناصر ، وفيه ما هو شرك بالله ، وفيه ما هو قول على الله بغير علم ، وفيه ما هو إثم وبغى ، وفيه ما هو من الفواحش – علم أنه لابد فى الإيمان من التعاون والتناصر على فعل ما يحبه الله تعالى ، ودفع ما يبغضه الله تعالى ، وهذا / هو الجهاد فى سبيله ، وأن أمر الإيمان لا يتم بدون ذلك ، كما لا يتم غير الإيمان إلا بما هو من نوع ذلك . ظ ١٧٧

فكل المتعاونين المتناصرين يجاهدون ، ولكن فى سبيل الله تارة ، وفى سبيل غير الله تارة ، ولا صلاح لبنى آدم إلا بأن يكون الدين كله لله ، وتكون كلمة الله هى العليا .

قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلهِ ﴾ [سورة الأنفال : ٣٩] وهؤلاء الذين تولوا الله فتولاهم [2] الله ، والذين يدينون لغير الله هم ظالمون بتولّى بعضهم بعضا ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة الجاثية :

---

(١) فى الأصل : بنى .
(٢) فى الأصل : يولاهم .

١٨ ، ١٩] ، ولا يتم لمؤمن ذلك إلا بأن يجمع بين ما جمع الله بينه ، ويفرق بين ما فرَّق الله بينه ، وهذه حقيقة الموالاة والمعاداة ، التى مبناها على المحبة والبغضة .

فالموالاة تقتضى التحاب (١) والجمع ، والمعاداة تقتضى التباغض والتفرق . والله سبحانه قد ذكر الموالاة والجمع بين المؤمنين ، فقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٥٥] . وذكر العداوة بينهم وبين الكفار فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ والنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٥١] ثم ذكر حال المستنصرين بهم (٢) فإن الموالاة موجبها التعاون والتناصر .

فلا يُفرَّق بين المؤمنين لأجل ما يتميز به بعضهم عن بعض ، مثل الأنساب والبلدان ، والتحالف على المذاهب والطرائق والمسالك والصداقات وغير ذلك ، بل يُعطَى كلٌّ من ذلك حقه ، كما أمر الله ورسوله ، ولا يُجمع بينهم وبين الكفار الذين قطع الله الموالاة بينهم وبينه ، فإن دين الله هو الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .

والله سبحانه أرسل رسله بالبينات ، وأنزل معهم الكتاب والميزان ، ليقوم الناس بالقسط ، فيحتاج المؤمن إلى معرفة العدل ، وهو الصراط المستقيم ، وإلى العمل به ، وإلا وقع إما فى جهل وإما فى ظلم .

---

(١) فى الأصل : التجات ، وهو تحريف .

(٢) وهو قوله تعالى فى الآية التالية : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِم يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَو أَمرٍ مِن عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِم نَادِمِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٥٢] . وانظر تفسير الطبرى للآية ١٠/٤٠٢ - ٤٠٧ (ط . المعارف) .

وذلك إنما وقع من التبديل والعقود الفاسدة ، كما ذكرنا من لبس الحق بالباطل ، حيث صارت المحرَّمات : من الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير / الحق ، والإشراك بالله ما لم يُنزِّل به سلطانا ، والقول على الله بغير علم – قد لُبِّس بها من الحق المأذون فيه ما صارت بسببه شبيهة [١] للحق الحسن ، وإن كانت مشتملة مع ذلك على الباطل السيئ ، وإن صار أصحابها بين عمل صالح وآخر سيئ ، فقوم ينكرون ذلك كله لما علموا فيه من المنكر البغيض ، وأقوام يقرُّون ذلك كله لما فيه من المحبوب .

ص ١٧٨

وهذه القاعدة قد ذكرناها غير مرة ، وهى اجتماع الحسنات والسيئات ، والثواب والعقاب ، فى حق الشخص الواحد ، كما عليه أهل جماعة المسلمين من جميع الطوائف ، إلا من شذَّ عنهم من الخوارج والوعيدية ، من المعتزلة ونحوهم ، وغالب المرجئة .

فإن هؤلاء ليس للشخص عندهم إلا [أن] [٢] يثاب أو يُعاقب ، محمود من كل وجه ، أو مذموم من كل وجه . وقد بيَّنا فساد هذا فى غير هذا الموضع ، بدلائل كثيرة من الكتاب والسنة ، وإجماع الأمة ، وذكرنا أيضا الكلام [٣] فى الفعل الواحد نوعا وشخصا [٤] .

والغرض هنا أن هؤلاء الذين لبَّسوا الحق والباطل ، حصل فى مقابلتهم من أعرض [٥] عن الحق والباطل جميعا ، فصار هؤلاء مذمومين على فعل السيئات ،

---

(١) فى الأصل : سببه شبهه . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) زدت « أن » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : فى الكلام .

(٤) انظر ما ذكره ابن تيمية فى ذلك فى كتابه « الإيمان » .

(٥) فى الأصل : مع من أعرض .

محمودين على فعل الحسنات ، وأولئك يُذمُّون على ترك الحسنات الواجبات ، ويمدحون على ما قصدوا تركه لله من السيئات .

وسبب ذلك أن الإنسان فيه ظلم وجهل ، فإذا غلب عليه رأى أو خُلُق ، استعمله فى الحق والباطل جميعا ، لم يحفظ حدود الله . ولهذا يأمر الله بحفظ حدوده .

مثال ذلك أن من الناس من يكون فى خلقه سماحة ولين ومحبة ، فيسمح بمحبته و بتعظيمه و نفعه و ماله للحَسَن الذى يحبه الله و يأمر به ، كمحبة الله و رسوله وأوليائه المؤمنين ، والإنفاق فى سبيله ، ونحو ذلك . ويسمح أيضا بمحبة الفواحش والإنفاق [فيها] (١) ، فتجده (٢) يحب الحق والباطل جميعا ، ويصدِّق بهما ، ويعين عليهما .

ومنهم من يكون فى خلقه قوة ، فيمتنع من فعل الفواحش ويبغضها ، ويمتنع مع ذلك من محبة نفع الناس والإحسان إليهم والحلم عن سيئاتهم ، فتجده يبغض الحق والباطل جميعا ، ويكذِّب بهما ، ولا يعين على واحد منهما ، بل ربما صدَّ عنهما .

وذلك لأن النفس أمَّارة بالسوء ، والشيطان يزيِّن للمرء سوء عمله فيراه حسنا ، وهو متبع هواها . وما فيها من العلم والإيمان [يدعوه إلى الخير حتى] تذهب الحسنات بالسيئات (٣) ، وإنما يفعل من الحسنات ما أقبلت عليه (٤) إرادته ومحبته / دون ما أبغضته .

ظ ١٧٨

---

(١) زدت « فيها » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : فيجده .

(٣) فى الأصل : .... والإيمان يجب أن تذهب الحسنات بالسيئات . ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

(٤) فى الأصل : ما تيسر عليها . ولعل الصواب ما أثبته .

وفى الإنسان قوتان : قوة الحب ، وقوة البغض . وإنما خلق ذلك فيه ليحب الحق الذى يحبه الله ، ويبغض الباطل الذى يبغضه الله ، وهؤلاء هم الذين يحبهم الله ويحبونه .

والنفس تميل إلى الإشراك بحسب الإمكان ، فإذا غلب على النفوس قوة المحبة لما يناسبها ، فأحبت الحق ، فقد تنجذب [1] بسبب ذلك إلى محبة ما يقارنه من الباطل .

ومن هنا مال كثير من النساك إلى محبة الأصوات والصور وغير ذلك ، بسبب ما فيهم من المحبة ، التى فيها ما هو لله ، لكن لبَّسوا فيها الحق بالباطل . وكذلك قد يكون الشخص بالمحبة يميل إلى شهوات الغى فى بطنه وفرجه وإنفاق الأموال فيها ، ثم إنه بسبب ما فيه من الحب والدين يحب الحق وأهله ويعظمهم . فتجد [1] كثيرا من أهل الشهوات ، وفيهم من المحبة لله ورسوله ما لا يوجد فى كثير من النساك ، كما قال النبى ﷺ فى حمار الذى كان يشرب الخمر كثيرا : « لا تلعنه ، فإنه يحب الله ورسوله » والحديث فى صحيح البخارى وغيره [2] .

فصل

المقصود الأول من كل عمل هو التنعم واللذة

وإذا كان كل عمل أصله المحبة والإرادة ، والمقصود [منه] التنعم [3] بالمراد المحبوب ، فكل حى إنما يعمل لما فيه تنعمه ولذته ، فالتنعّم هو المقصود الأول من كل قصد ، كما أن التعذّب والتألم هو المكروه أولا [وهو سبب] كل بغض [4] وكل

---

(١) فى الأصل : فيجرا ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) مضى الحديث فى هذه القاعدة من قبل (ص : ٢٥٨ - ٢٥٩) .

(٣) فى الأصل : والمقصود والتنعم . وكتب كلمة « كذا » فوق كلمة « التنعم » . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : أولا فكل بغض .... إلخ . ولعل الصواب ما أثبته .

حركة امتناع . لكن وقع الجهل والظلم فى بنى آدم ، فعمدوا إلى الدين الفاسد (١) والدنيا الفاجرة : طلبوا بهما النعيم ، وفى الحقيقة فإنما فيهما (٢) ضده .

وبيان ذلك أن الأعمال التى يعملها جميع بنى آدم إما أن يتخذونها دينا ، أو لا يتخذونها دينا . والذين يتخذونها دينا إما أن يكون الدين بها دين حق ، أو دين باطل . فنقول (٣) : النعيم التام هو (٤) فى الدين الحق .

النعيم التام هو فى الدين الحق

فأهل الدين الحق هم الذين لهم النعيم الكامل ، كما أخبر الله بذلك فى كتابه فى غير موضع ، كقوله : ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ [سورة الفاتحة : ٦ ، ٧] .

وقوله عن المتقين المهتدين : ﴿ أُوْلَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٥] .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴾ [سورة طه : ١٢٣ - ١٢٦] .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٣٨] .

---

(١) فى الأصل العبارة مضطربة ومحرفة كأنها : .... فى بنى آدم يحتسين بالدين الفاسد ... إلخ . ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

(٢) فى الأصل : فيها .

(٣) فى الأصل : فيقول .

(٤) فى الأصل : هى .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [سورة الانفطار : ١٣ ، ١٤] .

ص ١٧٩

ووَعْدُ أهل الإيمان والعمل / الصالح بالنعيم التام فى الدار الآخرة ، ووعد الكفار بالعذاب التام فى الدار الآخرة أعظم من أن [١] يذكر هنا ، وهذا مما لم ينازع فيه أحد من أهل الإسلام .

من الخطأ الظن بأن نعيم الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور

ولكن تذكر [٢] هنا نكتة نافعة ، وهو أن الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيراً من أهل الإيمان والإسلام فى الدنيا من المصائب ، وما يصيب كثيرا من الكفار والفجار فى الدنيا من الرياسة والمال وغير ذلك ، فيعتقد أن النعيم فى الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور ، وأن المؤمنين ليس لهم فى الدنيا ما يتنعَّمون به إلا قليلا ، وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة قد تستقر للكفار والمنافقين على المؤمنين . وإذا سمع ما جاء فى القرآن من أن العزة لله ورسوله وللمؤمنين ، وأن العاقبة للتقوى ، وقول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [سورة الصافات : ١٧٣] وهو ممن يصدِّق بالقرآن – حمل هذه الآيات على الدار الآخرة فقط ، وقال : أما الدنيا فما نرى بأعيننا [إلا] [٣] أن الكفار والمنافقين فيها يظهرون ويغلبون المؤمنين ، ولهم العزة والنصرة ، والقرآن لا يَرِدُ بخلاف المحسوس ، ويعتمد على هذا فيما إذا أديل عليه عدو من جنس الكفار والمنافقين أو الظالمين ، وهو عند نفسه من أهل الإيمان والتقوى ، فيرى أن صاحب الباطل قد علا [٤]

---

(١) فى الأصل : أعظم ممن .

(٢) فى الأصل : يذكر .

(٣) زدت « إلا » ليستقيم الكلام .

(٤) فى الأصل : على .

على صاحب الحق ، فيقول : أنا على الحق وأنا مغلوب ، وإذا ذكره [إنسان] (١) بما وعده الله من حسن (٢) العاقبة للمتقين ، قال : هذا فى الآخرة فقط . وإذا قيل له : كيف يفعل الله بأوليائه مثل هذه الأمور ؟ قال : يفعل ما يشاء ، وربما قال بقلبه أو لسانه ، أو كان حاله يقتضى أن هذا من نوع الظلم ، وربما ذكر قول بعضهم : ما على الخلق أضر من الخالق ، لكن يقول : يفعل الله ما يشاء . وإذا ذُكِّر برحمة الله وحكمته لم يقل (٣) إلا أنه يفعل ما يشاء . فلا يعتقدون أن (٤) صاحب الحق والتقوى منصور ومؤيد (٥) ، بل [يعتقدون أن الله] (٦) يفعل ما يشاء .

وهذه الأقوال مبنية على مقدمتين : إحداهما : حسن ظنه بدين نفسه / نوعا أو شخصا (٧) واعتقاد أنه قائم (٨) بما يجب عليه ، وتارك ما نهى عنه فى الدين الحق ، واعتقاده فى خصمه ونظيره خلاف ذلك : أن (٩) دينه باطل نوعا أو شخصا ، [لأنه] (١٠) ترك المأمور وفعل المحظور . ظ ١٧٩

والمقدمة الثانية : أن الله قد لا يؤيد صاحب الدين الحق وينصره . وقد لا يجعل له العاقبة فى الدنيا ، فلا ينبغى الاغترار بهذا .

---

(١) زدت « إنسان » ليستقيم الكلام .
(٢) فى الأصل : حق ، وهو تحريف .
(٣) فى الأصل : لم يستعد .
(٤) فى الأصل : فلا يعتمدون على . ولعل الصواب ما أثبته .
(٥) فى الأصل : موبدا ، وهو تحريف .
(٦) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .
(٧) فى الأصل : تسوعا أو سحضا ، وهو تحريف .
(٨) فى الأصل : قائما ، وهو خطأ .
(٩) فى الأصل : أنه .
(١٠) زدت « لأنه » ليستقيم الكلام .

المؤمن يطلب نعيم الدنيا والنعيم التام فى الآخرة

ومن المعلوم أن العبد وإن أقر بالآخرة فهو يطلب حسن [١] عاقبة الدنيا ، فقد يطلب ما لابد منه من دفع الضرر ، وجلب المنفعة ، وقد يطلب من زيادة النفع ودفع الضرر ما يظن أنه مباح ، فإذا اعتقد أن الدين الحق قد ينافى ذلك لزم من ذلك إعراض القلب عن الرغبة فى كمال الدين الحق ، وفى حال السابقين والمقربين ، بل قد يعرض عن حال المقتصدين أصحاب اليمين ، فيدخل مع الظالمين ، بل قد يكفر ويصير من المرتدين المنافقين أو المعلنين بالكفر ، وإن لم يكن هذا فى أصل الدين كان فى كثير من أصوله وفروعه ، كما قال النبى ﷺ : « يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا ، أو يمسى مؤمنا ويصبح كافرا ، يبيع دينه بعرض من الدنيا » [٢] ، وذلك إذا اعتقد أن الدين لا يحصل إلا بفساد دنياه ، ولذلك فإنه يفرح بحصول الضرر له ويرجو ثواب ضياع ما لابد له من المنفعة [٣] .

وهذه الفتنة التى [٤] صدت أكثر بنى آدم عن تحقيق الدين ، وأصلها الجهل بحقيقة الدين ، وبحقيقة النعيم ، الذى هو مطلوب النفوس فى كل وقت ، إذ قد ذكرنا أن كل عمل فلابد فيه من إرادة به لطلب ما ينعِّم ، فهناك عمل يُطلب به النعيم ، ولابد أن يكون المرء عارفا [٥] بالعمل الذى يعمله ، وبالنِعيم الذى يطلبه .

---

(١) فى الاصل : من . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه وأوله (فى مسلم) : « بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل ... الحديث وهو فى : مسلم ١/١١٠ (كتاب الإيمان ، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن) ؛ المسند (ط . المعارف) ١٥/١٧٩ – ١٨٠ ، (ط . الحلبى) ٢/٣٧٢ .

(٣) فى الأصل العبارة سقيمة ونصها : .... دنياه لحصول ضرره يحتمل ثواب ما لابد منه من المنفعة . وأرجو أن تكون العبارات التى أثبتها أقرب شىء إلى ما قصده ابن تيمية .

(٤) فى الأصل : الذى .

(٥) فى الأصل : فالذى يطلب به النعيم فلابد أن يكون المرء عارف .... ، ولعل الصواب ما أثبته .

ثم إذا عَلِمَ هذين الأصلين ، فلابد أن تكون فيه إرادة جازمة على العمل بذلك ، وإلا فالعلم بالمطلوب وبطريقه لا يحصلان المقصود إلا مع الإرادة الجازمة (١) . والإرادة الجازمة لا تكون إلا مع الصبر ، ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ • إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ • إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [سورة العصر : ١ - ٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [سورة السجدة : ٢٤] .

فاليقين هو العلم الثابت المستقر ، والصبر [لابد منه لتحقيق الإرادة الجازمة] (٢) .

والمقدمتان اللتان (٣) التى بنيت عليهما هذه البليّة مبناهما (٤) على الجهل بأمر الله ونهيه ، / وبوعده ووعيده . فإن صاحبهما (٥) إذا اعتقد أنه قائم بالدين الحق ، فقد اعتقد أنه فاعل للمأمور (٦) ، تارك للمحظور ، [وهو على العكس من ذلك] (٧) ، وهذا يكون من جهله بالدين الحق .

ص ١٨٠

من الخطأ الاعتقاد أن الله ينصر الكفار فى الدنيا ولا ينصر المؤمنين

وإذا اعتقد أن صاحب الحق لا ينصره الله فى الدنيا ، بل قد تكون العاقبة فى الدنيا للكفار على المؤمنين ، ولأهل الفجور على أهل البر – فهذا من جهله بوعد الله تعالى .

---

(١) فى الأصل : .... وبطريقه لا يحصله إن لم يعلم ، وهو كلام لا يستقيم ، ولعل ما أثبته أقرب شىء إلى المقصود .

(٢) فى الأصل : والصبر الصبر . ولعل ما أثبته بين معقوفتين يستقيم به الكلام .

(٣) فى الأصل : والمقدمتان المقدمتان التى ، وهو تحريف ، ولعل الصواب نا أثبته .

(٤) فى الأصل : مبناها .

(٥) فى الأصل : صاحبها .

(٦) فى الأصل : فقد اعتقد أنه قائم بالأمور ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٧) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .

أما الأول ، فما أكثر من يترك واجبات لا يعلم بها ولا بوجوبها ، وما أكثر من يفعل محرمات لا يعلم بتحريمها ، بل ما أكثر من يعبد الله بما حَرَّم ويترك ما أوجب ، وما أكثر من يعتقد أنه هو المظلوم المحق من كل وجه ، وأن خصمه هو الظالم المبطل من كل وجه ، ولا يكون الأمر كذلك ، بل يكون معه نوع من الباطل والظلم ، ومع خصمه نوع من الحق والعدل .

وحبك الشيء يعمى ويصم ، والإنسان مجبول على محبة نفسه ، فهو لا يرى إلا محاسنها ، ومبغض لخصمه ، فلا يرى إلا مساوئه . وهذا الجهل غالبه مقرون بالهوى والظلم ، فإن الإنسان ظلوم جهول .

وأكثر ديانات الخلق إنما هى عادات أخذوها عن آبائهم وأسلافهم ، وتقليدهم فى التصديق والتكذيب ، والحب والبغض ، والموالاة والمعاداة .

كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [سورة لقمان : ٢١] وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ . وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ ﴾ [سورة الأحزاب : ٦٦ ، ٦٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [سورة الشورى : ١٤] (١) .

وأما الثانى ، فما أكثر من يظن أن أهل الدين الحق فى الدنيا يكونون أذلاء معذبين بما فيه ، بخلاف من فارقهم إلى طاعة أخرى وسبيل آخر ، ويكذِّب بوعد الله بنصرهم .

---

(١) جاءت الآيات السابقة فى الأصل محرفة .

والله سبحانه قد بين بكتابه كلا المقدمتين فقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [سورة غافر : ٥١] .

وقال تعالى فى كتابه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [سورة الصافات : ١٧١ – ١٧٣] .

وقال تعالى فى كتابه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [سورة المجادلة : ٥] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ۝ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [سورة المجادلة : ٢٠ ، ٢١] .

/ وقال تعالى فى كتابه : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۝ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٥٥ ، ٥٦] . ظ ١٨٠

وذم من يطلب النصرة بولاء غير هؤلاء ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ۝ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٥١ – ٥٣] .

وقال تعالى فى كتابه : ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [سورة النساء : ١٣٨ ، ١٣٩] .

وقال تعالى فى كتابه : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة المنافقون : ٨] .

وقال تعالى فى كتابه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [سورة فاطر : ١٠] .

وقال فى كتابه : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً ﴾ [سورة الفتح : ٢٨] .

وقال تعالى فى كتابه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۔ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۔ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۔ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ۔ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِى إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ فَآمَنَتْ طَّائِفَةٌ مِّن بَنِى إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [سورة الصف : ١٠ - ١٤] .

ص ١٨١ وقال تعالى فى كتابه : ﴿ يَا عِيسَى إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [سورة آل عمران : ٥٥] .

وقال تعالى فى كتابه : ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً . سُنَّةَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ [سورة الفتح : ٢٢ ، ٢٣] .

وقال تعالى فى كتابه : ﴿ هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ [سورة الحشر : ٢] إلى قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [سورة الحشر : ٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٣٩] .

وَقَالَ تعالى لما قص قصة نوح ، وهى نصره على قومه فى الدنيا ، فقال تعالى : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة هود : ٤٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ [سورة طه : ١٣٢] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾ [سورة آل عمران : ١١٨] إلى قوله ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [سورة آل عمران : ١٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلاَئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٢٥] .

وقال يوسف وقد نصره الله فى الدنيا لما دخل عليه إخوته : ﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِى قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٩٠] .

وقال تعالى فى كتابه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [سورة الأنفال : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً • وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾ [سورة الطلاق ٢ ، ٣] .

وقد روى عن أبى ذر عن النبى ﷺ أنه قال : « لو عمل الناس كلهم بهذه الآية لوسعتهم » رواه ابن ماجة وغيره [(١)] .

وأخبر أن ما يحصل له من مصيبة انتصار العدو وغيرها ، إنما هو بذنوبهم ، / فقال تعالى فى يوم أحد : ﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [سورة آل عمران : ١٦٥] . ظ ١٨١

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ [سورة آل عمران : ١٥٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [سورة الشورى : ٣٠] .

---

(١) الحديث عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه فى : سنن ابن ماجة ١٤١١/٢ (كتاب الزهد ، باب الورع والتقوى) ونصه : « حدثنا هشام بن عمار وعثمان بن أبى شيبة ... عن أبى ذر قال قال رسول الله ﷺ : « إنى لأعرف كلمة (وقال عثمان : آية) لو أخذ الناس كلهم بها لكفتهم » قالوا : يا رسول الله ، أية آية ؟ قال : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا » . قال المعلق : « فى الزوائد : هذا الحديث رجاله ثقات ، غير أنه منقطع ، وأبو السليل لم يدرك أبا ذر ، قاله فى التهذيب » . وذكر ابن كثير الحديث فى تفسير الآية وزاد : « قال : فجعل يتلوها ويرددها على حتى نعست . ثم قال : « يا أبا ذر كيف تصنع إذا خرجت من المدينة ؟ .... الحديث » .

وقال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [سورة النساء : ٧٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [سورة الروم : ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ﴾ [سورة الشورى : ٣٤] .

وذم فى كتابه من لا يثق بوعده لعباده المؤمنين ، وذكر ما يصيب الرسل والمؤمنين ، فقال تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُوناً ۝ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا ۝ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ۝ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً ۝ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب : ١٠ — ١٤] .

وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٤] .

[وقال تعالى :] [1] ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ۝ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ

---

(١) زدت عبارة « وقال تعالى » ليستقيم الكلام .

الْمُجْرِمِينَ . لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة يوسف : ١٠٩ - ١١١] .

ولهذا أمر الله رسوله والمؤمنين باتباع ما أنزل إليهم ، وهو طاعته ، وهو المقدمة الأولى . وأمرهم / بانتظار وعده ، وهى المقدمة الثانية . وأمرنا بالاستغفار والصبر ، لأنهم لابد أن يحصل لهم تقصير وذنوب [1] فيزيله الاستغفار ، ولابد مع انتظار الوعد من الصبر ، فبالاستغفار تتم الطاعة ، وبالصبر [2] يتم اليقين بالوعد ، وإن كان هذا كله يدخل فى مسمى الطاعة والإيمان .

ص ١٨٢

قال تعالى : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ ﴾ [سورة يونس : ١٠٩] .

وقال [3] تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٣٤] .

وقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة هود : ٤٩] .

وأمرهم أيضا بالصبر إذا أصابتهم مصيبة بذنوبهم ، مثل ظهور العدو ، وكما قال تعالى فى قصة أُحد : ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ

---

(١) فى الأصل : من نصر وسكون ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : فالاستغفار يتم الطاعة ، والصبر ...

(٣) فى الأصل : قال .

الظَّالِمِينَ . وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٣٩ - ١٤١] .

وأيضا فقد قص سبحانه فى كتابه نصره لرسله ولعباده المؤمنين على الكفّار فى قصة نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وفرعون وغير ذلك . وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة يوسف : ١١١] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [سورة النور : ٣٤] .

ما سبق يتبين بأصلين : الأصل الأول : حصول النصر وغيره من أنواع النعيم لا ينافى وقوع القتل أو الأذى

وهذا يتبين بأصلين : أحدهما أن حصول النصر وغيره من أنواع النعيم لطائفة أو شخص لا ينافى ما يقع فى خلال ذلك من قتل بعضهم وجرحه ومن أنواع الأذى ، وذلك أن الخلق كلهم يموتون ، فليس فى قتل الشهداء مصيبة زائدة على ما هو معتاد لبنى آدم ، فمن عد القتل فى سبيل الله مصيبة مختصة بالجهاد كان من أجهل الناس ، بل الفتن التى تكون بين الكفار وتكون بين المختلفين من أهل القبله ليس مما يختص بالقتال ، / فإن الموت يعرض لبنى آدم بأسباب عامة ، وهى المصائب [١] التى تعرض لبنى آدم من مرض بطاعون وغيره ، ومن جوع وغيره ، وبأسباب خاصة ، فالذين يعتادون القتال لا يصيبهم أكثر مما يصيب من لا يقاتل ، بل الأمر بالعكس ، كما قد جرَّبه الناس .

ظ ١٨٢

ثم موت الشهيد من أيسر الميتات ، ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً . قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً ﴾ [سورة الأحزاب : ١٦ ، ١٧] .

---

(١) فى الأصل : وهى الطوفات . ولعل الصواب ما أثبته .

فأخبر سبحانه أن الفرار من القتل أو الموت لا ينفع ، فلا فائدة فيه ، وأنه لو نفع لم ينفع إلا قليلا ، إذ لا بد من الموت .

وأخبر أن العبد لا يعصمه من الله [أحد] (١) إن أراد به سوءا أو أراد به رحمة ، وليس له من دون الله ولى ولا نصير ، فأين نفر من أمره وحكمه ؟ ولا ملجأ منه إلا إليه ، قال تعالى : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّى لَكُم مِّنهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سورة الذاريات : ٥٠] وهذا أمر يعرفه الناس من أهل طاعة الله وأهل معصيته ، كما قال أبو حازم الحكيم : « لما يلقى الذى لا يتقى الله من معالجه الخلق أعظم مما يلقاه الذى يتقى الله من معالجة التقوى » .

والله تعالى قد جعل أكمل المؤمنين إيمانا أعظمهم بلاء ، كما قيل للنبى ﷺ : أى الناس أشد بلاء ؟ قال : « الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يُبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه ، وإن كان فى دينه رقة خُفِّف عنه ، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشى على الأرض وليس عليه خطيئة » (٢) .

ومن هذا أن الله شرع من عذاب الكفّار بعد نزول التوراة بأيدى المؤمنين فى الجهاد ما لم يكن قبل ذلك ، حتى إنه قيل : لم ينزل بعد التوراة عذاب عام من السماء للأمم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا

---

(١) زدت كلمة « أحد » ليستقيم الكلام .

(٢) الحديث – مع اختلاف فى الألفاظ – عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه فى : سنن الترمذى ٢٨/٤ (كتاب الزهد ، باب الصبر على البلاء) وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » ؛ سنن ابن ماجة ١٣٣٤/٢ (كتاب الفتن ، باب الصبر على البلاء) ؛ سنن الدارمى ٣٢٠/٢ (كتاب الرقاق ، باب فى أشد الناس بلاء) ؛ المسند (ط . المعارف) ٤٥/٣ – ٤٦ ، ٥٢ ، ٧٨ ، ٩٧ . وجعل البخارى أحد عناوين كتاب الطب (المرضى) فى صحيحه ١١٥/٧ : باب أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل .

الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة القصص : ٤٣] .

فإنه قبل (١) ذلك قد أهلك قوم فرعون وشعيب ولوط وعاد وثمود وغيرهم ، ولم يهلك الكفار بجهاد المؤمنين . ولما كان موسى أفضل من هؤلاء ، وكذلك محمد ، وهما الرسولان المبعوثان بالكتابين العظيمين ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴾ [سورة المزمل : ١٥] . / وقال تعالى : ﴿ قَالُوا لَوْلاَ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ ﴾ [سورة القصص : ٤٨] إلى قوله ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ ﴾ [سورة القصص : ٤٩] .

ص ١٨٣

وأمر الله هذين الرسولين بالجهاد على الدين . وشريعة محمد ﷺ أكمل ، فلهذا كان الجهاد فى أمته أعظم منه فى غيرهم .

قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٦] .

وقال (٢) تعالى : ﴿ وَلَوْ يَشَاءَ اللهُ لاَنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ [سورة محمد : ٤] .

وقال تعالى للمنافقين : ﴿ وَنَحْن نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينا ﴾ [سورة التوبة : ٥٢] .

---

(١) فى الأصل : قيل .

(٢) فى الأصل : قال .

فالجهاد للكفار أصلح من هلاكهم بعذاب سماءٍ من وجوه : أحدها : أن ذلك أعظم فى [(١)] ثواب المؤمنين وأجرهم وعلو درجاتهم ، لما يفعلونه من الجهاد فى سبيل الله ، لأن تكون كلمة الله هى العليا ، ويكون الدين كله لله .

الثانى : أن ذلك أنفع للكفار أيضا ، فإنهم قد يؤمنون من الخوف ، ومن أُسر منهم وسيم [(٢)] من الصغار يُسلم أيضا ، وهذا من معنى قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [سورة آل عمران : ١١٠] قال أبو هريرة : « وكنتم خير الناس للناس تأتون بهم فى الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة » [(٣)] فصارت الأمة بذلك خير أمة أخرجت للناس ، وأفلح بذلك المقاتلون ، وهذا هو مقصود الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهذا من معنى كون محمد ﷺ ما أُرسل إلا رحمة للعالمين ، فهو رحمة فى حق كل أحد بحسبه حتى المكذِّبين له ، هو فى حقهم رحمة أعظم مما كان غيره .

ولهذا لما أرسل الله إليه ملك الجبال وعرض عليه أن يقلب عليهم الأُخشبين قال : « لا ، استأنى بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له » [(٤)] .

---

(١) فى الأصل : من .

(٢) فى الأصل : وستى .

(٣) ورد هذا الأثر فى : البخارى ٦/٣٧ – ٣٨ (كتاب التفسير ، سورة آل عمران ، باب كنتم خير أمة أخرجت للناس) ونصه فيه : « .. عن أبى هريرة رضى الله عنه : كنتم خير أمة أخرجت للناس . قال : خير الناس للناس تأتون بهم فى السلاسل فى أعناقهم حتى يدخلوا فى الإسلام » . وانظر تفسير ابن كثير للآية ٢/٧٧ (ط . دار الشعب) .

(٤) هذه العبارة بمعنى جزء من حديث ورد فى البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها ونصه فى : البخارى ٤/١١٥ (كتاب بدء الخلق ، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة فى السماء ...) عن عائشة : « ... أنها قالت للنبى ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال : لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبدلا يا ليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت =

الوجه الثالث : أن ذلك أعظم عزة للإيمان وأهله ، وأكثر لهم ، فهو يوجب من علو الإيمان وكثرة أهله ما لا يحصل بدون ذلك ، وأمر المنافقين والفجار بالمعروف ونهيهم عن المنكر هو من تمام الجهاد ، وكذلك إقامة الحدود .

ظ ١٨٣

ومعلوم أن فى الجهاد وإقامة / الحدود من إتلاف النفوس والأطراف والأموال ما فيه ، فلو بلغت هذه النفوس [النصر] (١) بالدعاء ونحوه من غير جهاد ، لكان (٢) ذلك من جنس نصر (٣) الله للأنبياء المتقدمين من أممهم لمَّا أهلك نفوسهم وأموالهم .

وأما النصر بالجهاد وإقامة الحدود فذلك من جنس نصر الله لما يختص به رسوله ، وإن كان محمد ﷺ وأمته منصورين بالنوعين جميعا ، لكن يُشرع فى الجهاد باليد ما لا يشرع فى الدعاء (٤) .

الأصل الثانى : التنعم إما بالأمور الدنيوية وإما بالأمور الدينية

وأما الأصل الثانى : فإن التنعم [إما] (٥) بالأمور الدنيوية ، وإما بالأمور الدينية .

١ - الدنيوية

فأما الدنيوية فهى الحسية : مثل الأكل والشرب والنكاح واللباس وما يتبع ذلك ، والنفسية : وهى الرياسة والسلطان .

فأما الأولى ، فالمؤمن والكافر والمنافق مشتركون فى جنسها ، ثم يُعلم أن

= رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فنادانى فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . فنادانى ملك الجبال ، فسلم علىَّ ، ثم قال : يا محمد ، فقال : ذلك فما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين . فقال النبى ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا » . والحديث فى : مسلم ١٤٢٠/٣ - ١٤٢١ (كتاب الجهاد ، باب ما لقى النبى ﷺ من أذى المشركين والمنافقين) .

(١) زدت كلمة « النصر » ، ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : لكن ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : انتصار .

(٤) فى الأصل : فى الدعاء فى الجهاد باليد ، ويبدو أن عبارة « فى الجهاد باليد » المكررة زائدة .

(٥) زدت « إما » ليستقيم الكلام .

التنعيم بها ليس هو حقيقة واحدة مستوية فى بنى آدم ، بل هم متفاوتون فى قدرها ووصفها تفاوتا عظيما .

فإن من الناس من يتنعّم بنوع من الأطعمة والأشربة الذى يتأذَّى بها غيره ، إما لاعتياده ببلده ، وإما لموافقته مزاجه ، وإما لغير ذلك [1] .

ومن الناس من يتنعَّم بنوع من المناكح لا يحبها غيره ، كمن سكن البلاد الجنوبية فإنه يتنعّم بنكاح السُّمر ، ومن سكن البلاد الشمالية فإنه [2] يتنعّم بنكاح البيض .

وكذلك اللباس والمساكن ، فإن أقواما يتنعّمون من البُرد بما يتأذَّى به غيرهم ، وأقواما يتنعمون [من المساكن] [3] بما يتأذَّى به غيرهم ، بحسب العادة والطباع .

وكذلك الأزمنة ، فإنه [فى] الشتاء [4] يتنعّم الإنسان بالحر ، وفى الصيف يتنعّم بالبرد .

وأصل ذلك أن التنعّم فى الدنيا بحسب الحاجة إليها والانتفاع بها ، فكل ما كانت الحاجة أقوى والمنفعة أكثر كان التنعّم واللذة أكمل ، والله قد أباح للمؤمنين الطيبات .

فالذين يقتصدون فى المآكل نعيمهم بها أكثر من نعيم المسرفين [5] فيها ، فإن أولئك إذا أدمنوها وألفوها لا يبقى لهذا عندهم كبير لذة ، مع أنهم قد لا يصبرون عنها ، وتكثر [6] أمراضهم بسببها .

---

(١) فى الأصل : وإما لغير الله ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .
(٢) فى الأصل : فإن .
(٣) زدت عبارة « من المساكن » ليستقيم الكلام .
(٤) فى الأصل : فإن الشتاء .
(٥) فى الأصل : المشرفين ، وهو تحريف .
(٦) فى الأصل : وتكبر .

٢ - الدينية

وأما الدين (١) فجماعه شيئان : تصديق الخبر ، وطاعة الأمر .

ومعلوم أن التنعّم بالخبر بحسب شرفه وصدقه ، والمؤمن معه من الخبر الصادق عن الله وعن مخلوقاته ما ليس مع غيره ، فهو من أعظم الناس نعيما بذلك ، بخلاف من يكثر فى أخبارهم الكذب .

ص ١٨٤

وأما طاعة الأمر ، فإن من كان ما يؤمر به صلاحا / وعدلا ونافعا يكون تنعّمه به أعظم من تنعّم (٢) من يؤمر بما ليس بصلاح ولا عدل ولا نافع .

وهذا من الفرق بين الحق والباطل ، فإن الله سبحانه يقول فى كتابه : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ . ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ [سورة محمد : ١ - ٣] .

وقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [سورة النور : ٣٩] .

وتفصيل ذلك أن الحق نوعان : حق موجود ، وحق مقصود . وكل منهما ملازم للآخر .

فالحق الموجود هو الثابت فى نفسه ، فيكون العلم به حقا ، والخبر عنه حقا .

والحق المقصود هو النافع ، الذى إذا قصده الحى انتفع به ، وحصل له النعيم .

---

(١) يقصد ابن تيمية ، وأما الدينية ، وسبق أن ذكر أن التنعم إما بالأمور الدنيوية وإما بالأمور الدينية ، وتكلم فيما سبق على الأمور الدنيوية ، وهو يتكلم هنا على الأمور الدينية .

(٢) فى الأصل : ينعم .

فصل

ومما يُظهر الأمر ما ابتَلَى الله به عباده فى الدنيا من السراء والضراء ، وقال سبحانه : ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۔ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۔ كَلَّا ﴾ [سورة الفجر : ١٥ – ١٧] .

يقول الله سبحانه ليس الأمر كذلك ، ليس إذا ما ابتلاه فأكرمه ونعمه يكون ذلك إكراما مطلقا ، وليس إذا [ما] قدر [١] عليه رزقه يكون ذلك إهانة ، بل هو ابتلاء فى الموضعين ، وهو الاختبار والامتحان ، فإنْ شَكَرَ الله على الرخاء ، وصبر على الشدة ، كان كل واحد من الحالين خيرا له [٢] ، كما قال النبى ﷺ : « لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن ، إن أصابته سرَّاء فشكر كان خيرا [٣] له ، وإن أصابته ضرَّاء فصبر كان خيرا [٣] له » [٤] . وإن لم يشكر ولم يصبر كان كل [٥] واحد من الحالين شرًّا له .

---

(١) فى الأصل : إذا بقدر .... ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : خير له ، وهو خطأ .

(٣) فى الأصل : خير ، وهو خطأ .

(٤) الحديث عن صهيب رضى الله عنه فى : مسلم ٢٢٩٥/٤ (كتاب الزهد ، باب المؤمن أمره كله خير) ولفظه فيه : « عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن .... إن أصابته سراء شكر .... الحديث . وهو فى المسند ٣٣٢/٤ ، ٣٣٣ ، ١٥/٦ وأول الحديث فى الموضعين الأولين : « وعجبت من أمر (لأمر) المؤمن .... وفى الموضع الأخير : عجبت من قضاء الله للمؤمن ، على أن القسم الأول من كلام ابن تيمية جاء فى حديث آخر عن أنس رضى الله عنه فى المسند (ط : الحلبى) ١١٧/٣ ولفظه : « عجبت للمؤمن إن الله لم يقض قضاء إلا كان خيرا له » ، ١٨٤/٣ ولفظه : « عجبت للمؤمن إن الله لا يقضى للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له » ، وقال الألبانى عن الحديث فى « سلسلة الأحاديث الصحيحة » ٢٨/٤ : إنه صحيح .

(٥) فى الأصل : كان على .... ، وهو تحريف .

تنازع الناس فيما ينال الكافر فى الدنيا من التنعّم ، هل هو نعمة فى حقه أم لا ؟

وقد تنازع الناس فيما ينال الكافر فى الدنيا من التنعّم ، هل هو نعمة فى حقه أم لا ؟ على قولين . وكان [١] أصل النزاع بينهم هو النزاع فى القدرة .

ظ ١٨٤

والقدرية الذين / يقولون : لم يرد الله لكل أحد إلا خيرا له بخلقه وأمره ، وإنما العبد هو الذى أراد لنفسه الشر بمعصيته ، وبترك [٢] طاعته التى يستعملها بدون مشيئة الله وقدرته أراد لنفسه الشر .

وهؤلاء يقولون : ما نُعِّم به الكافر فهو نعمة تامة ، كما نُعِّم به المؤمن سواءً ، إذ عندهم ليس لله نعمة خص بها المؤمن دون الكافر أصلا ، بل هما فى [٣] النعم الدينية سواء ، وهو ما بيَّنه [٤] من أدلة الشرع والعقل ، وما خلقه من القدرة والألطاف ، ولكن أحدهما اهتدى بنفسه بغير نعمة أخرى خاصة من الله ، والآخر ضل بنفسه من غير خذلان يخصه من الله . وكذلك النعم الدنيوية هى فى حقهما [٥] على السواء .

والذين ناظروا هؤلاء من أهل الإثبات ربما زادوا فى المناظرة نوعا من الباطل ، وإن كانوا فى الأكثر على الحق . فكثيرا ما يرد مناظر المبتدع باطلا عظيما بباطل دونه .

ولهذا كان أئمة السنة ينهَوْن عن ذلك ، ويأمرون بالاقتصاد ولزوم السنة المحضة ، وأن لا يُرد باطل بباطل [٦] .

---

(١) فى الأصل : وكل . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : ونزل . ولعل ما أثبته هو الصواب .

(٣) فى الأصل : من . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) أى ما بيّنه الله تعالى لهم .

(٥) فى الأصل : فى حقها ، وهو تحريف .

(٦) فى الأصل : وأن لا يرد بباطل بباطل ، وهو تحريف .

فقال كثير من هؤلاء : ليس لله على الكافر نعمة دنيوية ، كما ليس له عليه نعمة دينية تخصه (١) ، إذ اللذة المستعقبة ألما أعظم منها ليست بنعمة ، كالطعام المسموم ، وكمن أعطى غيره أموالا ليطمئن ثم يقتله أو يعذبه .

قالوا : والكافر كانت هذه النعم سببا فى عذابه وعقابه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً ﴾ [سورة آل عمران : ١٧٨] .

وقال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦] .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ٤٤] .

وقال تعالى : ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [سورة القلم : ٤٤ ، ٤٥] .

وخالفهم آخرون من أهل الإثبات للقدر أيضا ، فقالوا : بل لله على الكافر نعم دنيوية .

والقولان فى عامة أهل الإثبات من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم .

قال هؤلاء : والقرآن قد دل على امتنانه على الكفار بنعمه ، ومطالبته إياهم بشكرها ، فكيف يقال ليست نعما ؟ / قال تعالى (٢) : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا

ص ١٨٥

---

(١) فى الأصل : تخصهم ، وهو تحريف .

(٢) فى أعلى هذه الصفحة إلى اليسار كتب : « الخامس » .

نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۝ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ [سورة إبراهيم : ٢٨ ، ٢٩] إلى قوله . ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾ [سورة إبراهيم : ٣٢] إلى قوله : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [سورة إبراهيم : ٣٤] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ [سورة الإنسان : ٣] ، وكيف يكون كفورا من لم ينعم عليه بنعمه ؟

فالمراد لازم قول هؤلاء : أن الكفار لم يجب عليهم شكر الله إذ لم يكن قد أنعم عليهم عندهم . وهذا القول يُعلم فساده بالاضطرار من دين الإسلام ، فإن الله ذم الإنسان بكونه كفورا غير شكور ، إذ يقول : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ [سورة العاديات : ٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّى إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [سورة هود : ٩ ، ١٠] .

وقد قال صالح عليه السلام لقومه : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ٧٤] .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً ﴾ [سورة إبراهيم : ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ ﴾ [سورة النحل : ١١٢] .

[وقال] [١] الأولون : قد قال تعالى : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾

---

(١) زدت « وقال » ليستقيم الكلام .

والكفار لم يدخلوا فى هذا العموم ، فعُلم أنهم خارجون عن النعمة . وقال [١] تعالى فى خطابه للمؤمنين : ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [سورة طه : ٨١] وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً ﴾ [سورة آل عمران ١٠٣] ، ﴿ واذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُم وَمِيثَاقَهُ الَّذِى وَاثَقَكُم بِهِ ﴾ [سورة المائدة : ٧] ، وقال تعالى : ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا للهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٧٢] .

ظ ١٨٥ وأما الكفّار فخوطبوا بها من جهة / ما هى تنعّم ولذة وسرور ، ولم تسم [٢] فى حقهم نعمة على الخصوص ، وإنما تسمى نعمة باعتبار أنها نعمة فى حق عموم بنى آدم ، لأن المؤمن سعد بها فى الدنيا والآخرة ، والكافر يُنعَّم بها فى الدنيا .

وذلك أن كفر الكافر نعمة فى حق المؤمنين ، فإنه لولا وجود الكفر والفسوق والعصيان لم يحصل [جهاد المؤمنين للكفار وأمرهم الفساق والعصاة بالمعروف ونهيهم إياهم عن المنكر] [٣] ، ولولا وجود شياطين الإنس والجن لم يحصل للمؤمنين من بعض هذه الأمور ومعاداتها ومجاهداتها ومخالفة الهوى فيها ما ينالون به أعلى الدرجات وأعظم [٤] الثواب .

والإنسان فيه قوة الحب والبغض ، وسعادته فى أن يحب ما يحبه الله ، ويبغض ما يبغضه الله ، فإن لم يكن فى العالم ما يبغضه ويجاهد أصحابه لم يتم إيمانه وجهاده ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [سورة الحجرات : ١٥] .

---

(١) فى الأصل : قال .

(٢) فى الأصل : ولم يسم .

(٣) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .

(٤) فى الأصل : وعظم .

قالوا : ولو كانت هذه اللذات نعما مطلقة لكانت نعمة الله على أعدائه فى الدنيا أعظم من نعمته على أوليائه . قالوا : ونعمة الله التى بدّلوها كفرا هى إنزال الكتاب وإرسال الرسول ، حيث كفروا بها وجحدوا أنها حق ، كما قال عليه السلام (١) : « ألا [لا] (٢) فخر إنى (٣) من قريش » (٤) .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ ﴾ [سورة النحل : ١١٢] ، هم الذين كفروا بما أنزل الله من الكتاب والرسل ، وتلك نعمة الله المعظّمة . وقال تعالى : ﴿ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٤٤] .

رأى ابن تيمية

وحقيقة الأمر أن هذه الأمور فيها من التنعم باللذة والسرور فى الدنيا ما لا نزاع فيه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ [سورة غافر : ٧٥] ، وقال تعالى : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ

---

(١) فى الأصل : كما قال على عليه السلام ، وهو تحريف .

(٢) زدت « لا » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : إن ، وهو تحريف .

(٤) لم أجد حديثا بهذا اللفظ ، ولكن جاءت أحاديث كثيرة فيها النص على أن النبى ﷺ من قريش ، منها الحديث الذى جاء فى صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع (كتاب الفضائل ، باب فضل نسب النبى ﷺ ....) ، يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » . وأورد هذا الحديث الترمذى فى سننه ٥/٢٤٤ - ٢٤٥ (كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ : باب ما جاء فى فضل النبى ﷺ) كما أورد أحاديث أخرى بنفس المعنى فى نفس الباب . وأورد الهيثمى فى مجمع الزوائد ٨/٢١٤ - ٢١٩ (كتاب علامات النبوة ، باب فى كرامة أصله ﷺ) عدة أحاديث تنص على أن النبى ﷺ كان من قريش .

الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ [سورة الأحقاف : ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَذَرْنِى وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ [سورة المزمل : ١١] ، وقال تعالى : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ﴾ [سورة الحجر : ٣] ، / وقال تعالى : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [سورة الحديد : ٢٠] ، وهذا أمر محسوس . ص ١٨٦

لكن الكلام فى أمرين : أحدهما : هل هى نعمة أم لا ؟ والثانى : أن جنس تنعم المؤمن فى الدنيا بالإيمان وما يتبعه : هل هو مثل تنعّم الكافر ، أو دونه ، أو فوقه ؟ وهذه هى المسألة المقدّمة .

فأما الأول فيقال : اللذات فى أنفسها ليست نفس فعل العبد ، بل قد تحدث عن فعله مع سبب آخر ، كسائر المتولدات التى يخلقها الله تعالى بأسباب منها فعل العبد .

لكن اللذات تارة تكون بمعصية من ترك مأمور ، أو فعل محظور ، كاللذة الحاصلة بالزنا ، وبموافقة [الفسّاق] [١] ، وبظلم الناس ، وبالشرك ، والقول على الله بغير علم . فهنا المعصية هى سبب للعذاب الزائد على لذة الفعل . لكن ألم العذاب قد يتقدم ، وقد يتأخر ، وهى تشبه أكل الطعام الطيب الذى فيه من السموم ما يُمرض أو يقتل . ثم ذلك العذاب يمكن دفعه بالتوبة وفعل حسنات أخر ، لكن يقال : تلك اللذة الحاصلة بالمعصية لا تكون معادلة [٢] لها ما فى التوبة عنها والأعمال الصالحة من المشقة والألم . ولهذا قيل : ترك الذنب أمرّ من التماس التوبة ، وقيل : رب شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا .

---

(١) زدت كلمة « الفسّاق » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : معاومة ، ولعل الصواب ما أثبته .

لكن فعل التوبة والحسنات الماحية قد يُوجب من الثواب أعظم من ثواب ترك الذنب أولا ، فيكون ألم التائب أشد من التارك إذا استويا من جميع الوجوه ، وثوابه أكثر . وكذلك لما (١) يكفِّر الله به الخطايا من المصائب مرارة تزيد (٢) على حلاوة المعاصى .

وتارة تكون اللذات بغير معصية من العبد ، لكن عليه أن يطيع الله فيها ، فيتجنب (٣) فيها ترك مأموره وفعل محظوره (٤) ، كما يؤتاه العبد من المال والسلطان ، ومن المآكل والمناكح التى ليست بمحرَّمة .

والله سبحانه أمر مع أكل الطيبات بالشكر ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٧٢] وفى صحيح مسلم عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، ويشرب الشربة فيحمده عليها » (٥) . وفى الأثر : « الطاعم الشاكر كالصائم الصابر » رواه ابن ماجة عن النبى ﷺ (٦) .

---

(١) فى الأصل : ما . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : يزيد .

(٣) فى الأصل : فيعصيه ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : ونقل محضوره ، وهو تحريف .

(٥) الحديث عن أنس بن مالك رضى الله عنه - مع اختلاف يسير فى الألفاظ - فى : مسلم ٢٠٩٥/٤ (كتاب الذكر والدعاء ، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب) ؛ سنن الترمذى ١٧٢/٣ (كتاب الأطعمة ، باب فى الحمد على الطعام إذا فرغ منه) ؛ المسند (ط . الحلبى) ١٠٠/٣ ، ١١٧ .

(٦) جاءت عبارات هذا الحديث عنوانا لأحد أبواب كتاب الأطعمة فى البخارى ٨٢/٧ (كتاب الأطعمة ، باب الطاعم الشاكر مثل الصائم الصابر) وقال البخارى بعد ذلك : « فيه عن أبى هريرة عن =

وقد قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ [سورة التكاثر : ٨] .

ولما ضاف النبى ﷺ أبا الهيثم بن التَّيِّهان وجلسوا فى الظل ، وأطعمهم فاكهة ولحما ، وسقاهم ماء باردا ، قال : « هذا من / النعيم الذى تسألون عنه »[1] .

ظ ١٨٦

والسؤال عنه لطلب شكره ، لا لإثم فيه . فالله تعالى يطلب من عباده شكر نعمه ، وعليه[2] أن لا يستعين بطاعته على معصيته ، فإذا ترك ما وجب عليه فى[3]

= النبى ﷺ » ، وشرح ابن حجر هذا الكلام فى فتح البارى ٥٨٢/٩ - ٥٨٣ فقال : « هذا الحديث من الأحاديث المعلقة التى لم تقع فى هذا الكتاب موصولة ، وقد أخرجه المصنف فى « التاريخ » والحاكم فى « المستدرك » من رواية سليمان بن بلال ..... ولفظه : « إن للطاعم الشاكر من الأجر مثل ما للصائم الصابر » » . ونص ابن حجر بعد ذلك على أن الحديث أخرجه من طرق مختلفة ابن ماجة وابن خزيمة والترمذى وابن حبان . والحديث فى : سنن ابن ماجة ٥٦١/١ (كتاب الصيام ، باب فيمن قال : الطاعم الشاكر كالصائم الصابر) عن أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » وعن سنان بن سنَّة الأسلمى رضى الله عنه ولفظه : « الطاعم الشاكر له مثل أجر الصائم الصابر » .

(١) هذا جزء من حديث طويل عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : مسلم ١٦٠٩/٣ - ١٦١٠ (كتاب الأشربة ، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك .....) وفى حديثه أن المضيف هو « الأنصارى » أو « رجل من الأنصار » . والحديث فى : سنن الترمذى ١٣/٤ - ١٤ (كتاب الزهد ، باب ما جاء فى معيشة أصحاب النبى ﷺ) . وأورد المنذرى الحديث فى الترغيب والترهيب ١٦٦/٥ - ١٦٧ وقال : « رواه مالك بلاغا باختصار ومسلم ، واللفظ له والترمذى بزيادة ، والأنصارى المبهم هو أبو الهيثم بن التيهانى بفتح المثناة فوق وكسر المثناة تحت وتشديدها ، كذا جاء مصرحا به فى الموطأ والترمذى ، وفى مسند أبى يعلى ومعجم الطبرانى من حديث ابن عباس أنه أبو الهيثم ، وكذا فى المعجم أيضا من حديث ابن عمر . وقد رويت هذه القصة من حديث جماعة من الصحابة مصرّح فى أكثرها بأنه أبو الهيثم ، وجاء فى معجم الطبرانى الصغير والأوسط وصحيح ابن حبان من حديث ابن عباس وغيره أنه أبو أيوب الأنصارى . والظاهر أن هذه القصة اتفقت مرة مع أبى الهيثم ، ومرة مع أبى أيوب ، والله أعلم » .

(٢) أى وعلى العبد .

(٣) فى الأصل : من .

نعمته من حق ، واستعان بها على محرّم ، صار فعله بها وتركه لما فيها سببا للعذاب أيضا ، فالعذاب استحقه – بترك المأمور وفعل المحظور – على النعمة التى هى من فعل الله تعالى ، وإن كان فعله وتركه بقضاء الله وقدره : بعلمه ومشيئته وقدرته وخلقه .

فإن حقيقة الأمر أنه نعَّم العبد تنعيما ، وكان ذلك التنعيم سببا لتعذيبه أيضا ، فقد اجتمع فى حقه تنعيم وتعذيب ، ولكن التعذيب إنما كان بسبب معصيته ، حيث لم يؤد حق النعمة ، ولم يتّق الله فيها .

وعلى هذا ، فهذه التنعّمات هى نعمة من وجه دون وجه ، فليست من النعم المطلقة ، ولا هى خارجة عن جنس النعم مطلقها ومقيّدها . فباعتبار ما فيها من التنعّم يصلح أن يُطلب حقها من الشكر وغيرها ، ويُنهى عن استعمالها فى المعصية ، فتكون نعمة فى باب الأمر والنهى ، والوعد والوعيد .

وباعتبار (١) أن صاحبها يترك فيها المأمور ويفعل فيها المحظور الذى يزيد عذابه على نعمها كانت وبالا عليه ، وكان أن لا يكون ذلك من حقه خيرا له من أن يكون ، فليست نعمة فى حقه فى باب القضاء والقدر ، والخلق والمشيئة العامة ، وإن كان ذلك يكون نعمة فى حق عموم الخلق والمؤمنين ، وعلى هذا يظهر ما تقدّم من خيرات الله (٢) ، فإن ذلك استدراج ، ومكر ، وإملاء .

وهذا الذى ذكرناه من ثبوت الإنعام بها من وجه ، وسلبه من وجه آخر ، مثل ما ذكر الله فى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ

---

(١) فى الأصل : وباعتبار بها ، ورأيت أن « بها » زيادة من الناسخ .

(٢) فى الأصل : ما يقدم من خير الله . ولعل الصواب ما أثبته .

فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ . وَأَمَّا إِذَا مَا ٱبْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ . كَلاَّ ﴾ [سورة الفجر : ١٥ - ١٧] ، فإنه قد أخبر أنه أكرمه ، وأنكر قول المبتلى : رَبِّى أَكْرَمَنِ ، واللفظ الذى أخبر الله به مثل اللفظ الذى أنكره الله من كلام المبتلى ، لكن المعنى مختلف . فإن المبتلى اعتقد أن هذه كرامة (١) مطلقة ، وهى النعمة : التى يقصد بها [أن] (٢) النِّعَمَ إكرامٌ له (٣) ، والإنعام بنعمة لا يكون سببا لعذاب أعظم منها ، وليس الأمر كذلك ، بل الله تعالى ابتلاه بها ابتلاءً ، ليتبين هل يطيعه فيها أم يعصيه ، مع علمه بما سيكون من الأمرين ، لكن العلم بما سيكون شيء ، وكون الشيء / والعلم به شيء . ص ١٨٧

وأما قوله تعالى : ﴿ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ﴾ فإنه تكريم بما فيه من اللذات ، ولهذا قرنه بقوله : (وَنَعَّمَهُ) ، ولهذا كانت (٤) خوارق العادات التى تسميها العامة « كرامة » ليست عند أهل التحقيق كرامة مطلقا ، بل فى الحقيقة الكرامة هى : لزوم الاستقامة ، وهى طاعة الله ، وإنما هى مما يبتلى الله به عبده ، فإن أطاعه بها رفعه (٥) ، وإن عصاه بها خفضه (٦) ، وإن كانت من آثار طاعة أخرى ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقاً . لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً ﴾ [سورة الجن : ١٦ ، ١٧] .

---

(١) فى الأصل : هذا اكرامه . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) زدت « أن » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : إكرام عليه .

(٤) فى الأصل : كان .

(٥) فى الأصل : رفعة .

(٦) فى الأصل : حفظة .

وإذا كان فى النعمة والكرامة هذان الوجهان (١) ، فهى من باب الأمر والشرع نعمة [يجب] (٢) الشكر عليها ، وفى باب الحقيقة القدرية لم تكن (٣) لهذا الفاجر بها إلا فتنة ومحنة استوجب بمعصية الله فيها العذاب ، وهى فى ظاهر الأمر قبل أن يعرف حقيقة الباطن ابتلاء وامتحان ، يمكن أن تكون (٤) من أسباب سعادته ، ويمكن أن تكون من أسباب شقاوته ، وظهر بها جانب الابتلاء بالمر ، فإن الله يبتلى بالحلو والمر ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٣٥] ، وقال : ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٦٨] .

فمن ابتلاه الله بالمر : بالبأساء والضراء والبأس ، وقدر عليه رزقه ، فليس ذلك إهانة له ، بل هو ابتلاء . فإن أطاع الله فى ذلك كان سعيدا ، وإن عصاه فى ذلك كان شقيا ، كما كان مثل ذلك (٥) سبباً للسعادة فى حق الأنبياء والمؤمنين ، وكان شقاءً وسببا للشقاء فى حق الكفّار والفجّار .

وقال تعالى : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ [سورة البقرة : ١٧٧] وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا ﴾ [سورة البقرة : ٢١٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى

---

(١) فى الأصل : هذين الوجهين ، وهو خطأ .

(٢) زدت « يجب » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : يكن ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : يكون .

(٥) فى الأصل : كما كان ذلك مثل ذلك .

النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة التوبة : ١٠١] وقال تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ ﴾ [سورة السجدة : ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ٧٦] .

وكما أن الحسنات ، وهى المسار [1] الظاهرة التى يبتلى بها العبد ، تكون عن طاعات فعلها العبد ، فكذلك السيئات ، وهى المكاره التى يُبتلى بها العبد ، تكون عن معاصى فعلها العبد . كما قال تعالى : ﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [سورة النساء : ٧٩] .

وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [سورة آل عمران : ١٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [سورة الشورى : ٣٠] .

وقال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ ﴾ [سورة النساء : ٦٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ ﴾ [سورة الشورى : ٤٨] .

ثم تلك المسار ، التى هى من ثواب طاعته ، إذا عصى الله فيها كانت / سببا لعذابه ، والمكاره التى هى عقوبة معصيته إذا أطاع الله فيها كانت سببا ظ ١٨٧

---

(١) فوق كلمة « المسار » كتب فى الأصل : « كذا » . والمقصود بها الأمور السارة .

لسعادته ، فتدبر هذا لتعلم أن الأعمال بخواتيمها ، وأن ما ظاهره نعمة هو لذة عاجلة قد تكون سببا للعذاب ، وما ظاهره عذاب وهو ألم [١] عاجل قد يكون [٢] سببا للنعيم . وما هو طاعة – فيما يرى الناس – قد يكون سببا لهلاك العبد برجوعه عن الطاعة ، إذا ابتُلى فى هذه [٣] الطاعة ، وما هو معصية – فيما يرى الناس – قد يكون سببا لسعادة العبد بتوبته منه ، وتصبّره على المصيبة ، التى [هى] [٤] عقوبة ذلك الذنب .

فالأمر والنهى يتعلق بالشىء الحاصل ، فيؤمر العبد بالطاعة مطلقا ، وينهى عن المعصية مطلقا ، ويؤمر بالشكر على كل ما يتنعم به .

وأما القضاء والقدر ، وهو [٥] علم الله وكتابه ، وما طابق ذلك من مشيئته وخلقه ، فهو باعتبار الحقيقة الآجلة ، فالأعمال بخواتيمها ، والمنعَم عليهم فى الحقيقة هم الذين يموتون على الإيمان .

وقد يُذكر تنازع الناس فى هذا الباب :

فالمثبتة للقضاء والقدر من متكلمة أهل الإثبات وغيرهم يلاحظون القدر من علم الله وكتابه ومشيئته وخلقه ، وقد يعرضون عمّا جاء به الأمر والنهى ، والوعد والوعيد ، وعن الحكمة العامة ، وما فى تفصيل ذلك من الحكم الخاصة .

---

(١) فى الأصل : المر . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته ، أو يكون : مر .

(٢) فى الأصل : تكون .

(٣) فى الأصل : فى بره ، وهو تحريف .

(٤) زدت « هى » ليستقيم الكلام .

(٥) فى الأصل : هو .

وأما من لم يلاحظ إلا الأمر والنهى والوعد والوعيد فقط من القدرية ومن ضاهاهم فى حاله ، فقد كفر بما وجب عليه الإيمان به من خلق الله وكتابه ومشيئته ، وتدبيره لعباده المؤمنين الذين سبقت لهم منه الحجة بتدبير [١] خاص ، ومن قضائه على الكفار بما هو فيه عدل سبحانه ، كما فى الحديث المرفوع : « ماضٍ فينا أمرك ، عدلٌ فينا قضاؤك » [٢] ، ولا يظلم ربك أحدا .

وإذا عُرف أن كل واحد من الابتلاء بالسراء والضراء قد يكون فى باطن الأمر مصلحة للعبد أو مفسدة له ، وأنه إن أطاع الله بذلك كان مصلحة له ، وإن عصاه كان مفسدة له – تبيّن أن الناس أربعة أقسام : منهم من يكون صلاحه على السراء ، ومنهم من يكون صلاحه على الضراء ، ومنهم من يصلح على هذا وهذا ، ومنهم من لا يصلح على واحد منهما .

---

(١) فى الأصل : بتدبر .

(٢) لم أجد الحديث بهذا اللفظ ، ولكن جاء الحديث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى المسند مرتين (ط . المعارف) ٢٦٧/٥ – ٢٦٨ ، ١٥٣/٦ – ١٥٤ ، ونصه فى الموضع الأول « .... عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أصاب أحداً قطّ همٌّ ولا حَزَنٌ فقال : اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماضٍ فىَّ حكمُك ، عدلٌ فىَّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سمَّيتَ به نفسَك ، أو علّمتَه أحداً من خلقك ، أو أنزلتَه فى كتابك ، أو استأثرتَ به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همّى ، إلا أذهب الله همّه وحزنه ، وأبدله مكانه فرجا » . قال : فقيل : يا رسول الله ألا نتعلمها ؟ فقال : « بلى ، ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها » .

وصحح الشيخ أحمد شاكر الحديث وأشار إلى وجوده فى مجمع الزوائد ١٣٦/١٠ وفى المستدرك للحاكم ٥٠٩/١ – ٥١٠ . وانظر بقية ما ذكره الشيخ أحمد شاكر عن الحديث .

وأول الحديث فى الموضع الثانى ١٥٣/٦ – ١٥٤ : « ما قال عبد قط إذا أصابه همٌّ وحَزَنٌ .... إلخ وذكر الهيثمى فى مجمع الزوائد ١٣٦/١٠ – ١٣٧ الحديث بمعناه عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه وأوله : « من أصابه هم أو حزن ..... الحديث وقال عنه : « رواه الطبرانى وفيه من لم أعرفه » ونقل الناشر فى الهامش تعليق ابن حجر : « قلت : هذا الحديث أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى من رواية عبد الجليل بهذا الإسناد ، فلا وجه لاستدراكه – ابن حجر » .

والإنسان الواحد قد تجتمع له هذه الأحوال الأربعة فى أوقات متعددة ، أو فى وقت واحد باعتبارها [١] أنواع يبتلى بها .

وقد جاء فى الحديث المرفوع : « إن من عبادى من لا يصلحه إلا الغنى ، ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسده ذلك ، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا السقم ، ولو أصححته لأفسده ذلك ، وذلك أنى أدبر عبادى ، إنى بهم خبير بصير » [٢] .

فكما أن التنعم العاجل ليس بنعمة فى / الحقيقة ، قد يكون فى الحقيقة بلاء وشرا باعتبار [٣] المعصية فيه . والطاعة المتقدمة قد تكون حابطة وسببا للشر باعتبار ما يعقبها [٤] من ردة وفتنة [٥] ، فكذلك التألم العاجل قد يكون [٦] فى الحقيقة خيرا أو نعمة ، والمعصية المتقدمة قد تكون سببا للخير باعتبار التوبة والصبر على ما تعقبه من مصيبة [٧] ، لكن تتبدل [٨] الطاعة والمعصية . ص ١٨٨

وهذا يقتضى أن العبد محتاج فى كل وقت إلى الاستعانة بالله على طاعته ، وتثبيت قلبه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

---

(١) فى الأصل : با غيار .

(٢) لم أجد هذا الحديث .

(٣) فى الأصل : فاعتبار ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : ما يتعقبه ، وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : وفتنته ، وهو تحريف .

(٦) فى الأصل : تكون .

(٧) فى الأصل : محبة ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٨) فى الأصل : تبدل . ولعل الصواب ما أثبته .

حال الإنسان عند السراء والضراء

وذلك أن الإنسان (١) هو كما وصفه الله بقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ . وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [سورة هود : ٩ ، ١٠] . وقال تعالى : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [سورة هود : ١١] .

فأخبر أنه عند الضراء بعد السراء ، ييأس من زوالها فى المستقبل ، ويكفر بما (٢) أنعم الله به عليه قبلها ، وعند النعماء بعد الضراء يأمن من عود [الضراء] (٣) فى المستقبل ، وينسى ما كان فيه بقوله : ﴿ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [سورة هود : ١٠] : على غيره ، يفخر عليهم بنعمة الله عليه .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ﴾ [سورة المعارج : ١٩ - ٢١] فأخبر أنه جزوع عند الشر لا يصبر عليه ، منوع عند الخير يبخل به .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [سورة إبراهيم : ٣٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ [سورة العاديات : ٦] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [سورة الأحزاب : ٧٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُوراً ﴾ [سورة الإسراء : ١٠٠] ، وقال : ﴿ وَإِن مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ [سورة فصلت : ٤٩] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُوراً ﴾ [سورة الإسراء : ٦٧] .

---

(١) فى الأصل : الاثنين ، وهو تحريف ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : ما .

(٣) زدت كلمة « الضراء » لتستقيم العبارة .

حال المؤمن عندهما

وقد وصف المؤمنين بأنهم صابرون فى البأساء والضراء وحين البأس ، والصابرون فى النعماء أيضا بقوله تعالى : ﴿ إلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [سورة هود : ١١] والصبر فى السراء قد يكون أشد ، ولهذا قال من قال من الصحابة : « ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر » .

وكان النبى ﷺ يستعيذ بالله من فتنة الفقر وشر فتنة الغنى [١] . وقال لأصحابه : « والله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخاف أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على من كان قبلكم ، فتتنافسوا فيها كما تنافسوا فيها ، وتهلككم كما أهلكتهم » [٢] .

---

(١) أورد ابن الأثير الجزرى فى « جامع الأصول » ١٢٢/٥ (ط . السنة المحمدية ، القاهرة ١٣٧٠ / ١٩٥٠) عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من الكسل والهَرَم والمَغْرَم ، ومن فتنة القبر وعذاب القبر ، ومن فتنة النار وعذاب النار ، ومن شر فتنة الغِنى ، ومن شر فتنة الفقر .... الحديث ، وقال ابن الأثير إن الحديث رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى ، وذكر أن فى رواية أبى داود : أن رسول الله ﷺ كان يدعو بهؤلاء الكلمات : « اللهم إنى أعوذ بك من فتنة النار وعذاب القبر ، ومن شر الغنى والفقر » .

(٢) الحديث عن عمرو بن عوف رضى الله عنه ونصه فى : البخارى ٩٠/٨ (كتاب الرقاق ، باب ما يُحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها ..... أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتى بجزيتها ، وكان رسول الله ﷺ هو صالح أهل البحرين وأمّر عليهم العلاء بن الحضرمى ، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين ، فسمعت الأنصار بقدومه ، فوافته صلاة الصبح مع رسول الله ﷺ ، فلما انصرف تعرضوا له ، فتبسم حين رآهم ، وقال : « أظنكم سمعتم بقدوم أبى عبيدة وأنه جاء بشىء ؟ » قالوا : أجل يا رسول الله . قال : « فأبشروا وأمّلوا ما يسركم ، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكنى أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، وتلهيكم كما ألهتهم » . وجاء الحديث عنه أيضا فى : البخارى ٩٦/٤ - ٩٧ (كتاب الجزية ، باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب) ، ٨٤/٥ - ٨٥ (كتاب المغازى ، باب حدثنى خليفة حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى) ؛ مسلم ٢٢٧٣/٤ - ٢٢٧٤ (كتاب الزهد والرقائق ، الباب الأول) ؛ سنن الترمذى ٥٦/٤ (كتاب صفة القيامة ، باب حدثنا أبو حصين عبد الله بن أحمد بن يونس .....) ؛ سنن ابن ماجة ١٣٢٤/٢ - ١٣٢٥ (كتاب الفتن ، باب فتنة المال) ؛ المسند (ط . الحلبى) ١٣٧/٤ ، ٣٢٧ .

فمن لم يتصف بحقيقة الإيمان هو إما قادر وإما عاجز . فإن كان قادرا أظهر ما فى نفسه بحسب قدرته من : الفواحش ، والإثم ، والبغى ، والإشراك بالله ، والقول عليه بغير علم ، ومن ترك القسط ، وترك إقامة الوجه عند كل / مسجد ، ودعاء الله مخلصا له الدين ، ثم يكون شرهم بحسب كل منهم ، من حيث نفوسهم وقدرتهم [١] ، فإن العبد لا يفعل إلا بقدرة وإرادة ، فمن كان أقدر وأفجر كان أمره أشد ، كفرعون وأمثاله من الجبَّارين المتكبرين ، لا يصبرون عن أهوائهم ، ولا يتقون الله .

ظ ١٨٨

وأما المؤمن فإنه مع قدرته يفعل ما أُمر الله به من البر والتقوى ، دون ما نَهى عنه من الإثم والعدوان .

ثم أولئك الذين لم يتصفوا بحقيقة الإيمان – بل فيهم من الفجور كفر أو نفاق أو فسوق ما فيهم – إذا كانوا عاجزين عن إرادتهم ، لا يقدرون على أهوائهم بنوع من أنواع القدرة ، تجدهم أذل الناس وأطوع الناس لمن [٢] يستعملهم فى أغراضهم ، وأجزع الناس لما أصابهم ، ذلك أنه ليس فى قلوبهم من الإيمان ما يعتاضون به ، وتستغنى به نفوسهم ، ويصبرون به عمَّا لا يصلح لهم .

وهذه حال الأمم البعيدين عن العلم والإيمان ، كالترك التتار [والعرب] [٣] فى جاهليتهم ، فإنهم أعز الناس إذا قدروا ، وأذل الناس إذا قُهروا .

---

(١) فى الأصل : بحسب أمر من حيث نفوسهم وقدرتهم . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : من .

(٣) زدت كلمة « والعرب » لتستقيم العبارة .

وأما المؤمنون ، فكما قال تعالى لهم وقد غلبوا : ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٣٩] ، فهم الأعلون إذا كانوا مؤمنين ولو غلبوا .

وقال كعب بن زهير [١] فى صفة الصحابة :

ليسوا مفاريحَ إنْ نَالَتْ رِمَاحُهُمُ ... يوماً وليسوا مجازيعاً إذا نِيلُوا [٢]

ولهذا كان المشروع فى حق كل ذى إرادة فاسدة من الفواحش والظلم والشرك والقول بلا علم – أحد أمرين : إما إصلاح إرادته ، وإما منع قدرته ، فإنه إذا اجتمعت القدرة مع إرادته الفاسدة حصل الشر .

وأما ذو الإرادة الصالحة فتؤيد قدرته حتى يتمكن من فعل الصالحات ، وذو القدرة الذى لا يمكن سلب قدرته يُسعى فى إصلاح إرادته بحسب الإمكان .

فالمقصود تقوية الإرادة الصالحة والقدرة عليها بحسب الإمكان ، وتضعيف الإرادة الفاسدة والقدرة معها بحسب الإمكان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

المؤمن أرجح فى النعيم واللذة من الكافر فى الدنيا قبل الآخرة وإن كانت الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر

وهذا مما يظهر به حسن حال المؤمن وترجحه فى النعيم واللذة على الكافر فى الدنيا قبل الآخرة ، وإن كانت الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر .

---

(١) فى الأصل : ابن مالك ، والتصويب فى هامش الأصل : « صوابه ابن زهير » .

(٢) البيت فى شرح ديوان كعب بن زهير ، صنعة أبى الحسن بن الحسين السكرى ، ص ٢٥ ، ط . دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٦٩/١٩٥٠ ولكنه فيه :

لا يفرحون إذا نالت رماحهم ... قوما وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا

وأورد ابن تيمية البيت فى كتاب « الاستقامة » ٢/٢٧٤ (وانظر ت ٢) .

فأما ما وُعد به المؤمن بعد الموت من كرامة الله [فإنه] [1] تكون الدنيا [2] بالنسبة إليه سجنا ، وما للكافر بعد الموت من عذاب الله [فإنه] [3] تكون الدنيا جنة [4] بالنسبة إلى ذلك .

وذلك أن الكافر صاحب الإرادة الفاسدة إما عاجز وإما قادر ، فإن كان عاجزاً تعارضت إرادته [وقدرته] حتى لا يمكنه الجمع بينهما ، [وإن كان قادرا أقبل على الشهوات وأسرف فى] التذاذه بها ولا يمكنه تركها [5] .

ص ١٨٩ / ولهذا تجد القوم [6] من الظالمين أعظم الناس فجوراً وفساداً [7] وطلبا لما يروِّحون به أنفسهم من مسموع ومنظور ومشموم ومأكول ومشروب ، ومع هذا فلا تطمئن [8] قلوبهم بشيء من ذلك ، هذا فيما ينالونه [9] من اللذة ، وأما

---

(١) زدت « فإنه » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : تكون فى الدنيا .

(٣) زدت « فإنه » ليستقيم الكلام .

(٤) فى الأصل : تكون فى الدنيا جنته .

(٥) فى الأصل اضطربت السطور الأخيرة وجاء الكلام فيها ناقصا محرفا هكذا : « وذلك أن الكافر صاحب الإرادة الفاسدة إما قادر وإما عاجز (وتحتهما علامة التقديم والتأخير) فإن كان قادرا تعارضت إرادته حتى لا يمكنه الجمع بينهما وسهاون حتى يقلد التذاذه بها أو يعدم ولا يمكنه تركها » . ولعل ما أثبته هو أقرب شيء إلى الصواب إن شاء الله .

(٦) فى الأصل : القول ، وهو تحريف .

(٧) فى الأصل : صحو وبلا ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٨) فى الأصل : بتطمين ، وهو تحريف .

(٩) فى الأصل : يتاولونه ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

ما يخافونه من الأعداء ، فهم أعظم الناس خوفا ، ولا عيشة لخائف . وأما العاجز منهم فهو فى عذاب عظيم ، لا يزال فى أسف على ما فاته وعلى ما أصابه .

وأما المؤمن فهو مع مقدرته له من الإرادة الصالحة والعلوم النافعة ما يوجب طمأنينة قلبه وانشراح صدره بما يفعله من الأعمال الصالحة ، وله من الطمأنينة وقرة العين ما لا يمكن وصفه ، وهو مع عجزه أيضا [له] (١) من أنواع الإرادات الصالحة والعلوم النافعة التى يتنعَّم بها ما لا يمكن وصفه .

لذات أهل البر أعظم من لذات أهل الفجور

وكل هذا محسوس مجرَّب ، وإنما يقع غلط أكثر الناس أنه قد أحس بظاهر من لذات أهل الفجور وذاقها ، ولم يذق لذات أهل البر ولم يخبرها ، ولكن أكثر الناس جهال ، كما لا يسمعون ولا يعقلون ، وهذا الجهل لعدم شهود حقيقة الإيمان ووجود حلاوته وذوق طعمه ، انضم إليه أيضا جهل كثير من المتكلمين فى العلم بحقيقة ما فى أمر [الله] (٢) من المصلحة والمنفعة ، وما فى خلقه أيضا لعبده المؤمن من المنفعة والمصلحة ، فاجتمع الجهل (٣) بما أخبر الله به من خلقه وأمره ، وما أشهده عباده من [حقيقة الإيمان] ووجود [حلاوته] (٤) مع ما فى النفوس من الظلم ، مانعاً للنفوس من عظيم نعمة الله وكرامته ورضوانه ، موقعاً لها فى بأسه وعذابه وسخطه .

---

(١) زدت « له » ليستقيم الكلام .

(٢) زدت لفظ الجلالة لتستقيم العبارة .

(٣) فى الأصل : فاجتمع أهل الجهل ، وهو خطأ .

(٤) فى الأصل العبارات محرفة مضطربة هكذا : « وما أشهده عباده من موجوده بمكان هذا الجهل » ولعل الصواب ما أثبته .

لما خاض الناس فى مسائل القدر ابتدع طوائف منهم مقالات مخالفة للكتاب والسنة : بدع القدرية

وذلك أن الناس لما خاضوا فى مسائل القدر ، ولِم يخلق الله ويأمر ، ونحو ذلك ، بغير هدًى من الله ، فرَّقوا دينهم وكانوا شيعا .

فزعم فريق أنه لا يخلق أحدا من الأشخاص إلا لأجل مصلحة المخلوق / ولا يأمره إلا لأن أمره مصلحة له أيضا ، وإنما العبد هو الذى صرف عن نفسه المصلحة وفعل المفسدة [(١)] بغير قدرة الرب وبغير مشيئته ، وهم إنما قصدوا بها تنزيه الرب عن الظلم والعيب ، ووصفه بالحكمة والعدل والإحسان ، لكن سلبوه علمه [(٢)] وقدرته وكتابته [(٣)] وخلقه ، ونفوا [(٤)] مشيئته وعمومها .

فقال قوم منهم : إنه لا يعلم ولا يكتب ما يكون من العباد حتى يفعلوه [(٥)] .

وقال آخرون : بل علم ذلك وعلم أنهم لا يطيعونه ، ولا يفعلون إلا ما يضرهم ، ومع هذا فقصد تعريفهم بالخلق والأمر للمنفعة الخالصة الدائمة .

فقال لهم الناس : من علم أن مقصوده من الخير لا يكون ، وقد سعى فى حصوله بمنتهى قدرته ، كان من أجهل الفاعلين وأسفههم ، فنزهوه عن قليل من السفه بالتزام ما هو أكثر منه ، وزعموا أنه لا يقدر إلا على ما فعل بهم ، فسلبوه قدرته .

---

(١) فى الأصل : « وإنما العبد هو الذى صرف عن نفسه مصلحة وفعل مفسد مشقة » وهى عبارات محرفة ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : عمله ، وهو تحريف ، واحسب أن الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : وكتابه ، وهو تحريف ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : ونقود ، وهو تحريف ، وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٥) فى الأصل : حتى فعلوه ، وهو خطأ .

بدع طائفة من أهل الإثبات

فرد على هؤلاء طائفة من أهل الإثبات ، فأثبتوا عموم قدرته وعموم مشيئته وخلقه وعلمه القديم ، وكل هذا حسن موافق للكتاب والسنة ، وهو مع تمام الإيمان القدر : بعلم الله القديم ، ومشيئته ، وخلقه ، وقدرته على كل شيء ، لكن ضموا إلى ذلك أشياء ليست من السنة .

فإنه من السنة أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وألا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ، وأنه يأمر العباد بطاعته ، ومع هذا يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، كما قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة يونس : ٢٥] .

فزعموا مع ذلك أنه يخلق الخلق لا لحكمة فى خلقهم ، ولا لرحمته لهم ، بل قد يكون خلقهم ليضرهم [١] كلهم ، وهذا عندهم حكمة ، فلم ينزهوه عما نزَّه [عنه] [٢] نفسه من الظلم ، حيث أخبر أنه إنما يجزى الناس بأعمالهم ، وأنه لا يزر وازرة وزر أخرى ، وأنه من يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما .

بل زعموا أن كل مقدور عليه فليس بظلم ، مثل تعذيب الأنبياء والمرسلين ، وتكريم الكفار والمنافقين ، وغير ذلك مما نزَّه الله نفسه عنه ، فلم يكن الظلم الذى نزّه الله نفسه عنه حقيقة عند هؤلاء ، إذ كل ما يمكن ويقدر عليه فليس بظلم . فقوله تعالى : ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [سورة غافر : ٣١] / عندهم : لا يريد [٣] ما لا يكون ممكنا مقدورا عليه ، وهو عندهم [٤] لا يقدر

ص ١٩٠

---

(١) فى الأصل : لنصرهم ، وهو تحريف ، وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٢) زدت « عنه » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : عندهم فقوله قوله لا يريد . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : وهو عندهم عليه وهو عندهم .... ولعل الصواب ما أثبته .

على الظلم حتى يكون تاركا له ، وزعموا أنه قد يأمر العباد بما لا يكون مصلحة لهم ولا لواحد منهم ، لا يكون الأمر مصلحة ، ولا يكون فعل المأمور به مصلحة ، بل قد يأمرهم بما إن فعلوه [١] كان مضرة لهم ، وإن لم يفعلوه عاقبهم [به] [٢] ، فيكون العبد فيما يأمره به بين ضررين : ضرر إن أطاع ، وضرر إن عصى . ومن كان كذلك كان أمره للعباد مضرة لهم ، لا مصلحة لهم .

وقالوا : يأمر بما يشاء ، وأنكروا أن يكون فى الأحكام الشرعية من العلل المناسبة للأحكام من جلب المنافع ودفع المضار ما تبقى [الأحكام] الشرعية [٣] ممكنة به ، حتى كان منهم من دفع علل الأحكام بالكلية ، ومنهم من قال : العلل مجرد علامات ودلالات على الحكم ، لأنها أمور تناسب الحكم وتلائمه ، وهو يجوِّزون مع هذا ألاَّ يكون للعبد ثواب ومنفعة فى فعل المأمور به ، لكن لما جاءت الشريعة بالوعد قالوا [٤] هو موعود بالثواب الذى وُعد به ، وربما قالوا : إنه فى الآخرة فقط ، فإن الفعل المأمور به قد [٥] لا يكون [فيه] [٦] مصلحة للعباد ولا منفعة لهم بحال ، ولا يكون فيه [٧] تنعم لهم ولا لذة بحال ، بل قد يكون مضرة لهم ومفسدة فى حظهم ، ليس فيه ما ينفعهم [٨] ، ومعلوم أنه إذا اعتقد المرء

---

(١) فى الأصل : بما به إن فعلوه .

(٢) زدت « به » لتستقيم العبارة .

(٣) فى الأصل : ما هى الشرعية . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : قال .

(٥) فى الأصل : فقد .

(٦) زدت « فيه » لتستقيم العبارة .

(٧) فى الأصل كأن العبارة : فلا يكون لله ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٨) فى الأصل كأنها : يؤلمهم ، ولعل الصواب ما أثبته .

[أن] [١] طاعة الله ورسوله فيما أمراه [به] [٢] قد لا يكون [فيها] [٣] مصلحة له ولا منفعة ، ولا فيها تنعم ولا لذة [٤] ولا راحة ، بل يكون [فيها] [٥] مفسدة له ومضرة عليه ، وليس فيها إلا ألمه [٦] وعذابه – كان هذا من أعظم الصوارف له عن فعل ما أمر الله به ورسوله ، ثم إن كان ضعيف الإيمان بالوعيد والوعد ترك الدين بالكلية ، وإن كان مؤمنا بالوعيد صارت دواعيه مترددة بين هذا العذاب وذلك العذاب ، وإن كان مؤمنا بوعد الآخرة فقط اعتقد أنه لا تكون له [٧] فى الدنيا مصلحة ولا منفعة [٨] ، بل [لا] [٩] تكون المصلحة والمنفعة فى الدنيا إلا لمن كفر أو فسق وعصى .

ظ ١٩٠ — الرد عليهم

وهذا أيضا وإن كان / هو غاية حال هؤلاء ، فهو مما يصرف النفوس عن طاعة الله ورسوله ، ويبقى العبد المؤمن متردد الدواعى بين هذا وهذا . وهو لا يخلو من أمرين : إما أن يرجّح جانب الطاعة التى يستشعر أنه ليس فيها طول عمره له مصلحة ولا منفعة ولا لذة ، بل عذاب وألم ، بل مفسدة ومضرة ، وهذا لا يكاد يصبر عليه أحد .

---

(١) زدت « أن » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : فيما أمره ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) زدت « فيها » ليستقيم الكلام .

(٤) فى الأصل : لعذه ، وهو تحريف ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) زدت « فيها » ليستقيم الكلام .

(٦) فى الأصل كأنها : ليس فيها إله ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٧) فى الاصل : فى الآخرة فقط ثم فرح أنه يكون له ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٨) فى الأصل : مصلحة بلا منفعة ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٩) زدت « لا » ليستقيم الكلام .

وإما أن يرجح جانب المعصية تارة أو تارات أو غالبا ، ثم إن أحسن أحواله مع ذلك أن ينوى التوبة قبيل موته .

ولا ريب إن كان ما قاله هؤلاء حقا فصاحب هذه الحال أكيس وأعقل ممن محَّض طاعة الله طول عمره ، إذ أن هذا [١] سلم من عذاب ذلك المطيع فى الدنيا ، ثم إنه بالتوبة أحبط عنه العقاب ، وأبدل الله سيئاته بالحسنات ، فصارت جميع سيئاته حسنات ، فصار ثوابه فى الآخرة قد يكون أعظم وأعظم من ثواب ذلك المطيع الذى محَّض الطاعة ، ولو كان ثوابه دون ثواب ذلك [٢] لم يكن التفاضل بينهم إلا كتفاضل أهل الدرجات فى الجنة ، وهذا مما يختاره أكثر الناس على مكابدة العذاب والشقاء والبلاء بطول العمر ، إذ هو أمر لا يصبر عليه أحد ، فإن مصابرة العذاب ستين أو سبعين سنة بلا مصلحة ولا منفعة ولا لذة أمر ليس هو من جِبِلَّة الأحياء ، إذا جوَّزوا أن لا يكون فى شىء من طاعة الله مصلحة ولا منفعة طول عمره .

وهؤلاء يجعلون العباد مع الله بمنزلة الأُجراء مع المستأجرين ، كأن الله استأجرهم طول مقامهم فى الدنيا ليعملوا ما لا ينتفعون به ، ولا فيه لربهم منفعة ، ليعوضهم مع ذلك بعد الموت بأجرتهم ، وفى هذا من تشبيه الله [٣] بالعاجز الجاهل السفيه ما يجب تنزيه الله عنه ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

---

(١) فى الأصل : إذا أهنا ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : ولو كان ثوابه دون ذلك ثواب ذلك . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : أمر السنة لله ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

المقالة الصحيحة لأهل السنة والجماعة ص ١٩١

والحق الذى يجب اعتقاده أن الله سبحانه إنما أرسل رسوله رحمة للعالمين ، وأن إرسال الرسل وإنزال الكتب / رحمة عامة للخلق أعظم من إنزال المطر وإطلاع البذر ، وإن يحصل بهذه الرحمة ضرر لبعض النفوس [١] .

ثم إنه سبحانه – كما قال قتادة وغيره من السلف : لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليه ، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلا منه [٢] ، بل أمرهم بما فيه صلاحهم ، ونهاهم عما فيه فسادهم .

وفى الحديث الصحيح ، حديث أبى ذر عن النبى ﷺ : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا فى صعيد واحد يسألونى فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ما نقص ذلك من ملكى شيئا إلا كما ينقص البحر إذا غُمس فيه المخيط غمسة واحدة ، يا عبادى إنما هى أعمالكم ترد عليكم ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » [٣] .

---

(١) فى الأصل : وأن يحصل بهذه الرحمة نصر (بدون نقط) وبعض النفوس ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : بخلافه ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) الحديث عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه فى : مسلم ٤/١٩٩٤ (كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم) ، وسبق هذا الحديث فى المجموعة الأولى ، ص ١٤٨ وعلقت عليه هناك (ت ١) .

رفع الله الحرج عن المؤمنين

وقال تعالى فى وصف النبى الأمى : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلاَلَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [سورة الأعراف : ١٥٧] .

وقال تعالى لما ذكر [١] الوضوء : ﴿ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٦] . فأخبر أنه لا يريد أن يجعل علينا من حرج فيما أمرنا به ، وهذه نكرة مؤكدة بحرف « مِنْ » [٢] ، فهى تنفى كل حرج ، وأخبر أنه إنما يريد تطهيرنا وإتمام نعمته علينا .

وقال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِى اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [سورة الحج : ٧٨] ، فقد أخبر أنه ما جعل علينا فى الدين من حرج نفيا عاما مؤكدا ، فمن اعتقد أن فيما أمر الله به مثقال ذرة من حرج فقد كذَّب الله ورسوله ، فكيف بمن اعتقد [أن] [٣] المأمور به قد يكون فسادا وضرراً لا منفعة فيه ولا مصلحة لنا ، ولهذا [لمَّا] [٤] لم يكن فيما أمر الله ورسوله حرج علينا ، لم يكن الحرج من ذلك إلا من النفاق ، كما قال تعالى : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [سورة النساء : ٦٥] .

ظ ١٩١

---

(١) فى الأصل : لما ذكروا .

(٢) فى الأصل : وهذه يكره موركده بحترف من . وفوق حرف « من » كتب « كذا » . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٣) زدت « أن » ليستقيم الكلام .

(٤) زدت « لما » لتستقيم العبارة .

وقال الله تعالى فيما أمر به من الصيام : ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [سورة البقرة : ١٨٥] ، فإذا كان لا يريد فيما أمرنا به ما يعسر علينا ، فكيف يريد ما يكون ضررا وفسادا لنا بما أمرنا به إذا أطعناه فيه ؟

الإيمان والطاعة خير من الكفر والمعصية للعبد فى الدنيا والآخرة

ثم إنه يكون قد أخبر أن الإيمان والطاعة خير من الكفر والمعصية للعبد فى الدنيا والآخرة ، وإن كان لجهله يظن أن ذلك خير له [١] فى الدنيا ، كما يقوله هؤلاء الذين فيهم جهل ونفاق ، الذين قد يقولون : إن المأمور به قد لا يكون فيه للعبد مصلحة ولا منفعة طول عمره ، بل يكون ذلك فى المنهى عنه ، فقال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٦] .

وقال تعالى عن الذين اتبعوا : ﴿ ما تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ إلى قوله ﴿ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٢] فأخبر أنهم يعلمون أن هذه الأمور لا تنفع [٢] بعد الموت ، بل لا يكون لصاحبها نصيب فى الآخرة ، وإنما طلبوا بها منفعة الدنيا ، وقد يسمون ذلك العقل المعيشى ، أى العقل الذى يعيش به الإنسان فى الدنيا عيشة طيبة ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٣] ، فأخبر أن أولياءه [٣] الذين آمنوا وكانوا يتقون ، ينبههم [٤] على

---

(١) فى الأصل : خيرا له ، وهو خطأ .

(٢) فى الأصل : لا ينفع .

(٣) فى الأصل : أوليائه ، وهو خطأ .

(٤) فى الأصل : يبهم ، وهو تحريف .

[أن فى] (١) ذلك ما هو خير لهم مما طلبوه فى الدنيا لو كانوا يعلمون ، فيحصل لهم فى الآخرة (٢) من الخير الذى هو المنفعة ودفع المضرة ما هو أعظم مِمَّا يحصلوه / بذلك من خير الدنيا . ص ١٩٢

كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٥٦] ، ثم قال : ﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [سورة يوسف : ٥٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۞ فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٤٧ ، ١٤٨] (٣) .

وقال عن إبراهيم : ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [سورة النحل : ١٢٢] .

وقد قال تعالى ما يبين به أن فعل المكروه من المأمور خير من تركه فى الدنيا أيضا . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً ۞ وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْراً عَظِيماً ۞ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ [سورة النساء : ٦٦ – ٦٨] .

---

(١) زدت عبارة « أن فى » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : فى الدنيا ، وهو خطأ . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٣) سقطت كلمة « الكافرين » من الأصل .

وهذا فى سياق حال ﴿ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً ﴾ [سورة النساء : ٦٠] ، وهؤلاء منافقون من أهل الكتاب .

والمشركون حالهم أيضا شبيه (١) بحال الذين نبذوا كتاب الله وراءهم ظهريا كأنهم لا يعلمون : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٢] ، فإن أولئك عدلوا عمَّا فى كتاب الله إلى اتباع الجبت ، والطاغوت ، والسحر ، والشيطان . وهذه حال الذين أوتوا نصيبا من الكتاب الذين يؤمنون بالجبت والطاغوت ، وحال الذين يتحاكمون إلى الطاغوت من المظهرين [للإيمان] (٢) بالله ورسله فيها من حال هؤلاء .

والطاغوت كل معظم ومتعظم بغير طاعة الله ورسوله ، من إنسان أو شيطان أو شيء من الأوثان .

وهذه حال كثير ممن يشبه اليهود من المتفقهة والمتكلمة وغيرهم ممن فيه نوع نفاق من هذه الأمة ، الذين يؤمنون بما خالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من أنواع الجبت والطاغوت ، والذين يريدون أن يتحاكموا إلى غير كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۝ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ظ ١٩٢

---

(١) فى الأصل : شبههم ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) زدت كلمة « للإيمان » لتستقيم العبارة .

ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً ﴾ [سورة النساء : ٦١ ، ٦٢] [(١)]
أى هؤلاء لم يقصدوا ما فعلوه من العدل عن طاعة الله ورسوله إلى اتّباع ما اتبعوه من الطاغوت إلا لما ظنوه من جلب منفعة لهم ودفع مضرة عنهم ، مثل طلب علم وتحقيق ، كما يوجد فى صنف المتكلمة ، ومثل طلب أذواق ومواجيد ، كما يوجد فى صنف المتعبدة ، ومثل طلب شهوات ظاهرة وباطنة ، كما يوجد فى صنف الذين يريدون العلو ، والذين يتبعون شهوات الغى [(٢)] .

قال تعالى : ﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً ﴾ [سورة النساء : ٦٠] أى ضلوا عن مطلوبهم الذى هو جلب المنفعة ودفع المضرة ، فإن ذلك إنما هو فى طاعة الله ورسوله دون اتباع الطاغوت ، فإذا عاقبهم الله بنقيض مقصودهم فى الدنيا فأصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، قالوا : ما أردنا بما فعلناه [(٣)] إلا إحسانا : أى أردنا الإحسان إلى نفوسنا لا ظلمها ، وتوفيقا : أو جمعا بين هذا وهذا ، لتجتمع الحقائق والمصالح .

قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ [سورة النساء : ٦٣] من الاعتقادات الفاسدة والإرادات الفاسدة : الظن وما تهوى الأنفس ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِى أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً ﴾ [سورة النساء : ٦٣] .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً

---

(١) فى الأصل جاءت آيتا سورة النساء ناقصتين محرفتين .

(٢) فى الأصل : الغنى ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : ما أردنا إلا بما فعلناه ، وهو خطأ .

رَّحِيماً ﴾ [سورة النساء : ٦٤] فدعاهم سبحانه بعد ما فعلوه من النفاق إلى التوبة ، وهذا من كمال رحمته بعباده ، يأمرهم قبل المعصية بالطاعة ، وبعد المعصية بالاستغفار ، وهو رحيم بهم فى كلا الأمرين : بأمره لهم بالطاعة أولا برحمته ، وأمرهم بالاستغفار من رحمته ، فهو سبحانه رحيم بالمؤمنين الذين أطاعوه أولا ، والذين استغفروه ثانيا .

فإذا كان رحيما بمن يطيعه ، والرحمة توجب إيصال [١] ما ينفعهم إليهم ، ودفع ما يضرهم عنهم ، فكيف يكون المأمور به مشتملا على ضررهم دون منفعتهم ؟

معنى المجىء إلى الرسول ﷺ بعد مماته

وقوله : (فجاؤوك) : المجىء إليه فى حضوره معلوم كالدعاء إليه ، وأما فى مغيبه ومماته [٢] فالمجىء إليه كالدعاء إليه والرد إليه . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ ﴾ [سورة النساء : ٦١] وقال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [سورة النساء : ٥٩] / وهو الرد والمجىء إلى ما بُعث به من الكتاب والحكمة ، وكذلك المجىء إليه [٣] لمن ظلم نفسه هو الرجوع إلى ما أمره به ، فإذا رجع إلى ما أمره به فإن الجائى إلى الشىء فى حياته ممن ظلم نفسه يجىء إليه داخلا فى طاعته ، راجعا عن معصيته ، كذلك فى مغيبه ومماته .

ص ١٩٣

واستغفار الله موجود فى كل مكان وزمان ، وأما استغفار الرسول فإنه أيضا

(١) فى الأصل : أفعال ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : ومماته ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : المحبة إليه ، وهو تحريف . والإشارة هنا إلى قوله تعالى : (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله ...) الآية .

يتناول الناس فى مغيبه وبعد مماته ، فإنه أُمر بأن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، وهو مطيع لله [١] فيما أمره به . والتائب داخل فى الإيمان ، إذ المعصية تنقص [٢] الإيمان ، والتوبة من المعصية تزيد فى الإيمان بقدرها ، فيكون له من استغفار النبى ﷺ بقدر ذلك .

فأما مجىء الإنسان إلى [الرسول ﷺ] [٣] عند قبره ، وقوله : استغفر لى ، أو سل لى ربك ، أو ادعو لى ، أو قوله فى مغيبه : يا رسول الله ادع لى ، أو استغفر لى ، أو سل لى ربك كذا وكذا ، فهذا لا أصل له [٤] ، ولم يأمر الله بذلك ، ولا فعله واحد من سلف الأمة المعروفين فى القرون الثلاثة ، ولا كان ذلك معروفا بينهم ، ولو كان هذا مما يستحب لكان السلف يفعلون ذلك ، ولكان ذلك معروفا فيهم ، بل مشهورا بينهم ، ومنقولا عنهم . فإن مثل هذا إذا كان طريقا إلى غفران السيئات وقضاء الحاجات ، [لكان] [٥] مما تتوفر [٦] الهمم والدواعى على فعله وعلى نقله ، لا سيما فيمن كانوا أحرص الناس على الخير ، فإذا لم يعرف أنهم كانوا يفعلون ذلك ، ولا نقله أحد عنهم ، [عُلم] [٧] أنه لم يكن مما يستحب ويؤمر به .

---

(١) فى الأصل : الله .

(٢) فى الأصل : ينقص .

(٣) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .

(٤) فى الأصل : فهذا الأصل له ، وهو تحريف .

(٥) زدت « لكان » ليستقيم الكلام .

(٦) فى الأصل : يتوفر .

(٧) زدت كلمة « علم » لتستقيم العبارة .

بل المنقول الثابت عنه ما أمر الله به النبى ﷺ من نهيه عن اتخاذ قبره عيدا ووثنا ، وعن اتخاذ القبور مساجد (١) .

وأما ما ذكره بعض الفقهاء من حكاية العتبى عن الأعرابى الذى أتى قبر النبى ﷺ وقال : « يا خير البرية : إن الله يقول : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ الآية [سورة النساء : ٦٤] ، وإنى قد جئت » (٢) وأنه رأى النبى ﷺ / فى المنام وأمره أن يبشر الأعرابى (٣) – فهذه الحكاية ونحوها مما يذكر فى قبر النبى ﷺ وقبر غيره

ظ ١٩٣

---

(١) وردت أحاديث كثيرة نهى فيها النبى ﷺ عن اتخاذ قبره عيدا ووثنا ، وعن اتخاذ القبور مساجد ، منها عن أبى هريرة رضى الله عنه قوله ﷺ : « لا تجعلوا بيوتكم قبورا ، ولا تجعلوا قبرى عيدا ، وصلوا علىّ فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » وهو فى : سنن أبى داود ٢/٢٩٣ (كتاب المناسك ، باب زيارة القبور) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٢/٣٦٧ .

ومنها عن عائشة وابن عباس رضى الله عنهم حديث النبى ﷺ : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وهو فى : البخارى ١/٩١ (كتاب الصلاة ، باب حدثنا أبو اليمان) ؛ مسلم ١/٣٧٧ (كتاب المساجد ، باب النهى عن بناء المساجد على القبور) .

ومنها حديث : « اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وهو فى الموطأ ١/١٧٢ (كتاب قصر الصلاة فى السفر ، باب جامع الصلاة) عن عطاء ابن يسار ؛ المسند (ط . المعارف) ١٣/٨٦ – ٨٩ عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) فى الأصل كتب فوق كلمة « جئت » : « كذا » .

(٣) قال ابن كثير فى تفسير آية ٦٤ من سورة النساء : « وقد ذكر جماعة منهم الشيخ أبو منصور الدباغ فى كتابه « الشامل » الحكاية المشهورة عن العتبى قال : كنت جالسا عند قبر النبى ﷺ فجاء أعرابى فقال : السلام عليك يا رسول الله ، سمعت الله يقول : (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) وقد جئتك مستغفرا لذنبى مستشفعا بك إلى ربى ، ثم أنشأ يقول :

يا خير من دُفنت بالقاع أعظمه   فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه   فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابى ، فغلبتنى عينى فرأيت النبى ﷺ فى النوم ، فقال : يا عتبى الحق الأعرابى فبشّره أن الله قد غفر له ..... » .

من الصالحين ، فيقع مثلهما لمن فى إيمانه ضعف ، وهو جاهل بقدر الرسول وبما أمر به ، فإن لم يُعف [عن] مثل هذا [(١)] لحاجته ، وإلا اضطرب إيمانه ، وعظم نفاقه ، فيكون فى ذلك بمنزلة المؤلفة بالعطاء فى حياة النبى ﷺ ، كما قال : « إنى لأتألف [(٢)] رجالا بما فى قلوبهم من الهلع والجزع ، وأَكِلُ رجالا إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الغنى والخير » [(٣)] ، مع أن أخذ ذلك المال مكروه لهم ، فهذه أيضا مثل هذه الحاجات .

وأما المشروع الذى وردت به سنته فهو دعاء المسلم ربه ، متوسلا به ، لا دعاؤه [(٤)] فى مماته ومغيبه ، وهو أن يفعل [(٥)] كما فى الحديث الذى رواه الترمذى وصححه أن النبى ﷺ علَّم رجلا أن يقول : « اللهم إنى أسألك وأتوسل إليك بنبيك محمد ، نبى الرحمة ، يا محمد يا نبى الله : إنى أتوسل بك إلى ربى فى حاجتى

---

(١) فى الأصل كأنها : فإن لم يسعف مثل هذا . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : لأتلف (بدون نقط) ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته . ولفظ الحديث : إنى لأعطى ...

(٣) الحديث عن عمرو بن تغلب رضى الله عنه ونصه فى البخارى : « ..... حدثنا عمرو بن تغلب أن رسول الله ﷺ أتى بمال أو سبى فقسمه فأعطى رجالا وترك رجالا ، فبلغه أن الذين ترك عتبوا ، فحمد الله ثم أثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد فوالله إنى لأعطى الرجل وأدع الرجل ، والذى أدع أحب إلىّ من الذى أعطى ، ولكن أعطى أقواما لما رأى فى قلوبهم من الجزع والهلع ، وأَكِلُ أقواما إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الغنى والخير ، فيهم عمرو بن تغلب » فوالله ما أحب أن لى بكلمة رسول الله ﷺ حُمْرَ النَّعَم » .

والحديث فى : البخارى ٢/١٠ - ١١ (كتاب الجمعة ، باب من قال فى الخطبة بعد الثناء : أما بعد) ، ٩/١٥٦ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : إن الإنسان خلق هلوعا .....) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٥/٦٩ .

(٤) فى الأصل : لا دعاه .

(٥) فى الأصل بعد عبارة « أن يفعل » كرر الناسخ عبارة : « ولا دعاه فى مماته ومغيبه » .

ليقضيها ، اللهم شفّعه فيّ »[(١)] . وذلك أن الله يقول : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٥] وقال تعالى : ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ ﴾ [سورة السجدة : ٤] ، ثم قال تعالى : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [سورة النساء : ٦٥] .

فأقسم بنفسه على أنه نفى إيمان من لم يجمع أمرين : تحكيمه فيما شجر بينهم ، ثم أن لا يجد فى نفسه حرجا . وهذا يوجب أنه ليس فى أمره ونهيه ما يوجب الحرج لمن امتثل ذلك ، فإن حكمه لابد فيه من أمر ونهى ، وإن كان فيه إباحة أيضا ، فلو كان المأمور به والمنهى عنه مضرة للعبد ومفسدة ، وألما بلا لذة راجحة ، لم يكن العبد ملوما على وجود الحرج فيما هو مضرة له ومفسدة .

على المؤمن أن يحب ما أحب الله ويبغض ما أبغضه الله ويرضى بما قدّره الله

ولهذا لم يتنازع العلماء أن الرضا بما أمر الله به ورسوله واجب محبب ، لا يجوز كراهة ذلك وسخطه ، وأن محبة ذلك واجبة ، بحيث يبغض ما أبغضه الله ،

---

(١) الحديث عن عثمان بن حُنَيف رضى الله عنه فى : سنن ابن ماجة ١/٤٤١ - ٤٤٢ (كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب ما جاء فى صلاة الحاجة) ونص الحديث : عن عثمان بن حنيف أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال : ادع الله لى أن يعافينى . فقال : « إن شئت أخرت لك وهو خير ، وإن شئت دعوت » . فقال : ادعه . فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ، ويصلى ركعتين ، ويدعو بهذا الدعاء : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بمحمد نبى الرحمة ، يا محمد إنى قد توجهت بك إلى ربى فى حاجتى هذه لتُقضى . اللهم فشفّعه فيّ » . وقال ابن ماجة : « قال أبو إسحاق : هذا حديث صحيح » . وذكر الحديث الترمذى فى سننه (تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى للمباركفورى ، تحقيق محمد عبد الرحمن عثمان ، ط . المدينة المنورة) ١٠/٣٢ - ٣٣ . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبى جعفر ، وهو غير الخطمى » . وقال المباركفورى فى شرحه : « وأخرجه النسائى وزاد فى آخره : فرجع وقد كشف الله عن بصره . وأخرجه أيضا ابن ماجة وابن خزيمة فى صحيحه والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين ، وزاد فيه : فدعا بهذا الدعاء ، فقام وقد أبصر . وأخرجه الطبرانى ...... » .

ويسخط ما أسخطه الله من المحظور ، ويحب ما أحبه ، ويرضى ما رضيه الله من المأمور .

وإنما تنازعوا فى الرضا بما يقدّره الحق من الألم بالمرض والفقر . فقيل : هو واجب ، وقيل هو مستحب وهو أرجح . والقولان فى أصحاب الإمام أحمد وغيرهم . وأما الصبر على ذلك فلا نزاع أنه واجب .

وقد قال تعالى فى الأول : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ ﴾ [سورة التوبة : ٥٨ ، ٥٩] .

فجعل من المنافقين من سخط فيما منعه الله إياه ورسوله ، وحضهم (١) بأن يرضوا بما آتاهم الله ورسوله . والذى آتاه الله ورسوله يتناول ما أباحه دون ما حظره ، / ويدخل [فى] (٢) المباح العام ما أوجبه وما أحبه . ص ١٩٤

وإذا كان الصبر على الضراء ونحو ذلك مما أوجبه الله وأحبه ، كما أوجب الشكر على النعماء وأحبه ، كان كل من الصبر والشكر مما يجب محبته وعمله (٣) . فيكون ما قُدِّر للمؤمن من سرَّاء معها شكر وضراء معها صبر خيراً له ، كما قال النبى ﷺ : « لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، أن أصابته سراء فشكر كان خيرا له ، وإن أصابته ضراء فصبر كان

---

(١) فى الأصل : وخصهم ، وهو تحريف .

(٢) زدت « فى » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : وعلمه .

خيرا له » [١] . وإذا كان خيرا فالخير هو المنفعة والمصلحة الذى فيه النعيم واللذة كما تقدم .

فيكون كل مقدور قُدِّر للعبد إذا عمل فيه بطاعة الله ورسوله خيرا له ، وإنما يكون شرا له لمن عمل بمعصية [٢] الله ورسوله ، ومثل ذلك فهو – بحسبه [٣] ونيته – بلاء [٤] قد يعمل فيه بطاعة الله ، وقد يعمل فيه بمعصية الله ، فلا يوصف بواحد [٥] من الأمرين .

فصل

جميع الحركات ناشئة عن الإرادة والاختيار

وإذا كان كل حركة فى الوجود فلا تخلو من أن تكون إرادية أو طبعية أو قسرية ، وتبين أن الطبعية والقسرية فرع [٦] وتبع للإرادية – فثبت أن جميع الحركات ناشئة عن الإرادة والاختيار ، وذلك يبطل أن يضاف خلق شىء من المخلوقات إلى الطبع الذى فى الأجسام ، مثل [٧] أن يكون الخالق للأجنة فى الأرحام هو طبع ، أو الخالق [٨] للنبات هو طبع ، لأن الطبع لا يكون مبدءاً لحركة

---

(١) مضى الحديث من قبل فى هذه المجموعة قبل صفحات (ص : ٣٤٢) .

(٢) فى الأصل : معصية .

(٣) فى الأصل : يحبه .

(٤) فى الأصل : وبلاء .

(٥) فى الأصل : بأحد .

(٦) فى الأصل : نوع ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٧) فى الأصل : قبل ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٨) فى الأصل : أو خالق .

[الجسم] (١) وانتقال أصله ، إلا إذا أُخرج عن طبعه بغير طبعه ، كما يُجمع بين الأجسام بالمزج والخلط ، فتنتقل عن مراكزها ومحالها المخالف لمقتضى طبعها (٢) ، وعند التحقيق يعود الطبع إلى أنه ليس فيها سبب للحركة عن حالها وسكونها ، فيكون الطبع بمنزلة السكون وعدم الحركة ، أو أمراً (٣) وجوديا منافيا للحركة ، فالحركة الواردة عليها مخالفة له (٤) ، والطبع جمود (٥) ، وهى [تنتقل] (٦) عن إرادة وحركة ، فعلم بطلان إصابة شيء من الحوادث العرضية (٧) عن مجرد الطبع الذى فى الموات ، فكيف بالحوادث الجوهرية ؟!

والإرادة والاختيار مستلزمة للحياة والعلم ، كما أن الحياة أيضا مستلزمة للعلم وللإرادة ، بل وللإرادة والحركة ، كما قرر ذلك عثمان بن سعيد (٨) وغيره من أئمة السنة .

---

(١) زدت كلمة « الجسم » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : فينقل عن مراكها ومحالها المخالف ليقضى طبعها ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : أو أمر ، وهو خطأ .

(٤) أى للطبع .

(٥) فى الأصل الكلمة غير واضحة ، وكأنها : جسمه ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٦) زدت كلمة « تنتقل » ليستقيم الكلام .

(٧) فى الأصل : الفرضية ، وهو تحريف .

(٨) يقول ابن تيمية فى كتاب « الاستقامة » ١/٧٠ ، ٧١ (ط . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بتحقيقى ، الرياض ، ١٤٠٣ / ١٩٨٣) : « وكذلك لفظ الحركة أثبته طوائف من أهل السنة والحديث ، وهو الذى ذكره حرب بن إسماعيل الكرمانى فى السنة التى حكاها عن الشيوخ الذين أدركهم ..... وكذلك هو الذى ذكره عثمان بن سعيد الدارمى فى نقضه على بشر المريسى ، وذكر =

وكما أن الحركة مستلزمة للإرادة والحياة ، فالحياة أيضا مستلزمة للحركة والإرادة ، ولهذا كان أعظم آية فى القرآن : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٥] . فالاسم الحىّ مستلزم لصفاته وأفعاله ، وهو من أعظم / البراهين العقلية على ثبوت صفات الكمال ، والمصحح لها ، والمستلزم ثبوتها ونفى نقيضها ، كالعلم والكلام والسمع والبصر وغير ذلك ، كما هو مبين فى موضعه . ظ ١٩٤

فصل

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۞ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ۞ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۞ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ

= أن ذلك مذهب أهل السنة » ويقول الدارمى فى كتابه « رد الإمام الدارمى عثمان بن سعيد على بشر المريسى العنيد » ص ١٩ ، بتحقيق محمد حامد الفقى ، ط . أنصار السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٣٥٨ : « وأما دعواك : أن تفسير « القيوم » الذى لا يزول عن مكانه فلا يتحرك . فلا يقبل مثل هذا التفسير إلا بأثر صحيح ، مأثور عن رسول الله ﷺ ، أو عن بعض أصحابه أو التابعين . لأن الحى القيوم يفعل ما يشاء ، ويتحرك إذا شاء ، وينزل ويرتفع إذا شاء ؛ ويقبض ويبسط ، ويقوم ويجلس إذا شاء ، لأن أمارة ما بين الحى والميت التحرك . كل حى متحرك لا محالة ، وكل ميت غير متحرك لا محالة » .

يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۝ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٥١ – ٥٦] .

أصل الموالاة الحب وأصل المعاداة البغض

وأصل الموالاة هى المحبة ، كما أن أصل المعاداة البغض ، فإن التحاب يوجب التقارب والاتفاق . والتباغض يوجب التباعد والاختلاف ، وقد قيل : المولى من الوَلْىُ : وهو القرب ، وهذا يلى هذا ، أى هو يقرب منه (١) .

والعَدُوُّ من العُدَواء وهو البعد (٢) ، ومنه العُدْوَة (٣) . والشىء إذا ولى الشىء ودنا منه وقرب إليه اتصل به ، كما أنه إذا عُدِّى عنه ، ونأى عنه ، وبعد منه ، كان ماضيا عنه (٤) .

فأولياء الله ضد أعدائه ، يقرِّبهم منه ويدنيهم إليه ، ويتولاهم ويتولونه ، ويحبهم ويرحمهم ، ويكون عليهم منه صلاة ، وأعداؤه (٥) يبعدهم ويلعنهم ، وهو إبعاد منه ومن رحمته ، ويبغضهم ويغضب عليهم ، وهذا شأن المتوالين والمتعادين (٦) . فالصلاة ضد اللعنة ، والرحمة والرضوان ضد الغضب ، والسخط والعذاب ضد النعيم .

ص ١٩٥

قال تعالى فى حق الصابرين : ﴿ أُوْلَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٥٧](٧) .

---

(١) فى « لسان العرب » : « والوَلْىُ : القرب والدنو .... ويقال : تباعدنا بعد وَلْىٍ ، ويقال منه . وَلِيَه يَلِيه ، بالكسر فيهما ، وهو شاذ ..... وكل مما يليك : أى مما يقاربك » .

(٢) فى الأصل : وهو البعد منه ، والظاهر أن « منه » زيادة من الناسخ . وفى اللسان « العُدَواء : بعد الدار ، والعَدَاء البعد » وفيه أيضا : وطالت عُدَواؤهم أى تباعدهم وتفرقهم » .

(٣) فى اللسان : « العُدَوة : المكان المتباعد » وهى عدوة الوادى .

(٤) فى اللسان : « العِدَى : التباعد . وقوم عِدًى إذا كانوا متباعدين لا أرحام بينهم ولا حلف . وقومٌ عِدًى إذا كانوا حربا .... والعَدُوُّ : ضد الصديق ..... قال الجوهرى : العَدُوُّ ضد الوَلِىِّ » .

(٥) فى الأصل : وأعدائه ، وهو خطأ .

(٦) فى الأصل : المتواليين والمتعاديين .

(٧) فى أعلى ص ١٩٥ من الأصل إلى اليسار كتب « السادس » .

وقال تعالى فى حق المنافقين : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ [سورة الفتح : ٦] .

وقال تعالى فى حق المجاهدين : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ [سورة التوبة : ٢١] .

وقال تعالى فى قاتل المؤمن متعمدا : ﴿ فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾ [سورة النساء : ٩٣] .

والمتلاعنان يقول الرجل فى الخامسة : ﴿ أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [سورة النور : ٧] وذلك يكون قاذفا . وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة النور : ٢٣] ، وتقول المرأة فى الخامسة : ﴿ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [سورة النور : ٩] . لأنه إذا كان صادقا كانت زانية فاستحقت الغضب الذى هو ضد الرحمة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ والزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَجَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [سورة النور : ٢] ، فنهى عن الرأفة بهما فى دين الله .

والمؤمن يغار ، والله يغار ، وغيرة الله أعظم ، كما قد استفاض عن النبى ﷺ فى الصحيح من غير وجه أنه قال : « لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » (١) .

---

(١) الحديث – مع اختلاف يسير فى الألفاظ – عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى : البخارى ٥٧/٦ (كتاب التفسير ، تفسير سورة الأنعام ، باب ولا تقربوا الفواحش) ، ٣٥/٧ (كتاب النكاح ، باب الغيرة) ، ١٢٠/٩ (كتاب التوحيد ، باب قوله الله تعالى : ويحذركم الله نفسه) ، ١٢٣/٩ =

وفى بعض [١] الأحاديث الصحاح : « لا أحد أغْيَر من الله أن يزنى عبده أو تزنى أمته » [٢] وفى بعضها « إن الله يغار ، وغَيْرته أن يأتى العبد ما حرَّم عليه » [٣] .

والغَيْرة فيها من البغض والغضب ما يدفع به [الإنسان] [٤] ما غار منه ، فالزنا وإن كان صادرا عن الشهوة والمحبة منهما ، أو من أحدهما ، فإن ذلك مقابل [بضرورة التنزّه عن الفواحش ، والتورع عن المحرمات] [٥] . فأمر الله أن

= (كتاب التوحيد ، باب لا شخص أغير من الله) ؛ مسلم ٢١١٣/٤ - ٢١١٤ (كتاب التوبة ، باب غيرة الله تعالى .....) ؛ سنن الترمذى ٢٠٠/٥ - ٢٠١ (كتاب الدعوات ، باب حدثنا محمد بن بشار) ؛ المسند (ط . المعارف) ٢١٩/٥ - ٢٢٠ ، ٥٦/٦ - ٥٧ ، ٥٩ ؛ سنن الدارمى ١٤٩/٢ (كتاب النكاح ، باب فى الغيرة) .

(١) فى الأصل : وبعض .

(٢) الحديث عن عائشة رضى الله عنها فى : البخارى ٣٥/٧ (كتاب النكاح ، باب الغيرة) ولفظه فيه : « يا أمة محمد ما أحد أغير من الله أن يرى عبده أو أمته يزنى . يا أمة محمد ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » . وجاء الحديث عنها رضى الله عنها مطولا وأوله : خسفت الشمس فى عهد رسول الله .... الحديث ومنه : فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ..... ثم قال : يا أمة محمد والله ما من أحد أغير .... الحديث ، وهو مع اختلاف يسير فى الألفاظ فى : البخارى ٣٤/٢ (كتاب الكسوف ، باب الصدقة فى الكسوف) ؛ مسلم ٦١٨/٢ (كتاب الكسوف ، باب صلاة الكسوف) ؛ سنن النسائى ١٠٨/٣ (كتاب الكسوف ، باب نوع آخر منه (من صلاة الكسوف) ؛ المسند (ط . الحلبى) ١٦٤/٦ .

(٣) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ٣٥/٧ (كتاب النكاح ، باب الغيرة) ؛ مسلم ٢١١٤/٤ (كتاب التوبة ، باب غيرة الله تعالى ، وتحريم الفواحش) ؛ سنن الترمذى ٤١٧/٢ (كتاب الرضاع ، باب ما جاء فى الغيرة) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣٤٣/٢ ، ٥٣٩ .

(٤) زدت كلمة « الإنسان » لتستقيم العبارة .

(٥) فى الأصل : مقابل بصدف . ولعل ما أثبته من كلام زدته بين المعقوفتين تستقيم به العبارة .

لا تأخذنا (١) بهما رأفة فى دين الله ، فنهانا عن أن تكون (٢) منا رأفة تدفع العذاب عنهما ، فضلا عن أن يكون محبة لذلك الفعل . ولهذا أخبرنا به بأنه لا يحب ذلك أصلا ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٨] ، وما لا يأمر به لا أمر إيجاب ولا أمر استحباب لا يحبه ، قال لوط عليه السلام : ﴿ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴾ [سورة الشعراء : ١٦٨] والقِلى : بغضه وهجره (٣) ، والأنبياء أولياء الله ، / يحبون ما يحب الله ويبغضون ما يبغض . ظ ١٩٥

وربما قيل : القلى أشد البغض ، فالله سبحانه يبغض ذلك ، وهو سبحانه يبغض كل ما نهى عنه ، كما أنه يحب كل ما أمر به . بل الغَيْرة مستلزمة لقوة البغض ، إذ كل من يغار يبغض ما غار منه ، وليس كل من يبغض شيئا يغار منه ، فالغيرة أخص وأقوى .

ولا ريب أن المرأة المزوَّجة الزانية استحقت الغضب لشيئين : لأجل ما فى الزنا من التحريم . ولأنها (٤) اعتدت فيه على الزوج فأفسدت فراشه . ولهذا كان للزوج (٥) إذا قذف امرأته ولم يأت بأربعة شهداء : أن (٦) يلاعنها ، لما له فى ذلك من ا لحق ، ولأنه مظلوم إذا كان صادقا ، وعليه فى زناها من الضرر ما يحتاج إلى

---

(١) فى الأصل : يأخذنا .

(٢) فى الأصل : يكون .

(٣) أى بغض العمل وهجره .

(٤) فى الأصل : ولهذا . ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) فى الأصل : الزوج ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٦) فى الأصل : أى . ولعل الصواب ما أثبته .

دفعه بما شرعه الله ، كالمقذوف الذى له أن يستوفى حد القذف من القاذف الذى ظلمه فى عرضه ، فكذلك الزوج له أن يستوفى حد الفاحشة من البغى الظالمة له ، المعتدية عليه . كما قال النبى ﷺ فى حق الرجل على امرأته « وأن لا يوطئن فرشكم من تكرهونه » (١) ، فلهذا كان له أن يقذفها ابتداءً ، [وقذفها] (٢) إما مباح له وإما واجب عليه إذا احتاج إليه لنفى النسب ، ويضطرها بذلك إلى أحد أمرين : إما أن تعترف (٣) فيقام عليها الحد ، فيكون قد استوفى حقه ، وتطهرت هى أيضا من الجزاء لها والنكال [فى الآخرة] (٤) بما (٥) حصل ، وإما أن تبوء بغضب الله عليها وعقابه فى الآخرة الذى هو أعظم من عقاب الدنيا ، فإن الزوج مظلوم معها ، والمظلوم له استيفاء حقه إما فى الدنيا وإما فى الآخرة (٦) ، قال الله تعالى :

---

(١) فى الأصل : من يكرهونه ، وهذه العبارة جزء من حديث جاء عن عمرو بن الأحوص رضى الله عنه فى : سنن الترمذى ٤١٥/٢ (كتاب الرضاع ، باب ما جاء فى حق المرأة على زوجها) وأوله : عن سليمان بن عمرو بن الأحوص قال حدثنى أبى أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ ...... فذكر فى الحديث قصة فقال : « ألا واستوصوا بالنساء خيرا ..... فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون ..... الحديث وقال عنه الترمذى :« هذا حديث حسن صحيح » ، وهو فى : سنن ابن ماجة ٥٩٤/١ (كتاب النكاح ، باب حق المرأة على الزوج) . وجاءت هذه العبارة أيضا ضمن حديث مطول عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه ورد فى كتب السنن ، وهو فى : سنن ابن ماجة ١٠٢٢/٢ - ١٠٢٧ (كتاب المناسك ، باب حجة رسول الله ﷺ) ؛ سنن الدارمى ٤٤/٢ - ٤٩ (كتاب المناسك ، باب فى سنة الحاج) كما جاءت نفس العبارة فى حديث ثالث عن أبى حرة الرقاشى عن عمه رضى الله عنه فى المسند (ط . الحلبى) ٧٢/٥ - ٧٣ .

(٢) زدت « وقذفها » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : يعترف .

(٤) زدت عبارة « فى الآخرة » ليستقيم الكلام .

(٥) فى الأصل : ما .

(٦) بعد كلمة الآخرة توجد فى الأصل عبارة « بخلاف الزوج » وهى عبارة مقحمة وبحذفها يستقيم الكلام .

﴿ لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ [سورة النساء : ١٤٨] [بخلاف غير الزوج] [١] فإنه ليس له حق الافتراش ، فليس له قذفها ، ولا أن يلاعن إذا قذفها ، لأنه غير محتاج إلى ذلك [مثل] [٢] الزوج ، ولا هو مظلوم فى فراشها ، لكن يحصل بالفاحشة من ظلم غير الزوج ما لا يحتاج إلى اللعان ، فإن فى الفاحشة إلحاق عار بالأهل ، والعار يحصل بمقدمات الفاحشة .

فإذا لم تكن الفاحشة معلومة بإقرار ولا بيِّنة كان عقوبة ما ظهر منها كافيا فى استيفاء الحق ، مثل الخلوة والنظر ونحو ذلك من الأسباب التى نهى الله عنها ، وهذا من محاسن الشريعة .

وكذلك كثيرا ما يقترن بالفواحش من ظلم غير الزانيين ، فإنه إذا حصل بينهما محبة ومودة فاحشة كان ذلك موجبا لتعاونهما على أغراضهما ، فيبقى [٣] كل منهما يعين الآخر على أغراضه التى يكون [٤] فيها ظلم الناس ، فيحصل العدوان والظلم للناس بسبب اشتراكهما / فى القبيح ، وتعاونهما [٥] بذلك على الظلم ، كما جرت العادة فى البَغِىِّ من النساء والصبيان أن خدنه أو المسافح به يحصل له منه من الإكرام والعطاء والنصر والمعاونة ما يوجب استطالة ذلك الفاجر بترك حقوق الخلق والعدوان عليهم .

ص ١٩٦

---

(١) زدت عبارة « بخلاف غير الزوج » يستقيم الكلام ، والمقصود غير الزوج من أهل الزوجة أو أهل الزوج مثلا .

(٢) زدت كلمة « مثل » لتستقيم العبارة .

(٣) فى الأصل : بقى .

(٤) فى الأصل : تكون .

(٥) فى الأصل : ويعاونهما .

وأيضا [فإن] محبته له قد تحمل (١) الطالب الراغب على أخذ أموال الناس بغير حق ليعطيه ذلك (٢) ، وتحمله أيضا على ترك حقوق الناس وقطيعة رحمه (٣) لأجل ذلك الشخص ، فإنه لا يمكن الجمع بين الأمرين . ويحمله أيضا على الانتصار له بالعدوان .

ففى الجملة المحبة توجب موافقة المحب للمحبوب . فإذا كانت المحبة فاسدة لا يحبها الله ولا يرضاها ، إذا لم يتعد ضررها للاثنين ، تكون العقوبة لهما حقا لله ، لكن هى فى الغالب ، بل فى اللازم ، يتعدى ضررها إلى الناس ؛ فإن كل واحد من الشخصين عليه حقوق للناس ، وهو يُنهى عن العدوان عليهم ، فإذا تحابا وتعاونا لم يتمكن كل منهما من القيام بحقوق الناس ، واحتاج إلى أن يعتدى عليهم .

ولا ينبغى للإنسان أن يعتبر بظاهر ما يُقال : إن الإنسان إذا فعل فاحشة فإن الإثم عليه خاصة ، وليس ذلك بظلم للغير (٤) ، فإن ذلك إنما هو فى الفاحشة المحضة ، مثل الزنا المحض (٥) ، الذى لم يتعلق به حق الغير ، فأما زنا الزوجة ففيه ظلم بالاتفاق كما بيناه .

وكذلك المحبة والعشق الفاسد ، فإن هذا أعظم ضررا من الزنا مرة واحدة ،

---

(١) فى الأصل : أيضا محبته له قد يحمل ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : ليطيعه ذلك ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : ويطيعه رجمه ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : الغير . ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) فى الأصل : المختص ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

فإن الرجل إذا زنا مرة أو مرتين حصل غرضه ، وكذلك المرأة ، ثم إنه قد يكون بِعِوَضٍ [١] من أحدهما للآخر وقد لا يكون ، فربما كان فيه ظلم للغير .

وأما المحبة والعشق ، فإن ذلك مستلزم للعدوان على غيرهما فى العادة ، فإن المحبة توجب أن يُعْطَى المحبوب من المنافع والأموال ما يوجب حرمان الغير والعدوان عليه ، ويوجب من الانتصار للمحبوب والدفع عنه ما فيه أيضا ترك حق الغير والعدوان عليه . ألا ترى أن الرجل إذا أحب غير امرأته ، أو المرأة [إذا] [٢] أحبت غير زوجها ، قصَّر كل منهما فى حقوق الآخر واعتدى عليه . بل إذا أحب الرجل امرأةً أو صبيا قصَّر فى حقوق أهله وأصدقائه ممن [٣] له عليه حق ، بل وظلمهم أيضا ، كما يظلم غيرهم لأجله ؟! وهذا سوى ما فى ذلك من حق الله الذى يوجب غليظ عقابه . وإن كان الرجل العاقل قد يقوم / من الحقوق بما يمكن ، ويدع الظلم بحسب الإمكان ، إلا أن هذا مظنة وسبب لذلك ، وهذا مما يوجب تحيّر الرجل وتردده وتلومه إلى الحق تارة وإلى الباطل أخرى ، وهذا مرض عظيم ، كما ذكر الله تعالى ذلك فى قوله : ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [سورة الأحزاب : ٣٢] . وأما ما فى ذلك من ظلم كل منهما لنفسه ولخدنه فذاك ظاهر ، لكنهما [٤] ظلما أنفسهما ، فهما الظالمان المظلومان . وأما الغير فظلماه بغير رضاه ولا اختياره .

ظ ١٩٦

وكذلك ما تفضى إليه هذه المحبة الباطلة من ظلم كل منهما للآخر ، إما بقتله ، وإما بتعذيبه بغير الحق ، وإما منعه من الاتصال بالناس ، وفعل ما يختار

---

(١) فى الأصل : ثم إنه كان يعوض . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) زدت « إذا » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : من .

(٤) فى الأصل : ممكنهما .

من مصلحة وغيرها . ففيها هذه المفاسد كلها وأكبر منها ، لكن ذلك ظلم منهما لأنفسهما مبدؤه (١) المحبة الفاسدة .

ولهذا أمر سبحانه أن لا تأخذنا (٢) بهما رأفة فى دين الله ، فإن الرأفة والرحمة توجب أن توصِّل للمرحوم (٣) ما ينفعه ، وتدفع عنه ما يضره ، وإذا رأف بهما أحد (٤) لأجل ما [فى] (٥) قلوبهما من الشهوة والمحبة وغير ذلك ، وترك عذابهما (٦) ، كان ذلك جالبا لما يضرهما ودافعا لما ينفعهما ، فإن ذلك مرض فى قلوبهما . والمريض (٧) الذى يشتهى ما يضره ليس دواؤه (٨) إعطاءه (٩) المشتهى الضار ، بل دواؤه (١٠) الحِمْيَة وإن آلمته ، وإعطاؤه (١١) ما ينفعه ، وتعويضه عن ذلك الضار بما أُمر مما لا يضر .

فهكذا أهل الشهوات الفاسدة ، وإن أضرمت قلوبهم نار الشهوة ليس رحمتهم والرأفة بهم تمكينهم (١٢) من ذلك ، أو ترك عذابهم ، فإن ذلك يزيد

---

(١) فى الأصل : مبدأه .

(٢) فى الأصل : يأخذ .

(٣) فى الأصل : المرحوم .

(٤) فى الأصل : دب ، وهو تحريف ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) زدت « فى » ليستقيم الكلام .

(٦) فى الأصل : عذابها .

(٧) فى الأصل : والمرض . ولعل الصواب ما أثبته .

(٨) فى الأصل : دواه .

(٩) فى الأصل : أعطاه .

(١٠) فى الأصل : دواه .

(١١) فى الأصل : وأعطاه .

(١٢) فى الأصل : تمكنهم .

بلاءهم [١] وعذابهم ، والحرارة التى فى قلوبهم مثل حرارة المحموم ؛ متى مُكِّن المحموم مما يضره ازداد مرضه ، أو انتقل إلى مرض شر منه .

فهذه حال أهل الشهوات ، بل تُدفع تلك الشهوة الحلوة بضدها ، والمنع من موجباتها ، ومقابلتها بالضد من العذاب المؤلم ونحوه الذى [٢] يخرج المحبة من القلب كما قيل :

فإنى رأيت الحب فى القلب والأذى   إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

فإذا كان يحصل بالمحبة ونيل الشهوة أمر مما يزيد ألمه على لذتها انكفّت النفس . وكذلك إذا حصل بدله أمر لذيذ أطيب منه اغتاظت النفس . فاللذيذ يُترك لما يرجح عليه من لذيذ وأليم ، كما أن الأليم محتمل لما يرجح عليه من لذيذ وأليم . وإذا تكافئا تقابلا ، فلم يغلب أحدهما الآخر ، بل تبقى الأمور على ما هو عليه إذا استوت الدواعى والصوارف ، / واحتمال الأليم وفوت اللذيذ وإن كان فيه مرارة ، فذلك يُدفع به ما هو أمر منه ، ويُجلب به ما هو أرجح منه من الحلو .

ص ١٩٧

ولكن هذا من محبة بنى آدم وفتنتهم التى لابد منها ، وهى مخالفة الأهواء ، فلا تقوم مصلحة أحد من بنى آدم بدون ذلك أبدا ، لا مصلحة دنياه ولا مصلحة دينه ، كما قال إبراهيم الحربى [٣] : « أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم ، ولابد من الصبر فى جميع الأمور ، قال تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ

---

(١) فى الأصل : بلادهم ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : التى .

(٣) أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق بن بشير بن عبد الله البغدادى الحربى ، من أعلام المحدثين ومن الزهاد ، ولد سنة ١٩٨ وتوفى سنة ٢٢٥ . انظر ترجمته وأقواله فى : طبقات الحنابلة ٨٦/١ – ٩٣ ؛ تاريخ بغداد ٢٧/٦ – ٤٠ ؛ صفة الصفوة ٢٢٨/٢ – ٢٣٢ ؛ الأعلام ٢٤/١ – ٢٥ .

الإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ . إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [سورة العصر : ١ - ٣] » .

فلابد من التواصى بالحق والصبر ، إذ أهل الفساد والباطل لا يقوم باطلهم إلا بصبر عليه أيضا ، لكن المؤمنون يتواصون بالحق والصبر ، وأولئك يتواصون [١] بالصبر على باطلهم ، كما قال قائلهم [٢] : ﴿ أنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ [سورة ص : ٦] .

فالتواصى بالحق بدون الصبر ، كما يفعله الذين يقولون آمنا بالله فإذا أُوذِى أحدهم فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ، والذين يعبدون الله على حرف ، فإن أصاب أحدهم خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة .

والتواصى بالصبر بدون الحق ، كقول الذين قالوا : أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، كلاهما موجب للخسران . / وإنما نجا [٣] من الخسران الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، وهذا موجود فى كل من خرج عن هؤلاء من أهل الشهوات الفاسدة ، وأهل الشبهات الفاسدة ، أهل الفجور ، وأهل البدع .

ظ ١٩٧

وما ذكرناه من أن المحبة الفاسدة توجب ظلم المتحابَّيْن [٤] لأنفسهما

---

(١) فى الأصل : يتواصو .

(٢) فى الأصل : كما قال تعالى قاتلهم ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل نجوا .

(٤) فى الأصل : المعانين . وهو تحريف ، ولعل الصواب ما أثبته .

ولغيرهما موجود فى كل محبة يبغضها الله ، كمحبة الأنداد والشركاء من دونه ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] وقال تعالى : ﴿ وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [سورة البقرة : ٩٣] وكمحبة أهل الشهوات لجنس [١] الفواحش ، ومحبة أهل الظلم ، والقائلين على الله ما لا يعلمون ، فإن المحبة توجب تعاون المتحابّين واتفاقهما ، فلابد أن يبغضا ويعاديا [٢] من يبغض ذلك منهما ويخالفهم فيه .

ومعلوم أن كل مؤمن فإنه يبغض ما يبغضه الله ، ويحب ما يحبه الله ؛ فلابد أن يكون التحاب الذى يبغضه الله موجباً لنوع بُغض المؤمنين بحسبه .

فصل

تقسيم العلم إلى فعلى وانفعالى

قد كتبت فى غير هذا الموضع أن الناس وإن تنازعوا فى العلم : هل هو صفة انفعالية تابعة للمعلوم ، كما قد يطلقه كثير من أهل الكلام ؟ أو هو صفة فعلية مؤثّرة فى المعلوم ، كما يقوله طوائف من المتفلسفة ؟

فإن الصواب أنه ينقسم إلى النوعين جميعا . فمنه ما هو تابع للمعلوم غير مؤثر فيه بحال ، وهو العلم النظرى القولى الخبرى المحض ، كعلمنا بما لا تأثير لنا فى وجوده ، كالعلم بالخالق سبحانه وتعالى وملائكته وكتبه وأنبيائه وسائر مخلوقاته .

ومنه ما هو فعلى [٣] له تأثير فى المعلوم ، كعلمنا بأفعالنا الاختيارية [٤] وما يترتب عليها / من حصول منفعة ودفع مضرة .

ص ١٩٨

---

(١) فى الأصل : فى جنس ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : وتعاونا ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : فعل .

(٤) فى الأصل : الاختياره .

وهذا التقسيم ثابت فى علم الله تعالى ، فإنه يعلم نفسه ويعلم مخلوقاته أيضا . والأول علم بموجود ، والثانى علم بمقصود .

لكن العلم بالموجود المستغنى عن أفعالنا يتبع العلم به حبه تارة وبغضه أخرى ، فيكون العلم به سببا لأفعال لنا متعلقة به ، فيكون هذا العلم الانفعالى فعليا مؤثرا من هذا الوجه ، وعلمنا بالحسنات والسيئات التى فى أفعال غيرنا من هذا الوجه .

علم الرب بأفعال عباده الصالحة والسيئة يستلزم حبه للحسنات وبغضه للسيئات

وعلم الرب سبحانه بأفعال عباده الصالحة والسيئة مستلزم أيضا حبه للحسنات وبغضه للسيئات . والعلم بالمقصود من أفعالنا ، وإن كان مؤثرا فى المعلوم ، وهو سبب فى حصوله ، فلا يكون إلا بعد علم بأمور موجودة أوجب قصدا أو اختيارا (١) لتلك الأفعال ، فإن الفعل الاختيارى يتبع الإرادة ، والإرادة تتبع المراد ، فلابد أن يتصور الفاعل المراد قبل قصد الفعل الذى هو سبب إليه ، كما يقال : آخر الفكرة أول العمل (٢) ، وتسمى العلة الغائية . [فلابد من تصور] ذلك المراد (٣) ، وأن يكون ما يترتب على الفعل من لذة تجلب منفعة وتدفع (٤) مضرة ، فاللذة مشروطة بالإحساس باللذيذ ، والإنسان لا يفعل ابتداءً لطلب لذيذ إلا أن يكون قد أحسَّه قبل ذلك فأحبه واشتهاه واشتاق إليه ، وذلك علم بأمر موجود تابع للمعلوم ، تبعه علم بأمر مقصود تابع للعلم . وإن كانت اللذة

---

(١) فى الأصل : أو إخبارا ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : أول الفكر آخر العمل ، وهو خطأ ، وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : ..... الغائية وذلك المراد . ووجدت أن العبارة غير مستقيمة ، ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

(٤) فى الأصل : ودفع .

قد تحصل ابتداءً لا عن شوق ، كمن يذوق الشيء الطيب الذى لم يكن يعرفه فيحبه بعد ذلك ، لكن هذا لم يتقدم منه طلب وفعل فى حصول هذا المحبوب ، بخلاف من ذاقه ابتداءً فأحبه ، ثم سعى فى تحصيل نظائر ما حصل له ابتداءً .

فقد تبين أن كلاً من العلمين : الفعلى والانفعالى مستلزم للآخر ، وكذلك علم الرب سبحانه / وتعالى بنفسه مستلزم لعلمه بصفاته وأفعاله ومفعولاته ، وهو سبحانه يحمد نفسه ويثنى عليها ، فلا نحصى ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، وعلمه [١] بأفعاله ومفعولاته مستلزم لعلمه بنفسه ، وعلمه بالمخلوقات وأفعالها يتبعه حبه وبغضه ، وأمره ونهيه ، وعلمه بما يفعله بعباده من ثواب وعقاب وغير ذلك تابع لعلمه بما هى عليه ، وقد تكلمنا على نحو هذا فى غير هذا الموضع .

ظ ١٩٨

وإنما المقصود فى هذا المكان أن هذا التقسيم الوارد فى العلم يرد نحوه فى الإرادة والمحبة ونحو ذلك .

الإرادة والمحبة ينقسمان أيضا إلى فعليتين وانفعاليتين

فإن الإرادة والمحبة تنقسم أيضا إلى فعلية مؤثرة فى المراد المحبوب ، وهى إرادة الفعل وحبه [وإن كان المراد المحبوب تابعا مفعولا معلوما] [٢] ، وقد ظن بعض الناس أن الإرادة والمحبة ليست إلا هذا النوع ، حتى قال : لا تتعلق الإرادة والمحبة إلا بالمعدوم دون الموجود ، وبالمحدَث دون القديم ، وهذا قول طوائف من أهل الكلام . وأكثر هؤلاء هم أكثر القائلين بأن العلم لا يكون إلا انفعاليا [٣] ،

(١) فى الأصل : وعلم .

(٢) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : إلا غالبا ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

فيجعلون العلم لا يتعلق فى الحقيقة إلا بمعلوم متبوع كالموجود ، ويجعلون الإرادة لا تتعلق إلا بمراد تابع كالمفعول المعدوم .

وتنقسم إلى انفعالية تابعة للمراد المحبوب ليست مؤثرة فى وجوده أصلا ، بل يكون المحبوب المراد موجودا بدون الإرادة ، وإنما يحب المحب ذلك الموجود ويريده ، ويقال فى كثير من أنواع ذلك : يهواه ويعشقه ، ونحو ذلك من العبارات .

وهذا القسم فى الحقيقة هو الأصل فى القسم الأول ، كما قد تكلمنا عليه فى بعض القواعد المتقدمة من سنين [١] ، وذكرنا أن العلم – والإرادة – إنما يتعلق أولا بالموجود ، وأن تعلقه بالمعدوم تابع لتعلقه بالموجود ، وذكرنا أن الإنسان لا يحب الشيء ويريده حتى يكون له به شعور أو إحساس أو معرفة ونحو ذلك ، ويكون مع ذلك بنفسه إليه ميل [٢] وفيها له حب ، وكل واحد من هاتين الفرقتين فى [٣] فطرته وجبلته المعرفة والمحبة ، ولهذا كان كل / مولود يولد على الفطرة : فطرة الإسلام : وهى عبادة الله وحده ، وأصل ذلك معرفته ومحبته . والنفس لا تحس العدم [٤] المحض ، وإنما تعرف العدم بنوع من القياس المقدَّر على الوجود ، كما يقدِّر فى نفسه جبل ياقوت وبحر زئبق ، فنزَّل ذلك مما علمه من الجبل ومن الياقوت ، ثم ينفى [٥]

ص ١٩٩

---

(١) بعد كلمة « السنين » توجد عبارة غير واضحة كأنها « المستلزمة الاعتراف » والكلام يستقيم بدونها .

(٢) فى الأصل : مثل .

(٣) فى الأصل : هو فى .

(٤) فى الأصل : القدم ، وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : يبقى ، وهو تحريف ، والسياق يدل على صواب ما أثبته .

ذلك المقدَّر فى ذهنه أن يكون موجودا فى الخارج ، وهو لم يحكم على نفيه حتى صار موجودا فى نفسه وجودا تقديريا [١] .

الحب يتبع الإحساس والإحساس يكون بموجود لا بمعدوم

فإذا كان الحب يتبع الإحساس ، والإحساس لا يكون إلا بموجودٍ ما ، [فإن ما] [٢] يُحب لا يكون إلا بموجود . وأيضا فإن الإحساس لا يكون أولا إلا لموجود ، فكذلك الحب فى نفسه لا يكون إلا لموجود أو محبوب [٣] ، وإن كان يحب وجود المعدوم [فهو] [٤] لا شىء ، وما ليس بشىء لا يكون محبوبا ، وإن كان يحب وجود المعدوم ويريده [٥] ، فلابد أن يكون قبل ذلك قد ذاقه والتذ به موجودا حتى أحبه بعد ذلك ، أو ذاق والتذ [٦] بنظيره أو بما [٧] يشبهه كما ذلك فى العلم ، وهذا مذكور فى غير هذا الموضع .

ولا يرد على هذا ما يوجد من بكاء الصبى حين يولد قبل أن يذوق طعم اللبن ، فإذا ذاق اللبن التذ به وسكن ، فإن الصبى قبل ذوقه اللبن لم يكن يحبه ويشتهيه ، ولكن يجد ألم الجوع فيبكى من ذلك الألم . فلما ذاق اللبن ووجد لذته ، وأنه أذهب ألم الجوع أحبه من حينئذ ، ومن حينئذ صار يشتهيه ويحبه . وهكذا كل

---

(١) فى الأصل : تقديرا ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) زدت « فإن ما » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : موجودا ومحبوبا . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) زدت « فهو » ليستقيم الكلام .

(٥) فى الأصل : ويراد . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته

(٦) فى الأصل : واليد ، وهو تحريف .

(٧) فى الأصل : أو لما .

من جاع فإنه لا يشتهى شيئا معينا إلا أن يكون ذاقه قبل ذلك ، ولكن يجد طلبا لما يزيل به ألم الجوع ، ولهذا إذا حضر عنده ما قد ذاقه قبل ذلك ، وما لم يذقه قبل ذلك ، اشتاق إلى الأول وأحبه ، وكان شوقه إلى الثانى ومحبته إياه مشروطا بذوقه إياه وسماع وصفه ممن يخبره ، [فإن سماع الوصف] (١) يورث المحبة والشوق كما يورث العلم ، كما قيل :

والأذن تعشق قبل العين أحيانا

لكون النفس ذاقت طعم الحب لما هو من نظير لذلك أو شبيه به ولو من وجه بعيد ، فكما أن الشيء لا يتصور إلا [بعد] الحس به (٢) ، أو بما فيه شبه به من بعض / الوجوه ، فكذلك لا يحب كذلك .

ظ ١٩٩

الأمور الغائبة لا تعرف ولا تحب وتبغض إلا بنوع من القياس والتمثيل

ولهذا ضُربت الأمثال للتعريف والترغيب والترهيب ، فإن الأمور الغائبه عن المشاهدة والإحساس لا تُعرف وتُحب وتبغض إلا بنوع من التمثيل والقياس ، سواء كان الغائب أكمل فى الصفات المطلوبة (٣) المشتركة ، كالموعود به من أمر الجنة والنار ، وكما يصف به الرب نفسه سبحانه وتعالى ، أو ما كان دون ذلك ، كما مثّل من الأمور بما هو أكمل منه .

ومن هنا ضل من ضل من الصابئة المتفلسفة ، ومن أضلوه من أهل الملل ، حيث ظنوا أن ما وصف الله به الجنة والنار إنما هى أمثال مضروبة لتفهيم المعاد الروحانى من غير أن تكون حقائق . وضل من رد عليهم من نفاة أهل الكلام . كما

---

(١) زدت عبارة « فإن سماع الوصف » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : إلا الحسن به . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) كتب فى الأصل فوق كلمة « المطلوبة » : « كذا » .

أصاب الفريقين مثلُ ذلك فى أمر النفس الناطقة ، حيث تقابلوا [١] بالنفى والإثبات ، وحيث اتفق الفريقان على مثل هذا الضلال فى صفات ذى الجلال ، فخاضوا فى باب الإيمان بالله واليوم الآخر خوضا ليس هذا موضع بسط الكلام فيه ، وإن كان كل ذى مقالة فلابد أن تكون فى مقالته [٢] شبهة من الحق ، ولولا ذلك لما راجت واشتبهت .

وإن كانت الإرادة والمحبة تنقسم إلى متبوعة للمراد تكون له كالسبب الفاعل ، وإلى تابعة للمراد يكون هو لها كالسبب الفاعل ، وتكون [٣] عنه كالمسبب المفعول ، وهذا هو الأصل .

وإذا [٤] عُلم أن جميع حركات العالم صادرة عن محبة وإرادة ، ولا بد للمحبة والإرادة من سبب فاعل يكون هو المحبوب المراد – عُلم بذلك أنه لا بد لجميع الحركات من إلٰه يكون المعبود المقصود المراد المحبوب لها [٥] ، وأنها دالة على الإلٰه الحق من هذا الوجه ، وأنه لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، وهذا غير هذا الوجه الذى دلت منه على ربوبيته . وقد بسطنا الكلام على ذلك فى مواضع متعددة ، إذ هو أجل العلم الإلاهى [٦] وأشرفه . وإنما كان المقصود هنا التنبيه على أن الإرادة نوعان كالعلم ، والله أعلم .

---

(١) فى الأصل : تقاتلوا . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل العبارة محرفة هكذا : وإن كان حال ذى مقاله فلابد من مقاليه فى ، وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : ويكون .

(٤) فى الأصل : وقد ، وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : بها .

(٦) فى الأصل : إذ هو احد العلم اللاهى ، وهو تحريف .



الفهارس



فهرس الآيات القرآنية

رقم السورة	السورة	الآية	الصفحة
١١	هود	١٠	٣٥٨
		١١	٣٥٨
		١١	٣٥٩
		٤٩	٣٣١
		٤٩	٣٣٤
		١٢٣	٧٧
		١٢٣	١١٦
١٢	يوسف	٢٤	١٨٢
		٢٤	٢٦٣
		٢٤	٢٩٢
		٣٠	٢٦٢
		٣٠	٢٦٩
		٣٣ ، ٣٤	٢٦٣
		٣٧ – ٤٠	٢٦٢
		٥٦	٣٧٢
		٥٧	٣٧٢
		٧٦	٢٢٢
		٧٦	٢٣٢
		٩٠	٧٥
		٩٠	١٣٦
		٩٠	٣٣١
		١٠٦	٢٨٥

رقم السورة	السورة	الآية	الصفحة
١٧	الإسراء	١٦	١٤
		١٩	١٢١
		٤٤	٢١٣
		٥٤	٦١
		٦٧	٣٥٨
		١٠٠	٣٥٨
١٨	الكهف	١	٥٨
		٢٣ ، ٢٤	١٣
		٥٠	٢٧٠
		٥٠	٢٩١
		٥١	٥٨
		٨٤	٣٠٦
		١٠٢ – ١٠٤	٢٨٦
		١٠٩	٢٢
		١١٠	١٤٦
١٩	مريم	٦٤ ، ٦٥	١٩٦
		٨٨ – ٩٥	٢١٣ – ٢١٤
٢٠	طه	١٤	٧٧
		٤٦	١٦
		٨١	٣٤٦
		٨٥	٢٧٤
		١٢٢ – ١٢٤	٢٠٥



فهرس الأحاديث النبوية والقدسية والآثار

رقم مسلسل	الحديث	الصحابى الراوى	الصفحة
٢٦	ألا فخر إنى من قريش	لم أجده	٣٤٧
٢٧	أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا ...	أبو هريرة وبمعناه عن عدد من الصحابة	١٩٧
٢٨	إن استعطت أن تعمل بالرضا مع اليقين	ابن عباس	٣١
٢٩	إن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال	حذيفة بن اليمان	٩٧
٣٠	إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيرا ...	أنس بن مالك	٢٨٢ - ٢٨٣
٣١	إن حبك إياها أدخلك الجنة	عائشة ، أنس	٢٥٧
٣٢	إن الخطيئة إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها	أبو هريرة	٣٠٢
٣٣	إن الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل	أبو موسى الأشعرى	٢٥٤ ، ٢٨٥ - ٢٨٦
٣٤	إن الشيطان قال : أهلكت بنى آدم بالذنوب وأهلكونى ...	لم أجده	٢٨٦
٣٥	إن الشيطان ينتصب عرشه على البحر	جابر بن عبد الله	٢٩٢
٣٦	إن القرآن نزل على سبعة أحرف	عمر بن الخطاب	٢٢٨
٣٧	إن كل أحد يحب أن تؤتى مأدبته	أثر عن ابن مسعود	٢٤٧
٣٨	إن الله أتخذنى خليلا	جندب بن عبد الله	٨٧ ، ٢٣٩



فهرس اللغة

مسائل لغوية :

فهرس الشعر

أول البيت	القافية	البحر	عدد الأبيات	القائل	الصفحة	التعليق
يا آل مكة	والحجر	البسيط	١	بعض التابعين	٣١٢	
ليسوا	نيلوا	البسيط	١	كعب بن زهير	٣٦١	٢
سكران	سكران	الكامل	١	رجل	٢٦٩	
قالت	بالمجانين	البسيط	٢	الصيدلانى	٢٦٨ - ٢٦٩	٢
العشق	فى الحين					

فهرس الأعلام



فهرس الطوائف والقبائل والفرق



فهرس الأماكن والبلدان



فهرس المصطلحات والبحوث الفرعية (*)

(أ)

(ت)

(*) هذا الفهرس يتضمن بعض المصطلحات والبحوث التى لم يشر إليها فى فهرس الموضوعات .

(س)

السلوك :

(ص)

صفات الله :

(ع)

العالم :

فهرس أسماء الكتب

فهرس مراجع التحقيق (*)

(أ)

أخبار الرجال ، لمحمد بن عمر بن عبد العزيز الكشى ، بمبىء محلة جبور كلى ، إيران ، ١٣١٧ .

الأسماء والصفات ، لأبى بكر أحمد بن الحسين البيهقى ، بتحقيق الكوثرى ، ط . السعادة ، القاهرة ، ١٣٥٨ .

اصطلاحات الصوفية ، لابن عربى (طبعت مع كتاب التعريفات للجرجانى) ، ط . مصطفى الحلبى ١٣٥٧/١٩٣٨ .

اصطلاحات الصوفية ، لكمال الدين عبد الرزاق القاشانى ، تحقيق الدكتور محمد كمال جعفر ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به ، للقاضى أبى بكر محمد ابن الطيب الباقلانى ، تحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثرى ، نشر عزت العطار ، القاهرة ، ١٣٦٩/١٩٥٠ .

(ب)

بروكلمان ، انظر : المراجع الأجنبية : GAL .

(ت)

تفسير ابن كثير ، ط . الشعب ، القاهرة ، ١٣٩٠/١٩٧١ .

تكملة الفهرست لابن النديم = طبع مع الفهرست لابن النديم ، ط . التجارية ، القاهرة ، ١٣٤٨ .

(*) ذكرت هنا فقط أسماء المراجع التى لم أذكرها من قبل فى فهرس المجموعة الأولى ويستطيع القارىء أن يراجع فهرس المجموعة الأولى لمعرفة المراجع الأخرى .

تلبيس إبليس ، لأبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ، الطبعة . الثانية ، المطبعة المنيرية ، القاهرة ، ١٣٦٨ .

(ح)

حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح ، لابن قيم الجوزية ، تحقيق الأستاذ محمود حسن ربيع ، ط . مكتبة الأزهر ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٣٨/١٣٥٧ .

حلية الأولياء ، لأبى نعيم الأصبهانى ، ط . الخانجى ، القاهرة ، ١٩٣٢/١٣٥١ .

(د)

دائرة المعارف الإسلامية ، ط . كتاب الشعب ، القاهرة .

دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة إبراهيم زكى خورشيد وآخرين ، ط . القاهرة .

درء تعارض العقل والنقل ، لأبى العباس تقى الدين أحمد بن عبد الحليم ، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ، ط . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢/١٤٠٣ .

دستور العلماء ، للقاضى عبد النبى بن عبد الرسول الأحمدنكرى ، ط . حيدر آباد ، ١٣٢٩ .

ديوان الأعشى ، تحقيق رودلف جابر ، ط . فينا ، ١٩٢٧ .

(ذ)

ذم الهوى ، لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ومراجعة محمد الغزالى ، ط . القاهرة ، ١٩٦٢/١٣٨١ .

(ر)

الرسالة القشيرية فى علم التصوف ، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ، محمود بن الشريف . نشر دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٣٨٥/١٩٦٦ .

(س)

سنن الترمذى ، لأبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى (بشرح ابن العربى) ط . المطبعة المصرية بالأزهر ، القاهرة ١٣٥٠/١٩٣١ .

طبعة أخرى ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، نشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة (ط . المدنى بالقاهرة) ، ١٣٨٤/١٩٦٤ .

سير أعلام النبلاء ، لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبى ، يخرجه معهد المخطوطات بالجامعة العربية ، ط . المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

سيرة الغزالى ، للدكتور عبد الكريم عثمان ، ط . دار الفكر ، دمشق ، بدون تاريخ .

(ش)

شطحات الصوفية ، للدكتور عبد الرحمن بدوى ، ط . النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٩ .

(ص)

صحيح الجامع الصغير ، تحقيق محمد ناصر الدين الألبانى ، منشورات المكتب الإسلامى ، ط . الأولى ١٣٨٨/١٩٦٩ .

صحيح مسلم ، لأبى الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، ط . عيسى الحلبى ، ١٣٧٤/١٩٥٥ .

طبعة أخرى = الجامع الصحيح ، استانبول ، ١٣٢٩ – ١٣٣٣

صون المنطق والكلام عن فنى المنطق والكلام للسيوطى ، تحقيق الدكتور النشار ، والسيدة سعاد عبد الرازق ، ط . مجمع البحوث الإسلامية ، ١٩٧٠/١٣٨٩ .

طبعة أخرى : صون المنطق والكلام عن فنى المنطق والكلام ، للسيوطى ، تحقيق الدكتور على سامى النشار ، ط . الخانجى ١٩٤٦/١٣٦٦ .

(ط)

طائفة الإسماعيلية ، للدكتور محمد كامل حسين ، ط . القاهرة ، ١٩٥٩ .

(ف)

فتح البارى بشرح البخارى ، لابن حجر العسقلانى ، تحقيق الشيخ عبد العزيز بن باز ، ط . السلفية ، القاهرة ، ١٣٨٠ .

فتوح الغيب ، ط . مصطفى الحلبى ، القاهرة ، ١٣٣٠ ، على هامش كتاب « بهجة الأسرار ومعدن الأنوار فى بعض مناقب عبد القادر الجيلانى » تأليف على بن يوسف بن جرير اللخمى الشطنوفى .

فخر الدين الرازى وآراؤه الكلامية والفلسفية ، لمحمد صالح الزركان ، ط . دار الفكر ، بيروت ، بدون تاريخ .

الفرق بين الفرق ، لابن طاهر البغدادى ، تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد ، ط . صبيح ، بدون تاريخ .

طبعة أخرى ، تحقيق محمد زاهد الكوثرى ، نشر عزت الحسينى ، القاهرة ، ١٩٤٨/١٣٦٧ .

فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ، للقاضى عبد الجبار ، تحقيق فؤاد سيد ، ط . تونس ، ١٩٧٤/١٣٩٣ .

الفهرست ، لابن النديم ، ط . التجارية ، القاهرة ، ١٣٤٨ .

طبعة أخرى : تحقيق جوستاف فلوجل (مصوره عن طبعة ليبزيج ، ألمانيا ، ١٨٧١) ، ط . بيروت ، ١٩٦٤ .

فهرست الطوسى ، لمحمد بن الحسن الطوسى ، المكتبة المرتضية بالنجف ، العراق ، ١٩٣٧/١٣٥٦ .

(م)

مسند الطيالسى = منحة المعبود فى ترتيب مسند الطيالسى ، لأحمد بن عبد الرحمن البنا ، ط . المنيرية بالأزهر ، ١٩٣٤/١٣٥٣ .

معجم المؤلفين ، لعمر رضا كحاله ، نشر المثنى ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، ١٩٥٧/١٣٧٦ .

منازل السائرين ، تحقيق دى بوركى الدومنكى ، ط . المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

Brockelmann (K) GAL : Geschichte der Arabischen Litteratur, 5 Vols, Leiden, 1937-49.



فهرس الموضوعات

للدكتور محمد رشاد سالم

المؤلفات

١ – المدخل إلى الثقافة الإسلامية الطبعة السادسة دار القلم الكويت ١٩٨٤/١٤٠٤

٢ – مقارنة بين الغزالى وابن تيمية دار القلم الكويت ١٩٧٥/١٣٩٥

فى مجال التحقيق

١ – منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة القدرية لابن تيمية
الجزء الأول ، ط . دار العروبة ، القاهرة ١٩٦٢/١٣٨٢

٢ – الجزء الثانى ، ط . دار العروبة ، القاهرة ، ١٩٦٤/١٣٨٤

٣ – جامع الرسائل لابن تيمية المجموعة الأولى ، ط . المدنى ، ١٩٦٩/١٣٨٩

٤ – درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٠/١٣٩٠

٥ – كتاب الصفدية لابن تيمية ، الجزء الأول ، ط . حنيفة ، الرياض ، ١٩٧٦/١٩٣٦

٦ – درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١١ جزءاً ، ط . مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الرياض ، السعودية ، ١٩٧٩/١٣٩٩ – ١٩٨٣/١٤٠٣

٧ – مسألة فيما إذا كان فى العبد محبة لابن تيمية ضمن كتاب « دراسات عربية وإسلامية » ط . المدنى ، القاهرة ١٩٨٢/١٤٠٣

٨ – الاستقامة لابن تيمية جزءان ، ط . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٩٨٣/١٤٠٤

٩ – جامع الرسائل لابن تيمية المجموعة الثانية ، ط . المدنى ، ١٩٨٤/١٤٠٥

تحت الطبع

١ – منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة القدرية لابن تيمية ، ٩ أجزاء ، ط . مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، السعودية

٢ – كتاب الصفدية لابن تيمية ، الجزء الثانى ، ط . الرئاسة العامة للبحوث العلمية والافتاء والارشاد ، الرياض ، السعودية